

تاريخ حمص

القسم الاول

منذ نشأتها الاولى الى ظهور الاسلام

سنة ٢٣٠٠ ق م - الى ٦٢٢ م

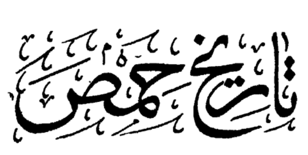
توزيع مكتبة السائح

طرابلس شارع الراهبات

هاتف ٦٢٥٧٥١ - ٦٢١٥٠٩ - ٦٢٧٠١٧

المنشورات الجامعة

١٩٨٣



من اقدم ادوارها الى الآن او تاريخ اربعة الاف سنة ونيف

من سنة ٢٣٠٠ق م الى سنة ١٩٤٠م

استخرج مكنوناته وجمع منثوراته والف متفرقاته

الخوري عيسى اسعد

احترم مجد المؤسسين القديم ، وشيخوخة الانسان المكرمة ، وقداسة المدن العريقة

أدِّ الاكرام للآثار القديمة ، والاحترام للاعمال العظيمة ولا تحقرن الاساطير

لا تعبث بخصوصيات احد ولا تزدرِ شيئاً من مقامه او حريته او مباهاته بذاته لانك لم تسبر غور شيء مما ذكر

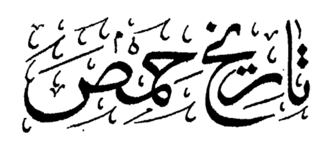
بليني

تقدمة الكتاب للخالدين

اليكما يا من علا كعباهما تربة الوطن المحبوب ، فسبقا باستشهادهما صديقهما الى العالم الآخر . اقدم تاريخ ما سلف من حوادث بلدكما المحبوب . ليرى السلف الصالح الاقدم ، الصورة الجميلة للسالفين الحديثين غير المنسيين من صحيحي الوطنية

ع

في ٢٣ ايار سنة ١٩٤٠



القسم الاول

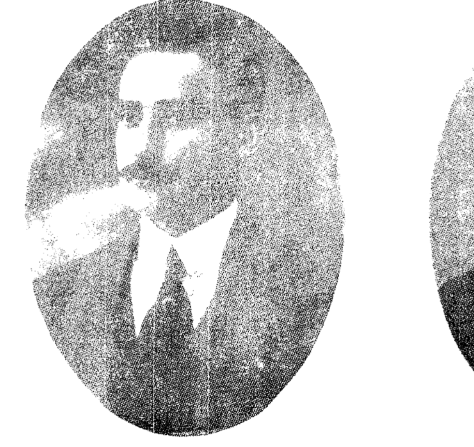
منذ نشأتها الاولى الى ظهور الاسلام

سنة ٢٣٠٠ ق م — ٦٢٢ م

شهيدا الوطنية الحمصيان



العلامة عبد الحميد الزهراوي



الذكي الفؤاد رفيق رزق سلوم

﴿ فاتحة الكلام ﴾

حمداً لمن لا يدركه القدم ، ولا تصل اليه عوامل العـدم .

وبعد فهذا ما تاقت اليه نفوس الحمصيين من عهد بعيد ، تبغي معرفة ما طوي اثره من بلادهم القديم ، بعدما حاول اكثر من واحد باوغ شاطىء العرفان فيه . فحيل بينهم وبين ما أرادوه بوعورة المسالك وندرة الدلائل . فخول الحظ كاتب هذه السطور (على مافيه من قصور) بما اوتيه من صبر واجتهاد ان يخرج غوامضه من حنادس الخفية ويرسم له صورة ان لم تكن كاملة بزخرفها ورقشها فقد جاءت بطبيعتها مهونة على رجال المستقبل اصلاح ما فيها من نتوء او املاء ما فيها من فراغ . ولا مرية في ان تزيين الموجود اسهل من ايجاد المفقود .

وخير ما يصور للقارىء الكريم مسلكي لنيل هذه الامنية العزيزة ترديد ما نشرته في الاذاعة التي لفت فيها الانظار الى ما تم تجهيزه :

يسهل على المرء ان يجلس منفرداً على شاطىء بحر ، او تحت شجرة في ليلة مقمرة ، ويحوك من مخيلته افكاراً ، يبرزها الى العالم نسيجاً لامعاً . فينال حظه من اطراء لما يُرى فيها من جميل الشكل وحسن الوشي .

ولكن المؤرخ لا يستطيع ان يكون ذلك الرجل . لان موضوع بحثه ليس ابتكار فكرة ؛ او استحداث خيال ، وانما يرجى منه دقة شعور ، وحسن نظر . يستطيع بهما ان يرد الحوادث المروية الى بواعثها الاصليـة ، في صور جديدة ينطلق قلمه في احسان وصفها بعد ضبط حقيقتها .

يحظر على المؤرخ الاستسلام الى التخيلات فلا يسوغ له ان يضم ما يتخيله الى ما رواه من سبقه من المؤرخين عن حوادث الكون . بل يجب عليه ان يعمد الى المجلدات والاسفار يقلب صفحاتها . وان يحتضن المجـلات والطوامير ينقب في ثناياها ليعثر على المادة التي يكون منها هيكل مؤلفه .

ليس هـذا فحسب ؛ بل يجب عليه ايضاً بعد التقاطه نثار ضالته ، ان يمحصها ويغربلها ويعرضها على النظر الدقيق لتمييز صحيحها من فاسدها . ثم ينظم ما تيقن انه در ، قلادة لجيد الدهر . يرتاح اليها الناظر ، ويطمئن اليها الخاطر .

وليس هذا فحسب ؛ بل يجب عليه بعد النقد والتمحيص ، والربط والتأليف ؛ ان يعمد الى التنسيق والتبويب . بحيث يسهل على المطالع استيعاب ما نضده ، وتمثيل ما هضمه ، فلا يصاب باكتظاظ حينما يدفع اليه طبق المرويات صبرة واحدة . ولا تعاف النفس تقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم فيهمل ويذهب التعب جزافاً .

وليس هذا فحسب ، بل على المؤرخ ان يستخرج من مروياته النتائج والعبر التي هي هدف التاريخ الحقيقي . والمؤرخ الراسخ القدم في موضوعه ؛ النزيه في ما يرويه ، يقضي ردحاً من الزمن في المراقبة والتفكير . ليقدم الى العالم مجهودات كبيرة في سفر صغير . قد يطالعه القارىء في بضع ساعات ، ولكنه لا يطوي آخر صفحة حتى ترتسم في مخيلته صورة واضحة لحوادث الدهر تنير سبيله لاقتفاء ما حسن من الاثر وتجنب ما في ارتياده من الخطر .

. . . . .

تلك افكار ساورتنا ؛ حينما حبب الينا اصدار تاريخ لبلدنا المحبوب . وشغفنا بمسقط رأسنا ، سهل علينا اقتحام تلك العقبات . ولكننا ما كدنا نخطو بضع خطوات ، حتى اصطدمنا بعقبات اخرى في اساس الموضوع . في حين ان تلك انما تلامس الموضوع بعد تهيئة المواد للبناء .

وجدنا ان النصوص التي في متناول اليد قليلة جداً . وكلها او جلها انما يرد فيها ذكر « حمص » عرضاً . اذ ليست الهدف الذي ريشت اليه سهام اولئك المجتهدين . وليس لدينا من انباء العصور القديمة ، الا ما يمكن استقطاره من الاساطير ؛ واعتصاره من الآثار . ومن عانى هذه المباحث يشعر بخطورة تخطيها .

ثم اصطدمنا ونحن نتابع البحث بانقطاع سلسلة التاريخ اكثر من مرة ؛ ولاسيما في القرون الوسطى . اذ كمت الافواه ؛ وقصفت اسنة الاقلام ، دون التصريح بالواقع . فاذا اراد احدهم تدوين حادث ، اعطاه صورة مشوهة واحياناً مقلوبة . فيطرىء من حقه الذم ، ويخفي ما حقه الظهور . وصار ما دعوه تاريخاً عبارة عن ترضية للطغاة ، وزلفى للكبراء . او مخدراً للغافلين ، وألهوة للضعفاء .

على ان هذا لم يطرحنا في لجة اليأس ، بل رأينا ان ما لا يدرك كله لا

يترك جله . وبالرغم من كل هذه الصعوبات ؛ حصلنا على مادة جديرة بالمطالعة . تصلح ان تكون اساساً الى ما نرجو ان يستخرجه المنقبون ؛ بعد ما مهدنا لهم السبيل . وخطَّنا وان لم يكن حديدياً تسير عليه قطرات الافكار آمنة ، لكنه على كل حال درب يسهل على من يبغي نيل امنية عزيزة ؛ السير بين ادغال المرويات ، وابار الغوامض والخفيات .

. . . . .

يؤلف بعضهم لنيل الشهرة — وهم كثيرون في الشرق والغرب — ويؤلف بعضهم بغية الربح — وعـددهم ليس بقليل في الشطر الغربي — ويؤلف بعضهم لشعورهم بثغرة في احدى نواحي المعارف . فتشوك رؤيتها نظرهم ؛ ؛ وتأبى عليهم مروءتهم الرضا ببقاء تلك الثلمة تشوه هيكل عمرانهم . فيدفعهم هـذا العامل — وحده — الى ابراز ما خزنته ذاكرتهم اقامة لدرئتة وسداداً لثغرة .

من هذه الفئة القليلة العدد — كاتب هذه السطور — الذي لا يدعي مسامتة اساطير التاريخ . ولكن راقه اجتهاد اولئك في تنقيبهم واخلاصهم في مباحثهم . فلقي اقتراح الخلَّص من محبي التاريخ من المواطنين ، صدى في نفسه . فالقى دلوه بين الدلاء . ليقدم لابناء وطنه رشفة تبرد ما في نفوسهم من ظمأ .

وبالرغم من ان ما اقدمت عليه شاق جداً . فقد تابعت التنقيب في ما اجتمع لدي من الاسفار . ونقلت ما نثر في المخطوطات العربية والمطبوعات الافرنجية بقلمي او بواسطة اصدقاء لهم صلة بالمكاتب الاوربية والاميركية الشهيرة . فاجتمع عندي اضابير مما تبعثر في مطاوي تلك الاسفار جعلته مادة لما نوهت عنه

واني لتارك الحكم على ما انتجته لمن خصوا بمثل هذه المباحث . كما اترك لهم تقدير ما جنحت فيه عن راي العامة ، بعد رجوعي الى مصادر يوثق بها من عربية وافرنجية .

وآن لي الآن الاعتراف بان رهطاً كبيراً من افاضل السادة والاخوة والتلامذة اعانوني بما وصل اليه اجتهادهم . وشجعوني بمتابعة البحث والتنقيب لبلوغ النتيجة التي تطالت اليها اعناق الحمصيين خاصة وقراء الضاد عامة . واخص بالذكر من هولاء الافاضل اربع شخصيات كبيرة لها وزنها في قسطاس العلم والتاريخ . اثنان منهم امدوني بمعلوماتهم الثمينة لاجل القسم الاول بتقصي المراجع القيمة المختلفة

للتثبت من صحة ما نقل عن قدماء المؤرخين • وترجمة ما رواه الاثريون على تعدد مناحيهم • واثنان منهم آزروني لاجل القسم الثاني باختباراتهم السديدة وما خزن في ذاكرتهم القوية وحافظتهم الواعية مما حظر تدوينه في ما سلف •

فالاولان هما بطريركا الشرق الارثوذكسي العلامتان الكبيران : السيد الكسندروس الثالث البطريرك الانطاكي للروم الارثوذكس الحامل اعلى شهادة لاهوتية علمية • والسيد افرام الاول البطريرك الانطاكي للسريان الارثوذكس المتاز بتنقيباته الكثيرة ومطالعاته الوفيرة • اللذان (حفظهما الله) منذ اتصل بهما ما اقدمت عليه وعرفا ضآلة المراجع التي تمد الموضوع ؛ رافقا فكرتي حرصاً على مكانة بلد توطناه • فلفتا نظري في حالتي القرب والبعد الى كل ما وقع نظرهما عليه من مخطوطات او مطبوعات عربية او افرنجية لها صلة بتاريخ حمص • وكثيراً ما كانا ينقلان الي ما يجدان فيه فائدة ؛ او يبعثان الي بالسفر نفسه هدية عارية ، لدرس ما ورد فيه ، واستخراج النتائج المرجوة منه • وهو عطف اقدره لصاحبي الغبطة الجليلين •

اما الفريق الثاني فاخص بالذكر منه شخصيتين كبيرتين لهما في تاريخ حمص يد طولى اولهما سليل بيت الافتاء من الاسرة الاتاسية الكريمة • صاحب الفضيلة ابراهيم افندي الاتاسي • الذي وعى في ذاكرته القوية حوادث قرن ونصف من اخبار حمص الهامة مما حبس من التدوين • وقد اخذ بعضه عن اسلافه ذوي الاطلاع الواسع والخبرة الوافية • وبعضه الآخر عما رآه بعينه وسمعه باذنه منذ درج وشب الى الان • وثانيهما المنقب المجتهد الواسع الاطلاع والدقيق في تحرياته المرحوم محمد طه السكاف • الذي وعى في ذاكرته المرنة ادق حوادث حمص مقرونة بتعليل صحيح ينطبق على العقل السليم والذوق المستقيم • ويرد الروايات المتشعبة والمعلومات المتباينة الى مجرى واحد • فاقدر لكليهما ما اسدياه الي من فضل راجياً لفضيلة الاول عمراً مديداً وللاجتهاد الثاني ذكراً مجيداً •

وها انذا اقدم ما ألفته هدية — والهدية على قدر مهديها — لمحبي التاريخ من الناطقين بالضاد عموماً والسوريين منهم خصوصاً والحمصيين بنوع اخص •

فان اصبت في ما سعيت اليه فذاك ما يطمح اليه البصر والا فلست باول سار غره القمر والسلام •

﴿ مقدمة عامة ﴾

قبل الدخول الى حديقة التاريخ الحمصي وفحص ما فيه من غراس ٠ ورؤية ما نال بعضها من نضارة وسموق وبعضها الآخر من ذبول واخلال ؛ لا نرى بدأ من تمهيد السبيل للرائي لاستيعاب ما يمر به ٠ واخذ صورة عامة يسهل على الذهن الاحتفاظ بها ٠ وذلك بوسيلتين الاولى تقسيم التاريخ قسمة طبيعية آخذ بعضها برقاب بعض والثانية تلخيص التطورات التي مرت بهذا البلد منذ نشأتها حتى الآن ٠

١) تقسيم التاريخ الحمصي

اما في الاولى فقد قسمنا التاريخ الى قسمين ضمّنا الاول تاريخ حمص منذ نشأتها الاولى الى ظهور الاسلام وفيه حوادث ثلاثين قرناً ؛ والثاني تاريخها منذ الاسلام الى الآن وفيه من الحوادث ما وقع في اربعة عشر قرناً ٠ ومع ان مدة الثاني لا توازي نصف مدة الاول لكن وفرة موادها ، وتعدد مصادرها ، وقرب عهدها ، جعلها اسهل منالاً على المؤرخ واوسع مجالا ٠ وقد جزأنا كلا من القسمين الى عشر حقب ، بترتيب يسهل للقارىء الاحاطة بأجرياتها كما يلي :

القسم الاول

حمص قبل الاسلام

من اوائل القرن الثالث والعشرين قبل المسيح الى ظهور الاسلام

١ً) مدة العمالقة والاموريين

٢٣٠٠ قم — ١٩٠٠ قم

٢َ) مـدة المطانيين والحثيين
١٩٠٠ — ١٢٢٥ قم

٣َ) حمص في زمن الفينيقيين والآراميين والعبرانيين
١٢٢٥ — ٧٣٢ قم

٤َ) في زمن اشور وكلدة وفارس
٧٣٢ — ٣٣١ قم

٥َ) في ايام السلوقيين
٣٣١ — ٦٤ قم

٦َ) في زمن آل شمسيغرام
٦٤ قم — ٧٩ بم

٧َ) في زمن اسرة باسيان القيصرية
٧٩ م — ١٩٣ — ٢٣٥ م

٨َ) في زمن آل سميدع التدمريين
٢٣٦ م — ٢٧٣ م

٩َ) في زمن تألق النصرانية
١ م — ٤٥٠ م

١٠َ) حمص قبيل الاسلام
٤٥٠ م — ٦٢٢ م

القسم الثانى

حمص بعد الاسلام

منذ ظهور الاسلام سنة ٦٢٢م – الى الآن ١٩٤٠

١َ) حمص في صدر الاسلام
٦٢٢ – ٦٦١ = ١ – ٤١ ﻫ

٢َ) في ايام الامويين
٦٦١ – ٧٤٩ م = ٤١ – ١٣٢ ﻫ

٣َ) في ايام العباسيين الاولى
٧٤٩ – ٩٠٣ = ١٣٢ – ٢٩١

٤َ) ايام الدول الاخشيدية والحمدانية والفاطمية والمرداسية
٩٠٤ – ١٠٨٠ م = ٢٩١ – ٤٧٣ ﻫ

٥َ) ايام آل سلجوق وطغتكي وزنكي وايوب على الصليبيين
١٠٨٠ – ١٢٣٩ = ٤٧٣ – ٦٣٧ ﻫ

٦َ) زمن المغول والمماليك
١٢٣٩ – ١٥١٦ = ٦٣٧ – ٩٢٣ ﻫ

٧َ) في العهد العثماني الاول
١٥١٧ – ١٦٨٧ = ٩٢٣ – ١١٠٠ ﻫ

٨َ) في العهد العثماني الثاني
١٦٨٧ – ١٧٨٧ = ١١٠٠ – ١٢٠٣ ﻫ

٩) العهد العثماني الثالث
١٧٨٧ — ١٨٧٦ = ١٢٠٣ — ١٢٩٣ هـ

١٠) اواخر ايام العثمانيين والدور الجديد
١٨٧٦ — ١٩٤٠ = ١٢٩٣ — ١٣٥٩ هـ

٢) تطورات حمص

١) غزوة بوكالزاغيزي الكلداني ملك اوروك في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . التي هيأت الافكار لمنطقة حمص في سوريا الشمالية . ويرجح ان مهاجرات العموريين كانت في هذه المدة .

٢) اصطدام سرجون الاول خليفة بوكالزاغيزي بالاموريين في اثناء ضبطه سفن الفينيقين لاجل غزوة قبرص . واهتمام هولاء بما يقيهم الطوارىء في المستقبل .

٣) نشأة حمص الاولى على التل المعروف الآن بالقلعة وهو دور بداوة الحمصيين الاولين في القرن الثالث والعشرين

٤) قدوم المطانيين الى هذه البقعة في القرن الثاني والعشرين وبناؤهم قطنة (حيث قرية المشرفة الان) وقطعهم خط الاتصال بين حمص والشرق وهو دور البناء

٥) زحف كدرلاعومر على سوريا في القرن العشرين او قبيله . وما تركه من الاثر في سوريا الشمالية حيث حمص الآن .

٦) قدوم الحثيين الى حمص وغزوة سيزوستريس الثالث (١٨٨٧_١٩٥٠ق م) وهو دور الحياة العسكرية .

٧) حثيو حمص يشتركون مع فصائل الحثيين بغزو مصر واحتلالها مدة غير قصيرة . واستسلام من بقي في بقعة حمص الى الدعة والهدوء

٨) اهتمام الحمصيين بصد غارات المصريين من الجنوب الغربي [توتميس الاول (١٦) والثالث (١٥) ورعمسيس الكبير (١٤) ورعمسيس الثالث (١٣) .]

٩) اهتمام الحمصيين بصد هجمات الاشوريين من الشمال الشرقي [تغلث فلاسآر ، ازيربال ، سلمناصر ، هددنيري]

١٠) اتحاد مملكتي صوبا (حمص) ودمشق الاراميتين لصد هجمات العبرانين [شاول وداود وسليمان الخ.]

١١) استهداف حمص لحملات الاشوريين في ايام سرجون وسنحاريب واسرحدون واسوربانيبال .

١٢) سقوطها تحت سيطرة الكلدان في ايام بختنصر .

١٣) خضوعها لسيادة الفرس وراحتها من عناء الحروب

١٤) انتعاشها في ايام السلوقيين حيث عرفت آنئذ باسم اميسا . ولما قسم السلوقيون الشام الى قسمين جنوبي وقاعدته عكا وشمالي وقاعدته انطاكية كانت حمص اهم مدن الشمال

١٥) ازدهارها في ايام آل شمسيغرام الوطنيين .

١٦) ازدياد نفوذها واتساع نطاق عمرانها في ايام القياصرة الحمصيين . وقد جعلها سيفروس قاعدة سوريا الفينيقية . التي تضمنت الشطوط البحرية وشرقي لبنان الى البرية . وضمن هذا القسم دمشق وبعلبك وتدمر

١٧) اهمية موقفها ابان الحركات التدمرية

١٨) مقاومتها المسيحية لاول ظهورها ثم انصياعها لها وظهور مبادىء اهلها السامية ابان النكبات الكثيرة التي المت بها .

١٩) في اواخر ايام الرومان قسمت الشام الى خمسة اقسام فكانت القدس قاعدة الجنوب الاقصى ، وطبرية الجليل ، ودمشق الغوطة ، وحمص فينيقية ، وحلب الشمال .

٢٠) وفي اوائل الاسلام قسمت الشام خمسة اقسام سميت اجناداً وهي فلسطين والاردن ودمشق وحمص وقنسرين

٢١) وفي ايام الامويين ضمت قنسرين وكورها الى حمص وظل ذلك الى زمن يزيد الذي جعل قنسرين وانطاكية ومنبج جنداً واحداً

٢٢) وفي ايام العباسيين انفردت قنسرين وجعلت مع حلب وكورها جنداً واحداً وذكر المقدسي (٣٧٥هـ) ان الشام كانت ست كور حمص احداها

٢٣) وفي القرن الخامس الهجري كانت الشام خمس ممالك صرخد والزبداني وحمص وحماة وحلب

٢٤) وفي ايام المماليك قسمت الشام قسمين جنوبي وقاعدته دمشق . وشمالي وقاعدته حلب . وجعل الاشرف سنة ٧٦٨م حلب اكبر من دمشق فتبعتـه حمص .

٢٥) وفي القرن الثامن الهجري قسمت الشام اربع مناطق :

الاولى — الغربية الساحلية — وفيها عشر نيابات منها غزة والقدس . وخمس ولايات منها الرملة واللد .

الثانية — القبلية — من نياباتها صرخد وعجلون . ومن ولاياتهـا بيسان وبانياس واذرعات وحسبان والسلط وبصرى .

الثالثة — الشمالية — فيها نيابة بعلبك وولايات البقاع وبيروت وصيدا .

الرابعة — الشرقية — نياباتها حلب وطرابلس وصفد وولاياتها تبنين وهونـين والشقيف .

وذكر القلقشندي (٧٥٦ — ٨٢١) ان قواعد الشام ست وهي دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد وكرك (من هذا الوقت اخذت حمص تتضاءل) .

٢٦) وفي القرن التاسع عدّ الظاهري (٨١٣ — ٨٧٢) سبع ممالك في الشام دمشق والكرك وحلب وطرابلس وحماة وصفد وغزة .

٢٧) وفي ايام العثمانيين (من ايام السلطان سليم الى احمـد) قسمت الشام الى ثـلاث ايالات .

١) دمشق — وفيهـا عشرة الوية اهمها القدس وغزة وطرابلس ونابلس وصيدا وبيروت وتدمر .

٢) وطرابلس — وفيها خمسة الوية طرابلس وحماة وحمص وسلمية وجبله .

٣) وحلب — وفيها تسعة الوية تتناول سوريا الشمالية كلها عدا عين تاب .

٢٨) وسنة ١٠٧٠ هـ (١٦٦٠) احدثت الدولة ولاية جديدة لمراقبة الجبل وهي ولاية صيـدا .

٢٩) وسنة ١٢٧٢هـ (١٨٥٤) قسمت الى ايالتين دمشق وصيدا وسنة ١٢٨١

(١٨٦٤) اخذ لواء الرها من الجزيرة ولواء مرعش من الاناضول والحقا بحلب فجعلت ولاية براسها . وجعل باقي الشام ولاية اخرى قاعدتها دمشق فكانت حمص من حصة دمشق .

٣٠) بعد خروج المصريين سنة ١٢٥٦ (١٨٤٠) كانت القدس تابعة لصيدا فجعلت سنة ١٢٨٧ (١٨٧٠) لواء مستقلًا وسنة ١٢٩٤ (١٨٧٧) استقلت الكرك عن القدس وجعلت مع وراء الاردن متصرفية برأسها وسنة ١٢٩٥ (١٨٧٨) جعلت بيروت ولاية مستقلة عن دمشق واضيف اليها عكا ونابلس واللاذقية وطرابلس وصور وصيدا ومرجعيون .

٣١) في اواخر ايام الترك كانت الشام مقسومة الى ثلاث ولايات دمشق وحلب وبيروت وثلاث الوية مستقلة القدس ولبنان ودير الزور .

٣٢) بعد جلاء الترك جعلت المدن الاربع . (دمشق وحمص وحماة وحلب) دولة واحدة وجعل جبل الدروز منطقة مستقلة قاعدتها السويداء والبلاد العلوية قاعدتها اللاذقية ولبنان قاعدته بيروت .

٣٣) في ابان الانتداب الافرنسي على المنطقة السورية رأى دهاقين رجال السياسة الافرنسية ، انَّ حمص اجدر المدن السورية بان تكون القاعدة . لموقعها الطبيعي في وسط البلاد السورية ونقطة الاتصال بين الشمال والجنوب والشرق والغرب . وقد قدم تقرير بذلك سنة ١٩٢١ .

٣٤) سنة ١٩٣١ على اثر الثورة السورية توحدت المناطق الثلاث الشام وجبل الدروز والبلاد العلوية وجعلت دمشق عاصمة الدولة السورية الموحدة .

مقدمة خاصة

للقسم الاول من تاريخ حمص

— الينابيع التي ارتشفنا معلوماتنا منها —

توطئة

الذي يقدم على كتابة تاريخ حمص منذ نشأتها الاولى ، يصطدم بعقبة كاداء حالما يمسك القلم . ولا يستطيع اجتيازها حتى يجد جواباً على هذه الاسئلة

١ً) متى وجدت حمص ؟ اهي من المدن السورية المشهورة بقدمها ام هي احدث عهداً من تلك ؟

٢ً) من وضع اسمها الاولى ؟ امن نسل سام ام من نسل حام ؟ ما هو الاسم الذي وضع لها ؟ هل اشتق اسمها من اسم اول واضع حجراً في اساسها او عن معنى يتضمنه موقعها ؟

٣ً) كيف كانت معيشة قاطني هذا الصقع ؟ وممن استمدوا نظام مجتمعهم ؟ امن دين تمسكوا به ام من سياسة كانت تدير شؤونهم ؟ ما هو ذلك الدين او تلك السياسة ؟

تلك اسئلة تبدو للخاطر لاول وهلة تمر به نشأة حمص الاولى . ولا بد له من الوصول الى يقينية معرفتها او ترجيحها . والا تطرق الشك الى صحة ما يرويه المؤلف . وقد يُظن انه من السابحين في جو الاوهام . لا يهمه اصاب ام اخطأ في ما يكتب . شأن الكثيرين ممن يعجزهم التحقيق ويضنكهم السأم لحراجة المباحث التي يعالجونها ، فينصرفون عنها الى مروج من الخيال اللذيذ يلهون به القارئين . وعلى الحقيقة المستلزمة الصبر والتجلد والسلام .

ان تاريخ هذه البقعة ظل مغموراً بالخفاء ، لعدم الاهتمام بتمزيق الستور

الصفيقة التي حجبته عن ابصارنا مدة طويلة . ومن سعى اليـه لم يفلح لانه لم ينصب — كما قال احد الاثريين — في طريقه اعلاماً يستطيع ان يحدد بها المسافات التي يجتازها ، لتعيين المدد المنقضية التي يحوم حولها طائر الريبة ، الذي اثاره ويثيره ذوو الآراء غير الواضحة . اذ احاطوا الحقيقة التاريخية بنطاق من الظلمات الكثيفة ضلت بها العقول النيرة لكثرة المناقضات التي طرحوها . ويشجعنا على اقتحام هذه العقبة ، آثار اكتشفت حديثاً فارسلت نوراً بدد حنادس الريبة عن كثير من زوايا التاريخ القديم .

قلنا ان استكناه ما يمر بالخاطر من الاسئلة الموردة اعلاه امر لا بد منه لانها الاساس الذي يشاد عليه صرح هذا البناء التاريخي . ولكن الوصول الى هذه البغية ليس بالامر السهل المنال . لان الوصول الى مكتوبات تعاصر الوقت الذي بنيت فيه امر متعذر . (اذ بنيت — كما سترى — في عصر سابق للتاريخ) . فلا بد اذن من اللواذ الى وسائل اخرى تنيلنا هذه الامنية . فهل لدينا مـا يملأ الفراغ الذي خلت منه المكتوبات ؟

اجل اننا وان تعذر علينا الوصول الى مؤلف يشرح لنا ما نريده ، الا اننا لم نعدم وسائل اخرى تنيلنا ما نتمنى ، ان لم يكن بطريق يقينية فبما هو قريب من اليقين وهذه الوسائل ثلاث :

١) الآثار القديمة المكتشفة حديثاً .

٢) اساطير الامم وتقاليدها بعد تنقيتها من ملابساتها .

٣) ما نشر في الاسفار التاريخية القديمة .

ففي الآثار لم نجد ذكر حمص بصورة صريحة لكننا وجدنا فيها ما يستطاع معه استنتاج عراقتها في القدم بقدم عمران منطقتها . ولنا امل عظيم بان المستقبل سيكشف الغطاء عما غمض من آثارها الخاصة . واهم الآثار التي استطعنا السير بنورها لكشف معمى نشأتها الاولى ، انمـا هي آثار دولتي اشور ومصر اللتين كان لهما احتكاك بهذه البقعة . وقد وجد من آثار الاولى ما تصل انباؤه الى القرن الاربعين قبل الميلاد (ادي شير) والثانية امتدت انباء مكتشفاتها الى ما قبـل القرن العشرين .

اما الاساطير فهي وان لم تصح ان تكون اساساً حقيقياً للتاريخ ولكن

من الامور المسلمة انها بواسطة الاشخاص الذين تخبر عنهم ؛ والمآثر التي تنسبها اليهم ، تعطينا صورة حية ولو مصغرة لنشأة البلد الاولى . على ان الاساطير ليست برمتها تخيلات كما يظن البعض ، بل هي تتضمن تحت نقاب من الاوهام حوادث تاريخية صحيحة . ولذلك قال احد العلماء الذين يركن اليهم : ان كل الاساطير القديمة وجد لها اساس صحيح . ولكن المتوسعين في الروايات اضافوا اليها ما خطر لهم فافسدوا مظهرها (تاريخ لبنان صفحة ٣٢٧) فاذا لم نتخذها اساساً للتاريخ فلا يسوغ اهمالها لانها المصدر الوحيد للعصور القديمة واحياء الاخبار الحقيقية المنسية . وقد كانت في ما سلف مقبولة ومعتبرة في كل الاصقاع كتاريخ غير مشكوك فيه فلا بد والحالة هذه من درسها مع الاحتراس من خلط التاريخ بالخيال كما قال لوسيان (اثار لبنان صفحة ١٩٥) .

واذا اضفنا الى الوسيلتين المذكورتين ما حوته التواريخ القديمة وقابلنا المصادر الثلاثة احدها مع الآخر استطعنا ان نستخرج التاريخ المطلوب بصورة مأمونة او قريبة من اليقين .

لدينا عدا اسفار التوراة جمهرة من الاسفار القديمة العهد نقلت عن هوميروس وهسيود وهيرودوت وكتازياس وباروز ومانيتون وسنكونياتون وبطليموس وسترابون وبليني وسواهم .

وثمة اسفار حوت مع تاريخها الخاص كثيرا من الاساطير . ونطقت بكثير مما اكدته الان الآثار القديمة وان وجد احياناً بينها بعض التباين الذي تتجلى حقيقته بالمقابلة ودقة النظر .

فيكون كلامنا ناقصاً ان لم نصف هذه المصادر ولو بوجازة ، وصفاً يصورها للقارىء العزيز كما هي لا كما يريد فريقا « محبي تصديق كل رواية » او « الشاكين بكل ما يقال . »

المعين الاول

لتاريخ حمص القديم

١) الآثار [ارخيولوجيا]

ارخيولوجيا لفظ يوناني مركب من كلمتين « ارشيوس » ومعناه القديم و « لوغوس » ومعناه الكلام ومعنى اللفظين معاً الكلام عن القديم . واراد به واضعوه في الاصل معرفة الاثر القديم او الامـة القديمة . وبهذا المعنى سمى ديونيسيوس الهاليكرناسي كتابه التاريخي « ارخيولوجيا » .

لكن هذا الاسم تحول عن معناه الاصلي وصار يطلق الآن على علم قانوني يراد به معرفة الآثار والابنية القديمة والاستدلال بها على حقيقة التاريخ الذي عاصرته .

وعلم الآثار المعروف الآن من العلوم الحديثة التي لم يزد عمرها عن قرن الا قليلاً . غير انه مع هذا ضارع باهميته العلوم الاخرى القديمة العهد . بل احتلَّ فيما بينها مكاناً رفيعاً . اذ يتوقف عليه تحقيق شؤون كثيرة لا يمكن الجزم بصحتها بدونه .

وقد كشف هذا العلم غوامض كثيرة كانت مغمورة بظلام دامس وشك عميق . فلما اتسعت دائرة الارخيولوجيا انكشف الغطاء عنها وظهر التاريخ في المظهر الذي يوجب الاحترام وكبرت الآمال بامكانية انقشاع الشك عن امور كثيرة بواسطة الاكتشافات الحديثة .

واول من باشر البحث العلمي في الارخيولوجيا الحديثة — على ما نعلم — شاب افرنسي يدعى فرنسوى شمبوليون وفق الى ذلك بجهد عظيم بذله في الحادثة التالية :

سنة ١٧٩٩ عثر احد الضباط الافرنسيين على حجر قرب مدينة « رشيد »

الواقعة على المصب الغربي لنهر النيل طوله ٤٥ قيراطاً وعرضه ٢٨ وهو من الرخام الاسود عليه كتابات بثلاث لغات .

نسخت تلك الكتابات ووكل الى اثنين حل رموزها . الاول انكليزي وهو الدكتور يونغ اشتهر بدقة نظره وسعة خبرته . والثاني فرنسوي وهو شمبوليون المشار اليه اعلاه . فجاهد الاول مدة اربع سنوات فلم يتوفق بعد هذا الجهد لاكثر من معرفة تسعين كلمة . اما الثاني فقد وفق الى حلها كلها واناله ما تمنى حادث سابق .

فانه رأى مسلة مصرية كتب على قاعدتها باللغة اليونانية ان المسلة للملكين بتولمايس وكليوباترا وعلى بدن المسلة كتابة هيروغليفية فرأى بذكائه انه لا بد من وجود اسمي الملكين بالحروف الهيروغليفية على بدن المسلة . ولما عثر على الاسمين اخذ يقابل بين الحروف المؤلف منها اللفظان مستنتجاً ان الثاني من لفظ كليوباترا يماثل الرابع من بتولمايس والخامس الاول والرابع الثالث و..و..الخ فصح استنتاجه وتمكن بمتابعة البحث بمقابلة هذا الاسم مع اسكندر فعرف ١٢ علامة هيروغليفية فاعلن اكتشافه هذا للاكاديمي الفرنسية سنة ١٨٢٢ وتمكن بما عرفه ان يقرأ حجر رشيد . وقبلما ادركته الوفاة سنة ١٨٣٢ الف كتاباً في صرف ونحو اللغة المصرية القديمة وقدم بعمله هذا خدمة للعلم لا تثمن (براستد عدد ١٣٣ ص ٧٢ والاصداء ص ٨٥ — ٨٧)

اما الخط المسماري فاليك كيفية اكتشافه : ان في مقاطعة — كرمانشاه — على الحدود الغربية من بلاد الفرس صخر يدعى بهستون ارتفاعه نحو ١٨٠٠ قدم حفرت عليه بحروف مسمارية كتابات بثلاث لغات بابلية وفارسية ومادية ووجد بين عمال الشركة الهندية الشرقية ترجمان انكليزي اسمه هنري رولنصون انتظم في سلك الجيش الفارسي سنة ١٨٣٥ وعمره آنئذ ٢٥ سنة فنسخ الكتابات المذكورة بصعوبة شديدة ثم اخذ يعمل على فهمها بمعرفة الحروف المسمارية . وبعد درس ١١ سنة تمكن من حل رموزها وفهم انها اذاعة امر بحفرها داريوس سنة ٥١٦ لنشر انتصاراته في القرن السادس قبل المسيح (٥٢١ — ٤٨٤) ولما تيقن فهم الكتابة ، نشرها في اللغات الحية سنة ١٨٤٦ ، النشرة سنة ٩٢٥ ص ٥١٤ والاصداء ص ٩) ودائرة البستاني ٥ ص ٦٤٠

فبعد تعليقاتنا على ما تقدم علينا ان نعرف الآثار التي لها صلة بتاريخ حمص ومن الممكن ان يوجد في المستقبل ما لم نجده الآن غير اننا نعلم بما عرفناه وندع للمستقبل كشف ما جهلناه جلاء لغوامض التاريخ او تفصيلًا لما أجمل فيه ونظرنا الى هذه الناحية بصورة مجملة يرينا مصدرين من الآثار التي لها صلة بالبلاد الشامية ومنها نستطيع ان نجد ينابيع معرفة نرتشف منها ما يبرد بعض الظمأ

المصدر الاول

الآثار الاشورية

ان الفضل الاعظم باكتشاف الآثار الاشورية يعود للعلامة جورج سميث الانكليزي (١٨٣٥ — ١٨٧٦)

في اوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر اهتمت لجنة الحفريات الانكليزية بالتنقيب على الآثار الاشورية حيث مدينة نينوى الخربة . وانتدبت لهذه المهمة الشاقة العلامة جورج سميث . فباشر عمله برغبة حارة وهمة عالية وكان سروره عظيماً حينما عثر على كسيرة فيها كلمات قليلة عن حوادث سبقت التاريخ فهمه الامر واخذ يفتش عن اجزاء اخرى يتم بها الحديث . فوجد في اوقات مختلفة عدة قطع ملأ بها الجزء الاعظم من العمود الثاني . فازداد نشاطه وتابع التنقيب فوجد اجزاء نسخة ثانية من البحث نفسه . فاشهر اكتشافه هذا سنة ١٨٧٢ في اجتماع لجنة الآثار القديمة فكان اثر ذلك عظيماً في النفوس المحبة التحقيق .

فطلب اليه المستر ارنولد ان يتابع تنقيبه على نفقة جريدة الديلي تلغراف بغية وجود الاقسام المفقودة فسافر الى جهات كوينجك وباشر الحفر فعثر على قطع جديدة ملأت فراغاً كبيراً في القصة الكلدانية . وكسر اخرى ساعدت على اتمام الصفحة .

وفي السنة الثالثة توجه ثانية الى اشور موفداً من قبل وكلاء معرض التحف في لندن فنجح واحضر قطعاً عديدة جديدة الى وطنه ·

وفي سنة ١٨٧٥ اعاد الكرة لارتياد البقعة الاشورية ولكنه قضى في هذه السفرة لشدة ما عاناه من الجهد · غير ان ذلك افادنا بما لا بد من معرفته لتاريخ حمص · وخلاصة ذلك في ما يلي : بينما كان العلامة سميث سائراً الى نينوى مرّ بحلب واجتمع فيها بالمستر سيكان قنصل انكلترا فيها · فاخبره هذا انه وجد على ضفة الفرات الغربية خرابات مدينة كبيرة ذات اسوار منيعة ويدعى هذا الموضع عند العرب جرابلس · فذهب سميث بذاته الى ذلك الموضع وتفحص خرائبه ونسخ الكتابات التي وجدها فظهر له من البحث فيها ان تلك المدينة الخربة العظيمة، انما هي كركميش عاصمة الحثيين في الشمال، التي سماها اليونان « هيرابوليس » (المدينة المقدسة) فكتب الى انكلترا يخبرهم بوجوده كركميش عاصمة الحثيين · وكان لهذا النبأ اثر عظيم عند المحققين ·

وفهم اخيراً ان ما وجد في الحفريات انما هي الالواح التي ضمنها مكتبة اشور بانيبال في القرن السابع قبل المسيح · وبعد ما ظن سميث لاول وهلة انها منذ الفين وخمسمائة سنة عاد واستدل بدلائل وجيهة انها من القرن السابع عشر قبل الميلاد · ومن ادلته ١) ان كتّاب اشور بانيبال استعملوا حروفاً قديمة جداً في كلمات لم يدركوا معناها وانما صوروها تصويراً ٢) إن الرواية اختلفت في احدى الفقرات عما وجد في غيرها من الالواح مما دل على ان بعضها قد اخذ عن اصل قديم جداً ٣) ان العلامة بيسيونت مورغان حفظ في مجموعته بعض قطع يرتقي تاريخها الى السنة الحادية عشرة للملك اميسادوكا البابلي وهي سنة ١٩٧٣ ق‌م على رأيه، او سنة ١٨٦٨ على رأي هياوكيت · وثبت ان الروايتين مأخوذتان عن نسخ اصلية اقدم منها ايضاً (اصداء التوراة ص ٦ و ٣٦ و ٣٧ و ١٤٥—١٤٨) دائرة البستاني ١٠ ص ٨٧ والدبس ١ ص ٨٠ و ١٩١) ·

المصدر الثاني

الآثار المصرية

ان الآثار المصرية اغنى بالمعلومات التي تهمنا من الآثار الاشورية · وانما قدمنا الاولى بالذكر لان مروياتها اقدم عهداً من الثانية واذا اغضينا عن آثار تل اليهودية التي اكتشف فيها سنة ١٨٨٦ حصن بساماتيك ومدينة تحفنحيس وخرائب تل بسطة الذي ذكره هيرودوت (المقتطف ١٢ ص ٨٣—٨٧ و ١٤ ص ٣٠٣— ٣٠٩) بواسطة الاثري الشهير ادوار نافيل فاننا لا نرى بـداً من تلخيص ما اتصل بنا عن الآثار المكتشفة بتل العمارنة سنة ١٨٨٨ لشدة صلتها بتاريخنا « ان تل العمارنة عبارة عن مزرعة صغيرة بازاء وادٍ موقعه الى الجنوب من مدينة المنيا في الصعيد مسافة ٨٠ كيلو متراً عند ضفة النيل الشرقية . وفي هذا الوادي المحاط بالصخور بقعة واسعة تمتد من قرية « الشيخ قنديل » وكان على وجه البقعة المذكورة اطلال ابنية قديمة تهدمت وفي الصخور المجاورة مدافن قديمة حفرت في الصخر عليها نقوش وكتابات هيروغليفية ·

في احد شهور سنة ١٨٨٨ كان احد الفلاحين يعمل في تلك البقعة فعثر على صناديق خشبية فيها قطع من الاجر مكتوبة على الوجهين بسطور متلاصقة فسر الفلاحون من بيع ما اكتشفوه اذ كان ربحهم عظيماً · ودفعهم الجشع الى الى كسر اكبر هذه الالواح ليزيد عددها والربح منها · ولكان جهلهم اودى بهذه الكنوز الدفينه لولا معرفة الحكومة بذلك · فضبطت ما وجدته للحال وحالت دون تلف شيءٍ منه · واعطي المتحف البريطاني احسن تلك الالواح وعددها ٨٠ قطعة كبيرة · واخذ المتحف المصري ازيد من ستين قطعة · وابتاعت دار العاديات في برلين ١٨٠ قطعة صغيرة · كما ان بعض الخاصة حصلوا على عدة قطع صغيرة احتفظوا بها ·

ولما درس العلماء هذه الالواح رأوها كتابات مسمارية بابلية وعت مكاتبات

ملوك الشام الى امنوفيس الثالث والرابع في القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

ومن المدن المذكورة في هذه الالواح دمسق (دمشق) وكاتنه (المشرفة) التي ظنها الاب لامنس قطنه قرب دمشق غير ان الاكتشافات الاحدث عهداً من تلك دات على انها بلدة قامت في ضاحية حيث قرية المشرفة التابعة لحمص .

وتكرر ذكر مدينة تدعى « نخاسا » ذهب العلامة تيبور الى ان موقعها في الشمال الشرقي من لبنان لكن الاب ديلاتر رأى انها قريبة من حمص .

وخلاصة هذه الرسائل المشار اليها استنجاد كاتبيها بفرعون مصر لينقذهم من الحثيين الغزاة واهميتها تقوم في انها كتبت قبل عصر موسى وفيها تفاصيل بسط ما اقتضبته التوراة وسننقل ما يهمنا منها حيث لها صلة بالموضوع ان شاء الله (انظر آثار لبنان ص ٧٢ ومجلة الكلية ٨ ص ١٠٩٩) .

ولا نرى بدأ من لفت نظر القارئ الى ان الآثار القديمة مع اهميتها — لعدم قابليتها التحريف بالنسخ كالمكتوبات القرطاسية او ملابسة افكار سقيمة او خواطر وهمية بالتقليد كالاساطير — لكنها في كل الاحوال قد كتبت او حفرت بامر ذي شأن ليفاخر بها الاجيال القادمة . فلا يجوز قبولها على علاتها بل لا بد من اعمال النظر فيها لاستجلاء حقيقتها . ولا سيا اذا قوبلت على أثرين كل من صاحبيها يدعي الانتصار على الآخر . ومن استرشد العقل وسار في جو يعلو العاطفة الخاصة أمن العثار .

المعين الثاني

لتاريخ حمص القديم

٢) الاساطير [ميثولوجيا]

ميثولوجيا لفظ يوناني مركب من كلمتين « ميثوس » ومعناها « اسطورة ، حكاية » « ولوغوس » ومعناها الكلام . ومعنى الكلمتين معاً الكلام عن

الاساطير . وهي قصص او حكايات كانت ذات اصل صحيح . ولكن تداول الالسنة اياها زمناً جعلها عرضة لان يدس فيها ما لا اصل له . فتكيفت بالصور التي اخذتها من البيئات التي وصلت اليها . ثم تجرأ بعضهم فاضاف اليها بعض الغرائب لاغراء الناس على سماعها ؛ والبشر عشاق الغرائب . فتشوه الاصل بكثرة ما اضيف اليه . وخرجت القصة من دائرة التاريخ الى حقل الخرافات . فاعرض عنها المحققون زمناً طويلاً لعدم رؤيتهم فيها ما يستدعي الاهتمام .

غير ان اولي التفكير — من عهد غير بعيد — رأوا لهذه الاساطير اصلاً صحيحاً لا يجوز اهماله ، وعدم اخراجه من بؤرة الحكايات الموضوعة . فاهتموا بالتنقيب عن ذلك الاصل وتجريده من التلبيس الذي حجب حقيقته عن الدارسين . غير ان هذا المقصد لم يكن من السهل تحقيقه . بل لا بد فيه من دقة نظر وسعة اطلاع ، لاستخلاص الحقيقة من براثن الاوهام والخيالات . فاخذوا يقابلون ما يحكى على ما نقله ثقات الرواة . وما حفظ من آثار العصور القديمة في باطن الارض او في مصون من الاوضاع .

ولم تذهب هذه التحقيقات لحسن الحظ عبثاً . بل تجلت حقائق كثيرة في متون الاساطير . فاحتفظوا بما بقي آملين ان يكشف لهم الزمن عما غمض عليهم الآن . وكشفت بواسطة الاساطير غوامض كثيرة في تاريخ الانسان تعذرت معرفتها بادئ بدء لاقتضاب في روايتها ، ولاحتمالها اكثر من معنى واحد في الفاظها . وما برحوا يتابعون بحثهم مقابلين بين الميثولوجيا والارشيولوجيا وما دون من التواريخ . وكلهم آمال في استجلاء ما غمض ومعرفة ما جهل .

ومما اكد ان للاساطير اصلاً صحيحاً ، ان الامم كادت تتساوى في ما تناقلته منها . وبعضها يقرب كثيراً مما ترويه الاخرى . والاختلاف يكاد يحصر في التفاصيل او الاسماء دون المسميات .

ففي بلادنا الشامية تجد إضبارة من الاساطير من اهمها عليون وزوجته واولاده . وادونيس او تموز موجد نهر الكلب . وصيدون منشئ صيدا وزوجته . وهرمونية زوجة قدموس (منشئ الحروف) وزسا (منشئ عكار) وديونيس (معبود دمشق) وتيفون (موجد العاصي) .

وفي اشور يتردد على مسمعك كثيراً هذه الاسماء شيشيت وغلجاموس وبعل

وترغال ونبو ومرودوخ وسميراميس .

وفي مصر تطن اذناك الكثرة ما تسمع بذكر اوزيريس وآمون وايزيس وبانو وابو الهول وثور واجبيت .

وفي الاساطير اليونانية مما كاد يتعذر حصره منها . ومن اشهرها جينون وابلون وديانا ومنيرفا وفولكان واسكولاب وسايس وباخوس الخ .

ولا بد من تلخيص بعض هذه الاساطير لمعرفة كيفية استخلاص الاصل من الخرافة التي لبسته لافتتن الانظار الى ان هذه الحكايات ليست برمتها تاريخية . غير أن بعضها حوت ذرات من الحق والبعض الآخر وردت فيه حوادث حقيقية بطريقة غير واضحة كما اشار الى ذلك العلامة مايار (عدد ١١٥٠) واليك نموذجات منها :

فمن اساطير الكلدان

— قصة شيشيت —

هذا يسميه اليوناني « كيثوستروس » وهو الذي حدث الطوفان في ايامه وخلاصة قصته كما يلي :

لما كثر الناس اراد الآله بيل ان يمحو البشر بالطوفان فظهر لشيشيت وامره ببناء سفينة لينجو فيها واضعاً فيها بذور حياة الكائنات فاطاع شيشيت الامر وبنى السفينة . ولما دخلها ظهرت سحابة سوداء وارعد الآله هود في السحابة واثار ترغال الزوبعة فصارت الارض بحيرة وفي اليوم السابع انقطعت الامطار وفتح شيشيت الشباك فرأى الارض مغمورة بالمياه فبكي .

واستقرت السفينة على جبل فردو وبعد ستة ايام اطلق شيشيت حمامة فلم تجد مقراً فعادت . ثم بعث السنونو فطارت وعادت ايضاً . ثم اطلق غراباً فرأى المياه قد غاضت فعاد الى السفينة ناعقاً ومصفقاً بجناحيه ثم غاب ولم يرجع .

فاخرج شيشيت الحيوانات الباقية من السفينة وقرب قرباناً فسر الآلهة كلهم لنجاة الانسان ما عدا بيل الذي ابتغى اهلاك من كانوا في السفينة . ولكن

شيشيت سكّن غضبه فامسك بيده واخرجه مع امرأته من السفينة واخذهما الى مصب الانهر حيث تألّها . ثم امره بالذهاب الى سيبار لاستخراج الاسفار المدفونة فيها ففعل ثم انشأ هياكل عديدة . وبنى بابل الجديدة وحاولت ذريته بغرورها اقامة برج عالٍ يناطح السحاب فارسلت الآلهة عليهم ريحاً شديدة هدمت البرج وبلبلت السنتهم (ادي شير عن بيروس) .

فهذه القصة متى خلصت من شوائبها رأيت لها اصلاً تاريخياً .

ومن اساطير مصر

— قصة انبو وباتا —

انبو وباتا شقيقان اكبرهما انبو كان يعامل اخاه الصغير باتا معاملة الابن بحنان فائق وكان هذا يرعى ماشية اخيه ويساعده بحراثة الارض واستثمار الحقول.

في احد الايام بينما كان باتا مع اخيه في الحقل يذر البذار في الارض فرغت الجعبة ، فارسله اخوه ليحضر تتمة البذار بسرعة . فوجد امرأة اخيه في البيت تسرح شعرها فرأته وقد احمر وجهه من الركض فراقتها هيأته فراودته فنفر منها وقال لها انك بمثابة أمي ، واخي رباني صغيراً فهو بمثابة اب لي . فكيف اخونه ؟ فاخلت سبيله ولكنها اذ خافت ان يبوح بسرها لاخيه تناولت شحماً حتى علت حرارة جسمها . وتظاهرت بالمرض واخذت تئن انيناً شديداً عند مجيء زوجها متهمة اخاه بالتصدي لها وضربه اياها ضرباً مبرحاً لعدم مطاوعتها اياه على الخيانة .

فاستشاط انبو غيظاً من اخيه ولما حضر شهر عليه السكين يبغي قتله ففر باتا منه فتعقبه ولما كاد يدركه استغاث باتا بالاله « راهر ختي » ففصل بينهما بنهر مملوء بالتماسيح ولما أمن الصغير فتك الكبير افضى اليه وهو على الشاطىء المقابل بما جرى على حقيقته . فبكى انبو وتمنى رجوع اخيه اليه ولكن حيل بينه وبين اخيه بالماء فأمله باتا بالعودة اليه بصورة اخرى ، وهو انه يذهب الى وادي الاكاسيا حيث يعلق روحه في ازهارها . فعلى اخيه ان ينتظر وقوع زهرة منها في كاسه فيحيا ثانية ويعود اليه . فعاد الكبير الى البيت فذبح امرأته ولبث

ينتظر عودة الهناء الى نفسه بواسطة زهر الاكاسيا .

وفي الاسطورة كثير من الغرائب التي حصلت لاخيه في وادي الاكاسيا ثم وصلت اخيراً بزرة الاكاسيا الى اخيه بواسطة النهر فالتقطها ووضعها في كاس ماء فعادت اليه الحياة . وبعد تفاصيل ميثولوجية طويلة وصل باتا الى عرش مصر حيث حكمها ٣٠ سنة ولما مات خلفه اخوه (النشرة سنة ٩٢٨ ص ٣١٤ و ٣٣٢)

هذه الاسطورة موجودة في المتحف البريطاني مكتوبة على البردي وقد اصفر لونها لكثرة ما مرَّ بها من السنين وتمكن الاثريون من حل معماها بعد جهد عظيم فنشروها مطبوعة بعد ان ظلت مطوية على الارض ٣٢ قرناً واستنتجوا ان تاريخها يعود الى عهد السلالة التاسعة عشرة وقد دونها كاتب مصري اسمه اناتا .

فاذا جردت هذه الاسطورة من ملابساتها الغريبة رأيت لها اصلاً تاريخياً كثير الشبه بقصة يوسف وهي كما تعلم تاريخية . وفي الاسطورة اشارة واضحة الى اعتقاد المصريين القدماء بخلود النفس والقيامة بعد الموت .

ومن اساطير اليونان

— قصة بروميثيوس —

وخلاصتها ان الاله جابت (اورانوس) تزوج كليمينا (اسيا) فرزق منها عدة اولاد منهم بروميثيوس فصنع هذا انساناً من طين رأته مينرفا اعجبها فعرضت على بروميثيوس كل ما يريده ليكمله فاقترح عليها اصعاده الى السماء لاختيار ما يناسب فيها لاجل تجميله ففعلت فاخذ من السماء النار التي تلهب الاجرام السموية فغضب جوبيتر واستردها فرفعته مينرفا ثانية فاخذ من السماء اشعة الشمس فغضب جوبيتر واستردها ايضاً ولكي يتخلص من هجومات بروميثيوس امر الاله فولكان ان يصنع امرأة تجمع كل المحاسن لتغوي بروميثيوس ويترك الانصياع لمينرفا فلم يقع بروميثيوس في شرك صنيعة فولكان ولكنها تمكنت من اغواء اخيه اذ اخذ منها علبة حوت مع ما فيها من العطورات سحابة من الآلام انتشرت حالما فض العلبة . ولم يكف هذا لارضاء جوبيتر اذ استصعب جداً ان

يفلت بروميثيوس من يده فاص عطارد فقيده بسلسلة ووضعه على قمة جبل قوهقاف الشامخ وسلط عليه النسر ابن تيفون (العادي) ليقضم كبده فكان هذا يفعل ما امر به ولكنه لم يستطع بلوغ النتيجة المتوخاة وهي اهلاك بروميثيوس باتلاف كبده لان الكبد كانت تعود الى ما كانت عليه ببقاء جزء منها وظل الامر على هذا المنوال ثلاثين سنة واخيراً جاء هرقل منقذ الاغريق فقتل النسر وكسر قيود بروميثيوس وانقذه مما ألم به · ولما نجا بروميثيوس اصطلح مع جوبيتر ·

وانت ترى ان هذه الاسطورة مع ما لابسها من الخرافات مطوية على اجمل المعاني وادق الرموز · اذ مثلث الشمس القوة التي لا تقهر خاضعة لناموس الطبيعة · وان البشر لما انحرفوا مع الميول النفسية ذلوا وتقيدوا ولكنهم لم يموتوا فاقتضى الامر حضور منقذ يصلحهم مع الكائن الاعظم الخ ...

. . . .

اذن يسوغ لنا ان نستخرج من الاساطير في كثير من الاحيان حقائق تاريخية وادبية حجبتها عن نظرنا الملابسات الوهمية التي البستها اياها الاجيال ·

فان حرب طروادة (١١٩٤—١١٨٤ قم) ظل الى عهد بعيد يعتبر محور خرافة الى ان اظهرت تنقيبات هنري شليمان سنة ١٨٧١—١٨٧٣ حقيقتها وانتهى الجدل الذي قام بين المحققين مدة ستين سنة (براستد ص ١٨٦ والنشرة سنة ١٩٣١ ص١٣١ و٦٥٧ والمباحث ١٦ ص ٣٨٤) ·

وكذلك قيل عن الغزوة الدورية سنة ١١٠٤ قم التي اعتبرها الناس خرافة الى ان دلت الآثار عند مسيني سنة ١٨٧٦ انها صحيحة حتى جاهر الاستاذ مانت ان هذا الاكتشاف اهم بناء تاريخي في الزمن الحاضر اذ حقق ان الاساطير القديمة التي روت ان مسيني كانت قبل عصر الدوريين مقر سلالة ملكية غنية قوية ، مبنية على اساس صحيح (مايار عدد ١٢٠) ·

قال هورن : كلما رجعت القهقري تظهر لك الآثار في التقاليد المتسلسلة حياة قوية ونشاطاً شديداً · ولا سيما في تلك البلدان التي كانت قريبة من مصدر العمل المروي · ولو كانت هذه الاخبار كلها مجرد حكاية مخترعة وغير واقعة لحدث الامر بالعكس ، اذ يكون التاريخ اذ ذاك لا محصوراً في دائرة

ضيقة فحسب ، بل كنا كلما تعمقنا في البحث ضعف النور امامنا اه (الاصداء ص ٤١).

المعين الثالث

لتاريخ حمص القديم

٣) قدماء المؤرخين

كان القدماء في ما سلف ، يتعرفون الى الحوادث التي سبقت عهد التاريخ بواسطة قدماء المؤرخين ، على قلة عددهم وعدم معاصرتهم للحوادث التي رووها ، او تكلموا عنها ، فكانت اقوالهم عرضة للنقد والشك معاً . فلما نشأ علما الميثولوجيا والارشيولوجيا قوبل ما روته ينابيع المعرفة الثلاثة (الاساطير والآثار والتاريخ) فتميز بها الغث من السمين ، والصحيح من الفاسد ، فرفت ما حقه الرفت ، وخلص من الشك ما كان صدقاً في الاصل .

ولذلك قدمنا بالذكر العلمين المشار اليهما وهـا نحن نورد الآن اقطاب القسم الثالث الذين كانوا الى عهد غير بعيد ، المصدر الوحيد للمعلومات التاريخية . ودونك جدولاً باسماء قدماء المؤرخين موردا على حسب ترتيب وجود كل منهم :

١)	يوسف العفيف	=	١٧٤٥ — ١٦٣٥
٢)	ايوب الصديق	=	١٦٦١ — ١٥٢١
٣)	موسى النبي	=	١٥٧١ — ١٤٥١
٤)	يشوع بن نون	=	١٥٣٦ — ١٤٢٦
٥)	صموئيل النبي	=	١١٧٠ — ١٠٦٠
٦)	هوميروس الشاعر	=	بين القرنين اﻟ ١٢ و ١٠

٧) هسيود = اوائل القرن الثامن
٨) اشعيا بن آموص = ٧٧٤ — ٦٩٠
٩) بيساندروس الرودسي = ٦٥٠
١٠) هيكاثاوس = ٥٥٠ — ٤٧٤
١١) ارميا = ٦٢٨ — ٥٨٦
١٢) مردخاي = اواخر القرن السادس
١٣) حزقيال = ٥٩٥ — ٥٧٥ ق م
١٤) عزرا = ٤٥٦
١٥) نحميا = ٤٣٤
١٦) هيرودوت = ٤٨٤ — ٤٠٦
١٧) توسيديديس = ٤٧١ — ٣٩٥
١٨) زنفون = ٤٤٥ — ٣٥٥
١٩) كتازياس = ٤٠٥ — ٣٥٩
٢٠) سنكونياتون البيروتي = بين القرنين العشرين والرابع ق م
٢١) مانيتون السمنودي = اواسط الثالث ٢٨٥ — ٢٤٧
٢٢) بيروز الفارسي = بين ٣٣٠ — ٢٨٠
٢٣) ابيدين المصري = اواخر الثالث
٢٤) يوليب الاغريقي = ٢٦٤ — ١٤٦
٢٥) ابولودر النحوي = نصف القرن الثاني
٢٦) يوسيدون الافامي = ١٣٣ — ٤٩
٢٧) سلست اللاتيني = ٨٦ — ٣٤
٢٨) نقولا الدمشقي = ٧٤ —
٢٩) يوليهستور اليوناني = — ٧٥
٣٠) ديونيسيوس الهاليكرناسي — ٧ ق م
٣١) سترابون الجغرافي = ٦٠ ق م — ١٤ م
٣٢) ديودور الصقلي = — ١٤م
٣٣) اوبيد الشاعر الروماني = ٤٢ ق م — ١٨م

٣٤)	فيلون الجبيلي		في القرن الاول الميلادي
٣٥)	ليفي الروماني	=	٥٩ ق م — ١٧ م
٣٦)	بليني	=	٢١ م — ٧٩
٣٧)	يوسيفوس اليهودي	=	٣٧ — ١٠٣
٣٨)	تاسيت	=	٥٤ — ١١٧
٣٩)	بلوطرخوس	=	٤٨ — ١١٨
٤٠)	ابولودور المؤرخ	=	— ١٣٠
٤١)	سوبتونيوس	=	٧٥ — ١٥٠
٤٢)	لوكيان السميساطي	=	١٢٠ — ٢٠٠
٤٣)	بطليموس الفلكي	=	— ١٤٠
٤٤)	اثينيوس		اوائل الثالث
٤٥)	دبون كاسيوس		القرن الثالث
٤٦)	اوسابيوس القيصري	=	٢٦٥ — ٣٤٠
٤٧)	اليان مرشلينوس	=	٣٤٠ — ٤١٥
٤٨)	داماس	=	٤٨٠ — ٥٣٣ فما بعد
٤٩)	بروكوب البيزنطي	=	٥٠٠ — ٥٦٥
٥٠)	افاغريوس الحموي	=	٥٣٦ — ٥٩٤ فما بعد
٥١)	يوحنا الاسيوي	=	٥٠٧ — ٥٨٥

هؤلاء نخبة المؤرخين القدماء الذين استعنا بهم على استخلاص تاريخ حمص القديم . ولعل القارئ الذي يطالع هذا الجدول يظن ان العمل لاستخراج التاريخ اصبح سهلاً وقد ألمّ به جمهرة المؤرخين ولكن استسهاله هذا يزول او يضعف متى عرف ١) ان اسفار هؤلاء المؤرخين تبعثرت واصبح كل منها في ناحية من الارض يتعذر على أي امرىء مهما عظم شأنه ان يحويها كلها ٢) ان غير الدهر قد المت بكثير من الموضوعات المشار اليها ولم يبق منها سوى فقرات حفظها كتاب آخرون احدث عهداً منهم بالوجود ٣) ان مكتوباتهم لم يكن هدفها «حمص» ولم يتعمدوا ذكرها وانما ورد شيء عنها ضمن اعراض اخرى

تاريخية كانت هدف تأليف كل منهم فيستطيع المنقب ان يضم ما يستفيده منها الى معلوماته المأخوذة عن مصادر اخرى اتماماً لنظم هذه المنثورات في عقد التاريخ المرغوب فيه تقليداً لجيد الدهر في القرن العشرين .

ويحضرنا بهذه المناسبة ان احد الحمصيين —الذين شغفهم وطنهم الاصلي حباً— كتب اليَّ بحرارة يسألني لمَ طال الامد على صدور تاريخ البلد الطيب ؟ ظنا منه ان ثمة اوقيانوس من المعلومات تتماوج مياهه لدى الناظر فيستطيع ان يغترف منها حاجته لاملاء بحيرة التاريخ المنوي اصداره . فاجبته بلطف بما ملخصه :

« انما يشعر بمشقة عمل من يتولى اصدار « تاريخ حمص » من يتمثل امامه رجلاً في صحراء يريد ان ينضد اكمة من حصىً ولا صلة بينه وبين الساحل . فليس له في موقفه هذا سوى اجهاد قواه كثيراً والسير طويلاً ليجمع ما يريده مادة لعمله وليس ثمة ما يؤمله بنيل بغيته سوى الصبر الطويل والحلم الجزيل .



تاريخ حمص

القسم الاول

— حمص قبل الاسلام —

من ٢٣٠٠ ق م — ٦٢٢م

الحقبة الاولى

حمص في ايام الروثان والعمالقة والاموريين

٢٣٠٠ — ١٩٠٠ ق م

١ — نشأة حمص اولاً

دلت عاديات مصر واشور انه كان في موقع حمص الحالي ، مدينة كبيرة وحصينة ، اعتبرها المصريون مفتاح اسيا الوسطى . ونظر اليها الاشوريون نظرتهم الى حصن منيع يرد عادية الاجانب (لبنان القديم صفحة ٣٤٩) .

وتضافرت شهادة الآثار عن قدم مدينة قادس ووجودها قبل القرن العشرين الميلاد . ولكن الآثار لم تذكر حمص باسمها الحالي الا حوالي الميلاد . فهل سبقتها قادس في الوجود؟ اهي نفس قادس ؟ كما ظن البعض ، ام هي اقدم منها كما يرى غيرهم من المحققين ؟. تلك اسئلة تتوارد على الخاطر حالما نذكر قادس حصن بقعة العاصي الحصينة . أن يوجد حصن قادس قبل المدينة التي اتخذته مترسة لها ، امر غير معقول . وان يكون هذا الحصن نفس حمص ثم تحول الاسم الى حمص امر لا تقره « الفيلولوجيا » فضلاً عن التاريخ . لان قادس ظلت

تذكر باسمها حتى بعدما ذكرت حمص في التاريخ . فبقي اذاً ان المدينة التي تسمى الآن حمص هي غير قادس .

متى وجدت حمص اقبل قادس ام بعدها ؟

الذي يبدو لنا جواباً على هذا السؤال ان حمص وجدت قبل قادس . ويؤيد ذلك نظرياً ، طبيعة كل من الصقعين اللذين وجدت فيهما المدينتان . فان موقع قادس انما هو موقع حربي يراد به دفع الاعداء عن بقعة عامرة . بينما موقع حمص يستدل منه على موضع يصلح ان يكون هرياً لمؤونة القاطنين في تلك البقعة . وموضع كهذا اجدر بان يسبق الى الوجود من ذاك . لان المرء انما يطلب لاول وهلة الوجه الايجابي للحياة . ثم يفكر في الوجه السلبي . يعني ان اول ما يسعى اليه الانسان انماء الحياة ثم يهتم بدفع الخطر عنها .

لا ريب في ان السهل الخصب المتسع الممتد امام حمص . والمنافع الجمة التي تنتظر من قربها الى مجرى العاصي ، اغرت المؤسس على اختيار هذه البقعة موقعاً للمدينة وميل الجماعة الحديثة النشأة لصيانة نفوسهم من الوعوش الضارية جعلتهم يلوذون بالتل الكائن في تلك البقعة . فحفروا حوله خندقاً واضعين التراب المستخرج فوق الاكمة فكانت لهم قلعة تم تحصينها في ما ولي ذلك من الزمن

وبسبب وقوع المدينة في طرف البادية على طريق التجارة الاسيوية ، وقيامها في اول سهل عظيم غير بعيد من العاصي وعن المتسع الذي شكل بحيرة يمر فيها النهر ، وجب ان يكون لها منذ تأسيسها اهمية كبيرة كما وجب ان تكون مطمحاً لانظار الفاتحين (الاب مرتين ص ٣٩٣)

واستدل الاثريون من وجود هيكل في حمص لعبادة الشمس ، كما هو في بعلبك — التي كانت معبداً عظيماً للشمس — وان فريقاً من الجبابرة كانوا يتعبدون فيه (الاب مرتين ٣٨٨—٣٩٢) ، ان حمص نشأت بارتباط شديد مع بعلبك — مدينة بعل — وان قادس لا تختلف بروحها عن حمص التي كانت مدينة الشمس المقدسة . وان المدن الثلاث بعلبك وحمص وحماة اللائي خصصت بعبادة الشمس نشأت في وقت واحد معاً ، غير ان المحققين اختلفوا في ما نسب الى حمص من القدم .

١ً) فذهب بعضهم الى انها كانت بلداً صغيرا تابعاً لقادس او لحماة ثم عظم شأنه على عهد السلوقيين وقام فيه ملوك او امراء يديرون شؤونه الدينية والمدنية ، وأيد صاحب هذا الرأي قوله بعدم تجاوز النقود المضروبة في حمص سنة ٦٥ ق م (المقتطف ٥٣ ص ٥٣١) ويظهر ضعف هذا الرأي من وجهين :

الاول — ان موقع حمص الطبيعي اهم بكثير للعمران من موقع قادس الحربي . فلا يعقل ان توجد قادس في وسط العاصي دون ان يكون بالقرب منها مدينة تمدها بما تحتاج اليه . واذا كانت المعاقل تشاد لاجل العواصم فلا يمارى بان قادس انما كانت حصن « حمص » قديماً نظير كونستاد ازاء بطرسبرج وجناق قلعة ازاء الاستانة اليوم .

الثاني — ان عدم العثور على نقود مضروبة في حمص قبل سنة ٦٥ ق م لا ينفي ضربها قبل ذلك العهد . ولعل الاكتشافات الحديثة تقوم بازالة هذه الشبهة التي هي حجة سلبية ليس الا .

٢ً) ورأى اخرون ان اسم حمص احدث عهداً من انشائها . وانقسم هؤلاء الذاهبون الى فرق .

فذهب بعضهم الى انها ذات قادس القديمة ، لكن الاكتشافات الحديثة قضت على هذا الرأي اذ ظهر ان قادس قامت في الموضع المعروف الآن « بتل النبي مند » .

وذهب غيرهم الى انها « لعش » التي ذكرت في مسلة قديمة اكتشفها القنصل الفرنساوي بونيون ، لكن مجرد الظن لا يكفي لتأييد قضية هامة كهذه . ولا سيا وان البعد بين لفظي « لعش » وحمص ظاهر .

٣ً) وظن آخرون انها صوبة المذكورة في التوراة . واذا كان لا بد من التسليم بان حمص اقدم عهداً من اسمها ، فهذا الرأي اقرب الاراء الى الصواب . على ان هذا الرأي قد جودل فيه اذ انكر بعضهم ان تكون صوبة المذكورة في العهد القديم هي حمص واهم اعتراضاتهم اثنان :

الاول — وهو رأي مرتين اليسوعي — ان صوبة هي تدمر . وهذا وان كان ارجح الآراء لامكانية تطبيق بعض ما ورد في العهد القديم على تدمر لكن يرده ان تدمر احدث عهداً من صوبة . بدليل ان التوراة صرحت ان

سليان بنى تدمر في البرية بعدما تغلب على « حماة صوبا » (٢ اي ٨ : ٣ و ٤) ·

الثاني — وهو قول ياقوت (٢ : ٣١٢) ونقله عنه البستاني (٧ : ١٣٥) ان صوبا هي قنسرين · ولكن مراجعة كتابات القدماء تدل على ان قنسرين كانت تابعة لمملكة صوبا (حمص) ولهذا سميت صوبا احياناً · فقد ورد في نخبة الدهر : ان سوريا كانت على عهد الروم مقسومة الى اربعة اقسام ، الشام وقصبتها دمشق والاردن وقصبتها طبرية وفلسطين وقصبتها القدس وقسم قصبته حمص وقنسرين تابعة لحمص اه ، وهذا القول ايده ياقوت نفسه (٧ ص ١٦٨) بقوله : كان فتح قنسرين سنة ١٧ وكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً ·

اما القول ان مملكة صوبا هي ذات مقاطعة حمص فؤيد بعبارات التوراة التي تنطبق على حمص وحدها دون سواها فانها :

١) احدى ممالك ارام (عدد ٢٣ : ٧ و ا اي ١ : ١٧) ·
٢) واقعة في شمالي سوريا (٢ صم ١٠ : ٦) ·
٣) بين شمالي فلسطين وحماة (٢ صم ٨ : ٩) ·
٤) هي غير تدمر (٢ اي ٨ : ٣) ·
٥) غير دمشق (٢ صم ٨ : ٥)
٦) ملكها كان يمتد احياناً الى الفرات شرقاً (١ اي ١٨ : ٣)

بتأثير ما اشرنا اليه من آيات الكتاب المقدس قال المطران يوسف الدبس (عدد ٢٦٤) ان مملكة صوبا كانت في شمال سوريا المجوفة تمتد من شمالي لبنان الشرقي نحو حمص وحماة وحلب ، وفي شرقي لبنان المذكور حيث يبرود والنبك وحدود القريتين الى تدمر والفرات اه ·

فالقول اذاً ان صوبا هي حمص هو اقرب ما ذكر من الآراء الى الصواب وتحل به مشاكل اثرية كثيرة ·

اخذنا ما ذكر من الوجهة السلبية اما من الوجهة الايجابية فمن ادلته ان رحوب والد هدد عزر ملك صوبا بنى مدينة رحوبوت التي قال روبنسون انها نفس سلمية فتأمل ·

٢ — من وضع اسسها ؟

وصلنا الآن الى القضية الثانية وهي : من وضع اسس حمص الاولى ؟ والوصول الى جواب هذا السؤال يستلزم معرفة القبيلة التي انتشرت في هذه البقعة في عصورها الاولى . وهي احدى القضايا الهامة في التاريخ . وفيها اشكال لا بد من كشف الغطاء عن غامضه . فان المعروف بالتسلسل ان ذرية سام بن نوح اتخذت اسيا موطناً لها . وذرية يافث اوربا . وذرية حام افريقيا . غير ان الآثار دلت على وجود بعض ذراري حام في هذه المنطقة . وكنعان وجد بصورة لا مراء فيها . واستناداً الى التقليد المذكور اعلاه قال الاب مرتين (ص ٣٩٣) في بحثه عن الاصول التي تناسلت منها اهالي المنطقة ما ملخصه :

« اما حمص فقد قيل ان ارام بن سام اسسها بذاته . واذا صح ذلك فقد بقيت حمص خاملة الذكر مدة طويلة اذ حجبت شهرتها مدينة قادس ذات الاهمية العظيمة . ولا شك ان هذه المدينة بنيت تحت حماية بعل . فان اسمها على الحقيقة احد ألقاب الاله « الشمس » باللغات السامية وهيكلها يضاهي بعلبك بعظمته اه »

ان التوراة وهي اقدم تاريخ مكتوب وصل الينا ، تذكر استيطان عدة قبائل في سوريا الجوفة (التي من اهم مدنها حمص) منهم الاراميون والقينيون والقنزيون والفرزيون والقدمونيون والعمالقة والعموريون والحثيون والحويون الخ .. ويكاد يتفق المؤرخون على قدم وجود الجبابرة في سوريا . واليونان يؤكدون ذلك ، ويستندون الى الفيلولوجيا لوجود اسماء غريبة لعشائر اولئك الجبابرة . وكل هذا يدل على ان الكنعانيين انما قدموا الى هذه البلاد في وقت متأخر . غير ان الاب مرتين (ص ٤٠٢) جادل في هذه القضية واعتبر دلالة الاسماء واهية . بل ادعى انها سامية الاصل وان الجبابرة انفسهم من اصل كنعاني . وان الاسماء التي يحملونها انما تشير الى عظمة وشدة وهول المذكورين (ص ٤١٢) .

والذين يرون ان اول من استوطنها انما هم ذرية سام ، لا ينكرون بوجود ذرية كنعان فيها . ولكنهم يذهبون الى ان نوحاً وهب الشام لسام ثم غصبه اياها كنعان . وسواء أصح هذا الرأي (الذي لا دليل عليه في التوراة) ام لم

يصح ، فما لا شبهة فيه ، ان الجبابرة او العمالقة استوطنوا هذه البقعة . وفي ما حفظه المؤرخون العرب من التقاليد ما يشير الى ذلك . فقد روى ياقوت في معجمه الجغرافي (٣ ص ٣٣٩) ان حمص بلد بناه رجل يقال له حمص بن مهر بن جانا بن مكنف . وقيل حمص بن مكنف العماليقي اه .

على ان بعض مترجمي التوراة القدماء ومفسريها « كارونيموس » (تك ١٠: ١٥ و ١٨) ينسبون الى ذرية صمار عاشر اولاد كنعان ، تأسيس مدينة حمص . مستندين الى تقليد قديم وصل اليهم متضمناً هذه النسبة . وقد وجد في بعض الترجمات القديمة « ايديسا » بدل « اميسا » لكن البناديكتين (ص٦٣) جزموا بخطأ المترجم . ونتيجة ما ذكر ان باني حمص هو احد اولاد كنعان وهو صمار العاشر او حمات الحادي عشر من اولاده كما يأتي قريباً .

٣ ـ اسم حمص

بقيت مشكلة اخرى لا بد من التعرض لها وهي : ان لفظ حمص لم يرد في التوراة ولا في الآثار القديمة قبل القرن الرابع ق م . مع ان آثار المدينة نفسها تدل على انها اقدم عهداً من ذلك بكثير . لذلك كانت هذه القضية من اهم ما يجث عنه الاثريون وتضاربت في ذلك اقوالهم .

١) خيل الى بعضهم ان كلمة حمص مأخوذة من لفظ حث وهو اسم القبيلة التي توطنتها مدة ليست بقصيرة . ولكن الآثار المكتشفة حديثاً دلت على انها اقدم عهداً من الحثيين وان هؤلاء انما سكنوها بعد عمرانها . فلا يمكن ان يؤخذ اسمها الاصلي عنهم .

٢) وذهب روكلو الى ان هذا اللفظ محول عن لفظ اميسا اليوناني غير ان المعروف والمسلم به ان حمص اقدم عهداً من وجود اليونان في هذه الاصقاع فلا تصح نسبة التسمية اليهم .

٣) وذهب بعض الاقدمين ان لفظة حمص ارامية ومعناها الارض اللينة الوطء وانها انما سميت بذلك لوقوعها في سهل ، ولكن لا يوجد ثمة دليل على ان هذا اللفظ وجد في ايام الاراميين .

٤) وذهب ياقوت الرومي ان اسمها مشتق من الحماسة لانها مدينة الاقوياء ، وان بانيها رجل عماليقي اسمه حمص فنسبت اليه وسميت باسمه . ولكن هذا رأي حديث لا يثبت طويلًا لدى التحقيق .

فلا بد اذن من الرجوع الى اراء الفيلولوجين من ان اسم حمص وحماة مشتق من اصل واحد . وان الاراميين اعتادوا ان يبدلوا الثاء صاداً . وأيد هذا الرأي يوسيفوس اذ روى ان حمث بن كنعان بنى المدينتين وسماهما كلتيهما باسمه . وميز القدماء بين الاثنتين باللقب اذ لقبوا حمص حمث الكبرى ، وحماة حمث الصغرى . ثم بدلت الالسنة ثاء حمص صاداً اه .

ولمعترض ان يقول : اذا صح هذا القول فلمَ اختفى هذا اللفظ نحو عشرين قرناً ثم ظهر ؟ وجواب هذا الاعتراض الذي لا يستخف به يمكن أستخراجه من التوراة وقرائن الحال .

فانه يستخلص من المعلومات التي تلقاها العارفون ان اول ما استُوطن من حمص انما هو التل الذي اصبح بعدئذٍ قلعة . والحصن يدعى بلغة قدماء الشرقيين « حامات » ثم ولما بنى بعضهم المساكن في المنبسط الموازي القلعة ، دعيت تلك المنازل « صوبا » وهي باللغات السامية « محلة » . فلما ازداد عدد المنازل وصارت بلداً اهم من القلعة ، صارت القلعة مضافاً والبلد مضافاً اليه فدعيت « حامات صوبا » . وذكرت بهذا اللفظ نفسه في التوراة (٢ اي ٨ : ٣) ولما صار هذا اللفظ المركب علماً للمدينة . نحتته الالسنة فصار حميصوبا . واقتصر العبرانيون على شطره الاخير فقالوا « صوبا » واختار اليونان الشطر الاول وخففوه فصار « اميسا » . واخذ الشرق معظم معلوماته عن اليونان ومنها هذا اللفظ الذي عربوه فصار « حمص ».

والتعليل المذكور اعلاه تؤيده الآثار فقد وجد في الحفريات المصرية اسم مدينة « ميزوبا » وظل الاثريون مدة يبحثون عنه فلم يعرفوا مسماه مع انهم اهتدوا الى معرفة مسميات كل الاسماء التي قرأوها . ولو تنبهوا الى هذه النقطة لعرفوا انه الاسم القديم لحمص المنحوت من الاسم المركب « حماة صوبا » .

٤ — قدماء الحمصيين

وصل بنا البحث الآن الى النقطة الرابعة ، وهي : كيف كانت معيشة قاطني هذا الصقع الاولين ؟ وممن استمدوا نظام مجتمعهم ؟ وللوصول الى هذا الجواب لا بد من معرفة قاطنيه الاولين ، ثم الاستدلال من آثارهم على درجة مدنيتهم ودياناتهم الخاصة .

ليس من سبيل الى التيقن من معرفة اصل الحمصيين القدماء . لان المكتوبات في عصر بنيانها لم تصل الينا اليد . والآثار التي برزت الى الوجود حتى الآن ، لا تكفي لتعيين الارومة الاصلية بالضبط . غير ان تحريات علماء الآثار ، وما ضبط من تقاليد الاساطير القديمة في بطون تواريخ الاقدمين ، حفظ لنا اسماء ثلاث قبائل قطنت هذه البقعة وهم :

الروثان والعمالقة والاموريون

الروثان

اول مرة تنبهت فيها افكار الباحثين الى الروثان ورود هذه اللفظة على صفيحة وجدت في مدينة « صان » بمصر وقد كتب عليها بثلاث لغات اسم سوريا . فكان في اللغة الهيروغليفية روثانو ، وفي اليونانية سوريا ، وفي المصرية اسار او اسور (الدبس عدد ٦) ولم يوجد من يماري من علماء الآثار بان كلمة روثانو انما يراد بها ساكني سوريا الشمالية لا سوريا كلها . وقد وردت في الصفيحة المذكورة من قبيل تسمية المحل باسم الحال فيه . فمن هم الروثان هؤلاء ؟

الذي يلخص من اقوال الاثريين ان روثان مصحف كلمة لودان . والمراد بهم ذرية لود بن سام ولود هو اخو ارام وبما ان ذرية الاخوين لود وارام سكنت في اواسط سوريا ثم امتدت ذراريهم الى الشمال والشرق ، واختلطت احداهما بالاخرى . لذلك اطلقت عليهم الآثار المصرية تارة اسم روثان او لودان وتارة اسم اراميين (لترمان) .

وذهب دي كارا ان قبيلة الروثانو كانت منتشرة في سوريا الشمالية على عهد ابراهيم الخليل وظلت آثارها الى زمن الدولة الثامنة عشرة المصرية ، حينما اخذ الحثيون ينتزعون منهم املاكهم شيئاً بعد شيء . كما دلت على ذلك الآثار الهيروغليفية المنقوشة على جدار هيكل الكرنك .

وقد وهم قدماء النسابين (كما روى ابن حزم عنهم) ان لاوذ (لود) هو ابن ارام بن سام والحقيقة انه اخوه لا ابنه . وقد قسمت الآثار المصرية الروثان الى قسمين دعت احدهما روثان المغرب وهم سكان دمشق . والثاني روثان المشرق وارادت بهم قاطني شمالي سوريا ، وغربي ما بين النهرين . وانما دعتهم روثان لاستسهال المصريين تحريف اللام بالراء . وهم يسمون انفسهم روث او لوت من لوديم جدهم ابن مصرايم بن حام .

وقال ابن خلدون (٢ ص ٧) عن ابن اسحق ان سام كان له خمسة اولاد وهم ارفخشاد ولاوذ (لود) وإرم (ارام) واشوذ (اشور) وغليم (عيلام) .. وكان للاوذ (لود) اربعة من الولد وهم طسم وعمليق وجرجان وفارس (قال) ومن العماليق أمة جاسم فمنهم بنو لف وبنو هزان وبنو مطر وبنو الازرق ومنهم بديل وداحل وظفار ومنهم الكنعانيون وبرابرة الشام وفراعنة مصر (يريد الرعاة) ... وكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم يتكلمون بالعربية اه .

هذا ما اتصلت بنا معرفته عن «روثان» ولعل اكتشافات جديدة تزيدنا بياناً عن هذه القبيلة التي توطنت في سالف الحقب في منطقة حمص .

العمالقة

والعمالقة من الامم العريقة في القدم التي يكتنفها كثير من الغموض وذكرت لاول مرة في التوراة في سفر التكوين (١٤ : ٧) في القرن العشرين قبل الميلاد . اما من هو عماليق جد هذه القبيلة ؟ فقد مرَّ بك ما قال عنه ابن اسحق كما روى ذلك ابن خلدون . وفي رواية ابي الفداء عن ابن الاثير انه ولد للاوذ بن سام فارس وجرجان وطسم وعماليق الذي هوَ ابو العماليق ومنهم كان الجبابرة بالشام والفراعنة (الرعاة) في مصر اه (ابو الفداء ١ : ١١ وابن

الاثير ١ :٢٧ و٢٨) وقد قال فيهم احد المحققين : ثبت من البحث العلمي ان العمالقة شديدو الخجل يحبون العزلة سريعو الغضب والغيرة · وروى احدهم انه وجد في ملعب بارتوم المشهور عملاق يدعى جوستين طوله متران ونصف وكان على قوة بدنية رهيبة · وقد اشترك قبل ان يعرض نفسه في الملاعب في الحروب الروسية وبلغ في الجيش الروسي رتبة كابتين في المدفعية · ولكنه كان سريع الغضب ضيق الصدر · وهو في الوقت نفسه ميال الى العزلة والانفراد ·

واعترض بعضهم على وجود العمالقة في الصقع الحمصي في اواخر الالف الثانية قبل المسيح ، بان عيسو جد عماليق (تك ٣٦ : ١٢) انما برز الى الوجود بعد مرور ١٦٤ سنة من الالف الثانية ق م · ولكن المحققين اكدوا ان العمالقة المذكورين الذين عاشوا في سوريا الشمالية ، لم يكونوا من ذرية عماليق بن اليفاز بن عيسو ، بل من ذرية عماليق احد اولاد لاوذ (لود) بن سام الاربعة ، كما نقل ابن خلدون وابن الاثير عن ابن اسحق · ويؤكد ذلك ان العمالقة كانوا موجودين في ايام ابراهيم جد عيسو (تك ١٤ : ٧) وقد سماهم بلعام « اول الشعوب » (عدد ٢٤ : ٢٠) وكلا النصين لا ينطبقان على ذرية عماليق بن اليفاز بن عيسو بل يتقدمانها زمناً ·

قال بعض المؤرخين ان هذه القبيلة كانت قديماً على خطوط خليج العجم· فقاومها الاشوريون وجلوها عن مواضعها · فتركت الشطوط واتجهت غرباً الى برية الفرات (تك ١٤:٧) واقام كثيرون منها حيث نشأت حمص · ولما قضت الظروف بتغير الحالة في المنطقة ، هجروها الى اواسط فلسطين (النشرة ١٨٩٦ : ٥٠) ·

وورد في شرح التكرين (٣٦:١٢) : نرى من كلام عاموس (٦:١) ومن كلام بلعام (عدد ٢٤:٢٠) ان العمالقة شعب سامي شغل كل البلاد من شور على حدود مصر الى ارض الحويلة في اليمن ·

ويظهر من قول حزقيال (١٦:٣ و٤٥) لاورشليم : ابوك اموري وامك حثية ان صلة الحثيين بالامورين لم تكن بعيدة ·

الاموريون

اما الاموريون فهم ذرية اموري او عموري رابع اولاد كنعان وكانوا

اقوى القبائل في البلاد السورية وكانوا حيث حلوا يبتنون المرتفعات . وقد من الله على الاسرائيلين اذ نصرهم على الاموريين (عا ٢ : ٩) لما عرف بهم من شدة البأس ويظهر من قرائن الاحوال انه لما قدم الحثيون الى هذه المنطقة ضيقوا شيئاً فشيئاً على العمالقة والاموريين فنزحوا من هذه المنطقة الى جنوبي سوريا وكان ما كان من اصطدامهم بعد ذلك بالاسرائيليين ذاك الاصطدام الذي كانت له اهميته . اذ فتك الاسرائيليون بسيحون ملك الاموريين وعوج ملك باشان المتحالفين ضدهم . وقد استفظع كاتب التوراة ضخامة هذه الامة اذ روى ان عوج ملك باشان وهو الوحيد الباقي آنئذ من ذرية الجبابرة الرفائيين كان سريره من حديد طوله تسع اذرع وعرضه اربع (تث ٣ : ١١) .

ومن مبالغة القصاص ما نقله ابن خلدون عنهم اذ زعموا انه كان يتناول السمك من البحر ويشويه في الشمس لطول قامته . ورووا ان موسى لما اراد قتله انتضى سيفاً طوله ثلاثة اذرع وقفز عن الارض ثلاثة اذرع وضربه بالحسام فاصاب كاحل رجله . فتأمل !!! فالناس عشاق الغرائب .

على ان علماء الكتاب جزموا بان الذراع المذكور في التثنية انما هو المدعو عند العبرانيين ذراع الرجل وقياسه من طرف الاصبع الوسطى من الكف الى المرفق (تفسير التثنية ص ١٧١ ومرشد الطالبين ص ٥٣٦ وذخيرة الالباب ص ٧٨٩) .

وقد انكر بعضهم وجود هذه القبائل ولا سيما الاخيرتين في منطقة حمص لان التوراة لم تذكرهم فيها وانما اشارت الى وجودهم في فلسطين . قلنا ان وجودهم في فلسطين في اواسط الالف الثانية قبل الميلاد كما في الحوادث التي اقترن ذكرهم بها في التوراة لا ينفي وجودهم حيث منطقة حمص لاسيما وان الآثار والتقاليد المسطورة ايدته . ومن ادلة ذلك :

ان بعض اهالي حمص سنة ٩٢٨ عثروا في الجهة الشرقية من المدينة اثناء الحفر ، على اثر انسان متحجر غريب الشكل جداً طوله نحو ثلاثة امتار وطول قبره يزيد عن اربعة . وله جمجمة كبيرة جداً توازي قدر جمجمتين من الجماجم العادية . ونابه بطول الاصبع يظن انه من آثار اقدم العصور المعروفة في التاريخ (النشرة ١٩٢٨ : ٢٧٩ والمجلة السورية لقرألي ٣ : ٣٤٤) .

ان هذا الشاهد المحسوس يؤكد صحة النظرية بسكنى العمالقة والاموريين في البقعة الحمصية قديماً قبل زمن التاريخ وقبل نزوحهم الى جنوبي سوريا . على ان نفس ما ورد في التوراة وصفاً لحوادث متأخرة عن العهد الذي نتكلم عنه يحقق ما رأينا ، ففي التثنية اشارة الى ان عوج كان الوحيد الباقي من الجبابرة . وفي سفري العدد (٢١ : ٣٤) ويشوع (٩ : ١٠ و١٣ : ١٢) اشارة الى ان الاموريين الذين كانوا اقوياء طوال القامات كانوا في باشان حين غلبهم موسى ، وان رئيسهم امردي . ورأى بعضهم ان ذكرهم في هذه المواضع يدل على انهم اقدم من سكن تلك الارض . وانه لم يكن من الاموريين ثمة سوى ملوكهم فتكون الامورية طارئة عليهم (شرح التوراة ١١٩ و٣٧١) .

على ان الآثار المصرية ذكرت فصيلة امورية ضربت في جهة قادس الى نبع العاصي شمالي بعلبك (الدبس ٩ : ١١٣) .

ويسند هذا الرأي العلامة الاتنولوجي (باتون) الذي يرى ان الاصل السامي في سوريا مسبوق بجنس آخر . بدليل ان الآثار التي ظهرت في سوريا لم تكن من سكانها الساميين ، بل من شعب يمت الى نسب آخر قد قطنها قبلهم . وكثير من اسماء الاماكن القديمة مأخوذ من غير اللغات السامية (المباحث ٢٤ : ٣٠٩ و٣٥١) .

ويرى العلامتان المؤرخان ونكلر وباتون ان المهاجرة الامورية الى سوريا بدأت في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . فلعل هؤلاء وجدوا مضارب واكواخ العمالقة منصوبة في البقعة الحمصية فازجوهم ، واوسع هؤلاء لهم مجالاً فيما بينهم . والبدو اذا اتسع نطاق المراعي لمواشيهم لا يجدون معرة في قبول من ضافهم . اما الزمن الذي قدم فيه الاموريون الى سوريا من خليج العجم فيرى لانزمان انه حدث ما بين سنتي ٢٢٥٠—٢٣٠٠ ق م وهذا يطابق زمن ثورة العيلاميين على الكوشيين في بابل . ولعلها السبب في تلك المهاجرة (الدبس ١ : ٢٥٨) .

قال براستد (ص ٧٩) شرع الساميون منذ ثلاثة آلاف سنة يهجرون البادية ويقيمون عند الطرف الغربي من الهلال الخصب . وحوالي سنة ٢٥٠٠ ق م نجدهم ساكنين مدناً مسوّرة . فهؤلاء هم الكنعانيون اسلاف العبرانيين . والى الشمال منهم اقامت قبيلة اخرى شديدة الحول تعرف بالاموريين . وحوالي

سنة ٢٠٠٠ ق م كان جميع هؤلاء الساميين الغربيين قد بلغوا درجة من المدنية لا يستخف بها اه .

من هـذا نرى ان جميع الانباء القديمة تكاد تتفق على ان ذراري لود وارام ابني سام وكنعان بن حام كانت منتشرة في هذه البقعة في اقدم عصورها التاريخية ، اما كيف كانت حضارتهم لاول عهدهم في الوجود ، فتلك اسئلة ليس من السهل الاجابة عليها لولا ان بعض الآثار القت شعاعاً خفيفاً على ظلمة القرون الاولى الحالكة .

٥ — سيرة الحمصيين في النشأة الاولى

بعد الاطلاع على ما تقدم صار في امكاننا رسم صورة لحياة الحمصيين القدماء . ومن مراقبة مـا تقدم وما سيأتي من النزوات الـتي مرت بالمنطقة يستدل ان حياتهم كانت حياة بساطة بالغة . ويكفي في وصفها ان ننعتها بحياة البداوة . ويسوغ لنا استصواب رأي من قال : ان القبائل التي انتشرت في منطقة حمص لاول عهدها بالوجود انما اتخذت لسكناها الخيام والكهوف ولم يخطر في بال احد منهم بناء منازل من اجر او حجر . وانما اكتفت بسكنى الاكواخ والمغاور . لان من كان يعيش من ضروع المواشي ولا عمل له سوى السهر على ماشيته وايرادها مراتع الخصب لا يحتاج الى اكثر من ذلك .

وقـد اشار الى ذلك سترابون (٢:١٦ و٢٠) ويوسيفوس (١٥ : ١٠) . كما ان التوراة اشارت الى اتخاذ القدماء الغيران والكهوف في السفوح مباءة لهم وملاذاً يتقون بها دواعي الاذى (قض ٦ : ٢٠ واصم ١٣ : ٦) .

ولكن مما لا شبهة فيه ان تكاثر ذرية القاطنين في هذا الصقع استلزمت بعدئذ ، ان يهتم الاهلون بحراثة الارض . وان يتهنوا الحرف التي لا بـد منها لاجل الحياة العامة ، من حدادة وبناء وما اشبه .

اما الديانة الاولى التي ملكت قلوب ساكني هذه البقعة ، فانمـا استرشدوا الطبيعة اليها . ودلت الآثار على ان ما فطر عليه الانسان من احترام كان اعظم منه . فيه قـدرة على النفع والضرر ، مالت بالحمصيين القدمـاء الى عبادة النيرين

العظيمين الشمس اولاً والقمر ثانياً . وانما عبدوا الشمس لما رأوه من قوتها وفائدتها. فانها حياة الحيوان والنبات وغاية الجمال الطبيعي . فزعموا انها رب الطبيعة ومصدر بهاء الكائنات . فقدموا لها عبادتهم باجمل ما خطر لهم من الاساليب . فصوروها بهيأة انسان تحيط بوجهه الاشعة . ونقشوا رسمه على الحجارة واخذوا يقيمون لها السواري الحجرية على المرتفعات . وفي المواضع ذات المناظر الجميلة ويقدمون لها الضحايا .

وقد وجدت كتابة اثرية ذات قيمة يونانية اللغة في حمص ترسل اشعة على معبودات حمص القديمة . حفرت هذه الكتابة تحت اربعة تماثيل اثنان منها بهيأة جنديين يمثلان الالهين عجلبول وبيلوس ، كتب فوق رأس احدهما « زيفي كيراغنيوس » اي صاحب الصاعقة (او المشتري) . وبين الالهين المذكورين هيأة امرأة كتب فوق رأسها اثينا . وهي الهة قديمة لم يبق من اسمها سوى حرفين ونصف . وذهب من الحجر قسم ضاع معه الاله الرابع الذي بقي منه بعد المتفتت اسمه السامي « يرحبول » في خلف الاثر (المشرق ٤ . ١١٣٤) .

ويستطيع القارىء ان يستنتج مما تقدم ان حياة الحمصيين القدماء كانت طبيعية وفيها الكثير من الهناء وراحة البال لولا ما ساورها بعد مدة من اطماع الغزاة مما جعلهم يفيقون من غفلة الهناءة ويستعدون بوسائل جديدة لمكافحة الطوارىء .

٦ — حوادث هذه الحقبة

ليس للحمصيين في هذه الحقبة حوادث خاصة لما عرفت من طرق معيشتهم التي تبعد بهم عن الاصطدام بسواهم . وانما نذكر ما له صلة بهذا الصقع وان بعدت . ولانه يكشف حالة العصر الذي نشأت فيه حمص . وهو مما يهمنا استجلاء غوامضه بقدر الممكن . وفي ما يأتي خلاصة عن كل منها :

١) — غزوة لوكالزاغيزي

في القرن الاربعين قبل المسيح كانت البلاد التي عرفت بعدئذٍ ببلاد

الكلدانيين تحتوي على عدة ممالك صغيرة منها : أكَد وبابل وكوت وكيش في الشمال . ولاغاش واوروك وأور ولارسام في الجنوب . وحصل نزاع شديد على الحدود بين مملكتي كيشحو ولاغاش . وعبثاً تدخل ملوك كيش بينهما فلم تفلح وساطتهم الا الى حين ، ثم عاد الخلاف بصورة اشد وطال امده . وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين في مدة عدة ملوك . واخيراً عنت كيشحو لسطوة لاغاش في مدة ثلاثة ملوك . ولكن قام بعدئذٍ في كيشحو ملك عظيم الهيبة كثير الطموح يدعى «لوكالزاغيزي» تمكن بقوة بأسه من كسر نير ملوك لاغاش ثم بسط سيطرته على كل البلاد الواقعة بين خليج العجم وبحيرة وان ، (ادي شير ٢٣) .

ولما تمّ له الفوز بما اراده في الشرق ، اتخذ اوروك قاعدة لمملكته . ثم وجه طموحه نحو البلاد الواقعة عبر الفرات فكان له ما اراد . فكان اول غازٍ — عرفه التاريخ — للبلاد السورية وكانت غزوته هذه قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد (بورتر—الكلية ٣ : ٢١٢) .

ومما لا مرية فيه ان هذا الغازي مرّ في سوريا الشمالية التي هي جسر الاشوريين الى هذه البلاد . ووطئت قدماه منطقة حمص قبل ان تظهر المدنية الى عالم الوجود . غير ان ذرية لود كانت منتشرة في ذلك البر الفسيح ومرور قواته اوجدت في ادمغة هؤلاء فكرة جديدة ، وميلاً خاصاً لتوحيد الجماعات المتبددة ، لايجاد قوة تقف ازاء تيار الغزاة هي البذرة الاولى التي القيت في حقل حمص الاجتماعي .

ويستنتج من انباء هذه الغزوة مع التي تلتها ان عدداً ليس بقليل من قاطني هذه المنطقة ، نزحوا منها ولاذوا بالجنوب اتقاً خطر الاصطدام بالغزاة الاشوريين .

ب) — غزوة سرجون الاول

بعد غزوة لوكالزاغيزي بمدة غير بعيدة ، قام ملك آخر ذو سطوة وشجاعة يدعى « سرجون » هذا بسط سيطرته ايضاً على اكَد وبابل وسبارا وكيش ونيبور في شمال كلدة ، وعلى سائر مدن كلدة الجنوبية ولما اطمأن على

فتوحاته في الشرق عبر الفرات كسابقه فغزا سوريا الشمالية الى غابة فينيقية ، وجزءاً من بلاد العرب . وترك آثار هياكل وقصور دلت على كبر مداركه وبما يستغرب من هذا الملك القدير انه في مـا كتبه على تماثله اعترف بضعة اصله وان امه ولدته خفية وطرحته في النهر فرباه رجل سقّا عله البستنة . ولكن الهه نظر اليه نظرة عطف فاوصله الى العرش وملك ٤٤ سنة (ادي شير ٤).

وقال فيه بعضهم لم يتسع ملك دولة بابل في عصر ما ، كما اتسع في ايام سرجون الاول . ولذلك رفعه البابليون الى مصاف الالهة . وقد خلف هذا القائد العظيم عدة ابناء بواسل حكموا الى سنة ٢٢٠٠ ق‌م (براستد ٩٠) .

ومن آثار هذا الملك انه في غزوته هذه اخذ سفن الفينيقيين وقطع بهـا البحر ليغزو قبرص . ومن آثار هذه الغزوة تسمية سوريا الشمالية بلاد الامورّو اي الامو‌ريين . مما دل على ان الاموريين كانوا آنئذٍ في هذه البقعة . وهم من السابقين لسكناها . وكانت سيادتهم حيث التقى بهم اولئك الغزاة (الكلية ٣ : ٢١٢) .

ج) — كدر لاعومر

فهم من اسفار الكلدان وآثارهم ان بلاد عيلام كانت موازية لمساكن الكلدان شرقي الدجلة وكانت ممتدة الى بلاد مادي وكانت قاعدة عيلام مدينة شوش الشهيرة . ففي سنة ٢٢٩٥ ق‌م اغار كدر ناخوندا ملك عيلام على كلدة واستولى عليها واخضع بابل وسلب آلهتهـا نانا شفيعة اوروك . ووضعها في هيكل شوش .

فلما مات خلفه الملك سيمتشيل خاك فولى ابنه كدر مابوغ المقدام على عوتبال (ايمات بعل) في عيلام فلما مات سيميتشل وخلفه كدر لاعومر اقر كدر مابوغ على ولايته . ثم بعث بـه الى سوريا غازياً فذهب باسم سلطانه واخضع سوريا الجنوبية لدولة عيلام . فخنعوا مـدة اثنتي عشرة سنة ولكنهم في السنة الثالثة عشرة رفعوا رأسهم ، فساءه عصيانهم وجهز حملة قوية لاذلالهم واقتحم بلادهم في السنة الرابعة عشرة يصحبه امرافل ملك شنعار واريوك ملك الأسار

وتدعال ملك جوييم . فضرب الرافائيين في عشتاروت قرنيم والزوزيين في هـام والايميين في شوي قريتائيم والحوريين في سعير . ثم جاؤوا الى عين مشفاط (قادس) فضربوا العمالقة والاموريين المقيمين في حصاصون تمار . فخرج لصدهم خمسة من ملوك سوريا الجنوبية وهم : بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشنآب ملك ادمـة وشمئيبر ملك صبوئيم وعلى ملك بالع ، ولما اشتعلت لظى الحرب في غور السديم فرّ ملك سدوم وعمورة وسقط كثير من جندهما في آبار حُمر وانهزم الباقون الى الجبل . فغنمت جيوش كدر لاعومر جميع الاسلاب واخذوا عدداً كبيراً من الاسرى فيما بينهم لوط ابن أخي ابراهيم .

فلـما درى ابراهيم بالفاجعة جرد جميع حشمه وعددهم ٣١٨ وصحبه من حلفائـه الاموريين عانر واشكول وممرا . وجدّ في أثر الغزاة الى دان وبعدما طوقهم هاجمهم في الليل بغتة مع عبيده فهالهم الامر وتقهقروا فكسرهم شـر كسرة واسترد منهم الاسلاب ولوطاً ابن اخيه بعدما طردهم الى صوبة شمالي دمشق . وكانت هذه المعركة سنة ٢١٣٧ ق م حسب رأي الاب مور الذي قال ان شخوص ابراهيم الى الشام كان سنة ٢١٤٥ (الدبس ٢ : ٢٥) .

غير ان بعضهم يرون ان غزوة كدر لاعومر كانت في القرن العشرين مستنتجين ذلك من آثار اشور بانيبال الذي يقول انه فتح سوزا ودمرها في القرن الثالث عشر لغزوة كدر لاعومر وبما ان اشور بانيبال كان في القرن السابع ق.م. يستنتج ان غزوة كدر لاعومر كانت في القرن العشرين والله اعلم بالاصوب.

وفي هذه الغزوة مطال كثيرة يستطاع ان يرى من خلالها وجود حمص. ولكن مجيئها على غير ما رسخ في اذهان المقلدين من مفسري التوراة والرواة يجعلنا نتأنى في التبسط بهـا قبل ان يجتمع لدينا بينات كافية لتعديل التقليد المتسلسل والجزم بصحة ما نراه ويكفي قارئنا الآن ان يحفظ في ذاكرته اسماء كثيرة وردت في هذه الحادثة ولها صلة بتاريخ حمص منها قادس ، وصوبة ، وعماليق ، والاموريين ، وسواها . وهي وان اعطاها الشراح وصفاً يبعدها عن حمص ، لكن التأمل الدقيق في ما ذكرته التوراة مع الالمام بالتطورات التي مرت بهذه البقعة تجعل البعيد قريباً والمستحيل ممكناً .

د) — حمورابي

في اواسط القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، نشطت ذرية ارام ودفعها رقيها المدني الى التوسع فبسطت سيطرتها على اراض واسعة . وكان صدر الدولة البابلية الاولى بل رأسها « ساموابي » الذي اتخذ بابل قاعدة لسلطته . وتتالى بعده خلفاء من ذريته ملكوا نحو ثلاثة قرون (٢٤٦٠—٢٠٨١) وعددهم ١٦ ملكاً سادسهم حمورابي الشهير بآثاره .

ناهض حمورابي العيلاميين في الجنوب وقهر ملكهم كدر لاعومر وهو لايزال في الثلاثين من عمره وقضى على الدولة العلامية وجعل بابل سيدة مدائن البلاد وحسب حمورابي ثاني ملك قدير (بعد سرجون الاول) انجبه الرافدان (براستد ٩٥).

روى ادي شير (٣٠) انه بعد انتصاره على العيلاميين تابع فتوحاته فاصبحت مملكته واسعة جداً شملت بلاد الكلدان واشور وسائر ما بين النهرين وسوريا . وبلغت في ايامه درجة ممتازة في الثروة والرقي الادبي . وما برحت شرائع حمورابي المكتشفة حديثاً من انصع الادلة على ما اوتيه هذا الرجل العظيم من العبقرية ومما وجد منقوشاً على قطعة اجر ما يلي :

انا حمورابي القدير ملك البابليين الضابط ازمة الاقطار الاربعة القاهر كل مناوىء لمرودوخ الهي ونصيري . ان الالهين بين وبعل ايل قد قلداني الملك على سومير واكد وافعما يدي بجزى هذه الطوائف . وقد كريت نهر حمورابي الذي هو سعادة البابليين وبلغت به ارض سومر واكد . فامرعت فيه الفلوات القاحلة وكل بقعة لا ماء فيها اذ اوجدت في المدن والدساكر بقعاً خصبة . وانشأت لهم من البلاقع الغامرة مروجاً رائعة وخمائل يانعة . وقلت لهم اقيموا في الرغد والخصب وسيموا في مراتع النعيم فهذه ارضكم ارض ربيع وسعادة . انا حمورابي الملك الهمام خليل الاله الاكبر اني وفاقاً لما اوعز به اليّ مرودوخ الآله القدير قد شيدت عند منفجر نهر حمورابي أُطماً شامخ الرأس وشحنته بالبروج العظيمة وسميت هذا الصرح — دار سينموبليت — لأخلد ذكر ابي (المقتطف ٤ ص١٥٢).

ومن آثار شرائع حمورابي في عصر ما لم تمحه القرون المنقضية . فانها

ما برحت مع سائر الاصقاع السورية تحفظ اسماء سبعة شهور من ايامــه وهي نيسان وايار وآب وايلول وتشرين وشباط واذار . على ان اهم اثر لازمها انما هو اسم المعبودة الخاصة بامته وهي «نينان» ويراد بها السدة المقدسة التي وجدت في ضاحية قرية المشرفة حيث نقب الباحثون عن آثار مدينة «كاتانا» التاريخية كما سترى .

ومن الاشارات المتوالية في الكتب التي جاءت من حمورابي الى التجار والمهاجرين الاموريين ، تظهر الصلات المتينة بين وادي العاصي ووادي الرافدين (دجلة والفرات) ويلفت النظر بنوع اخص ان حمورابي يدعو نفسه في احدى كتاباته «ملك الاموريين» (جغرافية الكتاب الكنت ص ٨٦ والعصور القديمة ص ٩٤) . كما ان نظامه بحق البنين ما برح اثره ماثلا في حمص رغم الشرائع الكثيرة التي تداولها الاهلون . ومن خصوصياته حرمان الابن من ميراث ابيه لغضب الاب عليه . واعتبار الولد الذي تزوج في حياة ابيــه قد استوفى حقه من التركة . ومنح الابن العازب حق العروس او المهر فوق سهمه من الميراث فيما اذا توفي ابوه قبل زواج الابن المذكور . الى غير ذلك (انظر خلاصة الشرائع في العرب قبل الاسلام ص ٤٤—٤٨) .

اما المدة التي حكم فيها فقد روى مسبيرو انها من سنة ٢٢٨٧—٢٢٣٢ ق م ، غير ان براستد ص ٩٤ يرى انهـا بدأت سنة ٢١٠٠ ونحن نميل الى الوجه الثاني لان كثيرين من المحققين رأوا انه امرافيل الوارد ذكره في حرب كدر لاعومر . وممن قال بهذا الرأي كلاي العلامة الشهير (١٢٧) وحجته تقارب اللفظ والمعنى . لأن حمورابي تكتب اموراپي واموراڤي والاثريون يقلبون شور الى شينار او شنعار بسهولة . فلا عجب ان يكون اموراڤي هو امرافيل . ولاسيما وان الزمن متقارب بين الملكين .

٨) — سميرام

ذهب اكتازياس المؤرخ اليوناني كما روى ديودور الصقيلي ، ان نينوس منشيء الدولة الاشورية بنى مدينة نينوى واهتم بجعلهـا اعظم مدينة في العـالم

فاسكن فيها عدا الاشوريين اقواماً غريبة . وامتدت بعدئذ سطوته حتى اخضع لسلطانه بابل وارمينية ومادي وسائر البلاد الواقعه بين مجري الهند والروم . وفي اثناء محاربته بقطريانه التقي بسميرام امرأة حنون ملك سوريا وكانت قد خرجت مع زوجها للحرب فأخذ بجمالها وشجاعتها فعمل على استخلاصها من زوجها الشيخ واختصها لذاته بعدما اشركها معه بالملك .

فاظهرت سميرام منذئذ من العبقرية ما استغربه البعض وحسبوه ضرباً من الخرافة اذ سورت بابل بسور شاهق دعمته بابراج عديدة ووصفت مسافة ٣٠ كيلو على جانبي الفرات مادّة فوقه جسراً عظيما . وجرت المياه بترع وجداول الى المنازل لري الجنائن والاراضي الفسيحة . وبنت الجنان المعلقة التي كانت مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً فوق ابراج رفعت اليها المياه من نهر الفرات . وقيل انها وضعت في هيكل بلوس ثلاثة تماثيل ذهبية . وانشأت في باحته برجاً فاق اهرام مصر . ومـا برحت آثار هذا البرج الى الآن معروفة بآثار برج بابل او بيلوس .

ولما تمردت بلاد مادي وجهت جيشاً عليها فخضدت شوكتها واعادتها الى الطاعة . ثم اقتحمت ارمينيا وفارس ومصر والحبشة فبسطت سيطرتها على الجميع ودفعها طموحها الى اقتحام الهند ولكنها لم تتوفق . اذ فشل جيشها امام قوات ستراتوباتيس ملك الهند فعادت الى بلادها وانصرفت الى تحسين داخليتها .

ومما نقله الرواة عن لسانها مـا نلخصه في ما يلي : اجل ان الطبيعة اوجدتني امرأة لكن هذا لم يحل دون قيامي باعمال اعظم الرجال . وحسبي اني ذبرت شؤون مملكة نينوى العظيمة حسناً . ولم يرَ احد قبلي اربعة اوقيانوسات وجعلت الانهر تجري حيث شئت فارويت الارض العطشى بمياه انهري . وكسرت الصخور لتمهيد الطرق الجبلية الوعرة وفتحت لعجلاتي ممراً لم تسلكه الوحوش من قبل . على ان هذا لم يحل دون تنعمي بما احبه اهـ .

اخيراً شعرت سميرام بمؤامرة دبرها ابنها نيني عليهـا فاعتزلت الملك فألهها قومها وزعموا انها تحولت الى حمامة .

ويرى بعض المؤرخين انها نبغت في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد وانها ملكت ٤٢ سنة (٢٠٠٤—١٩٦٢ ق م) .

هذا ما يمكن استخلاصه مما يجوز ضمه الى التاريخ اما الرواة فقد بالغوا في تعظيمها مبالغة اخرجتها من دائرة التاريخ الى الاساطير .

زعموا انها ابنة غير شرعية لأم اشورية وأب سوري تركتها امها في القفر فور ولادتها ، فعطف عليها سرب من الحمام البري دفأها البعض باجنحته ونقل البعض الآخر لها الحليب بمنقاره . ولما كبرت واحتاجت الى غذاء اقوى اخذ الحمام يحضر لها الجبن من مذاود الرعاة ، وشعر الرعاة بنقد الحمام الجبن والذهاب به فتتبعوه الى مستقره . واذا بهم يرون فتاة لم يخلق مثلها بالجمال فحملوها الى كوخهم ثم سلموها لناظر الخيل الملكية . ففرح بهـا لانه كان عقيماً فاحسن تربيتها وسماها سميرام (ام الحمام او حمامة الجبل) ولما ادركت سن الرشد رآها حنون او (اوانيس) رئيس شيوخ الشام . فسباه جمالها فطلبها من الناظر فازوجه اياها فولدت له ابنين هيابات وهيوسب .

فلما وقعت الحرب مع البكتريان ذهب زوجها بالجيش الملكي الى المعركة فرافقته سميرام وهناك التقت بنينوس وهو في ضيق فافرجت عنه فاحبهـا على كبر سنه وتزوجها فولدت له نينوس ثم مات بعد قليل مورثاً لها العرش واذ كانت طموحة الى المجد قامت باعمال عظيمة فاقت بها كل من تقدمها وملأت البلاد من آثارها العجيبة ثم تحولت اخيراً الى حمـامة واستقرت في منازل الآلهـة (اساطير الاولين ص ١٣٠ و١٣١ وتاريخ لبنان ص ٣٠٨ — ٣١١) .

ومن الروايات التي يرتاب بها المؤرخون طلبها من بعلها ان يسلمها الملك دقيقة واحدة فلما لبى طلبها امرت فوراً بقتله واستأثرت بالعرش .

ومبالغات الرواة جعلت رهط العلماء ينكرون وجودها لكن المحققين لا يرون في المبالغات موضعاً للشك في الاصل التاريخي (انظر ادي شير ١ ص ٤٦ والمقتطف ٤ : ٢٣١) ولا سيما وقد ذكرها هيرودوت وديودور وبلوطرخوس) .

وصلة سميرام التاريخية بحمص انهـا سورية الدم ولنهـا مرت بحمص يوم رافقت الحملة الى بكتريانة والحمصيون الاقدمون رأوا فيها مثالاً للاقدام الذي اورثوه الى ذراريهم الى أمد بعيد جداً مما لا ينكره المنصفون .

و) – سنوهي المصري

في الآثار المصرية قصة بطل مصري نشأ في اوائل الالف الثانية قبل الميلاد كتب ملخص حوادث حياته على قطعة آجر اكتشفها الاثريون وترجموها ونشرتها مجلة الهلال في عدد مايو سنة ١٩٣٦ ص ٧٩٧ واذ لها صلة بقدماء الحمصيين تلخصها لتنوير غوامض التاريخ في مستقبل الايام ، قال سنوهي ما ملخصه : في اليوم التاسع من الشهر الثالث (هاتور) للفيضان من السنة الثلاثين الملك « آمن—ام—هت » دخل افقه (اي مات) وكان قد ارسل جيشاً الى ارض « تيميجو » يقوده ابنه الاكبر سيزوستريس فقفل غانماً . ولكنه وهو عائد درى بالفاجعة فكر كالصقر الى بلاده . غير ان رسالة وصلت الى احد اشقائه تدعوه الى العرش اخافته ففر الى سوريا ومكث في قديعني (شمالي بيروت) نصف سنة ، وعندئذٍ اخذه تنش بن عامو امير روثانيو العليا (سوريا الشمالية) فقضى عنده سنوات كثيرة . وتزوج كبرى بناته ورزق منها اولاداً . فكبروا وصاروا رجالاً اشداء . وفي اثناء وجوده عند الروثان بارز رجلًا منهم فقتله (هو) به لجزع مما جرى .

ولكن الملك المصري درى بامره فاستقدمه اليه ليدفن بعد شيخوخته في وطنه الاصلي . وبنى له هرماً من حجر ضمن حدود الاهرامات التي اقيمت حول قبر الملك ، قام ببنائه رئيس البنائين .

كتبت هذه القصة منذ ٣٨ قرناً اعني في اوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد وفيها ما يؤكد وجود الروثان ذرية لود في منطقة حمص . وعرف من اسماء امرائها تنش بن عمو . وعمو من الالفاظ التي يريد بها المصريون ذرية سام وقد صوروهم بوجوه تميل الى الصفرة (الدبس ١ عدد ٥٩ ص ١٦٥) وذراريهم كانت العشائر الوحيدة التي جاورت مصر في ايام دولتها الثانية عشرة (الدبس ١ عدد ١٠٢ ص ٢٥٧) فاحفظ هذا ايها القارىء ولا تنسه .

٧ ـ عمران المنطقة

بعدما رسخ قدم الحمصيين القدماء في هذه المنطقة وعلمتهم الحوادث التي مرت بهم انهم بحاجة الى مـا يقيهم اخطار لصوص البادية وهجمات الجيوش الغازية . أخذوا يجوسون خلال الديار لاختيار المواضع التي تفي بهذا الغرض فبنوا عدة مدن ارشدتنا اليها آثار الحقب التي وليت هذه الحقبة . ودلتنا اهميتها على دقة نظر الذين خططوها وحسن اختيارهم المواضع التي انشئت فيها . ومما اتصلت بنا معرفته من منشآت هذه الحقبة قادس وجبيل وماريامون (مريمين) وقطنه (المشرفة) وفي ما يلي خلاصة ما عرفناه عنها :

١) — قادس

مدينة حصينة بنيت فوق تل (يعرف الآن بتل النبي مند) (لامنس) برزت في وسط سهل مكسو بنضارة العشب النابت فيه . تخترقه الجداول والاقنية المتفرعة من العاصي . وتكتنفه مياهـه من كل الجهات . فيرى عن بعد جزيرة في وسط الماء . وانما شكل العاصي دائرة لان المياه الجارية من ينبوعه الاصلي تلتقي قبل وصولها الى ذلك التل بمياه اخرى انبجست من ينابيع غير بعيدة عن التل . فطوقته هذه من جهة وتلك من الجهة المقابلة . بحيث لا يستطيع احد الوصول اليه دون اجتياز جسر انشيء لهذه الغاية .

وقد اكتنفت هذا السهل روابي لبنان وجبال عكار التي تعطي ساعات النهار الواناً متعددة من زرقة وحمرة ووردية الخ . . . وهذه الوضعية الطبيعية اكسبت هذا الحصن مناعة جعلت اقوى الخصوم يرتدون عنه خاسئين واعترف المؤرخون القدماء له بانه اعظم حصن قام في ذلك العهد .

٢) — جبيل

هي مدينة جبيل الحالية التي زعم اسطفانوس البيزانطي انها اقدم مدينة في العالم . وعدل هذا القول الاب مرتين (ص ٣٧٥) فقال انها اقدم مدينة في

لبنان . ومع ان هذه الدعوى يتعذر اثباتها لاسباب لا محل لذكرها هنا ، لكن لا مرية في انها بنيت قبل العهد التاريخي . وذهب سترابون (٢:٢٦) انها سميت جبيل لانها بنيت على جبل صغير .

وقد صرح الاب مرتين (ص ٣٦٤) ان الذين انشأوها انما هم قاطنوا السهل الواقع بين حماة البقاع طمعاً بالانتفاع من السكنى قرب البحر . ومجاورة الاراميين الذين بنوا شرقي لبنان تدعو الى الظن بان احدى قبائلهم جاءت فنصبت خيامها الى الشاطىء الشمالي واقامت في الجبل الصغير حيث بنيت جبيل ويؤيد هذه الفكرة الوحدة الدينية بين الفريقين فان اكبر آله عند الجبيليين انما هو ايل وهو اسم الآله عند ذراري سام كلها

وقد ظهرت فيها آثار كثيرة اهمها سور المدينة وقلعتها وكلاهما من آثار العمالقة الذين نعتهم التاريخ بالجبابرة القدماء (لامنس) .

وسارت جبيل مع حمص على ولاء مدة الحقبة الاولى ولكنها اختلفت مع الحثيين بعد ذلك واستقلت وطأتهم فلاذت بالمصريين ضدهم كما سترى :

٣) — مريامون

بلدة قديمة العهد جداً موقعها الى الغرب من مدينة حمص في سفح جبل الحلو في موضع القرية المدعوة الآن مريمين كائنة في وسط غيضة نضرة تروض الناظر الى قحولة السهل الممتد ازاءها . وهي من اقدم المدن السورية ردد ذكرها التاريخ كثيراً .

ومن رأي الاثري دوسو ان عهد بنائها يرجع الى ما قبل الميلاد بالفي سنة . وقد ذكرتها الاسفار المصرية الباحثة عن قادس ، وكانت في ايام الفينيقيين متاخمة املاك ارواد . وهي من احكم المشارف على وادي العاصي بين حمص وحماة (دوسو) .

وبناء الحصيين القدماء هذه المدينة في موقعها المعروف يدل على حسن تخطيطهم لانها من خير المعاقل لرد غزاة الغرب .

٤) قطنة

مدينة تاريخية موقعها الى الشرق من حمص في الموضع الذي قامت فيه قرية المشرفة الآن وقد تلي في اكادمية الآثار تقرير الموسيو دوميستيل روبيسون عن مدينة قطنه المبنية سنة ٢٢٠٠ ق‌م التي دمرها الحثيون سنة ١٤٠٠ ق م ودلت الآثار على انها كانت مدينة عظيمة ذات اسوار وابواب كبرى وقصر ملكي وهياكل عظيمة (الزهراء) واليك التقرير :

« التقرير »

الذي نشره العالم الاثري الكونت ميسنيل دي بوليون القائم باعمال التنقيب في قرية المشرفة من اعمال حمص (عن جريدة حمص عدد ٤٢ الصادر في ٢٥ آذار سنة ١٩٢٨) .

اما وقد انتهت الدورة الثانية لاعمال التنقيب في المشرفة ، فيسوغ لنا الآن ان نضع تقويماً لما حصلت عليه من النتائج التاريخية .

في سطح من الارض تبلغ مساحته كيلومتراً مربعاً محاطاً بحواجز ترابية اعتاد القرويون ان يسموه ساحة او عرضي المشرفة ، ظهرت جلياً آثار مدينة « كاتانا » التي ورد ذكرها مراراً في الواح الآجر المشوية المكتشفة حديثاً هناك . وقد قرئت هذه الالواح بواسطة الموسيو فيرولو مدير الآثار في سوريا .

ان مدينة « كاتنا » المذكورة اصبحت الآن معروفة جيداً لورود اسمها مراراً في بعض الآثار المصرية وعلى الاخص في الالواح التي اكتشفت في تل العمارنة والالواح المذكورة تتضمن المخابرات السياسية التي تبادلها الفرعونان امنهوتب الثالث وامنهوتب الرابع مع ملوك سوريا اتباعهم . وفيها نرى ملك « كاتنا » المدعو « اخيش » يطلب مساعدة مولاه ملك مصر عندما هاجمه الحثيون واضطروه ان يحاصر .

غير ان هذا الطلب على ما يظهر قد ذهب صرخة في واد لان الالواح المكتشفة في بوغازكوي عاصمة الحثيين الشمالية تصرح ان ملكها المدعو

سوبيلوليوما كان موفقاً في حملته على سوريا وعاد وهو يجر مطارف الفخر حاملاً كنوز مدينة « قطنا » الى عاصمته وهذا الحادث جرى نحو سنة ١٣٧٣ .

والحفريات الحديثة تؤيد هذه الرواية بصورة مدهشة فالانقاض الكلسية المحجوبة بالرمال وانصاب الالهة المحطمة وأكوام العظام البالية الى آخر ما هنالك من الآثار تمثل بوضوح ايام خراب قطنا العصيبة .

وعلاوة على ذلك فان سالبي كنوز المدينة قد أبقوا آثارهم في الهيكل الكبير الخاص بآلهة المدينة العظيمة « نينيغال » الذي كشف مؤخراً وهو عبارة عن فناء مربع يبلغ اتساعه خمسين متراً قد رصفت ارضه بحجارة ضخمة وفي نهاية هذا الفناء بناء مستطيل الشكل ضيقه وهو الهيكل او قدس الاقداس . وهنا كان على ما يظن التمثال الذهبي لالهة المدينة حيثما تحفظ ايضاً التقادم الثمينة التي يتألف من مجموعها الكنز المقدس .

ويؤيد هذا الظن وجود بعض قطع ذهبية ولازوردية عثر عليها مع الاشياء الاخرى المحطمة والملقاة على الارض بين بقايا التماثيل كالكؤوس وموائد الرخام المحفورة على الطراز المصري واخصها صفائح ذهبية استعملت للتغشية .

كل ما مرَّ معنا يرينا الحقيقة التاريخية بكاملها فان الوالي الحثي مذ قام بتمثيل دور القاهر تجاه المقهور الضعيف .. اتلف ما تبقى من الآثار القيمة ، واعمل معول الهدم في قصور المدينة ، وجعل الهيكل فريسة للنار ومحا كل اثر يذكر الخلف بامجاد السلف ...

ولكن بالرغم من هذه الطوارىء بقي عدد من الآثار لم تقو النار ولا معول الهدم على ابادته . غير ان معظم هذه الآثار لا يمكن الوقوف منها على نتيجة مرضية . واهمها تمثال كامل لأبي الهول المصري اهدته للمدينة احدى اميرات السلالة الثانية عشرة (٢٨٥١-٢٦٠٠٠) المدعوة « إيتا » وهي ابنة الفرعون امنمحات الثاني وذلك نحو سنة ١٩٠٠ ق م ثم الالواح التي وجدت مكسرة ومجزأة الى ما يقارب اربعمئة قطعة وقد اعاد هذه القطع الى نظامها الاول المسيو فيرولو مدير الآثار العام في سوريا وقام بحل رموزها الهيروغليفية الموسيو آ : مورين عضو اكاديمية الخطوط الاثرية .

اما تمثال ابي الهول فتعتبر اهميته من وجهين الاول انـه اقصى الآثار المصرية

والثاني ان تاريخه يرجع الى اقدم عهد معروف للمدينة حتى الآن .

ولكن هذا لا يعني ان تاريخه مقترن بتاريخ انشاء المدينة . وبصرف النظر عما حصلت عليه من المعلومات بهذا الشأن فان الموسيو دوسو عضو الاكادمية والاختصاصي الكبير في الآثار السورية كافة ، حاول ان يجدد تاريخ بناء الهيكل استناداً الى ان الهة المدينة هي سومرية الاصل وانها نفس الالهة التي اكتشف هيكلها مؤخراً المستر دولي في مدينة اور . ويرجع تاريخ بناء هيكل اور الى عهد السلالة الثالثة الكلدانية اي الى الشطر الثاني من الالف الثالثة قبل المسيح وهو العهد الذي عرفت فيه عبادة هذه الآلهة . ومن المرجح ان تكون « نينغال » هذه رمزاً الى الزهرة التي كان يعبدها احد ملوك هذه السلالة بنوع خاص وقد اقام لها نصباً اسطوانياً من البازليت . فانهم وجدوا في بعض آثار الملك المذكور كاساً نقش عليها رسم نجمة ذات ستة اشعة .

اننا الآن امام تاريخ امة سدل الدهر عليها حجاب النسيان منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف . وكل ما حصلنا عليه الآن ليس الا طائفة يسيرة من الاسماء والتواريخ مـا كانت الا لتزيدنا رغبة في الوقوف على خفايا الماضي . ومقصدنا الجوهري الآن هو الاهتداء الى المقر الملكي ليتسنى لنا معرفة الذين اوصلوا المدينة الى هذه الدرجة من الرفاهة والعمران .

ويجد المنقبون الآن صعوبة في متابعة الحفر لسبب التشويش الحاصل في الطبقة الصخرية السفلية وما يعترضهم من الاخاديد والآبار المنقورة في الصخر . ويرجح ان هذه الآبار كانت تستعمل لخزن الماء والقمح ايام الجدب والقحط على مثال ما حدث في « سني البقرات العجفاء السبع » .

ولكن الامل عظيم بالاهتداء الى المقر الملكي قريباً في الدورة القادمـة ان شاء الله . واقل ما يقال في حفريات قطنة (المشرفة) انهـا جعلت املنا بالمستقبل كثيراً اه .

٥) — العاصي

بعدما اتينا على ما انبأتنا عنه الآثار من منشآت هذه الحقبة في منطقة

حمص نرى اننا ننقص التاريخ اذا لم نورد ما ذكرته الاساطير عن اصل العاصي. وهذه المرويات وان لابستها اوهـام فتجريدها يـكشف بعض غوامض التاريخ القديم .

قال الاب مرتين اليسوعي (ص ٣١٥) ان مجرى العاصي الذي يبتدىء في ما حوالي بعلبك كانت له حـكايات تتفق تماماً مع حـكايات هذه المدينة... فقد ذكر اصحاب الاساطير بعض امور من قصة ابلون جزموا بحدوثها في حمص او البقاع . من ذلك ان مرسيا احد الحذاق بنفخ الشبابه ، فاخر ابلون بالنفخ فاستاء منه ابلون وبعدما غلبـه سلخه حياً لتواقحه عليه . وقـد جرت هذه الحادثة على ضفة نهر دعي بعدئذ مرسيا باسم من تجندل عنده . وصرح بليني بوجود نهر في سوريا المجوفة باسم مرسيا خلافاً لزعم اهل فريجيّة ان الحادثة جرت في بلادهم . غير ان استرابون ويوليب عينا موقع نهر مرسيا بقرب خلكيس (عين الجر) القريبة من بعلبك .

وفي سبب تسميته تيفون زعموا ان تيفون تنين هائل داهمته الصاعقة ففتح في الارض اثلاماً واسعة ليختبىء فيها فكان منها مجرى العاصي ولما بذل جهده ليغوص في الارض تفجرت الينابيع فلأت المجرى ماء واخذ النهر اسمه منه .

اما سبب تسميته اورانتس فزعموا ان جباراً هندياً بهذا الاسم تصدى لديونيس اثناء حملته على الهند فكسر جيشه شر كسره . ولكن ديونيس وجد سانحة مكنته من دهورته في العاصي فسمي النهر باسم اورونط اه .

هـذه رواية الاساطير ويستفاد منها بعد غربلتها ان الاقدمين دعوا نهر حمص الكبير بعدة اسماء وهي مرسيا وتيفون واورنط وسواء صحت الاسباب التي اتخذوها دعامة لهذه الاسماء ام لا ، فيهم الحمصي ان يعرفها حتى اذا مرت تحت نظره في مكتوبات الاقدمين او ما نقل عن الاساطير يعرف المراد منها على ان تنقية ما روته الاساطير تجعل ما يستخلص منها قريب الامكان .

اما الرحالون ومنهم ابو الفداء فقد قال فيه : نهر الارنط ويسمى النهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال . ويسمى العاصي لان غالب الانهر تسقي الارض بغير دواليب ولا نواعير بل بانفسها تركب البلاد ونهر حماة لا يسقي الا بنواعير تنزع منه الماء . وهو يجري بـكليته من الجنوب الى الشمال . واوله نهر

صغير من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى الرأس في الشمال عن بعلبك على نحو مرحلة عنها . ويسير من الرأس شمالاً حتى يصل الى مكان يقال له قائم الهرمل بين جوسية والرأس . ويمر في واد هناك وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له مغارة الراهب . ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ويمر على سور انطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية اه .

٨ — لغة الحمصيين الاقدمين

بقي معنا مبحث من مباحث هذه الحقبة وهو بماذا كان يتفاهم سكان هذه المنطقة ؟ وهل بقي من آثار تلك اللغة شيء ؟

وسؤال كهذا لا سبيل للاجابة عليه بطريق الجزم . لان الحمصيين كغيرهم من اجناس البشر القدماء لم تكن لهم في فجر تاريخهم لغة تكتب ، يهتدى بآثارها الى حقيقة تلك اللغة . وانما كانت لهم لغة يتحدثون بها وهذه انما تعرف متى عرف الذين قطنوا في تلك المنطقة . ولاجل التثبت من ذلك لا بد من المرور بما يلي :

ان كثيرين من علماء الآثار والتاريخ ارتأوا ان سوريا كانت مأهولة قبل التاريخ بشعب غير سامي . ومعتمدهم في هذا الرأي وجود آثار في سوريا تعود الى عصر الطوفان . في حين ان اللغات السامية تدل على ان ابناءها بلغوا شأواً بعيداً من المدنية قبل تفرق فئاتها في اسيا الغربية .

وجاءت الابحاث الاتنولوجية مؤيدة الآثار . فان النقوش المصرية والاشورية القديمة مثلت السوري في معظم رسومها بسمرة اللون واسوداد الشعر . ولكن وجد بضعة رسوم تمثله اشقر اللون احمر الشعر . فيستنتج من هذا ان الشعب الذي قلت رسومه سبق الساميين في سكنى هذه البلاد . وهي أمة انقرضت بزحف الساميين ، او هاجرت هذه المنطقة ، او مازجت النازلين فيها بالتزاوج فتعذر بعد ذلك معرفة اصولهم .

وذكر ابو الفداء (١:٩٨) ان العمالقة لما تبلبلت الالسن نزلوا بصنعاء اليمن ثم تحولوا الى الحرم واهلكوا من قاتلهم من الامم وقطن بعضهم بالشام

وقال بورتر في تاريخه عنهم (ص ١٩١) انهم من العرب البائدة وهم من ذرية عماليق بن لود بن سام .

وقد رأيت في ما سلف ان الاموريين سبقت لهم السكنى في هذه المنطقة مع العمالقة والروثان . والاموريون بحسب رواية التوراة (تك ١٠: ٦) من اصل حامي لانهم ذرية الابن الرابع لكنعان بن حام . وقد ثبت ان انتجاعهم الشام كان قبل مجيء ابراهيم اليها . ويرى لازمان ان حلولهم في سوريا حدث في سنتي (٢٣٠٠—٢٢٥٠ ق.م.) لثورة عيلام على كوش في هذه المدة . فهل يوجد ذلك مشكلة لمعرفة لغة هذا الصقع ؟ ولا سيما وان العمالقة والروثان من اصل سامي بخلاف الاموريين . ان هذه القضية المعقدة حلها علماء اللغات بهذا الشكل .

قال الدكتور سميث (ص ١: ٩٩) ان الكنعانيين تكلموا باللغة السامية ولكن التوراة جزمت بانهم حاميون . واثبت ذلك المؤرخون الوثنيون الذين قرروا ان وطنهم الاصلي الارض المجاورة للاوقيانوس الهندي . ولعلهم هاجروا من هناك لمضايقة الساميين لهم . وكانوا قد الفوا لغتهم . فلما اتوا الشام ورأوا اهلها يتكلمون بالسامية شاركوهم بها لألفتهم اياها من قبل .

وذهب لازمان (١: ٣٣٠) ان اللغات الحامية والسامية من اصل واحد بدليل ان نحوها وضمائرها وصيغ التأنيث والجمع ونحو نصف اصول الكلمات واحد في اللغتين . ويظهر من انفصال الحامية عن السامية قديم جداً سبق تقدم اللغات وتحسنها .

وجاءت ابحاث الاستاذ كلاي مؤيدة ذلك لان الاموريين كانوا يتكلمون لغة سامية . ولكنها لغة حديث لا لغة كتابة . ومع ان دولة الاموريين دالت في القرن العشرين ق.م لكن اللغة التي تكلموا بها ظهر اثرها في اللغات البابلية والآرامية والعبرانية حتى اعتبرها الاستاذ اماً لهذه اللغات الثلاث . واثبت درس الاعلام فيلولوجياً وجود اسماء امورية كثيرة فيها .

ومن القرن الثالث والعشرين الى القرن الثامن عشر ق م كانت سوريا الشمالية ذات صلة قوية بالكتابات البابلية . وسمي اهل البلاد فيها « مارثو » (الهلال ٣١ ص ٢١٨ و٣٣ ص ٢١٨) ولكن هذه اللغة لم تكن لغة العامة بل لغة السياسة والتجارة .

اذن نستطيع ان نرجح ان لغة قدماء الحمصيين في نشأتها الاولى كانت لغة سامية مع وجود قبيلة كنعانية فيها · وجزم الدكتور حتي (الكلية ٨) ان اللغة السامية الاولى المحكية في هذه البلاد انما هي اللغة الامورية ولزيادة التثبت نلخص ما قرره علماء اللغات الشرقية ·

ان اللغات السامية مقسومة الى قسمين كبيرين شمالي وجنوبي ·

فمن الجنوبي العربية والسوقطرية والحبشية ·

ومن الشمالي (وهو الذي يهمنا الآن) الامورية والاشورية والكنعانية (بفرعيها العبراني والفينيقي) والآرامية بفرعيها الشرقي (الكلداني) والغربي (السرياني) والنبطي والتدمري ·

ويظهر ان فرع الكنعانية الاول (العبرانية) كان لغة فلسطين والثاني (الفينيقية) لغة السواحل · وهذه كان لها ثلاث لهجات الجبيلية وهو الاقرب الى العبرانية · والصيداوية وهي اكثرها انتشاراً والبونية وهي لغة من أمَّ افريقيا ·

اما عدم وجود اثر لهذه اللغة في حمص فناتج من ان قاطني هذه المنطقة لم يكونوا لاول عهدهم بحاجة الى الكتابة اذ قصروا اهتمامهم على رعاية المواشي والاقتيات بلبانها والاكتفاء بصوفها ولم يحتاجوا الى تصوير افكارهم بالكتابة قبل الحقبة الثانية وما وليها ·

﴿ خلاصة ما تقدم ﴾

ان هذه المنطقة كانت مأهولة قبل عمرانها بعدة قبائل متبدية انتشرت في سهلها الواسع منها اللوديون الذين تسميهم الآثار الاشورية « مارثو » والمصرية « روثنو » · والعمالقة الذين نزحوا من اعالي جزيرة العرب · والاموريون الذين قدموا من جهات خليج العجم · ولاسبيل لتعيين اقدم هذه القبائل في هذه البقعة لتقارب العهد بين هذه العشائر · والامر المتفق عليه انهم تمازجوا بعد وجودهم وتفاهموا وكانت اللغة الامورية وسيلة هذا التفاهم · والفروق القليلة بين

لهجاتهم سهلت على بعضهم التفاهم مع غيرهم . وجمعت بين الجميع حياة البداوة البسيطة التي لذت لكل منهم . وكان مرتع مواشيهم وادي العاصي الواسع النطاق ، سبباً لعدم تنازعهم على المراعي فيما لو كانت البقعة ضيقة .

آوى هؤلاء في اول الامر الى الكهوف والخيام . وبعضهم عملوا اكواخاً من قش ونصبوها فوق التل الكائن في ذلك المنبسط ، المعروف اليوم بالقلعة . يرتادونها ليلاً للنوم وينحدرون منها في الصباح لأجل رعاية المواشي .

فلما مرّ بهم الغزاة الاشوريون نظير لوكالزاغيزي وسرجون الاول شعروا انهم بحاجة لاتقاء اخطار المقتحمين . لان عددهم فضلاً عن انه لا يكفي لصد الغزاة . فهو لا يحول دون وقوع عدد من مواشيهم بيد الغزاة . نخطر لهم لاول الامر الاعتصام بالتل . ولكنهم رأوا بالاختبار ان توقل تلك الاكمة ليس بالامر المتعذر فيما لو شاء الغزاة . نخندقوا ذلك التل ووضعوا المستخرج من ترابه فوق التل ، فعلا ارتفاعه ولكن هذا ايضاً لم يكن الحاجز الحصين . وكان عدد منهم ممن له صلة قريبة او بعيدة بالبابليين قد تعلم منهم صناعة البناء فاشار على قومه ببناء مآوي من حجر بدل الاكواخ القشية والخيام الشعرية والمغاور السهلة الطروق . واحاطة تلك الابواب بسور محكم البناء تجعل فيه منافذ الدخول والخروج ويحكم اقفالها كلما مست الحاجة . فيأمن الرابضون فيه غدرات الايام وطوارق الحدثان . ولما نضجت هذه الفكرة ورأت لها مرتعاً في رؤوس القوم ، هيأوا المواد اللازمة للبناء ثم اختاروا الموقع

الحالي مع انحراف غير كثير الى الغرب . وكان هذا الموقع اصح بلاد الشام هواء وتربة (كما قال الاصطخري) وتم هذا في الوقت نفسه الذي بنيت فيه حماة في الشمال وبعلبك في الجنوب . الا ان وجود حمص (او حماة صوبا اسمها القديم جداً) في طرف المستوى الواقع بين لبنان الغربي والشرقي جعلها عرضة للعواصف الشديدة كلما اشتد الحر في سهلها . كما يعلل الميتورولوجيون سببه ان الهواء يخف متى ارتفعت درجة حرارته فيعلو ويفرغ الوطأ الذي كان يشغله . فينحدر اذ ذاك الهواء البارد من الجبال ليملأ الفراغ الحادث في السهل بارتفاع هوائه بالحرارة فتحصل العواصف .

وسواء كان واضع اساس المدينة حمث بن كنعان بن حام كما ذكر بعضهم او عملاق بن لود بن سام كما روى اخرون فان زمن تأسيس المدينة لا يتجاوز القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد .

وبرزت حمص بعدما كمل عهدها بالعمران مدينة ذات شأن ودل موقعها على حسن تفكير مخططيها لان الوادي العريض الواقع فيما بين لبنان وانتيابنان الذي حمص مركزه ، لهو الصقع الوحيد في سوريا كما قال « تشارلس فوستر كنت » (جغرافية الكتاب ص ٨٨) الجدير بان يكون مقر تمدن عظيم ومملكة كبيرة . لانه محاط بالسهول ومحمي بسلاسل الجبال . بحيث يستسهل الشعب النشيط المستقر فيه – لا أن يأمن الاخطار فحسب بل – ان ينشر سيطرته الفعلية على الاقطار المجاورة .

وقد ولي شؤون حمص (او ميزوبا) الاموريون او العمالقة المدعوون الجبابرة الذين دلت بقايا بعضهم على طول قاماتهم وضخامة



نشأة حمص الاولى — التل عاصم من الوحوش ، والسهل مرعى الماشية انظر ص ٣٨ و ٦٣

ابدانهم . قال مسبيرو : عندما هاجم الجيش المصري سوريا لم يكن بين سكانها الاقدمين سوى بعض القبائل المشهورة بهيكلها العظمي الكبير . منهم العماليق والزمزيم وكلهم من الرجال ذوي الطول الخارق العادة اه .

عاش الاهلون في هذه البقعة حياة يستطاع حسبانها حياة رخاء لانها الحياة الطبيعية . فكان لساكنيها من حبهم العمل ما يدفع عنهم غائلة البؤس ، ومن شدة بأسهم ما يقيهم تعدي المجاورين .

ومست الحاجة في مدة القرون الاربعة التي طوتها هذه الحقبة . ان يمارس الحمصيون – عدا رعاية المواشي وحراثة الارض – بعض المهن الضرورية لمجموعهم كالحدادة والبناء درءاً للاخطار واقراراً للأمن .

وتحسنت حالة المجتمع بمماسة افراده اعظم ملوك الشرق . نظير كدر لاعومر وحمورابي وسميرام . ونبهت هذه الغزوات افكارهم لتشييد عدة حصون في مشارف المنطقة ، لاستطلاع اخبار الغزاة والعمل على دفع اذاهم عن المدينة . فكانت حماة في الشمال وقادس في الجنوب وقطنه في الشرق ومريامون في الغرب وجبيل على الساحل .

ويرى بعض الاثريين ان الحمصيين اخذوا عن الاشوريين عبادة الشمس . ولكن اخرين يرون العكس . وانما كان ميل الحمصيين الى هذه العبادة طبيعياً فيهم . غير انه لم يظهر جلياً الا في الحقبة الثانية .

﴿ الملمعون الى هذه الحقبة ﴾

لم نجد في تضاعيف مطالعاتنا من عاصر هذه الحقبة من كتاب التاريخ لنذكره في ختامها ، لان هذه الحقبة سبقت عصر التاريخ . ولكن المؤرخين الذين وجدوا بعد هـذه الحقبة ، حفظوا لنا من مكتوبات سنكونياثون ما كشف الغطاء عن كثير من تاريخ وعادات البلاد السورية في هـذه المدة . فنأتي على ما اتصل بنا عنه انارة لسبيل من يريد استجلاء غوامض التاريخ .

سانكون ياوثون

سنكون ياوثون او سنخونياوثون حسب لفظ الاقدمين او يتن اتباعاً للهجة من يختصرون الاسماء . هو رجل فينيقي الاصل ، ولد وعاش في بيريت (بيروت) وقيل انه ولد في صيدا او صور . الف كتاباً باللغة الفينيقية عن تاريخ فينيقية واعتقاداتها وألمّ ايضاً في ما كتبه بعقائد المصريين لصلتهم بفينيقية . وقد جمع كتابه هـذا من التقاليد الفينيقية وسماه (فينيكيكا) وترجم هـذا الكتاب الى اليونانية هيران فيلون الجبيلي . ولسوء الحظ فقد الاصل الفينيقي ولم يبق من ترجمته سوى اجزاء حفظتها اسفار يوسيفوس واوسابيوس وبرفيريوس الصوري ويوحنا الدمشقي وسواهم .

على ان هـذا الباقي نال اعتبار اهل العلم لاعرابه عما حدث في الحقب العريقة في القدم . والاخبار التي نقلها عنه يوسيفوس واوسابيوس ، انما اخذها سنكوياثون عن مؤرخين سابقين ، فقدت مؤلفاتهم وهي تطابق ما رواه موخ واودام تلميذ ارسطو .

وقد تداولت ايدي المؤرخين على اختلاف آرائهم فقرات يتن واطلع على كتابه اوريجان وكليمس الاسكندري واسطفان البيزانطي ويوحنا الليدي وسواهم .

اما الزمن الذي نشأ فيه هذا المؤلف فيتعذر الجزم به . فقد ذهب بعضهم الى انه نشأ في القرن العشرين قبل الميلاد ولعله من مبالغات من يحترمون القدم كثيراً . ووضعه بعضهم في مصاف رجال القرن السابع عشر ، وكلا الفريقين

يذهبان الى معاصرته اسطورة سميرام عــلى اختلاف المؤرخين في تحديد زمنها.
واكتفى بعض محبي القدم بالقول انه عاصر موسى في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وذهب غيرهم الى انه عاصر جدعون في اواسط القرن الثالث عشر ، وقال غيرهم بل عاش في عصر حيرام في اواخر القرن الحادي عشر .

اما الذين لا يرون للقدم ميزة فذهبوا الى انه حديث العهد . وبالغ بعضهم في حداثة عهده حتى قال انه إنما نبغ وقت ميل الوثنية الى التلاشي . غير ان هذا الزعم لا يؤيده اساوب الكتاب ولا مروياته التي تدل على انها اقدم عهداً بكثير من ذلك . ولو كان حديث العهد لألمّ بذكر شيء عن اسلافه . على ان بعضهم ارتأى من نسق تأليفه انه نبغ بعيد فتوحات الاسكندر . وهؤلاء انما نظروا الى ما ترجم عن الاصل لا الى الاصل ذاته .

وكيفما كانت الحال فما ورد في الكتاب قديم العهد جداً . وكتابته تدل على ان الكاتب مخلص فيما رواه ، وانه كتب ما كتبه عن اعتقاد . وهذا يكفي للدلالة على قدم عهده . ولذا نسبه فيلون الى عصر سميرام الاشورية ونسبه اثينيوس وبرفيريوس الى ما قبل حرب ترواده .

غير ان جماعة من المحدثين اشتبهوا في حقيقة وجوده كما اشتبهوا بكثير من القدماء . وزعموا ان الكتاب برمته من وضع فيلون الجبيلي . ولكنهم لم ينكروا ان ما نسب اليه لا يخلو من القيمة والاعتبار في ذاته ، لانه مبني على قصص وحكايات كانت جارية على السنة القوم في الازمنة الغابرة . وهذا رأي معظم المحققين في هذه الايام ، بل ان اشهرهم اقروا بوجود « يتن » مثل ايفلد وربنان وسواهم .

على ان نسبة السفر الى فيلون ينقضه ان ما بقي من منشآت فيلون يختلف عما ترجم عن يتن . فلا مناص من الاعتراف بانه ترجمة عن اصل آخر لسواه . وظل بهذا يتن معتبراً اشهر من كتب عن فينيقية . كما اعترف له بهذه الميزة سويداس واثيناس وموخ وغيرهم .

والمعروف عن سنكونياتون انــه تفقد الهياكل الفينيقية القديمة واستعان بكهنتها على قراءة الكتابات السرية المنقوشة على اعمدتهــا وحل رموزها . ودون ما استفاده في كتاب خاص ، ترجمه فيلون اخــيراً الى اليونانية واعتمد

هذه الترجمة يوسيفوس واوسابيوس وبرفيريوس من القدماء، وبوشار وسلدن وسكاليجر من الحدثاء .

وجاهر بعضهم بان « يتن » لم يكن اقدم مؤرخ فينيقي فحسب ، بل هو اعظم مؤرخ عالمي . لان كل ما يتصل بالبشر من اخبار العالم القديم انما اقتبس من مضامين بقايا كتاباته .

ان ما حفظ من تاريخ يتن في كتاب الاستعداد لاوسابيوس قد ترجمه ونشره كمبرلاند الى الانكليزية وذيله بملاحظات تاريخية وافية وطبع في لندن سنة ١٧٢٠ .

ونشر اوراللي القطع اليونانية وطبعها في ليبسك سنة ١٨٢٦ . ونشر فريدريك واجنفلد سنة ١٨٣٧ في برلين كتاباً ادعى انه تاريخ « يتن » اليوناني الاصلي . ولكن البحث الدقيق اظهر عدم صحة هذه الدعوى (البستاني ١٠ : ١٣٠) .

ويحسن بنا في ختام الحديث ان نورد ما قاله اوسابيوس فيه : ان هذه الامور عني بشرحها سنكونياتون . وهو مؤلف قديم جداً يقال انه كان قبل حرب ترويا (تروادة) ورووا انه كتب التاريخ الفينيقي متحرياً الصدق . ونشر فيلون الجبيلي جميع ما صنفه هذا المؤرخ بعدما ترجمها الى اليونانية . وذكر ذلك خصمنا المعاصر (برفيريوس الصوري الذي الف ١٥ كتاباً ضد النصرانية) .

وروى اوسابيوس عن برفيريوس هذا ان سنكونياتون بيروتي الوطن . وانه اخذ مادة تاريخه عن هيرو بعل كاهن الآله ياهو . وقدم كتابه لابيبعل ملك بيريت فسر به . وانه كان قبل حرب ترويا كما يظهر من تاريخ الفينيقيين اهـ .

هذا هو سنكونياتون الذي اخذنا معلومات كثيرة عنه لاجل تاريخ حمص القديم ولاسيما الحقبة الاولى منه التي نجمل ذكره مسك ختامها .

الحقبة الثانية

حمص

في ايام المصريين والهكسوس والحثيين والميتانيين

١٩٠٠ — ١٢٢٥

امم سوريا القديمة — توطئة

لا يستطيع من يكتب شطراً من تاريخ سوريا كاملًا او مجزءًا ، افهام قارئيه ما يكتبه ، ان لم يلم بتعريف الأمم التي قطنتها والتي كانت لها بها صلة . سواء اكانت تلك الصلة صلة صداقة او عداء . ولذلك لا نجد بدأ ونحن نبغي الاحاطة بتاريخ جزء من هذه البقعة من ارسال شمّة على خبايا هذه الامم لكي لا يؤدي الاغضاء عنها الى غموض ما نريد جلاءه من تاريخ حمص فنقول .

ان لتاريخ حمص صلة بامم كثيرة قديمة بعضها ممن قطن في سوريا في عصور متفاوتة كالاموريين والعمالقة . وبعضها ممن اقتحمها لبسط سيطرته عليها او ليثأر من قاطنيها كالمصريين من الجنوب الغربي والاشوريين والكلدان من من الشمال والجنوب الشرقي . وقد سبقت لنا كلمة عن الاولين في الحقبة الاولى . ونتكلم الآن عن المصريين والرعاة والحثيين والميتانيين .

١) — المصريون

مصر منطقة واقعة في الشمال الشرقي من افريقية ، تمتد على جانبي النيل في وادٍ متعرج بين سلسلتين من الجبال ، احداهما جبال العرب وهي الشرقية

منها والثانية جبال لوبيه وهي الغربية . ويحد مصر من الشمال بحر الروم ومن الجنوب السودان ومن الشرق البحر الاحمر وبلاد العرب والشام ومن الغرب طرابلس والصحراء . وتقسم مصر الى قسمين قبلي وهو يمتد من الحدود الجنوبية الى القاهرة ويسمى الصعيد ايضاً . وبحري وهو البقعة الواقعة بين فرعي النيل ويسمى الدلتا ايضاً لان شكله يشبه الدلتا اليونانية .

والمصريون من اصل حامي خالطهم في الازمنة القديمة اقوام ساميون جاؤوا من اسيا عن طريق برزخ السويس . والامة المصرية من اقدم الامم مدنية . ولذلك يضعها مؤرخو العصور القديمة في طليعة الامم القديمة التي يتولون تاريخها . واقدم مؤلف كتب عن مصر خاصة باسهاب انما هو مانيتون الكاهن المصري الذي نبغ في القرن الثالث قبل الميلاد وألمّ بتاريخ مصر القديمة ناقلاً مروياته عن السجلات الرسمية لدولها الاحدى والثلاثين التي ندون في ما يلي خلاصة عن اهم حوادث ايامهم .

فاشهر ما حدث في ايام الدولة الاولى بناء مدينة منف التي انشأها مينيس اول ملوكها وتحويل النساء الجلوس على العرش بامر بينوتريس احد ملوك الدولة الثانية .

وبناء تمثال ابي الهول في مدة الدولة الثالثة .

واهرام الجيزة التي انشأ اكبرها خوفو احد ملوك الدولة الرابعة .

ومقبرة سقارة التي احدثت في ايام الدولة الخامسة .

والرسوم المتقنة التي وجدت في ايام الدولة السادسة .

واحسن عصور مصر كانت في مدة الدولة الثانية عشرة اذ انضمت آنذاك اقسام مصر كلها تحت لواء واحد قاعدته طيبة ، ومن مآتي احد ملوكها الحسنة ارواء الفيوم بمياه بحيرة مورس ومن آثار ملوكها مسلة المطرية .

اما الدول الـ ١٥ والـ ١٦ والـ ١٧ فملوكها غرباء قدموا من اسيا فدعاهم البعض عمالقة ورأى بعضهم انهم عرب وقال البعض الآخر انهم حثيون ولعلهم كانوا لفيفاً ممن ذكر وممن لم يذكر . اقتحموا الاراضي المصرية بداعي القحط لايجاد مراعي لمواشيهم ومكنتهم الفتن الاهلية من احتلال قسم من مصر ثم اتموا احتلال الباقي في ما ولي ذلك من السنين . ويظن ان طلائعهم قدمت في

مدة الدولة الرابعة عشرة كرعاة ولكنهم وطدوا اقدامهم في مصر بعدما استولوا على مراعي الدلتا النضرة . وانشأوا ثمة دولة عرفت بعدئذ بدولة الرعاة (الهكسوس) وفي ايام دولتهم الثانية (وهي الـ ١٦ من الدول المصرية) قدم عدد كبير من السوريين والعرب الى مصر فاكرمهم الرعاة وجندوا منهم جيشاً استعانوا به على الفتح وجعلوا اواريس معسكراً لهم . ومن ملوك هذه الدولة «راكانن» الذي يسميه العرب الريان بن الوليد وفي ايامه بيع يوسف للعبودية .

يلي ما ذكر السلالات الـ ١٨ و ١٩ والـ ٢٠ والـ ٢١ وتعرف في تاريخ مصر بدول مصر الحديثة ، ومن مشاهير ملوكها توتمس الثالث الملقب اسكندر التاريخ المصري . وامنهوتب الرابع وكلاهما من ملوك الدولة الثامنة عشرة . وساتي الاول ورعمسيس الثاني الملقب بالكبير الذي اضطر الاسرائيليين ان يبنوا له مدينتين اطلق على احداهما اسمه ، وفي ايام ابنه منفتاح خرج الاسرائيليون من مصر ، وصلات دول مصر الحديثة قوية بتاريخ حمص .

وفي ايام الدول الـ ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و٢٥ بدأ الوهن في حكومات مصر فتسنّى للاشوريين ان يبسطوا سيطرتهم عليها سنة ٩٥٠ ق‌م ونشأت منهم الدولة الـ ٢٢ وسادها الايثوبيون ايضاً وانشأوا فيها الدولة الـ ٢٥ .

ولكن تمكن الامير بساماتيك في اواسط القرن السابع قبل الميلاد ان يطرد الغزاة وينشىء الدولة الـ ٢٦ فكانت ايام هذا الملك عصراً جديداً لمصر .

واقتدى نخو الثاني بابيه المذكور فهاجم الاشوريين وصرع يوشيا ملك يهوذا لوقوفه في طريقه (٢ اي ٣٥ : ٢٠—٢٥) ثم مرّ بقادش وكركميش وبلغ الفرات ، ولما نزل بجهات حمص بلغه تمرد اليهود فعزل يهواحاز ملكهم وولى اخاه يهوياقيم وعاد الى مصر . وسعى نبوخذنصر لاسترداد سوريا بعدما خرب نينوى سنة ٦٢٥ فحصلت بينه وبين نخو معركة عند الفرات سنة ٦٠٥ انكسر فيها نخو ومات بتأثير هذه الكسرة بعد سنين . وخلفه ابنه بساماتيك الثاني سنة ٥٩٦ فاخضع ايثوبيا سنة ٥٩١ وقضى نحبه . وخلفه ابنه حفرع سنة ٥٩٠ فاستنجده صدقيا على نبوخذنصر فانجده فنقم عليه نبوخذنصر لانه بعدما قتل صدقيا سنة ٥٨٦ استعد لغزو مصر فاغار عليها سنة ٥٧٢ وقتل ملكها وساق اليهود الذي استوطنوها الى الشرق .

وفي ايام آخر ملوك هذه الدولة اقتحم كمبيز الفارسي مصر ، فاسر بساماتيك الثالث ابن احمس سنة ٥٢٧ وانشأ في مصر الدولة السابعة والعشرين . فخضع المصريون للفرس مدة ١٢١ سنة . ثم تمردوا في ايام داريوس اوخوس فطردوا الفرس ونشأت الدولة الثامنة والعشرون المصرية (٤٠٦—٣٩٦) .

وبعد ست سنوات ثار المصريون على اميرثيوس منشىء هذه الدولة لانه لم يكن من سلالة ملكية . وتولت العرش اسرة اخرى عرفت بالمنديسية وهي الدولة التاسعة والعشرون (٣٩٣—٣٧٨) عاهد ثالث ملوكها الفينيقيين على الفرس

ثم تسنمت العرش اسرة سمنودية (٣٧٨—٣٤٠) وهي الدولة الثلاثون قام منها ثلاثة ملوك ثالثهم اهاج الفينيقيين على الفرس فاستاء الاخيرون وبعد ان كسروا الفينيقيين هاجوا مصر فكسروا جيشها الكبير وفرّ ملكها الى كوش

وعادت مصر بعد استقلالها ١٦ سنة للخضوع الى الفرس ثماني سنوات (٣٤٠—٣٣٢) وهي مدة الدولة الحادية والثلاثين ، وفي ايام ثالث ملوك كوددمان (دارا الثالث) ضعفت دولة الفرس وعلا نجم اليونان بظهور اسكندر المكدوني الذي ثل عرش الفرس واستولى على مصر سنة ٣٣٢ .

٢ً) — الهكسوس (الرعاة)

مرَّ بنا ان قد اقتحم مصر في العصور القديمة زحف بدوي احتل بعض مقاطعاتها . ثم توصل الى العرش فكان من هؤلاء الزاحفين ثلاث دول (ال ١٥ و١٦ و ١٧) وما كنا لنعرض لذكرهم لولا ان لهم صلة بتاريخ البقعة الحمصية فوجب ان نلم بما تمكن معرفته عنهم لبلوغ الهدف الذي سعينا اليه .

من هم الهكسوس ؟

متى احتلوا مصر ؟

ما هو اثر احتلالهم في بلادنا ؟

من هم الهكسوس ؟ اختلف الباحثون في اصلهم ، فذهب البعض الى انهم احدى القبائل الرحل التي كانت ترعى السائمة في الجهة الشرقية من مصر وذهب آخرون الى انهم عرب متبدون اقتحموا البلاد المصرية التماساً للـ

فيها لاجل ماشيتهم . وذهب غيرهم انهم من القبائل الامورية والحثية ضاقت بقعتهم بذراريهم فالتمسوا سعة في القطر المصري

وهنالك من زعم من الحدثاء انهم من الكلدان القدماء الذين طردهم العيلاميون أموا مصر لانذين فوجدوا موطناً فاستقروا فيه .

ويتعذر الجزم باصح الآراء ولكن كيفما كانت الحال فما لا شبهة فيه ان المذكورين اما ان يكونوا من منطقة حمص او من المارين بها لبلوغ هدفهم . ولذلك كانت نقمة مصر على حمص شديدة بعد طردها الرعاة .

ان الفئة المشار اليها دخلت البلاد المصرية واحتلت ارباضها ، ثم تسنمت ذروة العرش . وقام فيها ملك قاس، اثار برسالته الشديدة حماسة احد الامراء المصريين ، فشق عصا الطاعة في ايام الدولة السابعة عشرة . وحاربها فكانت الحرب بينهما سجالاً وظل الامر كذلك الى ان قام رئيس وطني اسمه احمس جمع كلمة مواطنيه ، وحارب الرعاة فتغلب عليهم ، واعاد الملك الى المصريين . وهو اول ملوك الدولة الثامنة عشرة التي بلغت مصر في ايامها اوج مجدها .

وتبسط المرحوم جرجي زيدان (العرب قبل الاسلام ص ٥٢) في شرح هذا الحادث التاريخي الهام فازال بدقة بحثه ما اكتنفه من غموض ونحن نلخص عنه ما يهم الاطلاع عليه في ما يلي .

« كان المصريون يسمون اهل البادية من الساميين « شاسو » اي البدو . وكان هؤلاء الذين أموا مصر من الشرق بطريق السويس يتنقلون في بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر الاحمر . كما كان بدو الآراميين يتنقلون غربي وادي الفرات ويسطون احياناً على المصريين في مدنهم .

ففي اواخر ايام الدولة الثانية عشرة بعد وفاة امنمحات ، فرّ ابنه سنهات الى فلسطين — من وجه اوتسرتسن الذي خلف اباه — وتزوج ابنة ملكها « عموانشي » وتولى بعض اعمال الشام . فلما شاخ (سنهات) نال عفو ملك مصر وعاد الى بلاده فحسنت بذلك الصلات بين مصر والشام .

وفي عهد اوتسرتسن الثاني شخص الى مصر ملك عربي اسمه ابيشع وزار احد امراء ولايات مصر الوسطى فزاد ذلك في تحسن الصلات .

ولكن اوتسرتسن الثالث الذي كان ذا بطش حمل على فلسطين يبغي

اذلال ملكها . فتقم الساميون على المصريين واغتنم العمالقة هذه الفرصة فوثبوا على مصر السفلى واحتلوها بضعة قرون في نفس الوقت الذي ملك العرب بابل . وفتح العمالقة الوجه البحري الى منف وتقهقر الفراعنة الى الصعيد في اواخر القرن الثالث والعشرين ق م وظلت مصر في حوزتهم الى اواخر القرن الثامن عشر (٢٢١٤—١٧٠٣) وعرفت دولتهم بدولة البدو وسماهم اليونان هيكسوس والعرب عمالقة .

ومن مرويات العرب ان بعض ملوك مصر استنصر ملك العمالقة بالشام لعهده واسمه الوليد بن دومنغ ، فنصره وملك مصر واستعبد القبط . ويقال ان من هذه الدولة فرعون ابرهيم (سنان بن الاشل) وفرعون يوسف (الريان بن الوليد) وفرعون موسى (الوليد بن مصعب) .

ونقل يوسيفوس عن مانيتون المصري ما يلي : اتفق على عهد تيماوس احد ملوكنا ، ان الآله غضب علينا فأذن لقوم لا يعرف اصلهم جاؤوا من الشرق وتجاسروا على محاربتنا . فغلبونا على بلادنا واذلوا ملوكنا واحرقوا مدننا وهدموا هياكلها . وساموا الناس ذلاً وخسفاً ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والاولاد . ثم نصبوا عليهم ملكاً منهم اسمه سلاطيس اقام في منفيس وضرب الجزية على مصر اعلاها واسفلها . واقام الحامية في المعاقل لدفع الاشوريين عن وادي النيل متى طمعوا به . وبنى مدينة لواريس في ولاية صان لهذه الغاية . وحصنها بالابراج والقلاع والاسوار . واكثر من حاميتها حتى بلغ عددهم ٢٤٠ الف . وكان سلاطيس يأتي اليها في الصيف لجمع الحنطة ودفع رواتب الجند وتمرينهم على الحرب . وعين مانيتون مدة الملوك كما يلي — سلاطيس ١٣ سنة بيون ٤٤ ابا خناس ٣٦ ابونيس ٦١ يانباس ٥٠ اسيس ٤٩ ومجموع مدة حكمهم ٢٥٣ سنة .

٣) — الحثيون

قال الدكتور بين سميث في تفسير سفر التكوين (٢٣ : ٢) : ان الحثيين قبيلة كبيرة قويت ابان تغرب الاسرائيليين في مصر وصارت مملكة عظيمة شديدة حتى انها استطاعت ان تحارب المصريين . وكانت عاصمتهم حمص وهي

مدينة في شمالي سوريا وقد عرف تاريخها اليوم من اخبار المصريين التي وجدت على بعض عادياتهم ووجد في حماة حجارة سود منحوت عليها كتابات طويلة في اللغة الحثية اه ٠

ذكر الحثيون في عدة مواضع من التوراة وهي اقدم المكتوبات التاريخية ولكن هذا لم يكن كافياً لكشف النقاب عن غامضات تاريخ هذه الامة ٠ وظل امرهم مكتوماً حتى نبشت آثار كثيرة اسفرت عن معرفة الكثير مما جهله قدماء المؤرخين وهو يلخص في ما يلي :

ان الحثيين من عرق آري ٠ وجدوا لاول عهدهم بالتاريخ في جبل اللكام ثم انحدروا نحو السهل في القرن الحادي والعشرين بسبب تكاثر عددهم ٠ فذهب فريق منهم الى كبادوكية غرباً ٠ وانتشر فريق آخر في الشرق الجنوبي ما بين الفرات وحلب وحماة وحمص ٠ ولما تكاثر عدد هؤلاء انحدر بعضهم الى الجنوب مستوطنين البقعة الجنوبية من سوريا ٠ ومن احد هؤلاء (عفرون الحثي) ابتاع ابراهيم الخليل مدفناً لاسرته ٠

ويظهر ان الحثيين كانوا اقوياء الشكيمة ذوي بأس في الحروب ٠ فقضوا بصولتهم على كثير من العناصر السامية ٠ واجتاحوا بلادها وشادوا فيها مملكة قوية منذ الالف الثانية قبل الميلاد ، وارشدتنا الآثار الى عدد من ملوكهم هذه اسماءهم واهم حوادثهم ٠

١) اول ملك عرفناه منهم هو « بيحوشتي » وهو الذي كسر غيتا خصم آبائه واسترد ما اخذه الكوثريون ٠

٢) تورهاليا الذي نبغ في القرن التاسع عشر ووسع حدود الحثيين فكانت لهم اربع عواصم حاتوشا وكوثر وتازا وزايا ٠

٣) تلابارنا وهو ملك عظيم وسع حدود المملكة الحثية كثيراً ٠ ودوخ مملكة توريشاندا ٠ واخضع الشعوب التي سيطر عليها حتى صار اسمه لقباً لملوك حث كقيصر للروم وكسرى للفرس ٠

٤) حاتوشيل الاول الذي اقتحم سوريا الشمالية وبسط سيطرته على حلب الحصينة واولاها عناية خاصة تباهت بها على المدن المجاورة ٠

٥) مورسيل الذي خضد شوكة حلب لما رآها طامحة الى توسيع حدودها

وزحف على بابل في القرن الثامن عشر وعاد منها بغنائم وافرة الى حاتوشا .

٦) تلوبينو النابغ في القرن السابع عشر الذي قضى مدة ملكه كلها في قمع الفتن الناشبة في شمالي مملكته .

بعد هذا انقطعت اخبار الحثيين من سنة ١٦٨٠—١٤٥٠)

٧) بعد الفترة ظهر تورهاليي الثاني الذي استرد حلب سنة ١٤٢٠ بعد خروجها من ايديهم مدة طويلة .

٨) حاتوشيل الثاني الذي فاز بعدة معارك في سوريا الشمالية .

٩) تورهاليا الثالث الذي مني بانكسارات متواترة حملت ابنه على قتله لانقاذ المملكة من الخراب .

١٠) سوبيلوليوما (١٣٨٧—١٣٤٧ وهو اعزّ الملوك الحثيين شأناً امتدت فتوحاته الى الدجلة وطوق مملكتي الحوريين والميتاميين وحور غربي الفرات ودانت له كركميش فجعلها قاعدة الشمال ودمّر قطنه (شرقي حمص) واستولى على قادس ولولا فتن الاناضول (١٣٧٨—١٣٥٨) لغزا مصر .

١١) مورسيل الثاني بن سوبيلوليوما الذي اظهر نزاهة في شؤون الاسرة

١٢) حاتوشيل الثالث الذي استغفر الالهة لموت جدته وامه موتاً غير طبيعي معتذراً عن الحؤول دون ذلك بصغر سنه .

١٣) مواتعلو بن مورسيل (١٣٢٠) الذي حدثت في ايامه حرب ساتي الاول (١٣١٨) ورعمسيس الثاني (سنة ١٢٩٤) .

١٤) اورخي تحشوب (١٢٩٢—١٢٨٥) الذي رأب الصدع الذي احدثه المصريون في المملكة .

١٥) حاتوشيل الثالث سنة ١٢٨٥ الذي ظهرت في ايامه مطامع سلمناصر الاول الاشوري (١٢٨٠—١٢٦٠) فاضطر بسبب ذلك ان يعاهد رعمسيس سنة ١٢٧٨ ويزوجه ابنته .

بعد هذا كثر العراك بين الحثيين والاشوريين مما ندع تفصيله للحقبة الثالثة ، وخلاصة ما تقدم ان الحثيين في هذه الحقبة كان لهم اربعة مراكز حربية كركميش في الشمال الاقصى ، وياتين عند مصب العاصي ؛ وقادش في وادي العاصي ومجدو في سهل يزرعيل (مرج ابن عامر) .

ومن شاء التوسع فليطالع ما كتبه السيد قيصر صادر عضو العاديات الاسيوية في المقتطف ٧٩ ص ٥٥٤ و ٩٠ ص ٦٤ و ١٩٨ الخ .

٤) – الميتانيون

ظلت هذه الامة مجهولة الاثر احقاباً طويلة وكادت تدخل في عالم الفناء لولا ان الحفريات الحديثة كشفت الغطاء عن تاريخها منذ القرن الخامس عشر ويؤمل ان متابعة الحفر تظهر تاريخها القديم برمته ، وما اكتشف حتى الآن نالت حمص حظاً منه اذ له صلة بتاريخها القديم كما سترى .

ان بعض المستندات المأخوذة من اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد دلت على وجود شعب قوي كان في شمال الجزيرة ورث الحضارة السومرية وشاد حضارته على انقاض تلك . وظهرت قوة هذا الشعب في الالف الثانية ق م اذ وجدت عدة اسماء مأخوذة من لغته الصعبة .

كانت هـذه الدولة متاخمة للدولة الحورية في الشمال اذ كانت قاعـدة الحوريين اورفا وقاعدة الميتانيين شوكاني . وكانت مصالح الدولتين مرتبطة احداهما بالاخرى ارتباطاً وثيقاً ، وكثيراً ما اتحدتا اتقاء للاخطار . غـير ان الحوريين تضاءلت قوتهم في الالف الثانية وخبا ذكرهم . امـا الميتانيون فقد تألق نورهم واتسع نطاق مجدهم بعد ذلك . وانبسطت سيطرتهم على مجاوريهم مدة ليست بقصيرة . ويظن انها المدة التي انقطعت فيها اخبار الحثيين (١٦٨٠—١٤٥٠) .

وبلغ من سؤددهم انهم مـدوا سيطرتهم حتى بلغوا شواطىء العاصي وكان ممـا حصنوه مدينة « قطنه » التي كشفت اثارها من عهد قريب في موقع قرية المشرفة شرقي حمص . ووصلوا الى درجة من الـترف جعلت ملكهم سوزارطا (في اواسط القرن الخامس عشر) يعمل لعاصمته ابوابـاً من فضة وذهب . واعترف الفراعنة ان الميتانيين صدوا غـارة توتمس الاول . ولكنهم يذكرون ان توتمس الثالث كسرهم في حملته المشهورة على سوريا واسر منهم ٥٥٠ جندياً . غـير ان هذه العداوة بين المصريين والميتانيين انقلبت صداقة وصارت مملكة ميتاني في مقدمة الممالك الموالية لمصر . وفي مسلة امونيس الثاني

صورة لكبراء الميتانيين يقدمون له الجزية . ولعل هذه الصداقة نتجت عن معاداة الميتانيين للحثيين اذ سلبهم هؤلاء ما اقتطعوه من وادي العاصي وتعززت اواصر الصداقة بين المصريين والميتانيين بزواج توتمس الرابع ابنة ملكهم ارتطاما كما ان ملك الميتانيين سوطارنا قدم ابنته جيلوهيبا حظية لامنوفيس الثالث .

على ان هذه المصاهرة اساءت سيلوليوما الحثي فاخذ يطوق المقاطعات السورية الخاضعة لنفوذ الميتانيين ويحتلها بالدهاء واحدة بعد الاخرى ، حتى دانت له كل البلاد الواقعة غربي الفرات . فثار الميتانيون على ملكهم توزارطا سنة ١٣٧٠ فقتله ابنه اخماداً للفتنة . واستغاث ابنه الصغير ماتيعوذا بسيلوليوما فأيده واسترد له عرش ابيه وزوجه ابنته على شرط ان يكون عرش ميتاني للمولودين منها دون ذراري نسائه العشر . ولكن حظ ماتيعوذا أفل بوفاة حميه سيلوليوما سنة ١٣٤٧ اذ شعر الاشوريون بضعفه فهاجموه واستولوا على منطقته كلها ضامين اياها الى البلاد الاشورية . فباد ذكر الميتانيين من تاريخ الامم في اواخر القرن الرابع عشر (المقتطف ٩٣ : ٤٢) .

اما الوقت الذي نشأت فيه الدولة الميتانية فيستدل مما اورده تشارلس كنت في جغرافية الكتاب (ص ٨٧) انه كان حوالي نزول الكاسيتيين في بابل من جبال الشمال الشرقي الى ما بين النهرين ، في نفس الوقت الذي ثبتت اشور استقلالها . اذ ذاك نزلت سلالة آرية تعرف بالميتاني من الشمال وتسلطت على سهول الجزيرة وانشأت هناك مملكة عظيمة اه .

ووجدت في خرائب توزي الواقعة الى الجنوب من كركوك حيث ينابيع الزيت الموصلية نحو مئة لوحة توضح مدنية الحوريين والميتانيين حيث حكموا قبل اكتساح الاشوريين بلادهم (النشرة ٩٢٨ : ٤٣٩) .

وفي العصور القديمة (براستد عدد ٢٠٨) ان الاشوريين لما حاولوا التوسع غرباً اصطدموا بشعب ذي صلة بالجنس الهندي الاوربي الشمالي ، عرف بالميتاني كان يعبد الآلهة التي عبدها بعدئذ ابطال الآريين الذين فتحوا الهند . وكانت ميتاني في القرنين الـ ١٥ والـ ١٤ ق م دولة على جانب من القوة والسؤدد . فعبرت الفرات واجتاحت اشور وآبت منها بالاسلاب والغنائم . ولكن تواتر الغارات من الجوار (الحثيين) اضعف شأنها فخسرت ما بقي لها من قوة في منازلة الاشوريين اه .

ويرى بعض الاتنولوجيين ان الميتانيين احد فرعي أرام الكبيرين الذي قطن في ما بين النهرين (المباحث ٢: ٢٩٨) .

اهم حوادث هذه الحقبة

لا تخطىء اذا دعونا الحقبة الثانية الحقبة العسكرية . لانها بالحق كانت مدة حروب وغزوات متواصلة . من اول القرن العشرين الى اواخر القرن الثالث عشر ، لا تكاد تجد فيها هدنة . بدأت باقتحام غزاتهم البلاد المصرية واستقرارهم فيها في مدة الدول الثلاث (١٥ وال ١٦ وال ١٧) ثم بمهاجمة المصريين لها في ايام الدول الثلاث (ال ١٨ وال ١٩ وال ٢٠) ثم غزو الميتانيين هذه المنطقة في اثناء توقف المعارك الناشبة . ومقاومة الحثيين اياهم مقاومات سياسية وعسكرية انصبغ فيها تراب هذه الارض بالدماء . مما نلخصه ونرتبه لاستيعاب الذهن اياه مستمدين معلوماتنا عنه من الآثار المصرية كما رواها ثقات نشير اليهم في ذيول ما نرويه .

اولاً — زحف الحثيين على منطقة حمص

وقف بنا الحديث في الحقبة الاولى عند اواخر القرن العشرين . وفي هذه المدة وصل زحف الحثيين من الشمال الى المنطقة الحمصية بعدما اجتاحوا منطقتي حلب وحماة . فوجدوا في وادي العاصي مرتعاً خصباً لماشيتهم . وضاق مستوطنوا هذه البقعة بهم ذرعاً ، وحاولوا الحؤول دون نزولهم فيها ، ولكن حدتهم اخيراً انفثأت لثلاثة اسباب :

الاول — ان الوقوف في وجه الحثيين وهم من شدة الشكيمة وكثرة العدد والتدرب على المعارك ما لا تسهل معه مقاومتهم .

الثاني — ان ظواهرهم دلت على انهم قدموا لارتياد مراعي لمواشيهم . فقد يجدون منطقة اخرى اوسع نطاقاً من وادي العاصي يستقرون فيها .

الثالث — ان بقاء بعضهم في هذه المنطقة لا يضيرها بل قد يعزز مكانتها ويدفع عنها اذى الطامعين فيها .

كل ذلك يستلزم عدم الاسراع لمبادأتهم العداء . ولذا لان جانب الروثان لضيوفهم . كما ان هؤلاء رأوا في هذا الصقع الزراعي وفي ما وجدوه من مواقع حصينة بطبيعتها كقادس مثلاً ، ما ارتاحت اليه خواطرهم ، وحبب اليهم السكنى والاستقرار حيث حلوا . فرأوا من الحكمة مسالمة الاهلين واظهروا استعدادهم للعمل معهم في سبيل المصلحة المشتركة . فاستقر قدمهم في المنطقة ، ولم يمر وقت طويل حتى جمعت المصلحة بين الفريقين . فتصاهر العنصران ونشأت منهم ذرية موحدة المقاصد كثيرة الانعام قوية الجانب . بعضها يعمل لجلب الرزق بالطرق المشروعة . والبعض الآخر لرد عوادي الدهر . وعظم شأن المنطقة بتوثيق الصلات بينها وبين البلاد المجاورة التي بسطت فيها سيطرة الحثيين كحلب وحماة وسواهما .

ثانياً — الى بقعة أون

(تلك ٤١:٤٥ وار ٤٣:١٣ وحز ٣٠:١٧)

في تلك الآونة اتصل بمسامع حثيي حمص ان رهطاً من متبديهم مع نفر من بدو العرب والعمالقة ، قصدوا البلاد المصرية فرأوا فيها مرتعاً خصباً ومكنتهم الظروف من امتلاك تلك البقعة بسبب نشوب خلاف بين قادة الرأي في مصر . فألقى اولئك عصا التسيار في تلك البقعة ، واتخذوها موطناً لهم دون ان يلقوا مقاومة ما . فدفعت الحماسة عدداً ليس بقليل من قاطني المنطقة الحمصية للالتحاق باولئك ومشاطرتهم حظهم فيها (سينا لشقير ص ٦٨٦) فلقيهم اخوانهم في مصر برحابة صدر واتخذوهم عوناً على نوائب الدهر الممكنة الحدوث . ولم يمر وقت طويل على وجودهم هناك حتى قبضوا على ناصية الاحكام في جزء من البلاد ثم عمت سيادتهم معظم انحاء القطر ، وقام من زعمائهم ثلاث دول دعاها كاتبو تاريخ مصر الهكسوس او الرعاة واختلف المؤرخون في تعيين مدة وجودهم في مصر ، فذهب ماريت باشا الى ان مدتهم استغرقت ٥٦٤ سنة (٢٣١٤—١٧٥٠) ورأى مسبيرو ان مدتهم ٥١١ سنة (٢٢١٤—١٧٠٣) اما مايار فارتأى ان مدتهم ٤١٠ سنوات (١٩٨٥—١٥٧٥) ويرجح بعضهم رأي الاخير ويمكن التوفيق بينه وبين سابقيه بانه لم يحسب مدة النشوء الاول والمعارك الاخيرة التي استغرقت زمناً حسبه غير داخل في مدة الحكم .

ومما لا بد من الالماع اليه ان مانيتون الكاهن المصري نسب للرعاة ثلاث جنايات فظيعة : ١) حرق المدن ٢) هدم بيوت العبادة ٣) ظلم الابرياء بقسوة ومع ان صدور ما ذكر لا يستغرب في ذلك العصر ، لكن المحققين يرون ان هذه التهم فريات تعود المغلوبون الصاقها بالفاتحين . بدليل بقاء كثير من الآثار النفيسة التي سبقت عصر الرعاة. فلو صح ما نسب اليهم لكان اتلاف هذه الآثار اسهل عمل يأتونه . واذ لم يجد منهم شيء من ذلك فما نسب اليهم لا يخرج عن حدتهم عاطفية .

وقد كانت مدة وجود الرعاة في مصر ، في مصلحة الشاميين عامة اذ كانوا يلوذون باخوانهم ابان النكبات والمجاعات . ومن امثلة ذلك ارتياد العبرانيين مصر في اواخر القرن الثامن ق م بسبب القحط .

ويرى الاثريون ان السبب في خروج الرعاة من مصر نتج عن ان ابابي احد ملوكهم في المدة الاخيرة أمر امير طيبة بتقديم سات اوشتخ احد معبودات الرعاة على معبودات مصر . فشق ذلك عليه ، فأثار خواطر قومه على ابابي فثارت الفتنة ووقعت الحرب بين الفريقين . وطال امدها حتى انتهت اخيراً بتحرج موقف الرعاة في مصر . فرأوا بعد ما صمدوا للمصريين مدة طويلة ان يتفقوا معهم للخروج من مصر بصورة شريفة . فأخلوا البلاد على ان يذهبوا حيث شاؤوا آمنين المغبة . فساروا الى الشام حيث مكث بعضهم في الجنوب وتابع الفريق الآخر سيره الى الشمال حيث منطقة حمص (المقتطف ٦٠ : ١١٥—١١٧ وبراستد عدد ١١٢) .

ثالثاً – المصريون يثأرون

ما عاناه المصريون من شدة الرعاة في آخر مدتهم جعلهم يحسبون حساباً لعودتهم ويتقون خطرهم . ولذلك اهتم ملوك الدولة الثامنة عشرة بأخذ الاحتياطات اللازمة لتأمين البلاد . فقضى احمس مؤسس الدولة المذكورة وابنه امنوف الاول مدة حكمهما في تحصين الحدود وغزا الاخير سوريا الجنوبية حيث الحثيون الصغار . وتابع خليفته توتمس الاول عمله ، فاخضع العشائر الكنعانية في فلسطين ،

ثم توغل في البلاد الشامية ، حتى بلغ مقاطعة دمشق بغية خضد شوكة الحثيين حتى لا يعيدوا الكرة على مصر غازين .

وشعر الحثيون بما يخبئه لهم المصريون ، فاخذوا يستعدون للمعارك المنتظر حدوثها . فألفوا في دور المعارك الاولى جبهة متحدة من الامارات السورية . ولكن هذه الجبهة تفككت عراها ازاء الهجمات القوية التي قام بها ملوك الدولة الثامنة عشرة . فاضطر الحثيون ان يغيروا الخطة وان يوجدوا من الامارات الشامية وحدة كاملة يسيّر قواتها نحو جهة واحدة ملك حمص فاستطاعوا بهذا حفظ مركزهم تجاه الدولة التاسعة عشر . ويظهر ان الفينيقيين الذين اتفقوا مع الحثيين في دور المعارك الاولى خارت عزائمهم فلم يشاركوهم في الدور الثاني بمقاومة المصريين ، بل عنوا لسطوتهم وربما اعانوهم على الحثيين في بعض المعارك .

وتفصيل هذه المعارك واحدة فواحدة ليس من شأننا فنختار منها اهمها ، وهي مما له صلة مباشرة بتاريخ حمص . واهم هذه المعارك بلا مراء معركتا مجدو وقادش . وفي كليهما وقع العبء العظيم على كاهل ملك حمص الحثي . وبين المعركتين الماثلتين مدة ارتاح فيها المصريون دون الحمصيين . اذ اضطر هؤلاء ان يتحملوا حملات الميتانيين على هذه المنطقة واحتلال القسم الشرقي منها فقضوا مدة ليست بقصيرة حتى استطاعوا تخليص هذا القسم من براثن الغزاة الاقوياء كما ترى . ولا بد لنا من لفت نظر القارىء الى ان ما نرويه عن المعارك المقبلة مأخوذ عن الآثار المصرية التي اراد ملوك مصر ان يخلدوا فيها مجدهم . ولا يتوقع من هؤلاء ذكر ما ينقص هذا المجد . ولا يؤمن ان يكون في ما قصوه مما يشرفهم مبالغات كثيرة ، لا تفرت ذكاء القارىء اللبيب .

١) — معركة مجدو

مركزها الحربي — كانت مجدو في هذه الحقبة تكسف بهاء غيرها من المدن الحصينة . قامت في الجنوب الغربي من مرج ابن عامر . حيث وقف ملوك الشام المتحدون تجاه توتمس الثالث . الذي بعد فتحه هذا الحصن الحصين صار سيداً للشام الجنوبية ، وانما نالت مجدو هذه الاهمية بسبب حصانتها الحربية

وقوتها العسكرية · والاكتشافات الاخيرة دلت على ان هذه المدينة الشهيرة كانت في نفس الموضع المعروف الآن بتل المستلم · وهي احدى التلال الثلاثة الاكثر اهمية في فلسطين كلها · ومع قربها من جبال السامرة ، فهي قائمة في السهل نجداً مستديراً هائلاً علوه ٥٠—٧٥ قدماً تشرف منه فعلاً على كل قسم من ذلك السهل الواسع حتى يحجب نظرك جبل جلبوع ·

قوتها العسكرية — ليست مجدو الآن سوى ركام متبدد ولكن جوانبها متحدرة شرقاً وغرباً ، لدرجة انه يستحيل على الخيل العربية القوية ان تصعد الى اعلاها من هاتين الجهتين · ويتعذر على من تعود التسلق الصعود اليها · غير ان قطعة منخفضة من الارض تصل هذا التل بجبال السامرة من الغرب تسهل الوصول اليها من هذه الجهة قليلاً · وقد اظهرت الاكتشافات الحديثة ما كان لهذه المدينة الحصينة من القوة · اذ كانت محاطة بسور عرضه ٢٨ قدماً تحرسه ابراج لها مثل قوته · وعلى قمة التل الذي بنيت عليه ارض مساحتها عدة فدن تتسع لشعب كبير قديم · كانت بيوتها صغيرة وشوارعها ضيقة وازقتها مشتبكة لا يمر فيها شخصان معاً بدون صعوبة · اما الابنية العمومية التي اقيم فيها صرح او هيكل فقد كانت اكبر من ذلك كثيراً ·



توتمس الثالث ١٥٠٣—١٤٤٩

توتمس ومجدو — اذا وقفت الآن على تل مجدو لا يصعب عليك تصور الواقعة العظيمة التي وصفها كتّاب توتمس بطلاوة وتفصيل · ومما يحمل على العجب رفض توتمس مشورة قواده بالتقدم من سهل شارون ، والانعطاف منه نحو المدينة لمهاجمتها رأساً من الوادي في الجنوب الغربي · والوادي يضيق في الجنوب على

مسافة خمسة اميال معطياً فرصة للداهم المستقتل ، ان يهاجم جيشاً غازياً بسهولة . فالجيش المصري صعد في الوادي بدون مقاومة بسروجهم الجوهرة المبهجة . ودليلهم النشيط سار في المقدمة يرشدهم بخطواته الى الطريق الذي يجب سلوكه. فلما وصل الملك الى مرج ابن عامر جنوبي مجدو ، بعث جناح جيشه الايسر ، الى التلال الواقعة في الشمال الغربي من المدينة . ليمتلك الطرق الممتدة في الجانب الغربي من سهل « يزرعيل » وبهذا أمن عدم رجوع جيشه . وصار في موضع يستطيع فيه منع الهاربين من الفرار اذا كلله الفوز . وهذا الموضع خوله ايضاً ايسر السبل لبلوغ مجدو نفسها .

المعركة الفاصلة — كان ملك حمص قد اوجد اتحاداً بين امارات الشام كلها . وقد اتفقت كلمة القوم على اعطائه القيادة العامة لما عرفوه فيه من الدربة الحربية والشجاعة الفائقة . غير ان الزعماء لم تكن مقاصدهم واحدة بل كان كل منهم يضمر في باطنه غير ما يجول في خاطر الآخر (براستد عدد ١٠٧) ومنهم عدد غير قليل ولاسيما سكان الجنوب ندموا على المحالفة لتعرضهم لهجمات المصريين في كل بادرة تبدو . وكان ملك حمص مضطراً ان يراقب حركات هؤلاء الزعماء في الوقت نفسه الذي وضع على عاتقه ادارة الحركات الحربية في كل الساحات .

اما توتمس الثالث فقد كان يقود جيشاً موحد الغاية يعلم انه يحارب لاجل نفسه ، لا لأجل غيره . ولأجل حياته وشرفه معاً لذلك جمعهم في الصباح الثاني وقبيل الدخول في المعركة الفاصلة ، التي فيهم خطبة حماسية من اهم وأدق ما جاء فيها : ان ملك قادس ذلك العدو الألد قد وصل ودخل الى مجدو وجمع معه ملوك القبائل تجاه ملك مصر فليكن من حماستكم ما يرد العدو على اعقابه وثقوا انكم ان انتصرتم اليوم على اعدائكم قضيتم على الف مدينة وفزتم على الف ملك (المقتطف ٩١ : ٥٧١) .

يشير بهذا الى الحلف الذي تم قبيل المعركة بين زعماء البلاد تحت قيادة ملك حمص . وما انهى ملك مصر كلامه حتى سرت الحماسة في كل صدر وشعر الكل ان الفوز قريب المنال . فماج الجيش يميناً وشمالاً ينتظر الامر

للانقضاض على فريسته فاصدر الملك امره الى جناح الجيش الايسر بحفظ مركزه الحربي الى ان يتقدم الجناح الايمن الى التل الواقع في الجنوب الغربي من المدينة ، ليتمكن من النزول على قوات الشام المتحدة المنتشرة في خط من الشمال الى الجنوب امام المدينة . اما الملك البطل الذي لا يقهر فقد قاد الجيش وهو راكب في عربة مصنوعة من مزيج من الذهب والفضة وامام هذا الجيش الذي انتصر في عدة معارك دامية اهتز الكنعانيون ومادوا امــام هجمات تزحزح الجبال . فتقهقروا في اول الامر بشيء من الانتظام ، ولكنهم لما اقبلوا على المدينة ، اولوا أقفيتهم للمصريين ووجهتهم المدينة الحصينة يلوذون بهـا . فلمـا وجدوا الابواب مغلقة ولا سبيل لفتحها استغاثوا بمن على الاسوار . فمـد لهم هؤلاء حبالاً تعلقوا بها ورفعوهم الى السور وادخلوهم المدينة . وشغل عنهم المصريون بالاسلاب الثمينة التي وجدوها في معسكر ملك حمص المتقهقر . فاضاعوا الفرصة السانحة لفتح المدينة بسهولة .

محاصرة مجدو — اما توتمس فلما درى بالواقع امر الجيش بالعودة الى العمل العسكري قبل فوات الوقت. واوجب على قواته تطويق المدينة من كل الجهات ، غير خاش من قذائف اسوارها . فان حراس الحصون اظهروا عدم مبالاة بالعدو. اعتماداً على ما عرفوه من مناعة المدينة المحصنة ظانين ان فتحها مستحيل . فلما طال زمن الحصار امر توتمس عبيده ان يحصدوا حقول الحنطة الممتدة في ذلك السهل . وان يجمعوا قطعان المواشي الكبيرة المنتشرة في الجبال والاودية الخضراء التماساً للمرعى . ولم يكن في المدينة مؤونة تكفي للالوف المحاصرين داخلها مدة طويلة . فادرك الجوع من فيها بعد عدة اسابيع واضطروا ان يسلموا للعدو القدير . وتمكن ملك حمص ان يخترق بعض الصفوف وينجو بنفسه ووجهته الشمال . ولكن أسرته وأسر شركائه وقعوا أسرى بيد المنتصر. والاسلاب التي وجدت في المدينة المفتتحة اظهرت غنى الحثيين العظيم لدرجة تكاد لا تصدق فقد وقع بيد المصريين ٩٤٢ عربة و٢٢٣٨ حصاناً ومئتا حلة حربية وقضيب ملك حمص وصولجانه وخيمته الملكية . وتمثاله المصنوع من الابنوس المطعم باللازورد والذهب. وتمثال فضة يرجح انه صورة احد الالهة ومقادير كبيرة من الذهب والفضة .

كل ما ذكر روى الفاتح انه وجده في المدينة المفتوحة (شارل كانت ص ٩١—٩٤).

ومما لا نرى بداً من الاشارة اليه ، ان الآثار المصرية نفسها لم تكتم بأس الحصيين وحسن بلائهم في هذه المعارك . بل صرحت ان جنود مصر انما فازت لأن خصومها كانوا اقل جنداً . ولأن طبيعة البلاد وصعوبة المواصلات احدثت خللًا في التعاون المأمول من اتحاد البلدان السورية . في حين ان جنود توتمس الثالث كانوا أرقى جيش مصري الى ذلك العهد (تاريخ سينا لشقير ص٦٨٨).

الميتانيون في منطقة حمص

صمتت الآثار الحثية عن ذكر ما حدث لهم نحو قرنين أرخها بعضهم (١٦٨٠—١٤٥٠ ق‌م) وظن بعضهم انها هي المدة التي زحف فيها الميتانيون على المنطقة الحمصية . وسواء كان الوقت المذكور هو الوقت الذي تم فيه الزحف المشار اليه ، أم انه تم في الجزء الاخير منه — كما استنتج بعضهم — فانه لأمر محقق ان الميتانيين اتموا بسط سيطرتهم على هذه المنطقة في الفترة التي تخللت معركتي مجدو وقادس . والمأمول ان اكتشافات اخرى تميط النقاب عن تاريخ هذا الحدث بالضبط ، فيتبين وقته كما هو بالحقيقة . وخلاصة ما وصل اليه اطلاعنا بهذا الشأن مدون في ما يلي :

سبقت لنا الاشارة الى ان الميتانيين نشأوا في اول تاريخهم في شمالي الجزيرة في أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد وقد تركت الحضارة السومرية — التي كان لهم صلة بها — اثراً في نفسيتهم فظهرت قوتهم في الالف الثانية قبل الميلاد وكان الحوريون اصدقاء الميتانيين ومجاوريهم اقل عدداً منهم . وليس لهم نشاط وجرأة الميتانيين فطمع بهم الاشوريون وكانوا كثيراً ما يتصدون لهم ويقتطعون قسماً من مواشيهم . ولم يكن آنئذٍ موقف الميتانيين يمكنهم من مساعدة جيرانهم لمقاومة غزاة الاشوريين فزهقت نفوس الحوريين لتوالي اعتداءات قوم لا قبل لهم بدفعهم . وخانهم الجلد فغادروا الجزيرة واتجهوا نحو سوريا الجنوبية حيث اتخذوا لهم جبل سعير ملاذاً :

وخدم الحظ الميتانيين اذ اغتنم الكوشيون فرصة القلاقل والفتن الناشبة

في بلاد الكلدان فانقضوا عليها واستولوا على بابل وبلاد كلدة كلها في اواخر القرن الثامن عشر . فخمد بهذا طموح الاشوريين وشغلوا بالفاتحين عن تلك المنطقة . فانتهز الميتانيون هذه السانحة وقطعوا كل قيد يربطهم باشور . بل اقدموا على اكتساح عدة مواضع يتأيد بها موقفهم . ورأوا الحظ يخدمهم فبسطوا سيطرتهم على البلاد المجاورة . ثم وجهوا حملتهم الى ما غربي الفرات . وامتد زحفهم الناجح حتى بلغ شواطىء العادي . ولم يكن الحثيون آنئذ ذوي موقف يخشاه الميتانيون ، بينما توقف الميتانيون لصد احدى غارات توتمس في الفرات . فاهتموا بعمران المنطقة التي رسخت اقدامهم فيها وطوقوا مدينة قطنه (الواقعة الى الشرق من حمص) بسور محيطه ٥ كيلومترات بعدما جروا لها الماء بإقنية خزفيه من احد منافذ السور الجنوبي ، مما لم تزل آثاره ظاهرة الى الآن . ولما شعر الميتانيون ان الحثيين خصوم لا يستخف بهم ، سالموا المصريين وحالفوهم على الحثيين وزوج ملكهم ارنطاما ابنته لتوتمس الرابع ثم تجددت هذه المناسبة في ايام امنوتيس الثالث الذي تحظى جيلوهيبا بنت الملك سوطارنا وعبدوا ما عبده .

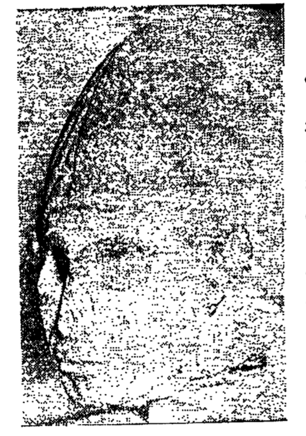


معبود مصري وجد في حفريات المشرفة وهو يشبه وجه احد ملوك الرعاة
— عن مكتبة الاستاذ عيسى المعلوف —

وظل حظ الميتانيين لامعاً حتى تسنم العرش الحثي في منطقة حمص سوبيلوليوما سابالت) وكان من اعز ملوك حث شأناً ملك نحو اربعين سنة . غير فيها وجه

السياسة في البلاد السورية . ولاسيما ما كان منها بين العاصي والفرات . فانه لم يكتف باسترداد قادش وتدمير قطنه التي حصنها الميتانيون ، بل امتدت فتوحاته الى الدجلة حيث طوق بلاد الحوريين والميتانيين معاً . وضبط البلاد الواقعة على جانبي الفرات ، وجعل كركميش قاعدة الشمال . وكان بنوي صب جام غضبه على المصريين بعد جده رعمسيس الاول — لمحالفتهم الميتانيين — ولكن فتن الاناضول (١٣٧٨ – ١٣٥٨) شغلته عن ذلك .

ولما ثار الميتانيون على ملكهم سنة ١٣٧٠ وقتلوه اغتنم هذه الفرصة وآوى اليه ابنه الصغير « ماتيعوذا » فاسترد له العرش ، وزوجه ابنته . فاصبحت الدولة الميتانية تحت سيطرة سوبيلوليوما حتى توفي . ولكن الميتانيين خسروا بوفاته ما بقي لهم من هيبة وافقدتهم هجمات الاشوريين ما كان لهم . فاصبحت المنطقة الحمصية كلها مباحة للحثيين .



رأس تمثال ميتاني

وجد في الجبول « شمالي سوريا »

له جبين ضيق تكلله قبعة مخروطية الشكل ذات خطوط كأنها قرون ترمز الى الالوهية له عينان يعلوهما حاجبان كبيران في وسطهما انف افطس به وجه ضعيف التركيب خددته غضون ممتدة من المنخرين الى الشفتين وهو رأس تحفة نادرة تكاد تفيض منه عروق الحياة .

(انظر المقتطف ٩٣ : ٢٠٢)

الاتحاد قوة ، والتخاذل ذل ، والانقسام موت

الانتصارات التي احرزها المصريون جعلت الكثيرين من الامراء الذين سبقت لهم محالفة الدولة الحمصية ، ينكفئون عنها . ولاسيا فينيقية اللبنانية التي كانت حمص قاعدتها وقد ارتبطت مع جبيل — التي كان اسمها جبلة — بروابط متينة .

غير ان تفرق كلمة ملوك سوريا أدى الى تخاذلهم امام قوة المصريين وجنبهم خوض غمرات الحرب تحت قيادة ملك حمص . وليس ذلك فحسب بل ان بعضهم لم يكتفوا بمسالمة المصريين بل انضووا الى لوائهم . واخذوا يستعينون بهم على الحثيين الذين سعوا لتوحيد البلاد لقطع دابر التخاذل . وحفظت لنا الآثار المصرية اسماء هؤلاء المنحازين وفي طليعتهم ريب عداي امير جبيل الذي والى ملوك مصر واصبح معهم حرباً على حمص .

في هذه الظروف العصيبة أخذ الحثيون بقيادة ملك حمص يخضدون شوكة امير جبيل ، الذي دلت رسائله العديدة التي وجدت بين مجموعة رسائل تل العمارنة ، على شكواه المرة من خصم قوي بطاش يدعوه عبد الشرى ويسميه مع ابنه اريزو صاحبي اموري الشديدين . وفي احدى رسائله لأحد النظار المصريين المدعو امانيا الذي يسميه اباه الصغير ، ينطرح على اقدامه لينقذه من ايدي عبد الشرى . ويتمرمر لأن ولاة المدن السورية كلهم لم يعبأوا بامره ، ويتهمهم بالاتفاق مع الخصم عليه ، وبسبب ذلك استفحل أمر من اشار اليه .

ويفهم من هذه الرسالة ان هذا الناظر اشار عليه ان يرسل له ساعياً يصحبه الى بلاط الملك المصري . لاستثارة حماسته . فان اظهر الملك رضاء ارفقه بقوة من الجند للدفاع عن حياته . فقبل ريب عداي هذا الرأي والتمس من امانيا ابقاء ذلك سراً بينهما خشية ان يدري عبد الشرى بالامر فتسوء النتيجة . وصرح في هذه الرسالة ان بنهامون (احد النظار المصريين) مرتش . وختم رسالته باظهار ألمه الشديد وخوفه العميق صارخاً : ويلي من ينقذني من هذه الازمة الشديدة ؟ اني اذا لم تسرع الجنود لانقاذي مما انا فيه سأترك المدينة وانجو بنفسي (آثار لبنان ص ٧٩) .

وروى الاب لامنس ان اريزو بن عبد الشرى لما عرف عدم مبالاة ملك مصر ، بامير جبيل ، اغتنم الفرصة وغزا ايالته وظل يحتل بلاده قطعة فقطعة حتى ضبط كل النواحي المجاورة ، وترك له مدينته منفردة . وكان اريزو يملك البلاد الواقعة شمالي دمشق وقسماً من وادي العاصي اي البلاد المتوسطة بين بعلبك وبحيرة حمص .

ولما تفاقم الامر وبلغ مسامع ملك مصر ما جرى ، غضب وارسل يتهدد اريزو . فاجابه هذا بما يلين من ثورته . لكن فرعون لم يقتنع بجوابه فاستقدمه اليه . ويرى الاب لامنس انه ذهب الى مصر وسجن ومات في سجنه والله اعلم .

قال العلامة « شارل كانت » في مؤلفه جغرافية الكتاب (ص ٦٥—٩٨) :
ان السلطة المصرية حالت دون الحروب بين الامارات الصغيرة مدة ، اذ قربت احداها من الاخرى بواسطة النظام المصري . ولكن مصر اللاهية بذاتها لم تستطع موالاة ضبطها للمناطق التي احتلتها فابقت شيوخ البلاد في مناطقهم . على ان يؤدوا لها اكبر جزية يمكن استيفاؤها . وقد حال برد البلاد السورية دون سكن المصريين فيها ، فسلبت مصر ثروة الشام ودمها ، دون ان تعوضها ما يقابل ذالك . وعجز السكان عن الاتحاد على العدو العمومي ، عرّض البلاد الى قوة غازية . واضطر امراء البلاد الى استنصار القبائل الغازية لكسر نير المنتصر الثقيل .

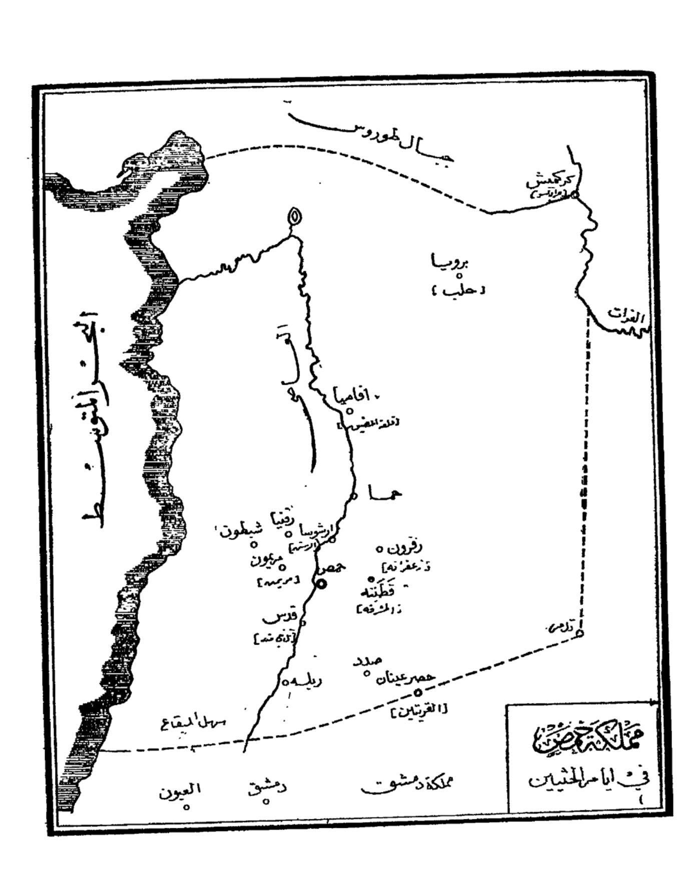
والرسائل التي وجدت في تل العمارنة بينت ان مصر في زمن امنهوتب الرابع (اخناتون) وقعت في حالة فوضى . لانهماك الملك المذكور بالاصلاحات الدينية . فضعفت سلطته على ولاياته البعيدة واغتنم هذه السانحة ملوك حث في الشمال وسعوا لتوحيد السيادة في البلاد . واذا لم يرضَ الامراء الوطنيون بذلك اكرهوا عليه بالقوة . فاخذ هؤلاء الامراء يستغيثون بمصر وهي لاهية عنهم بما فيها من فتوق ومشاغب . فنمت القوة الحثية وبسطت سيطرتها على الشام كلها او جلها . وحينما خرج رعمسيس الثاني لاخضاع البلاد وجد نفسه كتوتمس الثالث قبله بنحو مئتي سنة امام عدو قوي محصن تحصيناً عظيماً في الاودية العريضة بين لبنان وانتيلبنان اهـ .

معركة قادس

انتهت الدولة الثامنة عشرة المصرية بحورس اوهورام هتب آخر ملوكها الذي مات بدون عقب فتسلم زمام الاحكام قائد الجيش المصري رعمسيس الاول، مع ان المذكور لم يكن مصري الاصل بدليل السمات الظاهرة على وجهه ووجه ابنه ساتي الاول وحفيده رعمسيس الكبير . الا ان البلاد كانت آنئذ بحاجة الى رجل عسكري شديد الصلابة ليستطيع تهدئة الاعصاب المتوترة بسبب المنازعات الدينية، ويعيد الوحدة الفكرية الى البلاد بالحزم والهيبة . وكان الحثيون قد درسوا اسباب فشلهم في المعارك الاولى وتداركوا اسبابها التي من اهمها تعدد الزعماء وتفرق الكلمة . فبسطوا سيطرتهم على سوريا الشمالية برمتها ولم يبق ثمة زعيم سوى الملك الحثي . واصبحت مملكة الزعيم العظيم سيبلوليوما (سابالت) ممتدة من شاطىء الفرات شرقاً الى طورس شمالاً والبحر المتوسط غرباً ودمشق جنوباً . (انظر الصفحه التالية) .

رعمسيس الاول — وعرف رعمسيس الاول باستعدادات « سابالت » فعني اولاً باصلاح شؤون مصر . ولما اطمأن باله عليها جهز حملته لاعادة الشام كلها الى طاعته . غير ان خصومه هذه المرة لم يكونوا كخصوم اسلافه في الحملات السابقة يوم كانوا مختلفي المآرب والنزعات ولا قيادة موحدة فيهم . اما الآن فقد ضبط القيادة ملك قدير يرئس دولة موحدة الرأي متسعة الارجاء كثيرة الجند وفي كل منهم ميل طبيعي للحرب . سرّ رعمسيس الاول لاول وهلة حينما اجتاز فلسطين بدون مقاومة تذكر . ولكنه لما بلغ العاصي وجد ثمة قوات لا يمكن اختراقها . وقد اضربت الآثار المصرية عن ذكر نتائج هذه الحملة، واكتفت بالاشارة الى حدوث صلح بين المتحاربين وفي ذلك ما فيه من الدلالة على وجود تكافؤ بين الفريقين .

ساتي الاول — وتابع ابنه ساتي الاول مسعى ابيه . فدفع في السنوات الاولى للمكه، غزاة العرب عن بلاده . وهاجم في السنة الثانية بلاد الشام فلم يقاومه الفلسطينيون والفينيقيون، ودان له الآراميون، وقدم له اهالي سوريا



مملكة حمص
في ايام الحثيين
جبال طوروس
كركميش
الفرات
بوريا
[حلب]
افاميا
[قلعة المضيق]
حما
رفنيا
شيطون
ارثوسا
[الرستن]
رفرون
مريمون
[مريمه]
حمص
قطنه
[المشرفه]
قدس
ربلـه
صدد
حصرعينان
[القريتين]
سهل البقاع
مملكة دمشق
دمشق
العيون

الوسطى هدايا لاسترضائه فحسبها هو جزية . ولكنه لما بلغ قادس رأى ما لم يكن بحسبانه . اذ تعددت هناك الوقائع الهائلة ، ووقف الحثيون وقفة الابطال ، واضطر ساتي ان يوقع ايضاً معاهدة صلح مع موتنار ملك حمص . ومع ان خطوط الكرنك لا تصرح بانخذال ساتي لكن قرائن الاحوال تدل عليه . وحسبك اقرار هذه الخطوط ببسالة الحثيين وصعوبة الانتصار عليهم .

رعمسيس الكبير ١٣٠٠ - ١٢٣٤ ق م — كان رعمسيس هذا ابناً لساتي الاول وقد اشركه معه في الحكم . ولقبه ولي العهد وفرعون الدولة ومنحه الرتبة الثانية في الاحتفالات الدينية : واوفده وهو حدث في عدة مهام حربية ، كتب له النجاح فيها كلها . ولما طعن ابوه في السن ، فوض اليه امر الولاية على الاحكام فلما توفي استقل بالملك . وكان اهم عمل في نظره انشاء جيش منظم قوي . ولاجل ذلك قسم دخل الدولة ثلاثة اقسام . ثلثه للملك ، والثلث الآخر لرجال الدولة ، والثلث الثالث لرواتب الجند . وقسم المملكة الى ٣٦ ولاية مقتطعاً من البلاد ارضاً يكفي ريعها لحاجة الجنود واهلهم واولادهم .

روى ديودور الصقلي ان هذا الجيش كان مؤلفاً من ستمائة الف راجل و ٢٤ الف فارس و ٢٧ الف مركبة حربية واضاف الى هذا الجيش اسطولاً بحرياً قوياً . ولكي يحفظ للجند انفتهم وعزة نفوسهم ، سن نظاماً حظر بموجبه مقاصة الجندي نقصاصاً جسدياً . واوجب ان يكتفى بتنبيهه على هفواته ، بما يثير نخوته لاصلاح خطأه دون ان يصغر نفسه .

اشهر المعارك التي خاضها رعمسيس الكبير هي باتفاق المؤرخين معركة قادس . وقد وصفها الشاعر المصري بتأور في قصيدة مسهبة حفرها المصريون على صخور الاقصر وعلى جدران الكرنك . وخطت مراراً على البابيروس وقد ترجمها الموسيو دورجه الفرنسوي وملخص ترجمتها في ما يلي :

درى رعمسيس ان الحثيين قد تألبوا لمناوأة مصر . وقد انضوى الى لوائهم الحربي من الشمال اهالي كركيش وحلب ومن سوريا المجوفة الجرجاشيون والاراميون . ومن الفينيقيين الارواديون . وروي ان جيش الشمال وحده بلغ ١٨ الف جندي . اما عدد مركبات الحثيين فبلغت ٢٥٠٠ .

اما جيش مصر فما لا يدرك الطرف آخره . وقد سار بقيادة رعمسيس البطل الحازم . الذي لعبت برأسه حمية الشباب وصلف القوة . فاجتاز فلسطين حيث اقيم الحرس المصري منذ ايام ابيه .

ولما بلغ سوريا في هذا المظهر الموجب الاكبار ، حالفه اخيرام ملك جبيل على الحثيين . الذين سبق له استثقال وأتهم ، مع غيره من امراء فينيقية كعكا وصور وصيدا وبيروت . مما شدد عزيمة رعمسيس وحسب ان النصر اصبح منه قابي قوس او أدنى . فسار حتى بلغ الجهة الغربية من حمص مسافة مرحلة منها في موضع يدعى شبطون قرب فوار دير مار جرجس الحميراء (لترمان) . وهناك امر الحملة بالوقوف لاستطلاع حالة العدو . وكان موتنار (او موتلاً) ملك الحثيين قد جمع بين الدربة العسكرية والدهاء . وكان لا يلجأ الى القوة الا اذا اعيته الحيلة فاوفد جواسيسه لمعرفة قوة رعمسيس ، فعادوا اليه بالخبر اليقين . فرأى ان الموقف يستلزم حسن تدبير قبل الدخول في المعركة . فاوعز الى رهط ممن يثق باخلاصهم ، ان يكمنوا للعدو في بطن وادي خالد ، حتى اذا مرت طلائع العدو للاكتشاف انفرد اثنان منهم ونفذوا الخطة الموعز اليهم باتمامها كما يلي :

ذهب مع طليعة الجيش المصري اثنان وقابلا رعمسيس وهما يتظاهران بخوف وحقد معاً . الاول لهيبة الملك الكبير والثاني نقمة على ملك الحثيين . وخلاصة ما قالا : اننا من رؤساء القبائل الموالية لملك حث الخسيس ، الذي اتروى في حلب لخوفه من بطش الملك العظيم واهمل شأننا ، بعدما وعدنا بالغنائم وبسطة اليد . ومع اخلافه بما وعد قد فرّ لينجو بنفسه ويدعنا غنيمة بيد من نازعهم السلطة . فلما رأينا هذا اقبلنا اليك ايها الملك العظيم راجين قبولنا بين خدمك . فانخدع رعمسيس بما سمع وعقد مجلساً حربياً اصدر فيها امره لفرقة «رع» لتتقدم من جنوبي شبطون وتحيط بالبحيرة وفرقة «سوت» لتكون قلب الجيش . وامر ان تراقفه نخبة المركبات الحربية عن طريق الوادي (حيث كان الكمين الحثي) قصد ان يعبر العاصي من مخاضة هناك ، إبان اشتغال العدو بمقاتلة الفرقتين المذكورتين . حيث يتسنى له اذ ذاك اخذ قادس من الشمال الغربي . اما فرقة «آمون» فامر ان توافيه في طريق اخرى الى قادس ، لتمده بقوتها عند الحاجة . كما ترك فرقة «فتاح» وراء الجناح الايسر ، لاستمداد معونتها متى شعر بحاجة اليها .

بات الجيش في تلك الليلة يستعد للحرب ، وكله آمال بالفوز القريب . وأمر الملك حافظ اسوده ان يمنع الطعام عنها لتزيد شراستها عند اطلاقها على الاعداء. وقبل الفجر جلس الملك في هودج يقله ٢٥ شاباً من الاشراف . وحملت امامه تماثيل آلهة مصر . وطاف يتفقد الجيش فلما رآه الجنود خروا أمامه سجداً وقبلوا التراب بين يديه . ثم أمر فسار الجيش حسب وصيته ، المشاة اولاً ثم المركبات ، وفي مقدمتها مركبة الملك محلاة بالذهب . وعلى جانبيها صندوقان مرصعان بالحجارة الكريمة فيهما قسيه وسهامه . وعلى كل من الجوادين عدة من الارجوان مرصعة بالجواهر ، وعلى رأسيهما اكليلان مزدانان بريش النعام . وكان الملك لابساً درعاً من الزرد تحيط بها منطقة من الارجوان. وعلى رأسه اكاليل مصر العليا والسفلى . ووراءه سائق مركبته حاملاً الترس بيمينه لوقاية الملك . وممسكاً العنان بيساره لادارة الخيل ووراء مركبة الملك مركبة الاسود مطبقة وهي ذات اربع عجلات.

سار الملك يتقدمه الدليل (الحثي) وامامه فرقة الآله «رع» بقسيها وسهامها للاستكشاف . فوصلوا الى بطن واد مفتوح يمنة ويسرة ، وتحيط به الجبال من سائر جهاته. واذا باصوات ابواق قد ملأت الفضاء . فاجفل الملك وتناول فأسه من منطقته وقال : ما هذه الاصوات ؟ قال له السائق ان الاعداء داهمتنا يا مولاي . فامر باطلاق الاسود ولكنه لم يكد يفعل حتى رأى طليعته قد تمزقت شذراً وولت الادبار . فانكمشت الاسود ووثبت امام مركبة الملك مزمجرة مزبئرة . وسارت مركبة الملك وراءها نحو الهاربين . وأخذ الملك يستوقفهم فلم يصيخوا سمعاً له . لان الاعداء في أثرهم تفتك فيهم فتكاً ذريعاً . واختفى الدليل من امام عيني الملك ولم يقف له أحد على أثر .

فصاح الملك صيحة دوت لها الجبال . وضج كذلك حرسه فوقف الفارون مذعورين لاول وهلة. ولكنهم لم يستطيعوا صبراً على طعنات العدو القتالة. فعادوا الى الفرار منهزمين شر هزيمة . وسمع الملك من خلفه صوت الاعداء يردد نداء رفاقهم من امامه . فالتفت واذا بمركباتهم قد أطبقت على قواته من شعب هناك فحطمت افرادهم . وفصلت بينه وبينهم قبل ان يتسنى له الانضمام اليهم. فاصبح محصوراً بين مركبات الاعداء من امام حيث يرى رجاله يقعون صرعى بسلاحهم . وسمع من ورائه صياح الابطال وصلصلة السيوف وأنين الجرحى

وحشرجة المحتضرين ٠

فتناول الملك قوسه وجعل يرمي الاعداء بالسهام ٠ وحامل ترسه يقيه ما يراش عليه ٠ حتى تكاثر الاعداء عليهما ، وتطايرت السهام حولهما من كل جهة ، واضطر السائق ان يدافع عن نفسه ٠ فاطلق العنان واقتحم العدو وبقي الملك وحده ٠ وقد فارقه الانصار والاعوان ٠ فتناول فأسه وهجم على الاعداء والاسود تتقدمه فترعب الخيول وتفرق الفرسان عنه ٠ وبينما هو في هذه الازمة الخانقة ، واذا بمدد وصل اليه فأفرج عنه ٠ ورد الحثيين على اعقابهم الى العاصي وبحيرة قادس ٠ وأرخى الليل سدوله فتفرق المتقاتلون ٠

وفي اليوم الثاني عاد الحثيون الى القتال وارسلوا فرقة من جيشهم لتسد على المصريين الوادي ٠ وفرقة اخرى تهاجمهم من وادٍ واقع في طريقهم ، فلاقاهم رعمسيس بجيشه ٠ واشتبك القتال بينهما واشتد الصدام واستقتل الحثيون في ذلك اليوم ، وحاربوا حرباً يشيب لهولها الاطفال ، وترتعد منها فرائص الرجال ٠ لكنهم انهزموا في النهاية بعدما قتل جماعة من اشهر ابطالهم واشرافهم ، منهم مؤرخ ملكهم المشهور ٠ وفتح المصريون قادس وامتلكوها بحد السيف ٠ بعدما كادت تدور الدائرة عليهم ، وأوشك رعمسيس ان يقع اسيراً في ايدي خصومه (المقتطف ١١ : ٣٢١—٣٢٦) ٠

هـذه خلاصة ما روته الآثار المصرية ٠ والمطالع الرشيد يلمح من خلال الكلام ان رعمسيس لم يوفق كل التوفيق في هـذه المعركة الهائلة ٠ ولو دوّنها الحثيون واهتدينا الى ما كتبوه لرأينا غير ذلك ٠ وما من شيء يلفت انظارنا الى حقيقة الواقع مثل قصيدة بنتاؤور شاعر الملك رعمسيس التي ورد فيها عن لسان الملك ما ترجمته بايجاز :

من قصيدة بنتاؤور — كنت وحدي لا يصحبني رئيس ولا قائد ولا آمر ولا ضابط ٠ انهزمت الجنود والفرسان ولبثت أحارب العدو منفرداً ٠ فصرخت حينئذ : أين انت يا أبت آمون ؟ هل ينسى الاب ابنه او يهمله في ضيقته ؟ هل أقدمت على عمل ما دون رضاك ؟ وهل مشيت او وقفت دون ان أرفع نظري اليك ؟ هل خالفت أوامر فمك او نبذت مشوراتك ؟

يا إله مصر المذل من يعصاه ٠ هل تحتمل ان يذل ملك مصر وسيدها

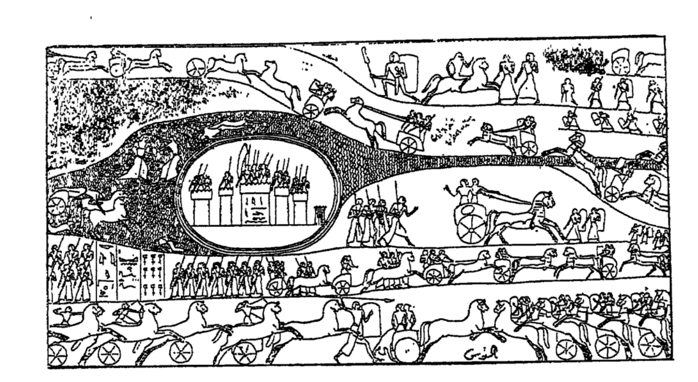
امام شعوب يعاندونك ؟ من هؤلاء العمو (يريد الاسيويين) ؟ بعيشك يا آمون بدد الذين لم يقروا بالوهيتك .

اما شيدت لوجهك آثاراً لا عدد لها ؟ اما افعمت هياكلك بالغنائم التي احرزتها من الاعداء ؟ اما بنيت لك معابد تدوم الوف السنين ؟ فبك استجير واياك ادعو يا ابت آمون . قد احدقت بي جماعات لا اعرفها . وتألبت علي قبائل كثيرة وانا وحدي وليس معي أحد . تركني ابطالي ، دعوتهم فلم يسمع احد منهم صوتي . لكنني موقن ان آمون خير لي من الوف جنود تجتمع معاً . . بعد هذا يذكر الشاعر ان آمون استجاب نداء رعمسيس ونصره على الاعداء ، (ملخصة عن الاستاذ سايس الاثري المقتطف ١٣ : ١٧٨) .

تدعي الآثار المصرية ان الحثيين انهزموا وقتل حامل سلاح الملك وقائد المشاة ورئيس الحصيان وكاتب الوقائع الرسمي . وحاول بعض المنهزمين اجتياز النهر سباحة فغرقوا . منهم ملك تيتا وملك حلب ولكن الاخير اخرج من الماء وفيه رمق . ويرى في رسم لهذه المعركة معلقاً برجليه والماء يتدفق من فمه . (انظر الصفحة التالية) .

وفي الآثار المذكورة ان ملك حث استعطف ملك مصر فرنف به وعقد معه صلحاً لم يكن الا هدنة موقتة ، لان الحثي اثار عليه قبائل الجليل ، فاضطر رعمسيس ان يجهز حملة لردهم الى طاعته . وحصلت هذه المعركة عند بحيرة ميروم (الحولة) وجبل تبور في السنة الثامنة لملكه .

كما ان فلسطين تمردت في السنة الحادية عشر فاضطر لتجهيز حملة اخرى تمكن فيها من استرداد عسقلان بعد حصار شديد ثم اورشليم والكرمل وظلت هذه الحروب متواصلة مدة ١٥ سنة ، ولم تخمد جذوتها حتى اغتيل موتنار ملك حمص في احدى هذه المعارك . وحصلت هدنة نحو سبع سنوات وهي المدة التي تسنم فيها العرش الحثي اورخي تحشتوب (١٢٩٢—١٢٨٥) فلما خلفه خيتاسار (حاتوشيل الثاني) بن مورسيل (موراسيرا) بن ساپاليل (سبيوليوما) العظيم ، وقد امتدت اطماع سلمناصر الى بلاده رأى ان يعقد معاهدة مع ملك مصر ليتفرغ الى صد زحف الاشوريين . (البستاني ٨ ص ٦٧٠ وبورتر ص ٢٥) .



معركة قادس

بين الحثيين من اليمين والمصريين من الشمال – مأخوذة عن هيكل الاقصر في مصر

منذئذ خيم السلام على المملكتين فوقف رعمسيس في اسيا عند حده والحثيون عند حدهم . وبعد ابرام المعاهدة بنحو ثلاث عشرة سنة (حوالي سنة ١٢٥٩) زار ملك الحثيين مصر وحضر الاحتفال بزفاف كريمته الكبرى الى رعمسيس الثاني فقوبل بحفاوة عظيمة في القصر الملكي واختلط الحرس الحثي بالجند المصري بعدما كانوا اعداء ألداء .

خاتمة المطاف

وصلنا الآن الى نهاية المعارك التي دارت بين الحثيين ملوك حمص وبين المصريين . بعد مرور نصف قرن تقريباً على المعاهدة التي عقدت بين الفريقين في ايام رعمسيس الكبير وخيتاسار الحثي . واسباب هذه المعركة التي كانت خاتمة المطاف على ما روت الآثار المصرية ، ان قاطني سوريا الشمالية اتفقوا مع اهالي الاناضول على غزو البلاد المصرية فقاد الحملة ملك حمص ، ووجهته الوجه البحري من الديار المصرية . وكان رعمسيس الثالث اول ملوك الدولة العشرين المصرية الذي اهتم كثيراً بتقدم بلاده ، والقضاء على الثورات الناشبة في اطراف المملكة . دري بما يكنه له الحثيون الذين استسنحوا فرصة الاضطرابات في مصر فاقتحموا البلاد المصرية كأنهم يريدون تجديد عهد الرعاة . غير ان حملتهم هذه لم يقارنها التوفيق ، والبغي مرتعه وخيم . فان رعمسيس الثالث قابلهم بجيوشه التي اعدها لهذه المعركة . ومكنه اسطوله العظيم من اغراق سفنهم واهلاك الكثيرين منهم واسر عدد من الزعماء بينهم ملك حمص . وقد نقش اخبار هذه المعركة على الرواق الاول من معبد آبو . ثم بنى سوراً بالقرب من السويس لحماية مصر ممن يقصدها باذى . وامر بزيادة القرابين لآمون شكراً على توفيقه اياه لفوز لم يكن من السهل الوصول اليه . وكانت هذه المعركة حوالي سنة ١٢٢٥ق م (سينا لشقير ص ٦٩٣) .

ومن غرائب الصدف ان هذه المعركة حصلت بين قائدين كبيرين كل منهما كان آخر مشاهير أمته فان رعمسيس كان آخر مشاهير ملوك مصر . كما ان ملك حث كان آخر مشاهيرهم في سوريا ، ويقال انه اسر حياً ومات في

اسره ، ولم تذكر الآثار المصرية اسمه . وبعد هذه المعركة اخذ الحثيون ينصرفون الى الشمال حيث وطنهم الاول واتخذوا كركميش قاعدة لهم . ولم تعد لهم الاهمية التي كانت لهم يوم كانت قدس قاعدتهم الحربية كما مر بك .

الحالة الاجتماعية في هذه الحقبة

الآن وقد انتهينا من الكلام على موقف منطقة حمص السياسي ، يجمل بنا ان نلتقط من منثورات التاريخ ما نستطيع معه ارسال شعاع ولو ضئيل على الحالة الاجتماعية في هذه الحقبة وان قلت مبالاة الاقدمين بهذا البحث - ويساعدنا على نيل بعض امنيتنا ما تركه من الاثر مستوطنوا هذه البقعة .

قسم الاثريون فنون الحثيين وصناعاتهم الى عصرين العصر الاسيوي والعصر السوري ، وبين العهدين تفاوت كبير . عرف الاثريون بالاختبار ان العهد الاول استمد صناعته من الفن السوري اذ قد كثرت وجوه التشابه بينهما - اما العهد الثاني فقد ازداد بروزاً مع التاريخ حتى نفذ منه الى الصميم وظهرت عليه مسحة الفن الاشوري . على ان هذه المؤثرات لم تضع ميزات الفنون والصناعات الحثية التي ظل لها طابع خاص (المقتطف ٩٠ : ٣٢٥) .

البناء — فمن ميزات البناء الحثي استقامة خطوطه الساذجة وضخامة قواعده وتوسط ارتفاعه ، وما برحت روح هذا الفن متبعة في حمص الى عهد قريب . اذ انهم كانوا يهتمون بايصال اسس البناء الى الارض الصخرية او الصلبة المعروفة بالكدان مهما بلغ العمق - ويهتمون ايضاً بغلظ القواعد واستواء « المداميك » مهما طال مداها - والاكتفاء بطبقة واحدة حتى تدر وجود الطبقتين فيها -

وقد اظهرت الاكتشافات الحديثة براعة الحمصيين الاقدمين بفن البناء . ودل عليه قصر ملكهم الذي كانت واجهته مؤلفة من سدة في الوسط مرتكزة على عمودين . وعلى جانبيها برجان مربعان . وقد نقل هذه السدة عظماء ملوك اشور ثم نقلت الى بلاد الفرس (براستد عدد ٣٦٣) .

الحدادة — ومن اشهر مـا مهر به الحصيون الاقدمون ، صناعة الحدادة والفضل في ذلك للحثيين الذين اعتبرهم الاثريون ، الموزعين الاولين للحديد على العالم ، وقد احلوه محل البرونز (براستد ١٢٨ و٣٦٦) وحسبك اعادة الفكر الى عجز رعمسيس الكبير عن اخراجهم من سوريا لان اسلحة جيشه كانت من البرونز واسلحتهم من الحديد .

الديانة — معلوم ان الاقدمين الذين لم يكن بين ايديهم وحي آلهي يرشدهم الى الآله الحقيقي الجدير بالعبادة كانوا يسترشدون الطبيعة . غير انهم لم يحسنوا التفكير او بالاحرى لم يطلبوا التأمل لمعرفة مـا هو حق . فمع ان الفطرة ترشدهم الى وجوب عبادة كائن اعظم ، فقد تعددت السبل التي استدلوا بهـا على هذا الكائن العظيم . وانقسموا الى فريقين بعضهم رأوه في مـا هو اكثر منفعة وبعضهم في مـا هو اقدر على الضرر . وكان الحصيون الاقدمون من الفريق الاول . اذ عبدوا الشمس لرؤيتهم فيهـا اعظم المنافع ، على ان هذه العبادة قادتهم بعد لأي الى الاعتقاد بالبعث . وقد ارشدتهم الشمس نفسها الى هـذه الفكرة . اذ رأوا في بزوغها صباحاً ، وبلوغها معظم القوة نصف النهار ، وانحدارها عند الزوال ثم اصفرارها وغيابها عند الغروب - ما يشبه ظهور الانسان في مولده ، وقوته في شبابه ، وانحداره نحو الضعف في اواخر كهولته . ثم انحلال قوته في وقت موته . ثم استنتجوا من ظهور الشمس في اليوم الثاني ان الانسان سيعود الى الظهور بعد احتجابه ، وذلك مـا دعي بعثاً او قيامة . وقد رسخت هذه العبادة في اذهان الحصيين بمخالطتهم المصريين والحثيين . اذ كان هذان الشعبان لاول عهدهما بالوجود من عباد النير الاعظم . على انهما لما اتسع نطاق الحكم في كل منهما ظهر الشرك فيهما كليهما معاً . اذ اضطر الحاكم العظيم ان يتالى محكوميه ويقيم لكل آله من معبوديهم نصباً يسترضيهم بـه . على انهم اعتبروا آله الشمس ملك الآلهة كلها ورب الارباب . وفرضوا عبادته على سائر المقاطعات المتحدة ليعبد معمعبوداتهم الخاصة (المقتطف ٢٤ : ١٨٩) .

ونرجح ان الحصيين انتظموا في سلك من ذكر اعلاه ببعض الاعتدال في الانحراف . اذ روى لوكياغوس اليوناني انه رأى معبداً في القرن الثاني من

آثار الحثيين في الشمال مبنياً على شكل هيكل سليمان . مؤلفاً من دار خارجية وهيكل داخلي مفصول عن باقي المعبد بحجاب كثيف . وعلى جانبيه عمودان مخروطيا الشكل . وفي الدار الخارجية مذبح كبير من النحاس وعلى شماله صورة آلهة . ومن ورائها حوض ماء فسيح يسبح فيه السمك المقدس . وداخل الهيكل ترس للشمس وبقربه تماثيل اخرى معظمها منتصب على اسد او على ظهر ثور (المقتطف ٩٠ : ٢٠٠) .

لغة التفاهم — لا شبهة في ان الامة التي تسود صقعاً ما ، تعمل على نشر لغتها في اوساطه ، ويتلقى الاهلون لغة السائدين بسهولة بعضهم تزلفاً اليهم وبعضهم بغية التفاهم معهم سداً لحاجة . هكذا كان الامر مع الحصيين الاقدمين يوم سادت القوة الحثية في وسطهم . وقد سبق للحمصيين الاحتكاك بالمصريين ايام غزوة الرعاة . فوجدت في لغة هذه الحقبة كلمات مصرية ظن بعضهم انها نتيجة سيادة اللغة المصرية في هذه المنطقة . لكن المحققين من علماء الفيلولوجيا يرون ان اللغة الحثية هي التي سادت في هذه الحقبة دون تلك . وان الالفاظ المصرية انما دخلت بعد هذه الحقبة .

والذين درسوا ما وجد من الكتابات الحثية رأوا ان القلم الحثي لم يكن استعارياً او مقتبساً من الجوار ، بل هو نشأة حثية صرفة وانه هيروغليفي (مصور) .

والذين ظنوه مقتبساً انما بنوا ظنهم على ان المصري اسبق في الوجود . ولكن هذه الحجة لا تكفي لتأييد هذا المدعى . اذ ليس كل ما هو احدث عهداً مقتبس من القديم . وقد وجد الدارسون ثلاثة فوارق بين القلمين تدل على استقلال كل منهما عن الآخر .

الاول — ان الآثار المصرية المكتوبة وجدت كتابتها محفورة على الصفيحة اما الحثيون فقد كانوا يبرزون حروف الكتابة بطرقهم الصفيحة من خلفها كما وجد ذلك على الصفحة الفضية التي نقش عليها المعهدتين رعمسيس وخيتاسار .

الثاني — ان الكتابة الحثية تقرأ من اليمين الى اليسار ثم من اليسار الى اليمين في السطر التالي وهكذا على التوالي . وهو الاسلوب الذي اتبعه اليونان

القدماء ويظن المدققون انهم اقتبسوه من الحثيين .

الثالث — ان القلم المصري التصويري كان يرسم الاشكال الحيوانية كاملة بخلاف الحثي فانه يكتفي برسم الرأس فقط .

هذه الاسباب وما ماثلها جعلت الاستاذ سايس يعتقد أن كلاً من القلمين المصري والحثي مستقل عن الآخر .

ومن هذا يستدل ان الآداب المصرية زاحمت الحثية في هذه الحقبة في المنطقة الحمصية ولكنها لم تنل السيادة فيها . بدليل وجود عدة امكنة ما برحت تحمل حتى الآن اسماء حثية مثل الشاغور وجسر الشغور وكفر حاتا وتل حتي الخ .

﴿ خلاصة ما تقدم ﴾

عاش الحمصيون نحو اربعة قرون بعد انشاء مدينتهم في رخاء عيش الا بعض النوازل الطبيعية التي ليس في مقدور الانسان دفعها . وهذه مدة الحقبة الاولى . ولكن في اواخرها او في طلائع القرن العشرين انحدرت قبائل حث من جبل امانوس (اللكام) الى سوريا الشمالية وضربوا خيامهم في الجنوب الغربي من الفرات ، فاستثقل اهالي المنطقة الحمصية — وهم آنئذ اموريون ورونان — وطأتهم لاول عهدهم بهم . غير ان تعودهم الحياة العملية ، وانصرافهم عن اعمال الغزو والقتال ، ورؤيتهم كثرة عدد رجال هذه الامة وما اتوه من شدة البأس ، جنح بهم الى الرضى بمساكنتهم . وما طال الوقت على مقدم الحثيين حتى تمازج الشعبان واصبحا كأنهما سلالة واحدة .

وبعدما اقام الحثيون مدة في هذه المنطقة ، اتصل بزعمائهم حدوث اختلال في السياسة المصرية . وان بعض القبائل المتبدية

وجد منفذاً لحياته فيها . فتألف من مغامريهم عدد ليس بقليل قصدوا الديار المصرية ، واحتلوا قسماً منها . ثم تابعوا الزحف حتى امتلكوا القسم الاكبر من القطر المصري . لاشتغال قادة الرأي فيه ، باختلافات دينية اعطت للزاحفين مجالاً لتوطيد اقدامهم في البلاد نحو اربعة قرون .

ولما طال العهد بهم استثقل المصريون وطأتهم . فثاروا عليهم وتألبت صفوفهم ضد المحتلين . وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان الفوز فيها سجالاً . واخيراً تم الاتفاق بينهما على ان يخرج « الرعاة » باموالهم ومواشيهم آمنين . فبرحوا البلاد وكان عددهم ٢٤٠ الفاً بقي قسم منهم في فلسطين والقسم الآخر قصد سوريا الشمالية .

وقد سببت هذه الغزوة الطويلة الأمد المعروفة في التاريخ بغزوة الرعاة ، ضرراً عظيماً للبلاد السورية . لأن المصريين بعدما اتحد زعماؤهم ، وتسلم القيادة ملك واحد . اخذوا يقتحمون البلاد السورية لا ليثأروا ممن غزاهم فحسب ، بل ليحولوا دون اعادتهم الكرة على مصر .

فنشبت معارك عديدة بين مصر والشام كان لها اثرها في التاريخ . ومن المعارك المشهورة التي كبدت منطقة حمص اعباء ثقيلة . معارك توتمس الاول والثالث والرابع وساتي الاول ورعمسيس الثاني والثالث وقام بهذه مشاهير الدول الثلاث المصرية (الـ ١٨ و١٩ و٢٠) التي قامت بعد دول الرعاة الثلاث (الـ ١٥ و١٦ و١٧) ومن اهم الغزوات حملات توتمس الثالث من الدولة الـ ١٨ ورعمسيس

الثاني من الدولة الـ ١٩ ورعمسيس الثالث من الدولة العشرين .

على ان هجمات المصريين لم تقتصر على الشام بل تخطتها الى اشور واستمرت هذه الحملات نحو قرن (١٦٦٥ - ١٥٥٩) فان توتمس الاول فتح بابل . ولما تمرد الاشوريون بعد وفاته جدد توتمس الثالث الغارة عليهم وولى على بابل من وثق به . وظل الامر فيها للفراعنة الى سنة ١٣١٤ فكانت مدة ولايتهم ٢٤٥ سنة (المقتطف ٤ : ١٨١) .

وكانت الحرب بين المصريين والشاميين سجالاً يكتب الفوز تارة لهؤلاء وتارة لاولئك . ومن اهم المعارك التي فشل فيها الحمصيون بقيادة ملك حمص ، معركة مجدو سنة ١٤٧٩ وتلاها معركتان انحاز فيها آراميو جبيل الى توتمس الثالث سنة ١٤٧١ وسنة ١٤٦٠ (بليبل ص ٤٤) .

ومن اهم المعارك التي ربحها الحمصيون بعد تجدد قواهم وضمهم ما تشعث من القبائل في شمالي سوريا معركة قادس الشهيرة في ايام رعمسيس الكبير التي تتالت فيها الحروب مدة ١٥ سنة اضطر في نهايتها رعمسيس ان يعقد محالفة مع الحثيين وان يقترن بابنة ملكهم .

وفي اثناء ذلك قدم الى هذه المنطقة الميتانيون من الشمال الشرقي ، كما قدم اليها من الشمال الغربي الحثيون . وكانت المعارك المصرية قد انهكت قوى الحثيين . فاستسهل الميتانيون احتلال قسم من هذه المنطقة واتخذوا قطنه مركزاً لقيادة الفرقة الزاحفة غير ان الامر لم يطل كثيراً بهم ، لان سوبيلوليوما (سابالت)

الكبير تمكن بدهائه من تقليص ظلهم عن البلاد . لانه بعدما وحد اجزاء سوريا الشمالية ، اخذ يحتل بلادهم شيئاً فشيئاً ، ثم هاجم قاعدتهم فدمرها . وهيأ الى خلفائه ذخيرة عسكرية استطاعوا معها ان يقاوموا المصريين بقيادة اعظم ملوكهم رعمسيس الكبير (زيسوستريس) .

وتعتبر هذه الحقبة بحق حقبة عسكرية لان الحرب شغلت الحصيين كل هذه المدة فنشأوا نشأة حربية وكان سلاحهم فيها الحديد بدل البرونز .



تمثال ميتاني وجد بين انقاض قطنة القديمة (المشرفة) . يظهر من اعضاء جسمه قبضتان مطبقتان وقدمان حافيتان وهو جالس على عرش ملتحف برداء طويل موشّى بالفرو

على ان الحثيين بعد فشلهم في محاربة رعمسيس الثالث ، اخذوا ينصرفون نحو الشمال . واتخذوا كركيش قاعدة لهم فهدأت الحالة في المنطقة الحمصية . وقد استفاد اهالي المنطقة من وجود الحثيين فيها ، وحسنت حالتهم الاجتماعية فاتقنوا فن البناء والحدادة . وحسن تفاهمهم مع الحثيين بلغتهم التي مازجها الفاظ مصرية ، اما دياناتهم فظلت تدور حول محور عبادة الشمس على انها مالت الى توحيد المعبود .

الملمعون الى هذه الحقبة

من اقدم الآثار القلمية التي وصلت الينا ، سفر ايوب واسفار موسى الخمسة وسفر يشوع . فقد ارسلت اشعة من النور ، على نواحٍ كثيرة من غوامض التاريخ . ونلنا منها فوائد جمة لمعرفة اصول وفروع الامم القديمة . التي توطن بعضها في حمص ، في اقدم ازمنة التاريخ . فوجب ان نعرف القراء بكتّابها . وانما نعرض في ما نكتبه الآن الى الوجهة التاريخية دون سواها . ونفي حقها من البحث لانارة سبيل قراء التاريخ القديم . وبما ان نفراً من المحققين ذهبوا الى ان يوسف بن يعقوب هو كاتب سفر التكوين او بعبارة اخرى هو واضع المذكرات القديمة التي تناول منها موسى معلوماته السابقة لعصره ، نعطيه الاولية بالذكر . ويأتي ايوب ثم موسى ثم يشوع بن نون بحسب الترتيب التاريخي .

١ً) يوسف العفيف

(١٨٦٥ — ١٧٥٥ او ١٧٤٥ — ١٦٣٥ ق م)

يوسف العفيف هو بكر يعقوب من زوجته راحيل . ولد في فدان ارام على اثر استغاثة راحيل بالله لينزع عنها عار العقرية (تك ٣٠ : ٢١—٢٤) فدعته يوسف الذي ترجمته سيزيد . اعتقاداً منها ان الله سيرزقها ولداً ثانياً . وكان لها ما تمنت (تك ٣٥ : ١٧ و١٨) .

كان يوسف محبوباً جداً من ابيه لوداعته وحسن سجاياه . غير ان هذه المحبة التي خصّهُ بها ابوه ، جعلته موضع الحسد من اخوته. فلما وجدوا سانحة اعتقلوه وباعوه لقافلة ذاهبة الى مصر . ولتخفيف وقع الجناية على ابيه زعموا ان وحشاً افترسه . فابتاعه في مصر فوطيفار رئيس الشرطة العام وكان برتبة تقابل ميرالاي عندنا . ورأت امرأة فوطيفار جماله الفائق فراودته على نفسه فقابل مباغتتها اياه بجفاء الحريص على عفته . فنقمت عليه وشكته الى زوجها زاعمة انه حاول مسّها . فالقاه في السجن وظل فيه مدة الى ان ساعدته الظروف ،

فاخرجه فرعون لتفسير احلام اخافته. فاحسن يوسف تأويلها . فوثق به فرعون، ونال مكانة عنده لم ينلها سواه . بحيث صار ثاني فرعون في المملكة . وتزوج ابنة كاهن أون (تك ٤١ : ٤٥) . ولما حدثت المجاعة العظيمة حضر اخوة يوسف الى مصر يمتارون قمحاً فتعرف اليهم بعد لأي . ثم استقدم اهله كلهم الى مصر واجتمع شمل العشيرة فيها .

وكانت هذه الحوادث الغريبة موضع الريبة عند المتسرعين بانكار كل ما فيه شيء غير مألوف . ولكن الآثار المصرية جعلت هذه المستغربات قابلة التصديق .

فقد ورد في بعضها ما يشبه قصة امرأة فوطيفار . وورد في بعضها ما يشبه قصة رئيس السقاة والخبازين . وورد في بعضها ذكر المجاعة التي تداركها يوسف بحكمته .

ويرى المحققون ان فرعون يوسف هو احد ملوك دولة الرعاة الاخيرة وان اسمه يوفس .

وقبلما توفي يوسف اوصى ان يدفن جسده في مدافن اسرته. فدفن بعدئذ في شكيم بجانب بئر يعقوب (تك ٥٠ : ٢٥) ثم نقلت رفاته بعدئذ الى حبرون حيث ووريت عظامه في مغارة المكفيلة مع اجداده .

اما سفر التكوين الذي نسبه البعض ليوسف فيتضمن ٥٠ فصلاً وقعت في مقدمة وثلاثة اجزاء وخاتمة .

تضمنت المقدمة ما حدث للجدين الاولين آدم وذريته ونوح واولاده من ص ١—١١ : ٩ .

والجزء الاول — وطيء له بذكر سلسلة نسب سام (١١ : ١٠—٢٦) ثم ولي ذلك ماجريات ذرية تارح (١١ : ٢٧ — ص ٢٥ : ١١) .

والجزء الثاني — مهد له بسلسلة نسب اسمعيل بن ابرهيم (٢٥ : ١١—١٨) ثم سردت حوادث اسحق وذريته (٢٥ : ١٢—٣٥ : ٢٩) .

والجزء الثالث — وطيء له بخلاصة عن ذرية عيسو (ص ٢٦) ثم تلا ذلك تفصيل ما جرى ليعقوب واولاده (ص ٣٧—٤٧) .

والخاتمة — اواخر حياة يوسف ووفاته (ص ٥٠) .

وقد استفدنا من سفر التكوين لتاريخ حمص فوائـد قيمة عظيمة عن الامم القديمة عامة والحثيين منهم ·

اعتراضات على سفر التكوين

الذين يلذهم الموقف السلبي لم يصدقوا ان سفر التكوين من مرويات موسى او يوسف وأوردوا اعتراضاتهم بالشكل التالي :

١) انه لم يكن في ذلك العصر قرطاس ولا رق ولا حروف هجاء

٢) ان الطوفان خرافة لا تصدق لان الموجود من الماء في الارض لا يكفي لتغطية الكرة كلها ·

٣) ان هيرودوت صرح ان مصر لم تنبت الكرمة فكيف وجد رئيس سقاة ·

٤) ان بين آدم وموسى قرون متطاولة تجعل الوثوق بروايته متعذراً ·

واجاب المحققون على هذه الاعتراضات بما نوجزه في ما يلي :

على الاول — ان هـذا الاعتراض كانت له قيمة قبل اكتشاف الآثار الاشورية التي امتدت بقدمها الى اربعين قرناً قبل المسيح وهي اقدم من موسى بزمن كثير فلا يتعذر على موسى او يوسف ما سهل على اولئك ·

وعلى الثاني — ان الطوفان لم يكن عاماً بل خاصاً بالارض التي سكنها الانسان الاول وهو ليس بمستحيل او متعذر ·

وعلى الثالث — ان هيرودوت نفسه ذكر في موضع آخر تفاخر اهل تينة بوجود الكرمة عندهم · فقوله الاول اذن خاص لا عام · على ان وجود رئيس السقاة لا يستلزم وجود الكرمة اذ يمكن جلب المشروب من صقع آخر ·

وعلى الرابع — ان رواية عن ثـلاثة اشخاص صادقين فوق الكفاية لتصديقها · فكيف بها اذا كانوا شهوداً عيانيين واخذوها كابراً عن كابر ? ومتى ذكر المعترض طول اعمار الاقدمين لا يبقى ثمة موجب للاعتراض · فان متوشالح عاصر آدم ٢٤٣ سنة · وسام عاصر متوشالح ٩٨ سنة · واسحق عاصر سام ٥٠ سنة · فلا يتعذر على يوسف اخذ معلومات يقينية عن جده اسحق وقد عاصره نحو ثلاثين سنة ·

وهذا يجعل مرويات سفر التكوين ادق واضبط كل المرويات التاريخية ٠ وهذا انما نقوله من الوجهة العلمية التاريخية بقطع النظر عن انـه سفر موحى بـه لاننا وان كنا من رجال الدين نوجه بحثنا في كتاب تاريخي الى الهدف العلمي مجرداً ٠

٢) ايوب الصديق

(١٩٢٥—١٦٧٧ او ١٦٦١—١٥٢١ ق م)

هو ابن زارح وبسوّرة خامس متسلسل من ابراهيم اشتهر بالاستقامة والتقوى - وضرب به المثل بالصبر ٠ قيل انه عوص بكر ناحور اخي ابراهيم وقيل انه يوباب بن حفيد عيسو ٠ وايد هؤلاء قولهم بما ورد عن نسبة اصحابه فان بلدد من ولد شوح بن ابراهيم ٠ واليفاز من ذرية تيان بن عيسو ٠ واليهو من اعقاب بوز بن ناحور اخي ابراهيم ٠ على ان هذا استنتاج ليس الاَّ ٠

كان ايوب رجلاً غنياً بالعقار والماشية واميراً في قومه ٠ واملاكه واقعة بين البحر الميت وسعير او بين ادوم والصحراء العربية ٠ فهي في مواضع خصبة التربة كثيرة المياه ٠ ومن معرفة رفاقه يستدل انه كان مجاوراً الادوميين والعرب ٠

عاش ايوب قبل الشريعة الموسوية وكان يعبد الاله الحقيقي ٠ وقد اشير اليه في التوراة (مز ١٤ وحز ١٤) والانجيل (يع ٥ : ١١) والقرآن (ص ٣٨ : ٤١—٤٥)٠

اما زمان وجوده فقد اختلف فيه المحققون فزعم هاليس انه سبق ولادة ابراهيم بمئة سنة ورجحه البستاني (٤ : ٨٠٤) ورأى أشر ان زمنه كان قبل الخروج بنحو ٣٠ سنة ورجحه بوست (١ : ١٨٩) ٠

اما سفر ايوب فقد اتفقت كلمة الكتابيين او كادت على انـه اقدم اسفار العهد القديم٠ وشذ عنهم نفر من المتحذلقين٠ اذ رأى بعضهم مماثلة بين سفره وسفر اشعياء فنسبوه له ٠ مع ان تشابه الانشاء لا يستلزم وحدة المنشئين ٠ في حين ان البون واسع بين مضامين السفرين ٠

وذهب بعض الشراح الى ان مؤلفه موسى ٠ ولكن خلو السفر من ذكر الحوادث الهامة في ايام موسى كشق البحر الاحمر مثلاً ، يدل على انـه اقدم

عهداً منه . فلم يبق اذاً الا القول المتفق عليه وهو ان المؤلف هو ايوب نفسه اذ لا يستطيع ان يحفظ سلسلة المحاورات التي دارت بينه وبين اصحابه الثلاثة سواه . وان هذا السفر وقع بيد موسى عندما كان عند حميه يثرون مدة اربعين سنة . فوطأ له بذكر ترجمة ايوب وما اصابه من المحن . ثم ذيله ببيان ما كان من آخرة ايوب ووفاته دون ان يَمس شيئاً من تبطّنه الذي حفظ فيه نفسهُ الخاص

ان هذا السفر قد افرغ في قالب بلاغة رائعة . وهو عبارة عن قصائد متسلسلة بلغة عبرانية لا تشوبها شائبة . وفيه من دقيق المعاني ما يبلغ درجة الاعجاز . ويشف عن علم سامٍ بالفنون والمعارف ولاسيما التاريخ الطبيعي . ويلقي في روع مطالعه حب الفضيلة ومقت الرذيلة . مشرباً اياه معرفة الآله الواحد والاستسلام لمشيئته .

على ان ما وجد فيه من ضروب البيان العربي ، جعل الكثيرين يظنون انه أُلف بالعربية . لكن هذا القول ليس بثبت . والواقع ان المؤلف كان يحسن اللغتين العبرانية والعربية لمخالطته الامتين . فلم يتعذر عليه استعارة بعض ضروب البيان لتأدية المراد الذي تقصر عنه العبرية .

ومن اهم ما اورده ايوب مما له صلة بتاريخ حمص . ذكره الجبابرة «رافائيم» (تك ٢٦ : ٥) وقد وردت هذه اللفظة في عدة مواضع من العهد القديم بمعنى الجبابرة العظام ، وترجمها الاميركان بلفظ الاخيلة (تك ١٤ : ٥ و١٥ : ٢٠ ومز ٨٧ : ١١ وام ٢ : ١٨ و٩ : ١٨ و٢١ : ١٦ واش ١٤ : ٩ و١٦ : ١٤ و٢٩) مما يؤكد وجودهم في العصر الذي انشئت فيه حمص .

٣) موسى بن عمرام

(١٦٨٩—١٥٦٩ او ١٥٧١—١٤٥١ ق م)

ولد موسى ابان النكبة الشديدة التي ألمت بالاسرائيليين ، اذ امر فرعون بقتل الذكور من المواليد وابقاء الاناث . وهو ثالث الاخوين مريم وهرون اولاد عمرام بن قهات بن لاوي من زوجته يوكابد بنت لاوي . فخبأته امه ثلاثة اشهر . ولكنها خشيت الفتنة فوضعته في سفط من البردي مطلي بالحمر والزفت

والقته في النيل . ووقفت امه من بعيد تنتظر النهاية . وصدف ان ابنة فرعون نزلت الى النهر لتغتسل فالتقطت السفط ورأت فيه الطفل الجميل يبكي فأرادت استبقاءه مع معرفتها انه من اولاد العبرانيين . واستحضرت بواسطة مريم ، امه لارضاعه . غير عالمة انها نفس والدته . فارضعته ولما كبر احضرته الى ابنة فرعون فكان لها ابناً .

نشأ موسى وترعرع في بلاط الفراعنة . ونثقف على يد اشهر المعلمين في كل علوم مصر وفنونها . فحصل قسطاً وافراً من الحكمة واتقن اسرار الرئاسة كلها . وعرفه الناس ابن بنت فرعون . ولو بقي في مصر لنال اعظم منصب فيها .

ولكن سبق له ان عرف انه اسرائيلي فسعى جهده لانقاذ قومه من ذل العبودية . وقضى في الاستعداد لذلك اربعين سنة ولما باشر عمله كان في الثمانين من عمره فتمكن بعد جهد عظيم من اخراج الاسرائيليين من مصر بساعد رفيع .

وتعب في البرية مع قومه كثيراً فكتب لهم الشرائع الضرورية لاجل تثقيفهم بعد عبودية طويلة . وقد وعت ما كتبه اسفاره الخمسة . ثم رقد وله من العمر ١٢٠ سنة .

موسى ازاء الجاحدين

لم يكن قبل عصر الشك من ارتاب بحقيقة وجود موسى . ولكن القرن السابع عشر الذي أثار الشك بكل ما هو قديم ، جعل بعضهم ينكر وجوده والبعض الآخر يهزأ بشخصيته زاعماً انه كاذب ، غير ان هذا التهور وقف بعد ذلك عند حد ، وحسبك ان رهطاً ممن عاصروا قرن الجحود بل كانوا من اركانه ، قد انصفوا الرجل . ورفعوا عنه التهم التي لا تليق . ونختار من هؤلاء رجلاً لا يجد المستسلمون الى الشك وسيلة لرد قوله .

قال جان جاك روسو في كتابة العقد الاجتماعي : القانون الموسوي الباقي الى الآن ، يدل على عظمة الرجل الذي املاه . واذا كانت الفلسفة المطرمذة وروح التعصب الاعمى ، جعلت البعض يعتبر ان موسى كاذب سعيد الطالع ، فان السياسة الحقة تعجب بالنظام الـتي سنتها تلك الروح القديمة . وهي لا تزال حية بشرائعه الخالدة اهـ (دائرة وجدي ٩:٥٥٥) .

الاسفار الخمسة لموسى حقيقة

وليس من الانصاف ان نمر بما ذكر دون ان نذكر مستندات الزاعمين ان هذه الاسفار كتبت بعد موسى بزمن طويل .

١) ذكر في آخرها نبأ وفاة موسى والمرء لا يستطيع كتابة وفاته .
٢) لم يشر اليها في المزامير واسفار سليمان .
٣) اسماء اسفارها مأخوذة عن السبعينية .
٤) الكاتب يذكر اسم موسى بضمير الغائب .
٥) يمدح الكاتب موسى كثيراً .
٦) لغتها تشابه لغة سائر اسفار العهد القديم .

واليك الجواب الموجز جداً على ما ذكروه بغية التحقيق :

١) ان الاصحاح الـ ٣٤ من سفر التثنية كتبه يشوع ليكون مقدمة لسفره فلما ضمت اسفار العهد القديم كلها في مجلد استحسن ان يختم به سفر التثنية اتماماً لما جرى لموسى .

٢) ان اسفار موسى ذكرت في كل الاسفار بتفصيل ولاسيا التاريخية منها ولم يخل منها سفرا المزامير والامثال مع انهما ادعية وحكم (انظر مز ٧٨ و٩٥ و١٠٥ و١٠٦ وام ١١ و٢٠ و٢٢) .

٣) ان العبرانيين سموا كلاً من الاسفار الخمسة باول لفظ ورد فيه ، وعلى منوالهم دعا المسيحيون دستور الايمان « اومن » والصلاة الربية « ابانا » ودعا المسلمون سورة الملك والنبأ « تبارك » و « عم » اما السبعون فقد اختاروا للاسفار اسماء تدل على مضمونها وهذا كما لا يخفى لا صلة له بجوهر الموضوع اذ يستطيع الانسان الاستغناء عنها وتبقى الاسفار كما هي :

٤) ان العارفين باللغة العبرانية رأوا بين الاسفار الخمسة وسائر الاسفار الفروق التالية .

لو بلغ المعترض الغاية بالبحث لما ظهر ما ابداه .

١) فان كاتب ختام سفر التثنية انما هو يشوع لا موسى .

٢) ان اسفار التوراة ذكرت مراراً كثيرة جداً في كل اسفار العهد القديم بدون استثناء المزامير والامثال .

٣) وان الاسماء لا صلة لها بجوهر الموضوع .

٤) وان تعبير المؤلف عن نفسه بضمير الغائب كما فعل زينوفون وقيصر ويوسيفوس وسواهم لا ينفي انه المؤلف .

٥) وان موسى في كل مـا اتاه من الاعمال الجيدة لم يمدح نفسه في اسفاره بل بالعكس كثيراً ما ذكر هفواته . وانما ذكر في سفر الخروج (١١ : ٤) اعظام المصريين اياه ، وفي سفر العدد (١٢ : ٣) حلمه ، على سبيل بيان الواقع ليفهم القارىء كيف سهل اخراج الاسرائيليين من مصر في الاولى . وكيف صبر على تحامل اخويه عليه ، وهاتان هما المرتان الوحيدتان اللتان ورد فيهما ما يشعر بمدحه ولم يكن المدح مراده بل مجرد بيان تعليل ما حدث .

٦) امـا الزعم بان لغة الاسفار الخمسة لا تختلف عن لغة سائر الاسفار فهو من اوضح الادلة على عـدم تحري المعترض ما ابداه فقد ذكر المتبحرون في معرفة اللغة العبرانية من الفروق بين طائفتي الاسفار الاولى والاخيرة مايلي :

١) ورود ضمير المذكر الغائب للمؤنث في ١٩٥ آية من اسفار موسى .

٢) استعمال مؤلفها لفظ «نعر» العبراني ومعناه الشاب في ٢١ آية للشابة .

٣) ربط الموصوف الاول بالثاني بحرف اليود .

٤) انتهاء فعل الامر فيها بحرف النون .

٥) صيغة المصدر فيها غير صيغته في باقي الاسفار .

٦) وجود الفاظ وعبارات فيها لا توجد في سواها .

٧) خلوه من الالفاظ الاجنبية سوى المصرية .

كل مـا ذكر وما لم يذكر اختصاراً يدل على ان الاعتراضات ضد نسبة الاسفار الخمسة الى موسى فائلة . فضلاً عن انها واهية ولو كان التحقيق رائد المعترضين لرأوا في كل صفحة من صفحاتها دليلاً على صحة هـذه النسبة . اذ لا يستطيع ان يكتب ما ورد فيها ، الا من عاين وشهد الوقائع المذكورة فيها بالنظر لدقة مـا ذكر من الاماكن والازمنة والشرائع . وفيها شؤون كثيرة

تستلزم ان يكون الكاتب ممن احكموا تاريخ المصريين ، وممن عرف الأمم المجاورة التي مرَّ بها العبرانيون وهم يقصدون ارض كنعان ، وكل هذا لا تتسنى معرفته لكاتب جاء بعد موسى او في عصر سليمان . وحسب القارىء قناعة ان مانيتون المصري وهكاتاوس الابديري ذكر ما ذكره موسى بدون ان يكون لهما صلة به . ومثل ذلك قال ارطبان وشبريون واوبوليموس وتلشيت وسواهم من قدماء المؤرخين الذين خالفوه في مبدأه ، ووافقوه في ما رواه (تفسير الخروج٢٩٢) .

٤) يشوع بن نون

(١٦٥٤—١٥٤٤ او ١٥٣٦—١٤٢٦ ق م)

يشوع بن نون رجل افرايمي الاصل . قضى زمن حداثته في خدمة موسى . ولازمه ملازمة ظله (خر ٣٣ : ١١ وعد ١١ : ٢٨) وفي ايام معلمه ظهرت نجابته في عدة مواقف .

فقد كلفه موسى بمحاربة العمالقة ففاز عليهم . مع ان الجيش الذي قاده لم يكن ممن تدرب على الحرب . وكان عمره آنئذ ٤٥ سنة .

واختاره موسى لمرافقته الى الجبل وقد صعد معه الى القمة وحده دون سائر من رافقوه .

وكان احد الاثني عشر رائداً لارض كنعان . وانفرد مع كالب بتشجيع الاسرائيليين دون العشرة الباقين الذين جبنوا وثبطوا عزائم الشعب .

لذلك لما شعر موسى بدنو اجله عينه قائداً للعبرانيين وعمره آنئذ ٨٥ سنة . لانه كان حائزاً جميع الصفات التي تؤهله للقيادة .

ان كثيرين ينفعون في الوظائف الصغيرة فاذا ارتقوا فقدوا مزاياهم الاولى . وخابت الآمال بهم . امـا يشوع فقد قضى السنوات العديدة في خدمة معلمه فكان مثال الطاعة والامـانة والشجاعة ، فلما توفي معلمه الذي كان يسترشده رأى نفسه في موقف حرج والعبرانيون على ابواب كنعان وامامه معارك هـامة فاسترشد ضميره المتعلق برب موسى . فشجعه من استند الى قوته اولاً ، وطاعة الشعب له ثانياً ، ففاز بكل ما امل . اذ اجتاز الاردن وحارب الكنعانيين مدة

ست سنوات فغلبهم واستولى على بلادهم وقسم الارض بالعدل على الاسباط وكان عدد الامم التي خضد شوكتها ستاً والملوك ٣١ .

وبعدما انهى عمله العظيم شعر بدنو اجله فجمع الشعب حوله وخاطبهم بما يؤول لخيرهم ، محرضاً اياهم على طاعة الله . ثم مات وهو ابن ١١٠ سنوات تاركاً من آثاره القلمية السفر الذي يحمل اسمه من اسفار العهد القديم ، وهو مقسوم الى ثلاثة اقسام .

الاول — من ص ١—١١ وفيه خبر الاستيلاء على ارض كنعان .

الثاني — من ص ١٢—٢٢ وفيه تخطيط البلاد وقسمتها .

الثالث — نصائحه للشعب بتجديد العهد لله ثم اختتام السفر بذكر نهاية ايام يشوع التي ضمها الى السفر كاتب القضاة .

وقد ارتاب بعضهم بصحة هذه النسبة كما ارتابوا بنسبة اسفار موسى ، وادلة هؤلاء ليست باقوى من تلك ، فلا حاجة لاضاعة الوقت بذكرها وبيان وجوه ضعفها ، وحسب القارىء قناعة بصحة هذه النسبة ، انه لا يمكن وجود شخص غير يشوع يستطيع ان يروي الحوادث التي كتبها بالضبط والترتيب الذي ورد فيها . ومن طالع ما اورده المؤلف من كلام كالب (١٤:٦—١٢) وفنحاس (٢٢:١٣—٢٠) وحديث يشوع (ص ٢٣ و٢٤) يجزم بدون تردد بان الكاتب انما هو يشوع ، اذ لا يستطيع سواه ايراد ما ذكره بهذا الضبط والدقة .

هذا فضلاً عن ان الكاتب ذكر ان يشوع كتب الكلام وضمه الى سفر شريعة الرب . ووجود حرف العطف في اول السفر يدل على ان كاتب الاصحاح الاخير من التثنية هو نفسه كاتب هذا السفر . وبما ان كاتب الاصحاح الموما اليه هو يشوع فالسفر اذن بلا بد تأليفه .

واستفاداتنا من هذا السفر لتاريخ حمص كثيرة يشار الى كل منها في موضعه .

الحقبة الثالثة

حمص

في ايام الفينيقيين والعبرانيين والاراميين

سنة ١٢٢٥ — ٧٤٠ ق م

كما مهدنا في الحقبة السابقة لحوادث هذه المنطقة بتعريف الشعوب الذين لهم صلة تاريخية بها كالمصريين والحثيين والميتانيين . يجدر بنا ان نذكر لمحة عن كل من الامم القديمة التي لها صلة بهذه المنطقة في هذه الحقبة .

اولاً — الفينيقيون

فينيقية قطعة مستطيلة من البلاد الشامية تمتد من الكرمل جنوباً الى ارواد شمالاً ، ومن البحر غرباً الى مرتفعات لبنان شرقاً . ويبلغ طولها نحو ١٢٠ ميلاً ويختلف عرضها من ٢٠ ميلاً الى اقل من نصف ميل . ويكاد يكون هذا التحديد نفس تحديد بطليموس الجغرافي القديم .

وتقسم فينيقية الى قسمين البحرية وتضمن مدن سوريا الساحلية . واللبنانية وتمتد من دمشق الى بعلبك فتدمر ، وتتضمن مدن سوريا الداخلية التي من امهاتها مدينة حمص كما يدل على ذلك منطوق الفيمي الكنسية الذي ما برح مستعملاً حتى الآن .

وفي تسمية هذه البقعة فينيقية اقوال . من اشهرها القول انها تسمية يونانية الاصل اطلقها عليها اليونان لكثرة النخل فيها ، وكانت قبل سيطرة اليونان عليها تدعى بلاد كنعان ، وقد ذكرت في العهد الجديد اربع مرات .

ويرجع الفينيقيون اصلهم الى الارومة السامية. ويرجح المؤصلون ان مواطنهم الاصلية كانت في سواحل خليج العجم، نزلوا منه في جزائر البحرين وما جاورها ثم هاجروا الى ساحل المتوسط قبل المسيح بنحو ٢٣ قرناً وانشأوا حيث حلوا عدة مدائن من اقدمها صيدا وارواد وصور وطرابلس.

ووجودهم على السواحل انشأ فيهم الميل الى الملاحة فتعاطوها وتفوقوا فيها، وتعددت رحلاتهم التجارية بالبحر، فانشأوا عدة مستعمرات منها قبرص ورودس وثاسوس. واقاموا عدة انزال في نوميديا (الجزائر) وموريطانيا (فاس) وقادس (في اسبانيا) ولم ينقض قرن من إعمارهم قادس، حتى تولوا اخصب البقاع واغناها في اسبانيا وهي التي عرفت بالاندلس. وبقيت لغتهم مستعملة فيها الى زمن الرومان. اما في سوريا وما بين النهرين فاتخذوا اهم المجاري النهرية مباءة لهم، فعلى العاصي حمص وحماة، وعلى الفرات من جهة تدمر تبساك، وبقرب دجلة نصيبين.

وشأن الفينيقين انقسامهم الى عدة ممالك كانت صلة الواحدة بالاخرى ضعيفة جداً لضعف الروح القومية في تنظيمها. اذ كانت بعض العشائر تنضم فتؤلف دولة تسلم قيادتها الى زعيم المدينة الكبرى. فتعددت ملوكها بتعدد المدن الكبرى فيها. وكان ملوك سوريا في بادىء الامر مرتاحين كل مدة وجود الهكسوس (الرعاة) في مصر. وكثيراً ما كانوا يلوذون بهم عند النوازل للصلة الجنسية بينهم. ولكن لما اخرج المصريون الرعاة، سعى ملوك مصر لاذلالهم حتى لا يطمعوا ثانية باقتحام مصر. فاضحت سوريا ميداناً للقتال وانقسم الفينيقيون الى قسمين قسم يؤيد مصر وهم اهل صور واخوانهم الاراميون اهل جبيل. وقسم يؤيد الحثيين وهم اهل صيدا وارواد. وطالت الحرب بين مصر وسوريا وكانت سجالاً بينهما. فوقفت حركة التجارة ووهنت القوى وظلت الحالة كذلك مدة خمسة قرون في ايام الدول المصرية الثلاث ١٨ و١٩ و٢٠.

في اواسط القرن الخامس عشر دخل الاسرائيليون ارض كنعان بقيادة يشوع بن نون وقضوا على سيطرة ساكنيها. فنزح هؤلاء الى جهات شتى بعضهم الى اليونان وهم جالية قدموس وبعضهم الى المغرب حيث نشأت قرطاجنة.

وفي القرن الثالث عشر قدم الفلسطينيون الى هذه البلاد من جزر

بحر الروم وحاولوا في بادىء الامر الاستيلاء على مصر فصدهم عنهـا رعمسيس الثاني (١٢٨٨—١٢٥٦) فسكنوا الارض الواقعة بين مصر وسوريا حيث غزة واشدود وعسقلان وجت وعقرون . ولم يمر عليه اكثر من قرن حتى اشتد ساعدهم فضايقوا بني اسرائيل نحواً من نصف قرن ثم سيروا اسطولاً وباغتوا صيدا ففتحوها وابسلوا اهلها وقضوا على سؤددها .

غـير ان الاسرائيليين خضدوا شوكة الفلسطينيين في ايام داود (٢ صم ٥:٧ الخ) فعنوا لسيطرة اسرائيل كل مدة ملك سليمان (١ مل ٤:٢١ و ٢٤) فارتاح الى ذلك الفينيقيون . ولما خلت مياه البحر المتوسط من السفن المصرية اغتنم الفينيقيون هذه السانحة واحتلوا المدن الساحلية فاصبحوا ملاحين ماهرين ، وراجت تجارتهم في جميع الارجاء التي توجهوا اليها . واكتشفوا الجهة الغربية من البحر المتوسط حيث اسسوا قرطجنة التي صارت اهم بقعة تجارية وظلوا ثلاثة قرون (١٠٠٠—٧٠٠) اعظم تجار البحر المتوسط ، وصاروا الصناع الفنيين لعالم واسع الاطراف يمتد من نينوى شرقاً الى اليونان غرباً . واهم ما حفظه الغرب لهم من الفضل تقلهم الحروف عنهم (براستد عدد ٥٠٠—٤٠٩) ولكن زمن راحتهم لم يطل اذ هاجم البلاد الاشوريون بقيادة توكربال سنة ٨٧٦ فاستسلم له الفينيقيون وأدوا الجزية .

وتتالت المحن على فينيقية بعد ذلك فغزاها تغلت فلاسر سنة ٧٤١ وتـلاه اسرحدون الذي نزع سلطة صور عن فينيقية .

واخيراً جاء نبوخذ نصر سنة (٥) فحاصر صور ١٣ سنة ثم سلمت له بشروط وجاء كورش الفارسي ففتح فينيقية كلها ومحا اسم مملكة صيدا من الوجود .

ولما قام اسكندر المكدوني حارب الفرس وانتصر عليهم ودخل سوريا فضرب صور ضربة قاضية سنة ٣٣٢ بعد حصار سبعة اشهر منتقماً من الفينيقيين لمعاونتهم الفرس على اليونان ، فرحل منهم كثيرون الى افريقيا حيث نشأت قرطاجنة (٨٤٦—١٤٥ ق‌م) التي نازعت رومة السيادة مدة ليست بقصيرة . ولكن تقاعس الفينيقيين عن انجـاد هنيبال بالذخائر لتفرق كلمتهم وطموح افرادهم الى السيادة ، جعله يخفق بعد نصرات متوالية . وادى ذلك الى تفرقهم شذر مذر ، وخضوعهم بعد ذلك الى امم شتى في بلادهم . مستسهلين الخضوع للاجنبي عن الانصياع لابن

جلدتهم . فسادهم في بلادهم اليونان والرومان والعرب والممالك والاتراك وسواهم . حتى قال احدهم في ذلك : « ان طموحهم عن غير استعداد له اضاع استقلالهم » فانهم نشأوا وفيهم ميل للحرية المتطرفة جعل كل جماعة تسعى الى الانفصال عن الاخرى . فتؤلف قوة مستقلة وتشيد مدينة منيعة في نقطة معينة تحيطها بسور حصين ويرئسها احد الناهضين . فكثرت فيهم الممالك على قلة عددهم وضيق مساحة بلادهم فاضعفت هذه التفرقة وحدتهم حتى طمع فيهم كل طموح . وما زالت هذه الصفة من ميزاتهم وسبب تفرقهم تحت كل كوكب (براستد)

واعلم ان من اعظم مدائن الفينيقيين صيدا وصور ظلت الاولى متفوقة الى ان اسقطها الفلسطينيون في القرن الثاني عشر فاخذت محلها صور وبلغت ذروة مجدها في اوائل القرن الثاني عشر وبقيت كذلك الى آخر القرن السادس ، وقد عني المؤرخون بتدوين حوادثها ولا سيما ميناندر الذي وضع لها تاريخاً خاصاً الى آخر القرن التاسع وفي ما يأتي جدول باسماء ملوكها عن لانزمان ويورتر :

١١٠٠ ق م	حيرام الاول
	ابيبعل كان في ايام داود
١٠٢٥	حيرام الثاني
٩٩١	بعل عازار
٩٨٤	عبد عشتروت
...	ثم وليه عدة مغتصبين
٩٤١	ايتو بعل
٩٠٩	بعل عازار الثاني
٩٠٣	ماتان
٨٧١	بيكماليون
٨٢٤	حيرام الثالث
٧٣٠	موتون الاول
٧٣٠	إلولا
٧٠٤	ايتو بعل الثاني

٦٧٠	بعل
٦٥٠	بلك
٥٩٠	ايتوبعل الثالث
٥٧٤	بعل الثاني
٥٦٣	قضاة
٥٥٦	بعل لاتور
٥٥٥	مور بعل
٥٥١	حيرام الرابع
٥٣١	موتون الثاني

ومن بعد هذا التاريخ اصبحت فينيقية ولاية سورية خاضعة للفرس ·

ثانياً – العبرانيون

يبدأ تاريخ العبرانيين بهجرة ابراهيم الخليل في القرن الحادي والعشرين قم من اور الكلدانيين الى غربي الفرات فمصر وسوريا الجنوبية حيث مات في حبرون ·

وكان لابراهيم عدة اولاد لم يلازمه منهم سوى اسحق · اما اسمعيل فانه سكن في بلاد العرب ومنه القبائل المستعربة ، وخلف اسحق عيسو ويعقوب فجلا عيسو وحل يعقوب محل ابيه ولقب اسرائيل واليه ينتسب الاسرائيليون ونسل يعقوب اثني عشر ولداً هم اسباط اسرائيل ·

وكان يوسف احب اخوته الى ابيه فحسده اخوته وباعوه لقافلة اسمعيلية كانت تؤم مصر للتجارة فجرت له في مصر شؤون ذات بال اختصه في نهايتها فرعون بنفسه لما رآه من نباهته ، فاعطاه المحل الاول بعده وفوض اليه تدابير الدولة · فاستقدم يوسف اليه اباه واخوته واولادهم · فأتوا وعاشوا مدة حياة يوسف ناعمين · فلما توفي وقام في مصر ملك آخر لم يكن يعرف قيمته ، عامل الاسرائيليين معاملة قاسية اذ اضطرهم ان يبنوا له الصروح الضخمة والمدن

الكبيرة ، ويظن معظم المحققين ان هـذا الملك هو رعمسيس الكبير بدليل ان احدى المدينتين الكبيرتين اللتين بناهما له الاسرائيليون اسمها رعمسيس .

وفي اثناء اشتداد المظالم ولد موسى وطرحته امـه في النهر تفادياً من الاوامر الجائرة الفرعونية القاضية بقتل كل مولود ذكر للاسرائيليين . فسخر الله له ابنة فرعون فانتشلته من المـاء واحسنت تربيته . فنشأ مصري التربية اسرائيلي الميل ، اذ تولت ارضاعه بالاجرة والدته نفسها . وابنة فرعون تجهل انها امه . فلما بلغ اشده اخذ يهتم برفع الضغط عن امته . وظل ذلك دأبه حتى تمكن اخـيراً من اخراجهم من مصر بيد قوية وساعد رفيع . في ايام منفطا بن رعمسيس . ولكن الاسرائيليين الذين انتقلوا فوراً من الاستعباد الى الحرية ، مالوا الى الفوضى . فاعنتوا موسى في البرية بطلبات لا مسوغ لها . فأتاههم الله في البرية اربعين سنة ، فيها انقرض الجيل الذي اساء فهم الحرية . وتمكن اولاده من دخول ارض كنعان بعد تنظيم صفوفهم .

ويرى فلاسفة المؤرخين ان الحروب التي نشبت بين المصريين والحثيين إبان تغرب الاسرائيليين في مصر . سهلت لهم الخروج من مصر اذ انهكت قوى المصريين والحثيين معاً . فرضي الاولون ببراحهم البلاد ، ولم يمانع الآخرون بدخولهم فلسطين . كما ان تيه الاسرائيليين في البرية اربعين سنة سهل عليهم دخول فلسطين اذ قضي على الفوضى في مدة السنين الاربعين ونشأ جيل منظم يصلح لاقتحام بلاد جديدة .

مات موسى الوطني الكبير الذي لا ينسى العبرانيون بطولته امد الدهر في البرية . وخلفه تلميذه يشوع فقاد الشعب الاسرائيلي وفتح ارض كنعان بعد حروب شديدة ثم قسمها على الاسباط الاثني عشر .

فلما مات يشوع والشيوخ معاصروه سادت الفوضى بين العبرانيين . وثارت الحروب بينهم وبين جيرانهم الفينيقيين من جهة ، والفلسطينيين من جهة اخرى وزاد في ضعفهم استقلال كل سبط في ارضه وعدم وجود رابطة اتحاد وثقى فيما بين الاسباط تجمع كلمتهم . غير ان تألمهم من الضعف الناتج من هـذه الحالة اوجد فيهم افراداً جمعوا كلمة الشعب ووحدوا مقاصده للنجاة من الاخطار التي كانت تهددهم . وهؤلاء النوابغ هم القضاة الذين ساسوا الامة الاسرائيلية

بنوع من الاتحاد الجمهوري ومن اهم هؤلاء الحكام : اهود البنياميني وباراق النفتالي وجدعون المنسَّوي ويفتاح الجلعادي وشمشون الجبار الداني وعالي اللاوي.

ولما انقضى عصر القضاة تحولت الاحكام الى الشكل الملكي . وكان اول من تسلم عرش الملك زعيم مشهور اسمه شاول البنياميني . عنوا لسلطانه سنة ١٠٩٥ ولكن لما حدثت حرب بينه وبين الفلسطينيين دارت الدائرة عليه فانتحر . وقام بعده رجل باسل اسمه داود بن يسى البتلحمي الذي سبق له ان عاش في ايام شاول شريداً . لان هذا حسد بطولته فهدر دمه فلما مات شاول سنة ١٠٥٥ انضوى قومه الجنوبيون الى لوائه فاظهر حنكة وبأساً في الحروب عقد له الفوز في عدة معارك . فانحاز اليه الشمال الغني واتسع نطاق مملكته بفوزه على الفلسطينيين . ومـا برح العبرانيون يذكرون اعماله الحربية العظيمة كقائد ويتغنون بمزاميره التي بلغت فيها شاعريته اعلى درجة من رقة العاطفة وبلاغة القول .

فلما مات داود سنة ١٠١٥ خلفه ابنه سليمان الذي كان نظير حمورابي زعيم الحركة المدنية في الشرق . فتاجر بالخيل ثم انشأ اسطولاً بحرياً بالاشتراك مع حيرام ملك فينيقية ومكنه غناه من مصاهرة ملك مصر . وانشأ في اورشليم هيكلاً فخماً اعانه على بنائه صديقه حيرام . غير ان علو الجاه وعزة الملك استلزمت نفقات طائلة نات بحمل عبئها كواهل الامـة . فلما مات سنة ٩٧٥ وتسنم العرش ابنه رحبعام انسلخ الشماليون بقيادة يربعام احد موظفي سليمان . وانقسمت المملكة الى قسمين شمالي وعاصمته السامرة وجنوبي وعاصمته اورشليم. وانقاد للدولة الشمالية تسعة اسباط اما القسم الجنوبي فلم يبق له سوى سبطين وعرفت دولة الشمال بالمملكة الاسرائيلية والجنوبية بمملكة يهوذا .

ان انقسام العبرانيين كان نتيجة طبيعية لشغفهم بالمنازعات الاهلية الـتي انذرهم بوخيم عاقبتها عاموس النبي . ولكنهم لم يرتدعوا وتابعوا تحزباتهم . فطمع بهم ملك اشور وأتى فدوخ اولاً دمشق لانها كانت الحاجز بينه وبينهم ثم زحف على السامرة فاحتلها عنوة وجلا الكثيرين من اهلها الى بلاده . فلما سقطت دولة الشمال اتجهت افكار العبرانيين الى مملكة الجنوب الـتي ناضلت عن كيانها نحو قرن وربع . وفرح اليهود حينما خربت نينوى سنة ٦١٢ ظناً

منهم ان سقوطها يعيد لهم حريتهم ، ولكن جاء الامر على غير ما أملوا . لانهم انتقلوا من استعمار الى استعمار آخر . اذ جاء نبوخذنصر وانزل بهم القضاء الذي نزل باخوانهم . فدالت دولت العبرانيين في الشمال والجنوب معاً بعدما خفق لواؤها نحو اربعة قرون ونيف (براستد) .

عاشت المملكة الاسرائيلية منفردة في الشمال ٢٥٤ سنة ويعتبر ملوكها الـ ١٩ اربع أسر .

الاولى — بيت يربعام ومدتهم ٤٦ سنة (٩٧٥—٩٢٩) .
الثانية — بيت عمري « ٤٥ سنة (٩٢٩—٨٨٤) .
الثالثة — بيت ياهو « ١١٢ سنة (٨٨٤—٧٧٢) .
الرابعة — بيت منحيم « ٥١ سنة (٧٧٢—٧٢١) .

اما المملكة اليهودية فقد عاشت ٣٨٧ سنة وعدد ملوكها ١٧ كلهم من ذرية داود من سبط يهوذا (باستثناء يهوآحاز ويهوياكين اللذين لم يملك كل منهما اكثر من ثلاثة اشهر) .

وقد قضى على الدولة الاسرائيلية سلمناصر سنة ٧٢١ كما قضى على الدولة اليهودية نبوخذنصر بعدما هاجمها ثلاث مرات سنة ٦٠٦ و ٥٩٨ و ٥٨٨) وانسل اذ ذاك نحو ثانين الفاً من اليهود خشية الاسر ودخلوا بلاد العرب وما برحوا يرددون هذه الذكرى المحزنة في تاسع آب من كل سنة .

وقد افاد هذا السبي الامة اليهودية ، اذ نبههم الى اصلاح شؤونهم ، وازال غرورهم بانفسهم ، بعد زوال الملك منهم واقفال ابواب الملاهي — التي تمادوا بها — في وجوههم . وفي ما يلي جدول باسماء ملوك الدولتين وتواريخهم :

١٠٩٥	شاول	٩١٦	يهوشافاط
١٠٥٥	داود	٨٩٢	يهورام
١٠١٥	سليمان	٨٨٥	اخزيا
٩٧٥	رحبعام	٨٨٤	عتليا
٩٥٨	ابيا	٨٧٨	يواش
٩٥٦	اسا	٨٣٨	امصيا

٨٠٩	عزيا	٦٤٢	آمون
٧٥٧	يوثام	٦٤٠	يوشيا
٧٤٢	احاز	٦٠٩	يواحاز ثم يوياقيم
٧٢٦	حزقيا	٥٩٧	يواكيم ثم صدقيا
٦٩٧	منسى		

يربعام	٩٧٥	يهواحاز	٨٥٦
ناداب	٩٥٤	يواش	٨٣٩
بعشا	٩٥٣	يربعام الثاني	٨٢٣
ابله	٩٣٠	زكريا	٧٧٢
زمري	٩٢٩	شلوم	٧٧٢
عمري	٩٢٩	منحيم	٧٧١
اخاب	٩١٨	فقحيا	٧٦٢
اخزيا	٨٩٧	فقح	٧٦٠
يهورام	٨٩٦	هوشع	٧٣٠
ياهو	٨٤٨		

ثالثاً — الاراميون

ارام اسم الابن الخامس لسام . ومعناه جبل او وعر فهو عكس معنى اشور الذي معناه سهل اطلق على ذويته اولاً ثم اطلق على البلاد التي قطنتها هذه الذرية ويراد بها غالباً البلاد الواقعة الى الشمال من فلسطين والشرق من فينيقية ممتدة الى الدجلة ، والقسم الواقع بين دجلة والفرات يعرف خصوصاً باسم ارام النهرين او فدان ارام ويطلق عليه الآن اسم الجزيرة ، حيث كان مسكن ابراهيم الخليل الاصلي ومنه ارتحل الى كنعان ، ومن هذه الرحلة يبتدىء تاريخ الانفصال الطويل العهد بين العبرانيين واخوانهم الارامیين (دائرة البستاني ٢ : ٧٦١) .

وكما قسم بعضهم فينيقية الكنعانية الى عشر ممالك هي صيدا وصور واكزيب واكشاف وحاصور وافيق والجلجال وارواد وقدس وحماة ، هكذا قسموا فينيقية الارامية الى عشر ممالك هي دمشق وزحوب ومعكة وطوب وجشور ويطور وارجوب وباشان وجبيل وبيروت .

ويهمنا من هذه المالك بنوع خاص مملكة صوبا التي حددها الاب مرتين بما يلي : كانت ممتدة من شمالي لبنان الشرقي الى التخوم الشرقية من حماة حتى حلب وتدمر فضمت جميع ينابيع بادية آرام على تخوم دمشق وحماة ورحوب في شرقي لبنان ، وتمتد حدودها من الجنوب الى منبجس العاصي . ودلت الاثار المصرية على انه كان في موقع حمص الحالي مدينة كبيرة وحصينة جداً اعتبرها المصريون مفتاح اسيا المتوسطة . ويعتبرها الاسيويون الترس القوي لصد الغرباء. وكان ملكها زعيم المحالفات الارامية (الاب مرتين ص ٣٤٩) .

قال بورتر (ص ٩٢) في الاراميين ما ملخصه : الآراميون من بني سام استوطنوا الانحاء الشرقية من سوريا من عهد قديم وكانت دمشق عاصمتهم الخاصة . التي روى يوسيفوس ان بانيها عوص بن آرام بن سام واشتهرت في القرن العشرين قبل الميلاد ، ولم يذكر الآراميون في التواريخ من عهد ابرهيم الى داود الا قليلاً ، اما الروثان والحثيون فقد ذكروا في اخبار مصر كثيراً ، وانا اغضى عن ذكرهم المصريون لعدم وقوعهم في طريق غزواتهم ، اذ كانوا يسيرون غالباً الى الشمال في طريق السواحل البحرية او البقاع الى حمص وحماة ثم الى الفرات . وقلما اجتازوا جانب البلاد شرقي الجبل الشرقي حيث قطن معظم الآراميين .

وقال براستد (٢ : ٢١) كان التجار الآراميون على جانب عظيم من النشاط فوسعوا نطاق تجارتهم الى ما وراء حدود مملكتهم فبلغت قوافلهم حدود البادية وامتدت شمالاً حتى بلغت منابع دجلة .

وحاول الاشوريون توسيع نطاق نفوذهم في شمالي سوريا فباؤوا بالفشل ، ولكنهم في منتصف القرن التاسع بسطوا سلطتهم على المالك الآرامية لانها اقرب اليهم من سواها ، ثم اتجهوا نحو السواحل واجتازوا الفرات ، ولما رأت المدن السورية والفينيقية انها عرضة للفتح عنوة سلمت وأدت الجزية عن يد ، درءاً للفظائع التي

التي تنجم عن ذلك .

سنة ٨٧٠ بلغ اشور نزيربال ساحل البحر وهو ثاني ملك اشوري رأى البحر . فقدمت له المدن السورية هداياها ، ولكن لما جاءها بعد عشرين سنة ملك اشوري آخر اتحدت المدن السورية والفينيقية تحت قيادة ملك حمص وقاومته فاوقفت زحفه ونجت من الوقوع بيده غنيمة باردة مدة مئة سنة اخرى حتى منتصف القرن الثامن .

اذ ذاك استأنفت اشور خطة التوسع غرباً فاكتسحت سوريا بالتدريج وعنت لسطوتها فينيقية بلا مقاومة . اذ لم تستطع الاتحاد للدفاع عن حياضها وصد العدو المشترك ، وحاولت بعض مدن فينيقية — كجبيل مثلاً — شق عصا الطاعة بسبب فداحة الضرائب . ولكن اشور قمت الفتنة لاول حدوثها وهدأت الثورة حال وصول قواتها بدون حرب .

ان تاريخ الآراميين الحربي يتلخص في انهم اصطدموا لاول مرة مع الحثيين ثم سالموهم ، ولما هاجم ساتي الاول المصري بلاد الشام انقادوا اليه واسترضوه بالهدايا واشتركوا بالثورة على رعمسيس الثاني .

ولما تضامن العبرانيون والفينيقيون بعد خراب صيدا اخذ الآراميون يوسعون تخومهم نحو الشمال فاستحوذوا على وادي العاصي من الجنوب وشمالي الأردن .

واهم الغزاة التي اقتحموا بلادهم تغلت بلاسر الاول .

وما ولي ذلك من الحوادث سيذكر في متن حوادث هذه الحقبة .

حوادث حمص في هذه الحقبة

تراجع الحثيين الى الشمال

وقفنا في الحقبة الثانية عند انخذال الحثيين في محاربتهم رعمسيس الثالث سنة ١٢٢٥ ق م وكانت هذه الضربة الاخيرة خاتمة الضربات ، بعدما صمد الحثيون لما هو اهم منها . ولكنهم رأوا ان عودتهم الى الشمال اضمن لسيادتهم وأبعد

عن الخطر . ولاسيما ان حصنهم كركيش اصبح اقدر على احتمال الصدمات القويه من قادس ، الـتي فتّتت مهاجمـات المصريين ابراجها . والترميم الذي كان ملوك حث يسعون اليه بعد كل مرة لم يُعد لها مناعتها الاولى . ففضلوا الابتعاد عن مواطن العراك وكان لقتل اسور ناصربال اباه تغلت نينيب سنة ١٢٤٠ ق م والخلاف الذي حدث بينه وبين اخوته مدة ليست بقصيرة ، أثر في ذلك . اذ حول انظار الحثيين عن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي طامعين ببسط سيطرتهم على هذه الاصقاع .

تجاه ما تقدم اخذت فصائل الحثيين ترتد الى الشمال احداها بعد الاخرى . وكلما عرف المتأخرون ما ناله السابقون اسرع هؤلاء الى ما سعى اليه اخوانهم . فلم يمض قرن حتى خلت منطقة حمص او كادت من كل حثي .

وفي هذه الاثناء شغلت مواضع الحثيين الفارغة بالفصائل الآرامية الـتي



تحشوب آله الصواعق الحثي من آثار القرن الثـاني عشر ق م مرسوم فوق ثور يرمز خواره الى هدير العاصفة شاهر بيمناه فأساً وبيسراه رمز العاصفة وفي اسفله حمل حلزوني الشكل . وعلى جانبيه مسلتان عليهما كتابة هيروغليفية وجـدت في برسيب ونقلت الى متحف اللوفر (انظر المقتطف ٨٩ : ٥٥٧) .

سبق لبعضها الاستيطان في شرقي انتيلبنان وبعضها شرقي العاصي واصبحت المنطقة الحمصية بلاداً آرامية . اما الحثيون فجعلوا ديدنهم التبسط الى الشرق الاشوري ولكانوا بلغوا أمنيتهم لولا ان صدهم تغلت بلاسر الاول وأوقف اقتحامهم عند حد .

حملات تغلت بلاسر الاول

هو احد ابطال التاريخ القديم الذي حملت اخبار بطولته غرائب معظمها تحت الشك . ولولا وجود آثار له دلت على ما حدث لاعرض الناس عن رواتها لاعتبارهم اياها اسطورة زائفة . وها نحن ننقل عن حوادثه ما له صلة بحمص وهي اولى حوادث هذه الحقبة .

ان هذا الملك الاشوري الذي خلف اباه اسور تيشيشي . وقد ترك هذا له مملكة زاهرة تولاها تغلت بلاسر . واهتم بتوسيعها حتى جعلها في مصاف الدول العظيمة في ايامه . وقد غزا خمس غزوات في السنوات القليلة التي تسنم فيها العرش الاشوري (١١٣٠—١١١٠) وفي غزواته هذه اخضع ٤٢ مملكة لسلطانه كانت ممتدة من الزاب الاصغر الى سواحل المتوسط ومما له صلة بتاريخ حمص حملته الرابعة التي اتجه بها نحو سوريا بعدما وطد اقدامه في الشرق . ويستدل من آثاره ان الحثيين كانوا آنئذٍ ذوي سيطرة قوية في شمالي سوريا . وقد خشي جانبهم الآراميون فالأوهم وهادوهم . وبعد معركة رعمسيس الثالث جعلوا كركميش قاعدتهم . فلما قام تغلت بلاسر بحملته الرابعة غزا القبائل القاطنة في مـا بين النهرين واخضعها جميعها لسلطانه . ويروى انه قطع في يوم واحد البيداء الكائنة ما بين زوخي ومعبر الفرات ، يقاتل كل من وقف في سبيله . فغزا الآراميين الضاربين على جانب الفرات ، وقد لاذوا بالحثيين ظناً منهم انهم يتقون خطره بواسطتهم . ولكن تغلت بلاسر اجتاز الفرات غير عابئ بالفريقين . ونكل بمن لقيه على الشاطئ . فذعر الاهلون حتى ان ستاً من القرى الكبيرة فتحت له ابوابها المحصنة بدون قتال . ثم اجتاز الفرات الى سوريا الشمالية ظافراً حتى بلغ المتوسط (ادي شير ٥٤) وهو اول ملك أشوري رأى البحر .

وقال في هذه الحملة صاحب العصور القديمة (عدد ٢١٥) ما يلي : حاولت مملكة اشور في مدة تغلت بلاسر الاول ان تبسط سلطتها على شمالي سوريا . فزحفت جنودها غرباً ونظرت البحر المتوسط من ارواد الواقعة على الحد الشمالي لفينيقية . اما الملك فلم يكتف بمجرد النظر بل ركب زورقاً فينيقياً وجوب سفر البحر . واهدى اليه ملك مصر تمساحاً تودداً اليه وتزلفاً برضاه . وهذه هي اول مرة شاهد فيها ملك اشوري البحر العظيم . ومرّ ثلاثة قرون قبل ان أعيدت هذه الزيارة . وما كانت الحملة على سوريا الا غزوة بسيطة لان الآراميين هددوا تغلت بلاسر بقطع خط الرجعة عليه . وقد انفق هذا الملك معظم ما بقي من ملكه في مقاتلة الآراميين القادمين جديداً من البادية لانهم شرعوا يغشون الهلال الخصب . وظل ملوك اشور ثلاث مئة وخمسين سنة او يزيد عاجزين عن ان يفتحوا هذه المنطقة الغربية ويبسطوا نفوذهم عليها . بسبب مقاومة ممالك آرام وفينيقية واليهودية لهم . وكانت عاقبة هذه المقاومة انهم حصروا الجنود الاشورية وراء بلادهم حتى القرن الثامن ق م اه .

ومن هذا البيان الصريح يستطيع القارىء ان يستنتج ان موقع حمص الطبيعي ساعدت حصانته قاطنيه على الوقوف في وجه من يريد بالبلاد شراً . وان ذلك لم يكن مستمداً من وجود الحثيين ، بل من استعداد ساكنيه أية كانت قوميتهم ، على ان يتحدوا ويخلصوا في وطنيتهم . فان الآراميين استطاعوا في هذه الحقبة ان يقفوا في وجوه خصومهم بنجاح مثل الحثيين وأزيد . وهذا سيتأكده القارىء ايضاً مما يلي .

رابعاً — تضامن الآراميين في مملكتي دمشق وصوبا

ذكرنا في ما مضى انه نشأ من الآراميين عشر ممالك غربي الفرات ومملكة شرقيه وهي ما عرفت في التاريخ بما بين النهرين او الجزيرة وتدعى في التوراة فدان آرام . وكان اعظم الممالك الآرامية غربي الفرات مملكتا دمشق وصوبا اما دمشق فمعروفة واما صوبا فهي التي اقمنا الادلة في المقدمة على انها منطقة حمص . اشتهرت حمص في الحقبة الاولى باسم « حماة صوبا » ثم تطور هذا

الاسم ونحت فصار في الحقبة الثانية ايام المصريين والحثيين «ميزوبا» اما في هذه الحقبة فقد عرفت باسم صوبا وهو الجزء الاخير من لفظها الاصلي المركب.

قال ادي شير (١ ص ٦٦) لم يكن لدمشق شهرة في الزمن القديم فانها خضعت للكلدان ثم للمصريين. وسكانها الاولون كانوا أموريين ثم استولى عليها الآراميون في القرن الثاني عشر . وفي زمن داود كانت في حوزة هدد عزر ملك آرام صوبة . وكانت آرام صوبة على ما نظن في وادي العاصي الأعلى ، او في اطراف حوران (والاول الاصح) وظن المطران يوسف اقليمس داود ان آرام صوبا كانت نصيبين في الجزيرة (وهو وهم يبعد عن الحقيقة كثيراً).

ثم ان داود بانتصاره على هدد عزر استولى على دمشق ايضاً . وفي زمان سليمان تسلط رجل اسمه رزون على الشام وملك فيها . ثم ملك بعده ابنه طبريون ، ثم بنهدد الاول . وهذان الملكان وسعا مملكة دمشق واخضعا حماة وسوريا المجوفة وكل النواحي التي في البادية على سواحل الفرات وصار لدمشق سيطرة على مملكتي اسرائيل ويهوذا ايضاً . ولولا الاشوريون لشكلت دمشق مملكة عظيمة قوية في سوريا اه .

هذا الكلام الجميل الذي يحتاج بعضه لبسط وبعضه لنقد سيمر به القارىء قريباً ، يصور للطالع موقف مملكتي دمشق وصوبا (حمص) ويبين السبب الذي من اجله تضامنت هاتان المملكتان اللتان رسخ الاباء في نفوس اهليهما ، وجعلهم يتقون بهذا التضامن الاخطار التي يتعرض لها الآراميون عامة وآراميو دمشق وصوبا خاصة . وفيهما عبرة كافية لمن يدرس التاريخ بغية وجود عظات فيه .

المعركة الاولى بين حمص الآرامية والعبرانيين

بعد غزوة تغلت بلاسر الاول اخذت حمص تتقوى اذ حاسن الحمصيون مجاوريهم فتوثقت ربط الاتفاق بينهم وتعاظمت مملكة حمص حتى صارت من اهم الممالك الآرامية ، ومركزها الطبيعي خول ملكها حق الزعامة في ما يعقد من المحالفات الآرامية . وامتدت سطوتها بحيث لم يكن يرفع صوت من اقصى

التيه الى حدود طورس بدون معرفة ملك حمص (اساطير الاولين : ٩١) .

وظل ذلك شأنها حتى نشأت المملكة العبرانية سنة ١٠٩٥ قم بزعامة شاول البنياميني واخذت تزاحم الآراميين على نشر سيطرتها .

وشاول المذكور اول رجل تسنم سدة العرش الملكي عند العبرانيين بعدما كان الحكم بيد القضاة يوم كان ملكهم الله ، والحبر الاعظم هو الصدر او الوزير الاول .

كان شاول جميل الصورة لا يوجد في اسرائيل أحسن منه . وكان طويل القامة لا يزيد أحد عن مسامتة كتفه في الطول (١ صم ٩ : ٢) غير انه كان ضعيف الارادة تغلب عاطفته بصيرته في كثير من الاحيان . فهو في همته يشبه القضاة الاسرائيليين وفي قامته ابطال هوميروس . ولكنه في عواطفه اقرب الى الطفولة منه الى الرجولة . ولذلك حالما تسنم العرش الملكي أخذ يهتم بالسيطرة على البلاد المجاورة . فحارب الموابيين والعمونيين والادوميين والفلسطينيين بنجاح . ثم تقدم في سهول البقاع وبعلبك نحو حمص المدعوة في التوراة صوبا . فلم تسفر محاربته اياها عن نتيجة حاسمة (١ صم ١٤ : ٤٧) غير ان بطولة شاول وشدة بأسه اوجدت انحلالاً في الروابط بين الامارات الآرامية جعلتها مطمح ابصار الطامعين . ولولا ان الله سخط عليه لمخالفته أوامره بشأن العمالقة (١صم ١٥ : ٣—١٠) لكان عبئاً ثقيلاً على المنطقة الحمصية ، اما معركته مع حمص فكانت سنة ١٠٨٧ ق م .

المعركة الثانية في ايام داود

سنة ١٠٤٠ قم كان على رأس المملكة الحمصية (صوبا) ملك اسمه هدد عزر شهد له نقولا الدمشقي العالم والمؤرخ الشهير انـه كان اقوى امراء هـذه البلاد ، وقد بسط سيطرته على جميع الامراء الآراميين من باطح (بين حلب والفرات) الى بيروتاي (جنوب غربي بعلبك مسافة ستة اميال) ولما تمرد عليه بعضهم عند الفرات جهز حملة لاخضاعهم فاغتنم داود النبي ملك العبرانيين هذه السانحة ، فساق عليه حملة ليضربه من جهة الغرب (٢ صم ٨ : ٣ و ١ اي ١٨ : ٣)

وذلك بعدما اخضع لسلطته الفلسطينيين والموابيين .

فاستعرت نار الوغى بين الجيشين العبراني والآرامي وتخاذل الاخيرون وتقاعسوا عن نجدة كبير امرائهم هدد عزر . فكان موقفه تجاه الملك داود حرجاً جداً . وتأخرت نجدة آراميي دمشق المؤلفة من ٢٢ الف جندي فوصلت بعد ان كسب العبرانيون المعركة . وغنموا الف مركبة وأسروا سبعة آلاف فارس وعشرين الف راجل .

وجبن توعي ملك حماة ازاء بطش العبرانيين فبعث ابنه يورام (او هدورام) يهنىء داود بفوزه على هدد عزر ، مسترضياً اياه بالهدايا . ولم يكن ذلك منه حباً بداود ، بل ليعقد معه عهدة يتقي بها الخطر الذي كان يتوقعه من خصمه هدد عزر ، الذي سبق له ان حاربه وأذله . فاكرم داود مثواه وقبل هداياه وأمنه على بلاده .

وقد أشار الى هذه المعركة نقولا الدمشقي اذ قال : كان ملكاً في سوريا كلها —عدا فونيقي— ملك هو أقوى أمراء هذه البلاد يسمى هدد وكانت له حروب مع داود ملك اليهود فاستظهر داود عليه في معركة هائلة قرب الفرات بعدما أبدى هدد من البسالة والاعمال الخطيرة آيات تشهد له بانه قائد كبير وملك عظيم اه .

ثالث معركة مع العبرانيين

ثقلت وطأة الانكسار على الحمصيين في المعركة السابقة فتحفزوا لأخذ الثأر ، والافلات من سيطرة العبرانيين . فأخذوا يترقبون الفرص المساعدة لنيل بغيتهم . وحدث حادث مهد لهم الطريق لنيل أمانيهم وهو ما يأتي :

ان ملك بني عمون مات وخلفه ابنه حانون فارسل داود حاشيته لتعزية ابنه المذكور بوفاة ابيه وتهنئته باسناد الملك لعهدته . واذا فعل داود ذلك لان ملك عمون كان قد احسن اليه يوم كان مختبئاً من وجه شاول . فتوهم العمونيون ان الرسل جواسيس ، فقبضوا عليهم وحلقوا نصف لحاهم وقصوا انصاف ثيابهم . فاستاء داود من عملهم هذا وجهز حملة للانتقام منهم . فأفاق هؤلاء من غفلتهم

وشعروا بسوء ما صنعوا وخافوا بطش داود فاستغاثوا بالآراميين ، فكان هدد عزر أسبق الجميع الى نجدتهم . فقدَّم مع بيت رحوب (بانياس وسميت رحوب باسم والد هدد عزر) عشرين الف مقاتل وأمدهم اهالي معكة (جنوبي مملكة حمص) بالف رجل واهالي طوب (شرقي بحر طبريا) باثني عشر الفاً وحاول المتحالفون الاحاطة بالجيش العبراني من خلف وقدام . فأقام آراميو صوبا (حمص) ورحوب وطوب ومعكة في الصحراء شمالاً وبنو عمون في الجنوب . ولكن يوآب قائد الجيش العبراني كان رجل حرب خبيراً وقائداً مدرباً ، فقسم جيشه الى قسمين . وسلم قيادة احد القسمين الى اخيه ابيشاي ووجهه الى قتال بني عمون في سهل ميدبا . وتسلم هو قيادة القسم الآخر وانطلق بـه الى لقاء الآراميين المتحالفين في الشمال . وقال لأخيه ان قوي عليَّ الآراميون فاسرع لنجدتي كما انني أبادر لنجدتك متى شعرت بقوتك ضعفاً ازاء العمونيين . وانما فعل يوآب ذلك لانـه كان يخشى جانب قوات صوبا (حمص) . ولذلك قاد هو بذاته الجيش الموجه اليها مع انها قوات خصوم ثانونيين . وقد أوجد حماسة عظيمة في صدور رجاله فاندفعوا بجرأة شديدة نحو الآراميين وهم مزودون بكل وسائل الفوز . فتقهقر الآراميون امامهم ليفصلوهم عن القسم الثاني من الجيش العبراني . ولكن جاءت هذه الحركة الحربية بغير النتيجة التي سعى اليها الآراميون . فان العمونيين الجبناء لما رأوا تقهقر انصارهم وقع الرعب في قلوبهم ففروا بدون نظام وتبدد شملهم . وفشل الآراميون ايضاً حينما رأوا الجيش الثاني الذي يقوده ابيشاي قد تفرغ لمحاربتهم فانكفأوا الى بلادهم . ولم يقدم يوآب على متابعتهم بل كف عن القتال وعاد الى اورشليم وكانت هذه المعركة سنة ١٠٣٧ ق م .

رابع معركة مع العبرانيين

لم يرضَ هدد عزر بهذه النتيجة بل استدعى اليه قواتـه من الفرات وانضم اليهم رهط آخر من الآراميين . وسلم قيادة الجيش الى شوباك رئيس جنده وسيرهم لمحاربة اسرائيل . ولما أخبر داود بتألبهم عليه شعر بخطورة الموقف فسار بنفسه على رأس الجيش العبراني واجتاز الاردن ووجهته الشمال وصدم

الآراميين صدمة هائلة اشتركت فيها القوتان المادية والمعنوية . فزحزحهم من مراكزهم وفروا من أمامه فاتلف في هذه المعركة سبعمائة مركبة واربعين الف فارس ، وقتل شوبك قائد الجيش الآرامي . وانحاز الى الجيش العبراني يجآل بن ناثن أحد ابطال صوبة « حمص » (٢ صم ١٨ : ١—١٩ و٢٣ : ٣٦) وكانت هذه المعركة سنة ١٠٣٦ ق م .

ولما رأى سائر الآراميين ما أصاب جيش هدد عزر من الفشل ذعروا وهربوا وأعلنوا خضوعهم لداود ولم يجرأوا بعد ذلك ان يرفعوا عقيرتهم .

خامس معركة مع العبرانيين في أيام سليمان

سنة ٩٩٢ مدّ سليمان نظره الى منطقة الفرات ورأى ان يوطد سلطته عليها . وهذا لا يتم بدون ان تعنو له حمص (صوبا) فجاء عليها بقوات يخشى جانبها . ولم يجد الاهلون في نفسهم قوة لرد هجمات الغزاة . ورأوا ان خضوعهم لسليمان لا يكلفهم مشقة فانقادوا لسلطانه راضين . وتسنّى بذلك لسليمان ان ينشر لواء الأمن في الشرق الشمالي لسوريا (١ مل ٩ : ١٥—١٩) وفي ذلك قال يوسيفوس المؤرخ (١٣ : ٢) : ان هذا الملك السعيد بعدما استحوذ على البرية التي في أعلى سوريا ، بنى هناك مدينة كبرى على مسافة يومين عن سوريا العليا ويوم واحد عن الفرات وستة ايام عن بابل الكبرى . وقد رأى بناء هذه المدينة لازماً على بعده من محال سوريا المأهولة . اذ لم يكن هنالك ينابيع وآبار يستقي منها المسافرون ماء . وأحاطها باسوار منيعة وسماها تدمر وكذلك سماها السريان اما اليونان فدعوها بلميرا أي النخل .

وقال الاب فيكورو (٣ ص ٥١١) ان خضوع اهالي « حماة صوبا » قد وطد سلطة الاسرائيليين على تلك الانحاء فاصبحت القوافل تسير من دمشق وحماة الى تدمر ، ومن تدمر الى تبسك (على الفرات) آمنة سطو العرب والآراميين ، فانشاء سليمان تدمر من اعظم آيات حكمته . وقال يوسيفوس في موضع آخر (ك ٨ ف ٢) : ان ما أوتيه سليمان بفضل الله من الحكمة كان يعم كل شيء ولم يغفل عن شيء . فقد اهتم بتمهيد الطرق العامة . ووصف

بالحجارة السوداء كل السبل المؤدية الى اورشليم . رغبة منه في اراحة ابناء السبيل ، واظهار مجده . واخضع لسلطانه سائر الاموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ولا سيا الكنعانيين الذين كانوا يسكنون انحاء لبنان الى حماة اه .

اتحاد صوبا ودمشق

استيلاء سليمان على منطقة حمص (صوبا) لم يطل أمره أكثر من أربعة عشر عاماً . فان رزون (أمير) بن الياداع أحد قادة جيش هدد عزر ملك صوبا ، جمع رجالاً من الغزاة وألف منهم عصابة اقلقت الخواطر وصرمت حبال الامن في جبال دمشق . وظل ذلك شأنه حتى دانت له القوة المتسلطة على دمشق فنصبه أهلها ملكاً عليهم سنة ٩٧٨ قم (١ مل ١١ : ٢٣) وتألفت اذ ذاك من منطقتي حمص ودمشق مملكة واحدة أدار سياستها الحمصيون مدة قرنين ونصف تقريباً ، وفي ما يلي سلسلة ملوكها :

جدول ملوك صوبا ودمشق المتحدة

حسب بورتر	حسب سميث	اسماء الملوك ومحل ذكرهم في التوراة والآثار
١٠٤٠	...	١) هدد عزر (٢ صم ٨ : ٢ و ١٠ : ١٦ — ١٩) .
١٠٢٠	٩٩٠	٢) رزون — ١ مل ١١ : ٢٣ — ٢٥ .
١٠٠٠	...	٣) حزيون ويظن انه ابن رزون .
٩٦٠	٩٧٠	٤) طبريمون — ١ مل ١٥ : ١٨ .
٩٥٠	٩٥٠	٥) بنهدد الاول — ١ مل ١٥ : ١٨ — ٢٠ .
...	٩٣٠	٦) ملك لم يعرف اسمه عاصر عمري ٢ مل ٥ : ٣٤ .
٩٢٠	٩١٠	٧) بنهدد الثاني ١ مل ٢٠ و ٢ مل ٦ : ٨ ص ٧ .
٨٩٠	٨٨٦	٨) حزائيل الاول ١ مل ١٩ : ١٥ و ٢ مل ٨ : ٧ — ١٥ .
٨٤٠	٨٥٧	٩) بنهدد الثالث ٢ مل ١٣ : ٣

...	٨٤٤	١٠) حزائيل الثاني ٢ مل ١٢: ١٧
...	٨٣٠	١١) بنهدد الرابع ٢ مل ١٣: ٢٤ .
...	٨٠٠	١٢) ماريحا صفيحة بنيرار الثالث .
...	٧٧٠	١٣) هدارا " تغلت بلاسر .
٧٤٥	٧٣٢—٧٥٠	١٤) رصين ٢ مل ١٥: ٣٧ .

ورصين المذكور اخيراً هو آخر ملوك دولة صوبا ودمشق المتحدة قتله تغلت بلاسر الثاني وقضى على الدولة الآرامية في شمالي سوريا سنة ٧٣٢ . .

١ــ رزون ، وترجمة امره

عرفت في ما مضى انه كان بطلًا مغواراً استثقل وطأة العبرانيين الذين سبق له محاربتهم في أيام داود وسليمان . ولكن لما غُلبت قوات صوبا هجر المدينة ولجأ الى القفر والمواضع الحرجة . وألف عصابة ازعجت سليمان في أواخر أيامهوتمكن اخيراً من الاستيلاء على دمشق وانشاء دولة متحدة من آرامي الشمال والجنوب . ولم يستطع سليمان خضد شوكته اذ فتن عليه في الوقت نفسه هدد الادومي في الجنوب ، ويربعام بن نباط الافرائيمي في فلسطين . فلم يتمكن من اذلال الثائرين وسكت على مضض . وتسنى بعده للدولة الآرامية المتحدة ان تحيا طويلًا .

وخيل الى المرحوم المطران يوسف الدبس ان رزون عاش عمراً طويلًا مستنتجاً مما يلي :

١) انه كان قائداً لجيش هدد عزر حينما حارب داود (٢ صم ٨: ٣) فلا بد أن كان له آنئذ من العمر ٢٥ سنة .

٢) المدة من اوائل ملك داود الى أواخر ملك سليمان ليست أقل من سبعين سنة .

٣) فيلزم اذاً ان يكون عمره يوم ملك دمشق ٩٥ سنة .

غير ان المحققين لا يطابقون استنتاج السيد الدبس لان محاربة داود لهدد عزر حدثت حوالي سنة ١٠٤٠ وفتنة رزون حدثت سنة ٩٨٤ فالمدة التي

تخالت المعركة والفتنة ٥٦ سنة فاذا اضفنا اليها الـ ٢٥ سنة التي قدرها سيادته لعمر رزون يوم القيادة كان عمره لما ملك ٨١ سنة لا ٩٥ كما خيل اليه وليس في ذلك غرابة ، فما قولك اذا نبغ قبل الـ ٢٥ .

٢ و٣ — حزيون وطبريمون ابنه

ظن بعضهم ان حزيون هو نفس رزون لا أبنه (شرح التوراة ٤ : ٣٢٣) ولكن الجدول الذي نقلناه ــ وهو نتيجة تحقيق عالم يقال بقوله ــ يجعل هذا الرأي مستبعداً اذ ان بقاء رزون حياً الى سنة ٩٦٠ حينما ملك طبريمون يكون عمره اذ ذاك قد بلغ على أقل تقدير ١٠٥ سنوات وهو مستبعد . فلا بد اذن من وجود ملك توسط بين طبريمون ورزون وهو حزيون الذي يرجح انه ابن رزون والد طبريمون .

ويفهم من آي الكتاب (١ مل ١٥ : ١٩) . ان طبريمون هـذا عقد محالفة مع ابيا ملك يهوذا (٩٥٨—٩٥٦) وكان السلام في ايامه سائداً بين العبرانيين والدولة الآرامية المتحدة .

٤ — بنهدد الاول

هذا كان من اعظم ملوك دولة آرام المتحدة ملك نحواً من ثلاثين سنة دلت على نشاطه ومقدرته وكان معاصراً لآسا ملك يهوذا (٩٥٦—٩١٦) وبعشا ملك اسرائيل (٩٥٣—٩٣٠) .

فلما وقع عـداء بين آسا وبعشا المذكورين وخشي الاول بطش الثاني استنجد بنهدد المذكور . وقـدم له هدايا ذهباً وفضة ليساعده على بعشا . فلبى بنهدد طلبه وأرسل رؤساء جيشه على مدن اسرائيل وخرب عيون ، ودان ، وآبل معكة ، وكل كناروت ، مع كل أرض نفتالي . فكف بعشا عن اقتحام أراضي يهوذا (١ مل ١٥ : ١٦—٢٤ و٢ اي ١٦ : ١—الخ) .

وبعد تراجع بعشا أخذ آسا ملك يهوذا الحجارة والاخشاب الـتي كان

بعشا قد وضعها في الرامة وحصن بها بعض مدنه ·

ولما مات بعشا ثار زمري عبده على ايلة ابنه ، اذ كان يسكر في منزل أحد أعوانــه في ترصة فقتله وملك مكانه · ثم قتل كل ذكر في ذرية بعشا وألحق بهم أقاربهم ، وأصدقاءهم · ولكنه لم يهنأ بالعرش لان الجيش حالما عرف بالفتنة أقام عُمري قائد الجيش ملكاً على اسرائيل بدل ايلة بن بعشا ·

وكان عمري رجل سياسة أكثر منه رجل حرب فحالف ليتوبعل ملك صور الفينيقي الذي بسبب خوفــه من ملك آرام رضي ان يحالف اسـرائيل · واعطاه ايزابل ابنته زوجة لابنه آخاب ·

٥ــ خليفة بنهدد الاول (هدد يدري)

مات بنهدد الاول عالي الرأس سامي المكانة وخلفه ابنه الذي لم نعثر على اسمه في التوراة ولا في الآثار ولعل الاكتشافات في المستقبل تظهر اسمه وترفع النقاب عن كثير من اعماله · اما الذي اتصل بنا عنه فمحصور في مــا روته عنه التوراة ، وما يستنتج من صفيحة ميشاع ملك مواب التي اكتشفها كلارمون كانو ترجمان قنصلية فرنسا في اورشليم سنة ١٨٦٩ وهي موجودة الآن بين الآثار اليهودية المحفوظة في متحف اللوفر في باريس · وخلاصة ما عرفناه عنه هو ما يلي :

ان ملك آرام المشار اليه ملك من سنة ٩٣٠—٩١٠ ق‍م وانه حارب عمري ملك اسرائيل فاستظهر عليه وأخذ بعض مدنه وبتأثير هذا الفشل مات عمري ودفن في السامرة وخلفه ابنه آخاب سنة ٩١٨ ·

روى ادي شير ٦٩ ما ملخصه : بعدما مات بنهدد او برهداد خلفه ابنه اداديدي وكان ذا حزم ، قاتل آخاب ملك اسرائيل واضطره ان يعاهده · ولما سمع بقدوم الاشوريين حشد جيشه واستعان بملوك سوريا حلفائه لصدهم · وأخذوا ينتظرون قواته في قرقر قرب حماة فحدثت هناك معركة شديدة دموية كانت النصرة فيها للاشوريين · وقد نقش سلمناصر اخبار هذه المعركة في أحد آثاره واليك ما جاء فيها :

في السنة السادسة لملكي وفي الرابع عشر من ايار رحلت عن نينوى وجاوزت الدجلة بالقوة العلية التي منحني اياها الرب اشور · وبالاسلحة القاطعة التي سلمها اليَّ نرجل الماشي امامي · حاربتهم وهزمتهم من حدود قرقر الى مدينة جيلزا · وقتلت بأسلحتي من عساكرهم ١٤ الف محارب ، وانزلنا عليهم طوفاناً من الآله هدد ، وكومت جثثهم ، وغطيت وجه الارض باجنادهم العديدة ، واجريت دماءهم في شقوق الارض · ان الصحراء لم تتسع لجثثهم والارض الواسعة لم تكف قبورهم · فملأت نهر اورنط (العاصي) باجسادهم وكأني بها قد صارت جسراً عليه ، واخذت عرباتهم وخيلهم ·

أخذت الجزية من ملوك غربي الفرات فضة وذهباً ونحاساً ورصاصاً من من المدن التي يسميها الآراميون باتور · زحفت من عدوة الفرات الى مدينة حلمان (حلب) فخاف اهلها وتراموا على قدمي فأخذت منهم جزية فضة وذهباً وسرت الى هركوليني ملك حماة وأخذت مدنه وحاضرة ملكه واستحوذت على أثاثه وأموال قصره وأحرقت دوره وزحفت من ارغانا الى قرقر فدمرتها وأحرقتها وكان في معسكرهم ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ فارس وعشرين الف راجل من هدد ملك دمشق ثم ٧٠٠ مركبة و٨٠٠ ١ فارس وعشرة آلاف رجل من هركوليني ملك حماة ثم الفي مركبة وعشرة آلاف رجل من آحاب ملك سرلاين (اسرائيل) اه ·

وبعد هذه المعركة عاد سلمناصر الى أشور ، وكان من المنتظر ان يضرب أعداءه الضربة القاطعة ليحول دون تحالفهم عليه مرة ثانية · غير ان الظاهر ان جيشه هلك عدد كبير منه فلم يتجاسر ان يطاردهم بعد المعركة ·

٦ــ بنهدد الثاني

هو حفيد بنهدد الاول وملك الآراميين المتحدين في مملكتي دمشق وصوبا · عاصر آحاب ملك اسرائيل (١ مل ٢٠) ومن اشهر أعماله حروبه مع الاسرائيليين وأقدم تلك الحروب محاربته آحاب بن عمري.

حرب مع آخاب — لا نعلم الاسباب التي جعلت بنهدد الثاني يشهر الحرب على آخاب ولكننا نعلم ان آخاب كان من اشد ملوك اسرائيل فلا يستبعد صدور ما يثير نقمة بنهدد عليه . ويدل على عظمة بنهدد ، انه لما أعلن الحرب على ملك اسرائيل صعد معه ٣٢ ملكاً . ولا شك ان بعض هؤلاء كانوا محالفين له والبعض رؤساء مقاطعات او حكام اعمال تنضوي الى لوائه .

فلما بلغ الآراميون السامرة أرسل بنهدد رسلاً الى آخاب يطلب منه ان يرسل له ما اجتمع عنده من الذهب والفضة ، وبنيه وأزواجه الحسان . فجبن آخاب وخاف كثرة الجيوش ، فوعد بتلبية الطلب . ولكن بنهدد أبى التسويف وأخبره ثانية انه سيوفد في مثل تلك الساعة من نهار غد المقبل رسله ليفتشوا بيت آخاب وبيوت رجاله ، ليأخذوا كل ما يرونه فيها . فثقل هذا الطلب على شيوخ المملكة الاسرائيلية ، وردوا طلبه هذا . فغضب بنهدد وأقسم ان يتوازع تراب السامرة بأكف قومه . ثم أمر بمحاصرة المدينة ولاستخفافه بآخاب ورجاله أخذ يسكر مع قواده غير مبال بما يحاك له في الخفاء . وكان آخاب قد شعر بحراجة الموقف ان لم يظهر البسالة اللازمة ويستفيد من الظروف . وشجعه على الفوز نبي اسرائيل . فأحصى آخاب رجاله فوجد عنده من القادة ٢٣٢ ومن ابطال اسرائيل سبعة آلاف فهاجموا بنهدد ، وهو في حالة السكر مع الامراء حلفائه . فلما أخبر بمهاجمة الاسرائيليين استخف بهم وقال لحجابه وهو مملوء غروراً: اقبضوا على الآتين احياء ، سواء جاؤوا مسالمين ام مقاتلين . واختلف امراء بنهدد في تلبية طلبه فوقع التخاذل بينهم . وكان زعماء الاسرائيليين قد هاجموا طلائع الآراميين وفتكوا بها . فوقع الخوف في قلب الجيش الآرامي لان قادته تشاغلوا عنه وهم لم يؤمروا بالقتال وانما أمروا بالقاء القبض على المهاجمين احياء ، بينما كان اولئك يعملون فيهم السلاح . واذا كان الجيش بلا نظام فكثرته ادعى الى الخطر ، فانهزم الآراميون ونجا بنهدد على فرس بين الفرسان . وكانت خسارة الآراميين عظيمة وقد سبب الغرور بالنفس فشلهم وكان الفوز في جانبهم لو عقلوا . وهذه المعركة حدثت سنة ٩٠١ ق م .

حرب ثانية مع الاسرائيليين — لما عاد بنهدد ورجاله الى مقرهم قال له

قادته — وقد استصعبوا ما منوا به من الفشل — ان آلهة اسرائيل آلهة جبال ولذلك فازوا علينا في المرة الماضية. فاذا حاربناهم في السهل فزنا عليهم لا محالة. فسمع قولهم، ثم ضم الى القادة الاولين قادة آخرين مشهوداً لهم بحسن الدربة والشجاعة.

وجهز جيشاً عظيماً من رجال ضموا الى الشجاعة المحافظة على النظام والطاعة الجندية. فملأ الجيش السهل الواقع شرقي بحيرة طبرية. فارسل آخاب — الذي شدد عزيمته النصر السابق — ما عنده من القوى وهي عبارة عن كتيبتين مشهود لهما بالاقدام والحنكة العسكرية. ولبث الجيشان يناظر احدهما الآخر مدة ستة ايام استعداداً للاصطدام. وفي اليوم السابع اشتعلت لظى الحرب بين الفريقين. وكان الاسرائيليون يقاتلون قتال الواثق بالفوز استناداً الى طمأنة نبي الله اياهم. بينما كان الآراميون يقاتلون بقلوب موجسة خوفاً من فشل المعركة الاولى.

وفي إبان احتدام الحرب حدث زلزال هائل سقط به السور الذي وقف بقربه الجيش الآرامي الاحتياطي فهلك ١٧ ألفاً. فتشاءم الآراميون وتخاذلت صفوفهم متقهقرة بسرعة، ووقع بنهدد نفسه أسيراً في قبضة آخاب. وظل في أسره مدة حتى تعهد له برد المدن التي اخذها ابوه من اسرائيل. وسمح له ان يقطن بعض اليهود في دمشق لتعاطي التجارة فيها كأنها السامرة (١ مل ٢٠: ٢٢—٢٤ و١٥: ٢٠) وكانت هذه المعركة سنة ٩٠٠ ق‌م.

حرب ثالثة مع الاسرائيليين — مضت ثلاث سنوات بعد المعركة السابقة لم يحصل فيها حرب بين مملكة صوبا ودمشق المتحدة وبين الاسرائيليين. لان الحرب التي أثارها على الفريقين سلمناصر والمعاهدة التي وقعها ملكا آرام واسرائيل (بنهدد وآخاب) اوقفتا الحرب كل هذه المدة. غير أن بنهدد لم يتخل عن المدن التي تخصه؛ ومنها راموت جلعاد (السلط) لاسرائيل. فصعب ذلك على آخاب، فعقد مجلساً عسكرياً للبحث في هذا الشأن حضره يوشافاط ملك يهوذا الذي سبق له ان أخذ عثليا ابنة آخاب زوجة لابنه يورام (٢ اي ١٨: ١و٢). واستسنح آخاب فرصة وجوده للاستغاثة بــه على خصم قدير. فسأله اذا كان يعاونه في القتال؟ فاجابه يوشافاط ولماذا لا أفعل؟ إن نفسي كنفسك وشعبي

كشعبك . وانمــا اريد ان نستفتي الانبياء الملهمين في ما اذا كانت الحرب مكفولة النتيجة ام لا ؟ لجمع آخاب نحو ٤٠٠ رجل يدعون النبوة وهم ليسوا منها في شيء . وانما هم اناس تعودوا ان يقولوا ما يرضي الكبراء . فسألهم عما اذا كان الخروج للقتال موافقاً ؟ فقالوا لآخاب اصعد فان الرب دافع اعداءك ليدك . فلم يثق يوشافاط بمـا قالوه . وقال لآخاب الا يوجد نبيٌّ آخر هنا ؟ فاجابه يوجد رجل آخر يدعى ميخا بن يملة ولكنه لا يتنبأ عليَّ بخير ، فطلب يوشافاط احضاره ، ولما سأله آخاب أنمضي الى راموت جلعاد للقتال ام نمتنع ؟ قال . رأيت اسرائيل مبددين على الجبال كغنم لا راعي لهـا . فقال آخاب ليوشافاط ألم أقل لك انه لا يتنبأ عليَّ بخير ؟ ونهض احد الانبياء الكذبة ولطم ميخا ، وقال له من اين عبر روح الرب مني ليكلمك ؟ فقال ميخا : ستنظر ذلك في اليوم الذي تدخل فيه مخدعاً ضمن مخدع لتختبيء . فأمر آخاب بسجن ميخا والتضييق عليه حتى يعود من الحرب . فقال ميخا : إن عدت بسلام فلم يتكلم الرب فيَّ - واشهد الشعب على كلامه .

مضى الملكان الى الحرب لاسترداد راموت جلعاد من ملك دمشق وصوبة وكان ملك يهوذا لابساً لباسه الخاص اما آخاب فتنكر . لان بنهدد امر قواده ان لا يحاربوا كبيراً ولا صغيراً سوى آخاب . ورأى القادة يوشافاط بلباسه الملكي فظنوه آخاب فهاجموه فاستغاث برب اورشليم فعرفوا انه ليس آخاب وارتدوا عنه ، ولكن رجلاً نزع في قوسه غير متعمد فاصاب آخاب بين الدراع والورك فأصمى رئته (يوسيفوس ٨ : ١٠) فقال آخاب لمدير مركبته اخرج بي من الجيش فاني جرحت . فاخرج واشتد القتال وآخاب واقف في مركبته مقابل آرام ودمــه يسيل في المركبة حتى مات في المساء . وانفض الجيش الاسرائيلي وتبدد وكان ذلك سنة ٨٩٧ ق م .

حرب رابعة — بعد موت آخاب ملك اسرائيل خلفه ابنه اخزيا وكان غاية في الشر فلم تطل مدة ملكه . اذ سقط في اثناء سكره من كوة عليته في السامرة فاعتل ومــات . وخلفه اخوه يهورام (٨٩٦—٨٨٤) فتحالف مع يوشافاط ملك يهوذا (٩١٦—٨٩٢) ضد مواب الـتي خرجت على اسرائيل في

ايام اخزيا فدوخها (٢ مل ٣ : ٤—٢٧) وكان في ايامه اليشع النبي الذي قاده الى النصر وشاع صيت اليشع واتصل خبره بنعمان السوري قائد جيش بنهدد ملك آرام . وكان به برص شفاه الله منه بواسطة اليشع (١ مل ٥ : ١—١٩) واهتدى بذلك الى الايمان الحقيقي . واخذ معه حمل بغلين من تراب الارض المقدسة ليبني بهما مذبحاً للرب في بلاده . وتعهد بانه لا يذبح لغير آله اسرائيل . غير انه استأذن اليشع بمرافقة مولاه حين دخوله للسجود في هيكل رمون . ويظهر من طلبه هذا انه اراد اظهار الطاعة لملكه في حين انه كان غير مقتنع بصحة سجوده هذا وكان ذلك سنة ٨٩٤ .

وعلى أثر ذلك تراخت العلاقات بين آرام واسرائيل . ويظن البعض ان سببها ظهور انحراف نعمان قائد الجيش عن ديانة بنهدد على أثر شفائه من البرص بواسطة اليشع . فوقعت حروب بين بنهدد ويورام . وتعذر على بنهدد الفوز على خصمه فلجأ الى الحيلة . فأوعز الى احد اعوانه ليكمن لملك اسرائيل ويقتاله . ولكن اليشع نبه يورام الى ما خبيء له فاحتاط لنفسه . وظن بنهدد ان هنالك خائناً يكشف سره ليورام . ولكن رجاله اخبروه بما أوتيه اليشع من اعلان المكتومات . فارسل قوة لاحضاره ليلاً من مسكنه . ورأى خادم اليشع القوة القادمة لاعتقاله فأخبر مولاه . فأجابه لا تخف ان الذين معنا أكثر من الذين معهم . ثم نزل اليشع لمقابلتهم فحجب الله بصيرتهم عنه فسألهم عن غرضهم فأخبروه . فقال لهم هلمَّ ورائي فأسير بكم الى الرجل الذي تطلبونه . فساروا وراءه حتى السامرة وهناك شعروا بالخطر الذي يتهددهم . ولكن النبي نهى الملك يورام عن ايذائهم . فأولم لهم وليمة عظيمة ثم أخلى سبيلهم فمضوا الى سيدهم شاكرين . فأثر عمله هذا فيهم وعدل ملك آرام المتحدة عن غزو ارض اسرائيل وكان هذا سنة ٨٩٣ ق م .

حرب خامسة — بعد موت يوشافاط ملك يهوذا سنة ٨٩٢ بدت مظاهر الضعف على يورام ملك اسرائيل فرأى بنهدد الثاني ان يستفيد من هذه السانحة . فأعلن الحرب على اسرائيل وقاد حملة كبيرة عليهم فلم يستطع الاسرائيليون الوقوف امامهم فارتدوا ولاذوا بعاصمتهم السامرة التي حصَّنها يورام وقوَّى

اسوارها ليأمن فيها غائلة العدو • فطوق بنهدد المدينة وضيق عليها الحصار وطال الأمد فحصلت مجاعة شديدة في المدينة ، وبيع رأس الحمار بثمانين من الفضة (خمس ليرات انكليزية) وبلغت المجاعة درجة أكلت فيها النساء اولادها • فوافت يورام امرأة تشكو جارتها لانها أخلّت بالاتفاق المعقود بينهما ، على ان يأكلا في اليوم الاول الطفل الاكبر وهو ابنها• وفي اليوم التالي الطفل الاصغر وهو ابن الثانية • فبعدما أكلا معاً الابن الاول اخفت الثانية ابنها • فلما سمع الملك هذا الحديث المؤلم مزق ثيابه ونقم على النبي اليشع لانه لم يفرج الازمة بصلاته ، وحاول الفتك به • وعرف اليشع بما نواه الملك وكان جالساً في بيته والشيوخ حوله فقال لمريديه اذا دخل رسول الملك فاغلقوا الباب واحصروه عنده • ثم التفت الى الشيوخ وقال: في مثل هذه الساعة من نهار غد يباع بمثقال مكيال السميذ وبمثله مكيالا الشعير ، فقال احد اعوان الملك مستنكراً: لو فتح الرب كوى في السماء لما تم ذلك • فأجابه النبي سترى ذلك بعينيك ولكنك لا تذوقه •

وكان قد عين اربعة من البرص عند باب السامرة ليحولوا دون مخالطة البرص للاصحاء • فضايق هؤلاء الجوع فقال احدهم لصاحبه لا بد لنا ان نموت سواء دخلنا المدينة او بقينا هنا• فلننزل الى محلة الاراميين فان ابقوا علينا عشنا وان قتلونا تخلصنا من ألم الجوع وهي اهون الموتتين • فمضوا الى معسكر الآراميين ، ومن الغرابة انهم لم يروا هنالك احداً • فتهيبوا الدخول اولاً ، ولكن الجوع ألجأهم اخيراً الى المغامرة • فاجتازوا المحلة كلها دون ان يجدوا احداً سوى مريض لم يستطع حراكاً ، اخبرهم ان الآراميين سمعوا في الليل جلبة شديدة ظنوا معها ان ملك اسرائيل قد استأجر ضدهم ملوك حث من الشمال ومصر من الجنوب• ففروا عند الشفق تاركين مؤونتهم ومعداتهم كلها • فأكل البرص وشربوا واخذوا بعض الغنائم ثم عادوا الى المدينة فأخبروا أهلها بما رأوا• فلم يصدق الملك بما سمع حتى بعث من حققه له • فسمح الملك للشعب بالخروج واخذ ما تركه الآراميون • على ان يوكل احد الاعيان بمراقبة الداخلين والخارجين من باب المدينة منعاً للتشويش والخلل • وكان الموكل هو نفس الذي انكر على النبي صحة ما تنبأ به فكان نصيبه ان وطئه الشعب باقدامه• وقت الازدحام•

بعدما نودي على مكيال السميذ بمثقال ومكيالي الشعير بمثله . وتمت بذلك نبوة اليشع (٢ مل ص ٦ و٧) وكان ذلك سنة ٨٩٢ ق‌م .

موت بنهدد — أثرت هذه الكسرة على بنهدد فمرض مرضاً شديداً . وحضر اليشع الى دمشق فأخبر الملك بمجيئه فقال لوزيره حزائيل : خذ للنبي هدية حمل اربعين جمل من اجود ما في دمشق وسله هل ابرأ من مرضي ؟ ففعل حزائيل كما امره الملك فأخبره اليشع ان مولاه لا يعيش . ثم ثبت النبي نظره في حزائيل حتى خجل هذا وبكى النبي . فقال له حزائيل ما بال سيدي يبكي ؟ فأجابه لاني علمت بما ستصنعه ببني اسرائيل من الشر فانك ستحرق حصونهم وتقتل فتيانهم وتحطم اطفالهم وتبقر بطون الحوامل منهم . فقال حزائيل بمسكنة : ومن يكون عبدك الوضيع حتى يفعل هذا الامر العظيم ؟ فقال اليشع : ان الرب أراني اياك ملكاً على آرام .

فانصرف حزائيل والفرح ملء جوانحه لما سمع ودخل على سيده ، فسأله هذا عما قاله له النبي ، فقال له انه يشرني بان المرض ليست عاقبته رديئة . وفي اليوم الثاني اخذ حزائيل قطيفة وغمسها بالماء وبسطها على وجهه فمات . وملك حزائيل بدله ، وتم ما ورد في التوراة بلسان النبيين ايليا (١ مل ١٩ : ١٥) واليشع (٢ مل ٨ : ٧—١٦) .

وظن بعضهم ان الذين قتلوا بنهدد انما هم بعض اعوانه ، لانه بحروبه الكثيرة أثقل كواهلهم . واذ لم يكن له وارث من صلبه خلفه حزائيل . وكانت مدة ملكه ٣٠ سنة ووفاته سنة ٨٩٠ على رأي او سنة ٨٨٦ على رأي آخر (البستاني ٥ : ٦٣١) .

٧ — حزائيل الاول

هو كبير حجاب ملك آرام بنهدد الثاني وقد ملك مكانه . سبق ايليا النبي فمسحه ملكاً بامر الرب سنة ٩٠٦ فلم يتسنَّ آنئذ له الوصول الى العرش فأعلن اليشع قرب الوقت لتبوئه العرش سنة ٨٨٤ .

حزائيل ويورام — فلما مات بنهدد الثاني اغتنم يورام هذه السانحة فأسرع واسترد راموت جلعاد وضبطها. ولكن حزائيل الذي استتب له الحكم وعرف بما فعله يورام جهز حملة لاسترداد المدينة . فوقعت حرب بين آرام واسرائيل فاز فيها الآراميون وجرح يورام واضطر ان يعود الى قصره في يزرعيل لمعالجة جراحه . وبقي ياهو رئيس جيش للمحافظة على المدينة . فمسح بامر اليشع ملكاً على اسرائيل ولما تمّ له الامر قتل يورام وأهلك أهل بيته كلهم .

حزائيل وياهو — لم يكن ياهو عند حسن الظن ؟ اذ بطر في اواخر ايامــه . ونسي من احسن اليه . فثار عليه حزائيل ووقعت بين ملكي آرام واســرائيل معركة كانت عاقبتها وخيمة على الآخرين . وتمكن حزائيل من احتلال البلاد الواقعة شرقي الاردن من باشان الى عروعير التي على وادي ارنون (٢ مل ١٠ : ٣٣—٣٦) .

وفهم من الآثار الاشورية ان سبب الحرب بين ياهو وحزائيل انما نشأ من مخالفة ياهو سلمنأصر ضد حزائيل . وقد كان عمله هــذا خطأ سياسياً كما صرح بذلك نبي اسرائيل هوشع (٥ : ١٣ و١٢ : ١ و١٤ : ١—٣) .

٨ — بنهدد الثالث

هو ابن حزائيل الاول وخليفته على عرش آرام صوبا ودمشق ولم يكن موفقاً في اعماله بل كانت مــدة ملكه سبباً لخراب دمشق وتقهقر المملكة المتسعة الاطراف التي كانت لاسلافه (البستاني ٥ : ٦٣١) كما ترى .

لما مات ياهو خلفه ابنه يواحاز على عرش المملكة الاسرائيلية (٨٥٦—٨٣٩) ولم يكن يواحاز هذا ذا مسلك حسن فتسلط عليه حزائيل ملك آرام وضيق السبل عليه . ولكن حزائيل توفي قبل ان ينال بغيته فخلفه ابنه بنهدد الثالث (٢ اي ١٣ : ٣) ٨٥٧—٨٤٤ فأتم ما بدأ به ابوه من اذلال يواحاز . حتى انــه لم يبق له الا خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل . وصاروا بين يدي الآراميين كالتراب الذي يوطأ (٢ مل ١٣ : ٣ و٧) وقد وصف النبي عاموس

نتيجة هـذه المعارك بقوله (عا ١: ٣ــ٦) اني لأجل معاصي دمشق الثلاث والاربع لا أردها لانهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد . فأرسل ناراً على بيت حزائيل فتأكل قصور بنهدد واكسر مغلاق دمشق واقطع الساكن من بقعة أون. وماسك القضيب من بيت عدن ويسبي شعب آرام الى قير كما قال الرب اه.

وقد تمت نبوءة عاموس بدائياً في ايام يواش الذي خلف اباه يواحاز سنة ٨٣٩ وحارب بنهدد بقوة وشجاعة فكسره في سهل يزرعيل في أفيق حيث كان آخاب قد كسر بنهدد الثاني. ثم ظفر به مرتين أخريين لكنه لم يستطع استرداد املاك اسرائيل في شرقي الاردن بل ترك فخر ذلك لخليفته (٢ مل ١٣: ٢٥) .

بنهدد وسلمناصر الثالث — سلمناصر من اعاظم ملوك أشور ملك نحو ٣٥ سنة غزا فيها ما جاوره من البلاد ٣٢ مرة. وجنى ياهو على البلاد السورية بمعاونته على حزائيل الاول ملك آرام فوجه خمس حملات الى سوريا واوقع بكل ملوكها وكانت معظم حملاته ضد ملك آرام المتحدة (حمص ودمشق) ومن هـذه الحملات الخمس ثلاث ساقها على بنهدد الثالث سنة ٨٥٤ و ٨٤٩ و ٨٤٦ .

بنهدد وزاكير ملك حماة — في الفترة التي تخللت الحملتين الثالثة والرابعة من حملات سلمناصر على الشام وقع خلاف بين مملكة آرام المتحدة وبين زاكير ملك حماة. وادعى زاكير هذا في اثره انه فاز على الآراميين وحلفائهم ، واليك ترجمة ما كتب على أثره الذي وجده الموسيو يونيون قنصل فرانسا العام في حلب سنة ١٩٠٣ ونشره في كتابه المطبوع في باريس عن الآثار السامية في سوريا وبين النهرين والموصل مترجماً بقلم العلامة السيد افرام الاول بطريرك السريان الارثوذكس .

أثر آرامي لزاكير ملك حماة ولعش

(انا زاكير ملك حماة ولآش أوجه اليوم الى كل العالم النداء التالي : بعل

شمين ... ي ووقف معي بعل شمين صيرني ملكاً ... برهدد بن حزائيل ملك آرام جمع وألف ضدي ... ملوكاً - برهود وجيشه ، برغاش وجيشه ، ملك قادس وجيشه ، ملك العمق وجيشه ، ملك جرجوم وجيشه ، ملك شامال وجيشه ، ملك مالات وجيشه ... كانوا سبعة ملوك وجيوشهم . كل هؤلاء اقاموا متاريس ضد حزراك . رفعوا سوراً أعلى من سور حزراك وحفروا خندقاً أعمق من خندقها . رفعت يدي نحو بعل شمين . وبعل شمين استجاب لي . بعل شمين عضدني بواسطة الانبياء وبواسطته ... بعل شمين قال لي لا تخف لاني صيرتك ملكاً . أنا أقف معك وأنا اخاصك من جميع هؤلاء الملوك الذين رفعوا المتاريس ضدك اهـ) . الى هنا ما يمكن فهمه من الاثر والاصفار موضع كلمات تحطمت ، وما بقي يتعذر فهمه لكثرة ما تفتّت منه .

من هذا الاثر يفهم ان خلافاً جديداً نشب بين ملك حماة وملك آرام المتحدة فاجتمع ضده سبعة أمراء وأثاروا عليه حرباً . وكانت الحرب حول حدرك التي يرجح الاثريون انها كانت في سهل البقاع . ويظهر من الاثر ان زاكير خاف جداً واستغاث بآلهه آلور رب السماء فأنقذه منهم . ولكن كيف كانت نجاته لا نعلم . غير اننا نعلم ان هذه المعركة لم تكن في مصلحة ملوك الشام لانها خسرتهم قوة كان يجب ان يدخروها لمقارمة الطامعين بهم .

٩ — حزائيل الثاني

مات بنهدد الثالث بعدما ملك ١٧ سنة وخلفه ابنه حزائيل الثاني سنة ٨٤٤ وارثاً من أبيه موقفه الحرج وما كاد حزائيل هذا يتسلم العرش حتى بلغه ان سلمناصر هيأ حملة لاجتياز سوريا لان حملته الثالثة لم ترو ظمأه منها .

حزائيل وسلمناصر — ولما درى حزائيل بالامر تجهز لمحاربته ولكنه لم يجسر ان يناضله في البرية كما فعل سلفه بل تحصن في جبل سنير . فهاجمه الاشوريون وقاتلوه قتالاً شديداً فقتل من عسكره ١٦ الف راجل و ٤٧٠

فارس وخسر ١١٢١ عربة حربية وانهزم حزائيل مع سائر الجيش وتعقبه سلمناصر حتى دمشق فقطع الاشجار المثمرة ونهب القرى ، وتوغل في جبال حوران وكسب غنائم لا تحصى ، وكان ذلك سنة ٨٤٢ على رواية ادي شير ص ٧٢ .

ثم نزل الى فينيقية ونقش صورته على ساحل نهر الكلب وقدم له امراء فينيقية الجزية كما قدم له ملك اسرائيل هدايا ثمينة منها قضبان من ذهب وفضة وصحون وكؤوس وآنية من ذهب .

حزائيل وحملة سلمناصر الخامسة — في سنة ٨٣٩ عاد سلمناصر مرة اخرى الى الشام فلم يجرأ ان يقاومه حزائيل (كما روى سلمناصر في اثره) فتتح سلمناصر من مدن حزائيل اربعاً واخذ الجزية من صور وصيدا وجبيل ، واذا صحت رواية سلمناصر فيكون السبب في تقهقر الآراميين انحلال المحالفة الآرامية قبيل تملك حزائيل الثاني .

حزائيل ويواش يهوذا — ملك يواش بن اخزيا على يهوذا وهو ابن سبع سنوات (٨٧٨—٨٣٨) فارشده في حداثته يوياداع الكاهن الذي انقذه من القتل حينما حاولت ذلك جدته عثليا بغية اهلاك النسل الملكي ليتسنى لها الاستئثار بالحكم . فاحسن يواش المسلك كل مدة حياة يوياداع فلما توفي هذا عن ١٣٠ سنة (٢ اي٢٤ : ١٥) استسلم يواش لمشورة بعض الزعماء الاشرار فأغروه على عمل الشر فأنذره المخلصون بسوء المغبة فلم ينتصح بل نقم على زكريا بن يوياداع لقوله الحق وأمر برجمه في الهيكل غير ذاكر معروف ابيه .

فثار عليه حزائيل وضيق عليه الخناق بعدما فتح جت ووقع الهلع في قلب يواش فاسترضاه بكل ما لديه من النفائس في الهيكل ودار الملك منذ ايام جده ، فانصرف عنه حزائيل وعاد الى دمشق سنة ٨٤٠ (٢ مل١٢ : ١٧—١٩).

ولكن لما أرسل حزائيل عدداً من جنده في السنة التالية لأخذ الجزية. اراد يواش التخلص منها وحاول بما اجتمع لديه من الجند خذل القوة الآرامية فلم ينجح لان معنويات الاسرائيليين كانت واهنة لشعورهم ان إلههم غير راض عنهم فانكسروا امام الجيش الآرامي القليل العدد ، ولم تنفع يواش

كثرة جيشه شيئاً ، ودخل الآراميون اورشليم وفتكوا بكبار اليهود وأخذوا غنائم وافرة ، ورجعوا بعدما أوسعوا يواش اهـانة وشتماً وخلفوه مريضاً فثار عبيده عليه وقتلوه سنة ٨٣٦ (٢ اي ٢٤ : ٢٣) .

١٠ — بنهدد الرابع

مـات حزائيل الثاني سنة ٨٣٠ بعدما ملك ١٤ سنة فخلفه ابنه بنهدد الرابع ولا بد لنا قبل نهاية الكلام عن حزائيل الثاني من لفت نظر القارئ الى خلاف بـين المؤرخين بشأنه ، فان بعضهم يرون ان من ملوك آرام كان حزائيل واحد بهذا الاسم . وانـه ملك ٤٦ سنة ومن هؤلاء الدكتور بوست صاحب قاموس الكتاب (١ ص ٣٦٩) ولكن غـيره من المدققين يرون ان قد ملك على آرام سوريا المتحدين ملكان بهذا الاسم . وان الاول ملك ٢٩ سنة فقط (٨٨٦—٨٥٧) وان الذي حارب حت واخذها سنة ٨٤٠ (٢ مل ١٢ : ١٧) انما هو حزائيل الثاني حفيد حزائيل الاول الذي ملك من سنة ٨٤٤—٨٣٠ وهو الذي ضايق اسرائيل كل ايام يواحاز ومات فملك مكانه ابنه بنهدد الرابع سنة ٨٢٩ او سنة ٨٣٠ فاضاع كل مـا ملكه ابوه لانه ظلم اسرائيل اكثر مما ظلمهم ابوه وجده وفي ما يلي خلاصة ما اتصل بنا عنه :

بنهدد ويربعام الثاني — لما مات يواش ملك اسرائيل خلفه على العرش ابنه يربعام الثاني وكان هذا انجح ملك في اسرائيل . وكانت مدة ملكه طويلة بل اطول مدة حكم فيها ملك في اسرائيل اي ٤١ سنة (٨٢٣—٧٧٢) وكان جبار بأس . وساعدته احوال الممالك المجاورة . لان سياسة الاشوريين الذين اتفقوا مع الاسرائيليين اخافت شعوب الشرق فلم يجرأوا على مقاومة يربعام . فانفرد الآراميون بالتصدي له . وكان حظ بنهدد الرابع سيئاً فانه قضى معظم مدة حكمه في مقاتلة الاسرائيليين (٨٢٢—٨٠٦) فتصيبه الكسرة تلو الكسرة بحيث تمكن يربعام من استرداد تخوم اسرائيل الى ما كانت عليه إبان مجدهم واستولى على النواحي الشرقية الشمالية من مدخل حماة الى بحر لوط (٢مل١٤ : ٢٣—٢٥) .

وكانت مدة يربعام زمن نجاح للاسرائيليين . وصارت بيوتهم من حجارة منحوتة وأسرتهم من عاج وكرومهم شهية ووسائل الشرب والغناء ميسورة كما ذكر الانبياء هوشع ويوئيل وعاموس (٦ :١—٨) ولكن الآداب انحطت جداً حيث سكر وزناً وظلم للفقراء وعبادة للاصنام (تفسير التوراة ٤ :٤١٤) .

١١ — ماريحا

لم تذكر التوراة بين ملوك آرام المتحدة اسم ماريحا ولكن الآثار الاشورية ذكرته ، والمفهوم منها ان بنيرار ملك اشور اقتحم سوريا وفاز على ملوكها ، وروى ادي شير (١ :٧٦) ان بنيراري الذي يسميه هو هددينيراري أغار على سوريا اربع مرات من سنة ٨٠٦—٨٠٣) وأخضع ارباد وحزاز ودمشق والمدن الفينيقية ، واليك ما وجد مكتوباً على جدار بلاطه :

« بنيرار الملك العظيم القدير ملك الشعوب ملك ارض اشور الذي اتخذه اشور ملك الآلهة السبعة ابناً له .

من جهة الفرات الاخرى اخضعت ارض الحثي وارض اهاري على اتساعها صور وصيدا وارض عمري وبلاد الفلسطينيين ضمن البحر الكبير في مغرب الشمس وفرضت عليهم ضريبة . وغشيت ايضاً ارض ايميروسو (آرام دمشق) لمحاربة ملكها مريحا لحصرته في دمشق عاصمة ملكه . ودوخته مهابة عظمة اشور سيدي . فترامى على قدمي واعلن تذلله وخضوعه . فاخذت منه ٢٣٠٠ وزنة فضة وعشرين وزنة ذهب وثلاثة آلاف وزنة نحاس وخمسة آلاف وزنة حديد ونسيج صوف وكتان ، وسريراً ومظلة من عاج واموالاً واثاثاً لا يحصى . هذا ما اخذته من دمشق مقر ولايته ومن بلاطه اه » . ويقدر سميث ان ما ذكر في الاثر حصل سنة ٧٩٧ ق م (الدبس ٢ :٤٥٨ و١ :١٩٧) .

ويرى روبنسون ان بنيرار هذا هو الذي كان ملكاً في نينوى في زمن يونان النبي .

ماريحا وسلمناصر — ويظهر ان سلمناصر الثالث (او الرابع) حمل على مملكة دمشق الآرامية سنة ٧٧٥ في ايام ماريحا واقتحم جبل حمانا حيث ظهرت

بعض القلاقل ـ ولكن انتشار العصيان في جهات ارارط اضطره الى العودة لتهدئة الثورة فلم تنجح حملته هذه (ادي شير ١ : ٧٧) .

١٢ ـ هدارا

بعدما قضى ماريحا وقد انهكت قواه الحروب غير الناجحة خلفه هدارا او هدر او هدد سنة ٧٧٠ فلم يكن اسعد حظاً مما سبقه اذ لم يكد يستقر على العرش حتى هاجمه الاشوريون مرتين سنتي ٧٦٥ و٧٥٥ ق‍م وقد قام بهما اشوردان الثالث الذي انتهك قوى الجيش الآرامي ووصل الى دمشق . ولكنه لم يكن موفقاً في الحملة الثانية اذ لم يستطع تخطي حدراك لانقضاض البلايا على دولته من اوبئة وثورات جعلته يخلد الى السكينة مرغماً ومات سنة ٧٥٤ او سنة ٧٥٣ (ادي شير : ٨٨ والدبس ٢ : ٤٦٠) .

ولما خلفه ابنه اسور نيراري حاول اعادة سلطته على دمشق فلم يفلح ، ثم حصلت ثورة ثل بها عرشه .

١٣ ـ رصين

رصين آخر ملوك آرام المتحدة كان معاصراً لفاقح ملك اسرائيل ويوثام ملك يهوذا ، والظاهر ان سياسته كانت ترمي الى محالفة ملك اسرائيل ضد يهوذا فمات يوثام وخلفه ابنه آحاز سنة ٧٤٢ (٢ مل ١٥ : ٣٧) فزحف عليه رصين بالاتفاق مع فقح ملك اسرائيل بعيد صعوده على العرش بقليل سنة ٧٤١ ثم تقدم الملكان بجيشهما الى اورشليم . فامتنع آحاز عليهما فيها فاناخوا حولها وحاصروها مدة غير يسيرة بدون طائل . ثم ارجع رصين ايلة وطرد اليهود منها (٢ مل ١٦ : ٦) وكانت ايلة حينئذ صلة التجارة مع الشرق لوقوعها على خليج العقبة . غير ان مسرته هذه لم تطل لان آحاز ملك يهوذا استغاث بتلك اشور تغلث‌بلاسر فلبى طلبه ونازل رصين ملك دمشق فظهر عليه وقتله واستولى على عاصمته وأسر عدداً من اتباعه واخذهم الى شوشن (٢ مل ١٦ : ٩) وصالح الاهالي على الجزية (بورتر : ٥٧) .

على ان الآثار الاشورية روت ان تغلث‌بلاسر غزا سوريا مرات في ايام رصين من سنة ٧٤٣—٧٣٢ .

ففي ربيع سنة ٧٤٢ هاجم سوريا فاصطدم بحصن ارباد وحاصره مدة ثلاث سنوات وفتحه سنة ٧٤١ فخافه جميع الملوك المجاورين وقدموا له الطاعة مع الهدايا . وهنأه عن بعد حيرام ملك صور ورصين ملك دمشق .

وسنة ٧٣٩ اقتحم سوريا بعدما فتح قسماً عظيماً من بلاد نيسري . اذ بلغه ان عزرياهو ملك يادي حالف ١٩ ملكاً من ملوك غربي الفرات المنتشرين بين حماة والمتوسط فخضد شوكتهم جميعاً وقدم له الهدايا ١٨ ملكاً . منهم مناحيم ملك اسرائيل ورصين ملك دمشق وملوك صور وحماة وزيبي ملكة العرب (يورتو وادي شير والدبس) .

وبعد مدة تحالف رصين مع فقح ملك اسرائيل ضد آحاز ملك يهوذا فاستغاث هذا بتغلث‌بلاسر فغشي بجيشه سوريا واحتل بعض مدن فلسطين بعدما فتح دمشق وسبي اهلها الى قير (ارمينية) وقتل رصين سنة ٧٣٢ وكان في ذلك القضاء الاخير على دولة آرام المتحدة بعدما عاشت أزيد من قرنين ونصف .

البلدان منطقة حمص البارزة في هذه الحقبة

لا نستطيع معرفة كل المدن التي نشأت في المنطقة الحمصية وانما نلم بما ذكره المؤرخون المعاصرون بسبب المناسبات الحاصلة واليك ما كان له صلة فيها :

١ً) افيق

ورد ذكرها في هذه الحقبة اذ لاذ بنهدد الى سورها ابان محاربته آخاب . فسقط السور على ٢٧ الفاً من جيشه (١ مل ٢٠ : ٣٠) وحدثت عندها حروب كثيرة بين اسرائيل وآرام (٢ مل ١٣ : ١٧) ويظن انها فيق الكائنة عند رأس الوادي وتبعد عن بحيرة طبريا مسافة ستة اميال .

٢ً) حدراخ

ذكرت حينا اقتحمها الاشوريون ثلاث مرات سنة ٧٧٢ وسنة ٧٦٥ في ايام اشور دانيل وسنة ٧٥٥ في ايام اشور بنيرار الثاني . وقد ذكرتها التوراة باسماء متعددة منها مدخل حماة (عدد ١٣: ٢١ ويش ١٣: ٥) وبقعة المصفاة (يش ١١: ٨ و٩) وبقعة اون (عا ١: ٥) ولكن زكريا المتأخر زمناً عمن ذكر دعاها حدراخ (زك ٩: ١) كما ذكرت في الآثار .

ويرى المحققون من الاثريين ان موقعها في السهل الفسيح الواقع بين لبنان وانتيلبنان المعروف الآن بسهل البقاع .

٣ً) حصر عينان

ذكرت كتخم لارض الموعد الشمالية (عد ٣٤: ٩ وحز ٤٧: ١٧) ويرى المحققون انها «القريتين» الواقعة بين دير عطية وتدمر موقعها الى الجنوب الشرقي من حمص . فيها ينابيع غزيرة وقطع عواميد وآثار .

٤ً) زفرون

ذكرت في التوراة (عد ٣٤: ٩) وموقعها بين حمص وحماة على بعد ١٤ ميلاً من كليهما . ويرى الدكتور يوست انها الزعفرانه الواقعة على الطريق بين حمص وحماة الى الشمال الشرقي من حمص .

٥ً) صدد

ذكرت في سفر العدد (٣٤: ٢٨ وحزقيال ٤٧: ١٥) كتخم شمالي لارض الموعد وما برح اسمها كما هو الى الآن . وهي بلدة حسنة تبعد نحو ٣٥ ميلاً الى الجنوب الشرقي من حمص وكان فيها برج اثري قديم تهدم بعاصفة من عهد غير بعيد

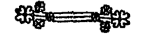
٦) عيون

مدينة تعرضت لهجمات آرام واشور اخذها بنهدد (١ مل ١٥:٢٠ و٢ اي ١٦ : ٤) ثم تغلب عليها تغلث بلاسر ملك اشور (٢ مل ١٥: ١٩) .

يرى رولنصون انها دبين الواقعة قرب جديدة مرجعيون . ويرجح كوندر انها الخيم في نفس هذا المرج .

٧) قرقر

ذكرت اولاً في سفر القضاة (٨: ١٠) حيث امسك فيها زبح وصلمناع ملكا مديان ثم ذكرتها آثار سلمنأصر وزاكير ملك حماة ويظن الاثريون انها كانت بالقرب من منبجس نهر الزرقاء المعروف قديماً باسم يبوق وكانت موطن ساكني الخيام وظن بعض المؤرخين القدماء ان موقعها شمالي مدينة «حجر» في بلاد العرب والقول الاول اقرب للقرائن التي ورد ذكرها فيها .



خلاصة الحوادث

في القرن الثالث عشر قم اخذ العنصر الحثي المحض ينصرف نحو الشمال الى الاناضول . وبقيت القوة الغالبة في المنطقة الحمصية من الجيش الآرامي . فاجتهد هؤلاء بتحسين العلاقات مع الصقع المصري ، فكان لهم ما ارادوه ولاسيا بعدما وقع ملك حث في اسر رعمسيس الثالث سنة ١٢٢٥ .

ومذ حاسن الحمصيون مجاوريهم تعاظمت مملكة حمص حتى صارت من اهم الممالك الآرامية ، ومركزها الطبيعي خول ملكها حق الزعامة في ما يعقد من المحالفات الآرامية . وامتدت سطوتها بحيث لم يكن يرتفع صوت من اقصى التيه الى حدود طورس بدون معرفة ملك حمص .

وظل ذلك شأنها حتى نشأت المملكة العبرانية سنة ١٠٩٥ بزعامة شاول البنياميني . واخذت تزاحم الآراميين على نشر سيطرتها . فوقعت بين العبرانيين وآرامي حمص معركة في ايامه لم تسفر عن نتيجة حازمة ، ولكنها آلت الى تراخي الاتفاق بين الامارات الآرامية وأدى ذلك الى ضعفها جميعاً . فلما وقعت الحرب بين هدد عزر ملك صوبا (حمص) وبين داود النبي ملك اسرائيل تقهقر الحمصيون ، وشعر حلفاؤهم بما ارتكبوه من خطاء فانجدوا هدد عزر ولكن نجدتهم وصلت متأخرة ، وتم الفوز للعبرانيين بعدما خسر الحمصيون والدماشقة عدداً كبيراً من رجالهم بين قتلى واسرى . وجبن توعي ملك حماة لما رأى ما اصاب زميله هدد عزر

فاسترضى داود بالهدايا .

وتحفز الحمصيون اكثر من مرة للثأر لانفسهم فلم ينجحوا كل مدة داود وابنه سليمان . اذ غلبوا على امرهم في خمسة معارك اولاها في ايام شاول وأخراها في ايام سليمان وثلاث في ايام داود

واخيراً ثار احد قادة جيش هدد عزر في اواخر ايام سليمان وتمكن بعد مدة من الاستيلاء على دمشق . وألّف من امارتي حمص ودمشق مملكة واحدة ، جعلت دمشق قاعدتها والحمصيون ملوكها وظلت قائمة نحو قرنين ونصف من سنة ٩٩٠ الى سنة ٧٣٢ . وهذه اسماء ملوك دولة صوبا ودمشق المتحدة بعد هدد عزر : رزون ، حزيون ، طبريمون ، بنهدد الاول ، هدد يدري ، بنهدد الثاني ، حزائيل الاول ، بنهدد الثالث ، حزائيل الثاني ، بنهدد الرابع ، ماريحا ، هدارا ، رصين .

وهذه اسماء مدن حمص البارزة في هذه الحقبة : افيق ، حدراخ ، حصر عينان ، زفرون ، صدد ، عيون ، قرقر .

كانت المملكة الحمصية في هذه الحقبة عرضة لحروب متواصلة مع العبرانيين ، حرب مع بعشا ملك اسرائيل واخرى مع عمري وحروب مكررة مع آخاب ويورام وياهو ويواحاز ويربعام الثاني ، وتخلل ذلك وتلاه حروب مع الاشوريين الذين اغتنموا فرصة تضاؤل فريقي الآراميين والعبرانيين بالحروب المتتابعة فحملوا على الفريقين وقضوا على دولة آرام المتحدة ليتسنى لهم القضاء على الدولة العبرانية .



مملكة حمص
في ايام الاراميين
اللاذقية
افاميا
حماه
طرطوس
طرابلس
جبيل
بيروت
صوبا
ارام صوبه
بعلبك
ارام دمشق
المتحدة
حيفا
المملكة الاسرائيلية
المملكة اليهودية

المعزوه الى تاريخ حمص من كتاب هذه الحقبة

١) صموئيل الرامي

صموئيل (ومعناه المسؤول امـام الله) هو الرائي العـبراني آخر قضاة بني اسرائيل . ولد لابيه القانة بن يروحام بن أليهو توحو بن صوف الافرايمي الموطن اللاوي الجنس . من زوجته حنـه التي كانت عاقراً فلما حملت به بعد تضرع وانكسار نفس جعلته نذيراً للرب . فافرز منذ نعومة اظفاره لخدمة الخيمة في شيلوه . تحت رعاية عالي الكاهن فكان مثالاً للتقوى الصبوية . فلما توفي عالي عين خلفاً له في القضاء لاسرائيل . فقضى لهم عشرين سنة ورد الشعب الى العبادة الحقيقية . وفي مدته فاز الاسرائيليون على اعدائهم الالداء الفلسطينيين فتبددوا ولم يستطيعوا استرداد قوتهم في بقية ايامه . وتصالح الاموريون مع الاسرائيليين بعد عداء شديد . وكانت اقامته في الرامة . ولما شاخ اقام ابنيه وكيلين عنه في بئر سبع . ولكنهما لم ينالا رضى الشعب فطلبوا اقامة ملك، فلم يستصوب طلبهم . ولكن لما اوحي اليه بذلك مسح لهم شاول بن قيس البنياميني ملكاً . فكان اول من ملك على اسرائيل ولما لم يحسن مسلك شاول، وبخه صموئيل ثم مسح عوضاً عنه داود بن يسى قبل وفاة شاول. وتوفي بعد ذلك سنة ١٠٥٧ ق.م وله من العمر ٩٨ سنة وقد ترك من آثاره القلمية سفري القضاة وراعوث و٢٤ اصحاحاً من سفر صموئيل الذي انما حمل مع نائبه اسم صموئيل لان شطره الاعظم تضمن ترجمة حياته .

اما سفر القضاة فقد شغل تاريخ ثلاثة قرون ونيف من موت يشوع سنة ١٤٢٦ الى موت شمشون الجبار سنة ١١٢٠ كما ان الاصحاحات الـ٢٤ التي كتبها صموئيل تضمنت تاريخ ازيد من قرن . وقصة راعوث الموابية حدثت ابان ذلك .

وقد اتم السفرين اللذين يحملان اسـم صموئيل جاد الرائي وناتان النبي حسب رواية ائمة اليهود التي صدقها رهط من ائمـة المسيحية . وقد كان الاول صديقاً لداود وكتب له تاريخ ملكه (١ اي ٢٩ : ٢٩) وناتان كان نبياً في ايام داود وسليمان وكان مشيراً لهما (٢ اي ٩ : ٢٩) .

ومن اهم المزايا التي ازدان بها صموئيل الرائي وجعلته موضع الثقة :

١) رده الامة الاسرائيلية عن الجنوح الى الوثنية .

٢) انشاؤه عدة معاهد ثقافة عرفت باسم مدارس الانبياء تثقف فيها معظم نوابغ الاسرائيليين وكتابها .

٣) تنظيمه القضاء الاسرائيلي اولاً ثم النظام الملكي ثانياً .

٢ً) هوميروس

هوميروس او اوميروس لفظ يوناني ترجمته الحرفية « الذي بلا بصر » وهو لقب لا اسم في الاصل . وقد اشتهر به بعدما كفّ بصره حتى نسي اسمه الاصلي .

قيل ان والدته كريتيس ولدته على ضفة نهر ميلس قرب ازمير فدعته ميلسجينيس اي « وليد النهر » ولا نعلم شيئاً عن ابيه لانه توفي وابنه طفل بعد . ولما فطمته امه عن الرضاع سلمته الى استاذ بارع في ازمير يدعى فيميوس . فاستأجرها هو لغزل الصوف . وكانت صناع اليدين راجحة العقل هادئة . فاعجب بها فيميوس وخطبها لنفسه واعداً اياها بجعل ابنها الذكي الفؤاد نابغة عصره . فرضيت به بعلاً وبرّ هو بوعده لها . ففاق ميلسجينيس جميع اقرانه . وما مرّ بضعة اعوام حتى كاد يبز استاذه نفسه .

توفي فيميوس وانحصر ارثـه في هوميروس فقام مقامه في المدرسة . واعجب به الازميريون . وطارت شهرته في الآفاق فقصده الداني والقاصي . وصار مجلسه كعبة الحكمة وديوان الادب .

وممن اختلف الى مدرسته ربّان حكيم محب للعلم ، اسمه منتس . ورغبة منه في ملازمته حبب اليه الاسفار ومشاهدة الامصار لاستزادة معارفه . واعداً اياه بحمله في سفينته ان رضي مرافقته . فقبل هوميروس رأيه وغادر المدرسة ممتطياً متن البحار ، حيث اختزن من المعلومات التي مرت به شيئاً كثيراً . ولكنه اصيب لكثرة ما نقب بالرمد . واضطر منتس ان يبقيه في جزيرة إيتاكي عند صديق له فيها ريثما تعود اليه صحة النظر . فأحسن هذا ضيافته ، واذ لم يكن

رمد هوميروس ليمنعه من المطالعة والتبحر ، التقط اخبار اوذيس التي جعلها بعدئذٍ مادة لقصيدته الاوذيسية .

ولما عاد الربان من رحلته اخذه في سفينته واستأنفا السفر . فاشتد عليه الرمد حتى فقد بصره وظل كفيفاً حتى مات ولقب منذئذٍ هوميروس .

فلما كفَّ بصره قصد ازمير واخذ ينظم الشعر ليعيش واضطر بعدئذٍ ان يجوب الاصقاع اليونانية يستثمر قصائده . واصيب بعدة نكبات كانت السبب لزيادة شهرته . واخيراً عول ان يقصد اثينا فركب سفينة مع جماعة من ساموس فمرض على الطريق فاترل الى جزيرة « يوس » بغية ابلاله من مرضه ولكن الداء اشتد عليه فاحتضر ومات . فدفن قرب الشاطئ . ونظم لقبره احد شعراء اليونان بيتين هذا معناهما :

ان من هذا النبات الاخضر غطاء للرأس المقدس
رأس الشاعر هومير مضارع الآلهة الذي تغنى بمدح الملوك والابطال

(عن هيرودوت والبستاني بتلخيص)

روى ابن العبري (٦١) ان رجلاً ماجناً حاول ان ينال منه مدحاً فقال له هوميروس لست اهلاً المدح . فقال له : اذا لم أكن اهلاً للمدح فاهجني . قال لا افعل ذلك ابداً . قال اذا سأذهب الى زعماء اليونان واخبرهم بعجزك عن النظم فأجابه هوميروس : للحال .

بلغنا ان ثعلباً حاول مقاتلة اسد في قبرص فاستنكف الاسد من ذلك فقال له الثعلب سأمضي الى السباع واخبرهم بعجزك عن مقاتلتي . فقال له الأسد : لئن تعيرني السباع بالنكول عن مبارزتك ، احبُّ اليَّ من ان ألوث شاربي بدمك اه .

ومن النكات التي يرويها الناس عن اضطراب ذهن الاذكياء وعجزهم احياناً عن حل ابسط الالغاز : ان هوميروس مرَّ مرة بفتية يصطادون سمكاً فسألهم عن كمية ما اصطادوه ? فقالوا : افلتنا بقدر ما امسكنا واصطدنا بعدد ما لم نصطد ، فأغلق عليه فهم المراد وعظم عليه الامر فمات قهراً اه . رواها البستاني في مقدمة ترجمة الالياذة ص ٨٨ .

على ان هيرودوت (ص ٦٣٥) نفى هذه التهمة عنه وروى انه عرف اللغز

ونظم فيه شعراً مآله :- ايها الاولاد ليس لآبائكم ميراث واسع ولا مواش كثيرة الخ.
اما الزمن الذي نشأ فيه هوميروس فبين المؤرخين خلاف بشأنه ومجموع الاقوال بين القرنين الثاني عشر والعاشر .
وقد استفدنا من منظومات هوميروس تصوير حالة الشعوب القديمة المعاصرة لحمص في حقبتيها الاوليين .

٣) هسيود

هو اول شاعر نبغ بعد هوميروس قيل انـه ظهر بعده بنحو ٤٠ سنة وذهب بعضهم الى انه سبقه في الوجود والقول الاول اشهر ارخه بعضهم سنة ٩٢٣ (مرشد الطالبين ص ٦٠٤) وجعله بعضهم من رجال القرن الثامن ق.م (مايار عد ٢٥٤) . وذكر البستاني (١ ص ٤٩٩) انـه اول شاعر نظم في عام الزراعة .
ولم يختلف الادباء في انه شاعر الطبيعة . واعظم منظوماته قصيدته المدعوة « الاعمال والايام » التي وضعته في منزلة عالية جعلت بعضهم يفضله على هوميروس لان ذلك تغنى بابطال الزمن القديم الذي خالطت فيه الآلهة البشر (كما زعموا) اما هذا فقد تغنى بما يلامس الحياة فـنزل الى مستوى العامة ووصف الحوادث اليومية وتغير الفصول وصفاً دقيقاً مبيناً ما هو واجب لازب للحياة .
وقد ارسل من اشعة خياله النير لمعة لمنطقة حمص اذ تضمن شعره اشارة الى استعمال الناس البرونز في عصره (المقتطف ٨ ص ٦٥٧) .

٤) عاموس الرائي (٧٨٧ – ٧٥٨)

هو اقدم الفريق الثالث من كتاب العهد القديم . المعروف عند التلموديين بالانبياء الستة عشر . عاصر يونان ويوئيل وهوشع واشعيا .
كان عاموس في اول امره راعي غنم في تقوع ثم طفق يتنبأ قبل حدوث

الزلزلة بسنتين اي سنة ٧٨٧ قم فسبق اشعيا بنحو ٢٨ سنة وبناء رومة باربع وثلاثين سنة .

لم يتهذب عاموس في مدارس اليهود المعروفة بمدارس الانبياء . بل نبغ من وراء الضأن . ولذلك خلا سفره من ضروب البلاغـة والانشاء في اللغة العبرانية . ولكن بساطة انشائه وسذاجة عبارته لم تخله من الطلاوة واللذة .

فقد حوت فصوله التسعة التشابيه الجميلة المأخوذة من الطبيعة وتوزع فيها قسط وافر من فنون الجغرافية والفلك والتاريخ . مما دل على ان ذاك الراعي لم يكن جاهلاً . بل كان ذكي الفؤاد حاد النظر دقيق الملاحظة .

غير ان صراحته في القول وشدته في توبيخ أماصيا كاهن العجول الذهبية في بيت ايل ، جعلته عرضة لان يوشى به الى الملك يربعام الثاني . فثار غضبه عليه وسمح بتعذيبه فجلده اماصيا المذكور بقسوة . وتناول ابنه عصا ضربه بها على صدغه فشجه شجاً عميقاً اغمي عليه للحال . فحمل الى منزله في تقوع وهو بين حي وميت . وفاضت روحه بعد يومين سنة ٧٥٨ قم .

ومما استفدناه من سفر عاموس لتاريخ حمص :

١) وصفه الامم المجاورة وصفاً بـين لنا فيه حالة السوريين والفينيقيين والفلسطينيين والادوميين والعمونيين في عصره اعني في القرن الثامن قم ممـا تهمنا معرفته جداً .

٢) ذكره «حماة» ووصفه اياها بالعظمة مما جعل ذلك موضع بحث الجغرافيين اذ قال : جوزوا الى كلنة وانظروا ، وسيروا من هناك الى حماة العظيمة ، ثم اهبطوا الى جت فلسطين ، اتلك خير من هذه الممالك أم تخومهم اوسع ؟ — الى ان يقول — ها انذا اقيم عليكم يا آل اسرائيل امة فيضايقونكم من مدخل حماة الى وادي الغور (عا ٦ : ٢ و ١٥) .

فكان وصفه حماة بالعظمة في ذلك العصر موضع نظر الباحثين ، فرأى بعضهم ومنهم يوسيفوس المؤرخ اليهودي ان المراد بحماة الموصوفة بالعظيمة هنا انما هي حمص نفسها لسببين . الاول ان لفظ حماة العبري كان يطلق في العصور القديمة على بلدتي حمص وحماة لاعتقاد العبرانيين ان حمث بن كنعان بنى كليهما وكانت حمص في العصور القدمى تميز عن حماة بوصفها بالكبرى وحماة في زمن

عاموس لم تكن اهم من حمص تنعت بالعظيمة دونها . الثاني ان حمص هي النقطة المتوسطة بين كانه الكلدانية وجت الفلسطينية فهي الاولى ان تكون المرادة في ما كتبه عاموص . والله اعلم .

٥ً) اشعيا النبي (٧٥٩ — ٦٩٩)

هو اشهر انبياء العبرانيين وله المقام الاول بين الانبياء الكبار ، ولد لآموص الذي قيل انه ابن يواش الملك . فاذا صح هذا كان اشعيا اخاً للملك امصيا .

صرف حياته في اورشليم وتنبأ نحو ٥٠ سنة (٧٥٩—٦٩٩) وقد عاصر ثلاثة ملوك من يهوذا يوثام وآحاز وحزقيا ، وذكر التلموديون انه بقي الى ايام منسى الملك الذي استثار غضبه عليه بشديد وعظمه فقتله نشراً في جذع شجرة .

كان اشعيا افصح كتاب العهد القديم عبارة وابلغهم معنى . وقد قال فيه صاحب قاموس الكتاب (١ ص ١١٢) تشف عبارات سفره عن توقد ذهن وقوة تخيل وسمو فكر وحسن تركيب . مما يجعل كلامه بدرجة الاعجاز كأنما الالفاظ والتراكيب كانت طوع بنانه وتحت مطلق تصرفه يأمرها فتأتي طائعة ويشكلها فتتركب على الصورة التي يشاؤها . بحيث لا يجد القارىء في السفر كلاماً فارغاً . لم يترك الكاتب شيئاً من وصف بهاء السماء وجمال الارض واهوال الجحيم الا ذكره بسلسلة بديعة الانتساق متماثلة الاطراف لم يخرج منها عن التناسب والحكمة مع تفاوت زمن الكتابة . ناطقاً بما يحركه الروح وفقاً للظروف والاحوال اه .

حوى سفر اشعيا ٦٦ فصلاً وقعت في قسمين كبيرين الاول من ص ١—٣٩ وهو القسم التاريخي النبوي والثاني من ٤٠—٦٦ وهو القسم النبوي الخاص .

ومما له صلة بتاريخ حمص ذكره مجيء الاشوريين الى البلاد السورية ومحاصرتهم اورشليم (١٦—٣٩) . وحوداث اخرى لها صلتها بتاريخ حمص (ص ٧ و١٣—٢٣) . وذكر في سفره احدى المدن القديمة التي كانت تابعة لمملكة حمص .

والمروي ان اشعياً عاش عمراً طويلاً من سنة ٧٧٤—٦٩٠ قم .

٦ً) بيساندروس الرودسي .

هو الشاعر اليوناني الذي نبغ في اواسط القرن السابع وزار الاماكن المهجورة بذاته ليتعرف الى اهلها وروى ما سمعه وشاهده فيها وقد قام برحلته هذه سنة ٦٥٠ قم إبان الهدوء الذي ساد آسيا الوسطى . الذي سهل له التوغل في قلب القارة · وقد بدأ رحلته من ساحل البحر المتوسط حيث انشأ اليونان اول محل تجاري · واستفاد هيرودوت كثيراً مما ورد في قصيدته الجامعة التي حفظ منها بعض مقاطع في مؤلفات من هم احدث عهداً منه . وقد قال فيه احد الباحثين :

« قام هسيود وهوميروس من شعراء اليونان ونظما قصائد جزلة ··· ولكن قام شاعر اقرب منهما الى فينيقية اعني به بيساندروس من كميرز في رودس ونظم قصيدة جمعت فوعت (تاريخ لبنان ص ٢٩٩) ·

وفي هذه القصيدة اشارة الى فينيقية الداخلية التي كانت حمص قاعدتها ·



هوميروس اقدم شعراء اليونان ، انظر صفحة ١٦٣

الحقبة الرابعـة

حمص

في ايام اشور وكلدة وفارس

٧٣٢ – ٣٣١

توطئة

متابعة لخطتنا نلم في هذه التوطئة بخلاصة ما عرفه المحققون عن الاشوريين والكلدان والفرس لصلتهم بتاريخ حمص فنقول :

١ – الاشوريون

أشور هو الابن الثاني لسام كما ان آرام هو الابن الخامس . ومن أشور هذا تسلسلت القبائل الاشورية الساكنة في الشرق من دجلة وقد صارت دولة عظيمة عاصمتها نينوى . على ان الكلدان يطلقون لفظ أشور على أهالي المملكة التي عاصمتها بابل ، كما يطلقون كلمة سوريين على البلاد التي كانت حاضرتها الاولى صوبا (حمص) والثانية دمشق . ولذا يقع التباس في كثير من الاحيان بين لفظتي أشوريين وسوريين . في حين ان المأخذين متباينان الاول من أشور والثاني من سور او صور .

ويحد بلاد أشور من الشمال ارمينيا ومن الجنوب العراق ومن الشرق سلسلة جبال زاغروس ومن الغرب الفرات وبلاد ما بين النهرين (قاموس الكتاب ١ ص ١٠٢) .

وقد قسم ثقات المؤرخين تاريخ أشور القديم الى ثلاث حقب . الاولى

من بداءة امرهم الى فتح بابل سنة ١٣٠٠ والثانية من فتح بابل الى ملك تغلتبلاسر الثالث سنة ٧٤٥ والثالثة من تغلتبلاسر الى انقراض دولتهم سنة ٦٢٥ .

واخبارهم في المدة الاولى قليلة لقلة الآثار الناطقة عنها . وممن اشتهر من ملوك هـذه الحقبة «أشور بليت» الذي صاهر ملك بابل في القرن الرابع عشر ق‌م . وقام في اواخر القرن المذكور او أوائل القرن الثالث عشر سلمناصر الاول الذي بنى مدينة كالح وغزا ارمينيا وبنى مدناً فيها .

ومن مشاهير ملوك الحقبـة الثانية «تغلت نين» الذي شنّ الغـارة على الكلدان ولقب نفسه قاهر بابل . وقد نبغ في الثلث الاول من القرن الثالث عشر . ويليه في الشهرة تغلتبلاسر الاول الذي عظمت ذكره الآثار (بورتر ٤٩—٦٠) ثم تتالى بعده ذكر ملوك أشور من سنة ٩٠٠—٧٤٥ وكثر احتكاكهم بسورية مما مرّ ذكره وستمر به ملخصاً .

وقد دلت الآثار على ان الدولة الاشورية بلغت قمة المجد ثلاث مرات في التاريخ . الاولى في عهد تغلتبلاسر الاول (١١٣٠ — ١١١٥) والثانية على عهد ادد نيراري الثاني وخلفائه (٩٠٠—٧٨٣) . والثالثة في زمن تغلتبلاسر الثالث (٧٤٥—٧٢٧) (ادي شير : ٨٠) .

ونجاح الاشوريين في هذه المدات خولهم عظمة وعتواً دلت عليها كتاباتهم المنقوشة على المرمر ، التي وجدت في صروح ملوكهم . حتى سماهم بعض المؤرخين «رومان آسيا» وقال انهم كانوا يقودون ملوك الاعداء بصنارات ينشبونها في شفاههم ، ويسلخون جلود الاسرى وهم احياء ، ويقورون عيون بعضهم برؤوس السنان ، ويقتلعون ألسنة البعض الآخر (مايار عد ٦٥) .

اقتبس الاشوريون مدنيتهم الاولى من الكلدان في الجنوب ثم اضافوا اليها ما اقتبسوه من مدنيات الشمال والغرب (حث وآرام) .

وكانت أشور دولة برية نظير روسيا . فطمحت بابصارها الى بحر الروم ولم يتسنّ لها تحقيق مطامعها في العصور القديمة ، لوجود دول قوية تحول دون وصولها الى بغيتها . ولكن لما قدم العبرانيون الى سوريا في اواخر القرن الخامس عشر ق‌م واحتلوا جنوبي البلاد كما احتل الآراميون الشمال الشرقي منها في القرن الثاني عشر ، رأى

الاشوريون الفرصة السانحة لتوسيع نطاق حدودهم في الشمال السوري . فلم يفلحوا في اول الامر ، ولكن بغيتهم هـذه اخذت تتحقق . في منتصف القرن التاسع يوم بلغ اشور نزيربال سنة ٨٧٠ ساحل المتوسط . غير أن السوريين بما حصلوه من الثروات المكتسبة بالتجارة استطاعوا بعدئذٍ الاحتفاظ بموقفهم أمداً طويلاً وان يصدوا الاشوريين عن التقدم نحو البحر .

وفي اواسط القرن الثامن استأنف الاشوريون مساعيهم فنجحوا اذ أخضعوا سوريا شيئاً فشيئاً . ضامين اجزاءها المتفرقة الى ولاياتهم لعدم استطاعة قادتها الضعفاء الوقوف امـام جيوش أشور القديمة . على أن اتساع نطاق المملكة الاشورية أدى الى ضعفها . اذ لم يكن لديها جيش كافٍ للذود عن املاكها المترامية الاطراف . فكثرت الثورات في البلاد وبينما كان الآراميون يزحفون من جهة الهلال الخصب ، كان الكلدان يزحفون من جهة خليج فارس منتشرين في طول البلاد وعرضها . وهبَّ نبوبلاسر (٦٢٥ — ٦٠٥) الذي كان من اتباع ملك أشور فقلب لمتبوعه الاعظم ظهر المجن واسقط أشور سقوطاً لم تقم بعده سنة ٦١٢ (براستد ص ١٠٦—١٢٥) وفي ما يلي جدول لملوك أشور من اقدم ادوار الدولة الاشورية الى سقوطها مأخوذ عن تحقيقات رولنسون :

ملوك أشور

اسماءهم وتاريخ ملكهم حسب نقل بورتر		تاريخ ملكهم واسماءهم حسب نقل ادي شير	
اربافول			. . .
أشور الدين اخي			. . .
أشور بيل نيسو	١٤٤٠		أشور بيل نيشيشو
بزور أشور	١٤٢٠		يوزور أسور
. . .	....		أسور نادنخا
أشور أفلَت	١٤٠٠	١٤١٨	أسور بليث
بيل لوش	١٣٨٠	١٣٧٠	بيل نيراري الاول
يود ال	١٣٦٠	١٣٤٥	بود يلو

فول لوش الاول	١٣٤٠	١٣٢٠	ادد نيري الاول
شلمناأصر الاول	١٣٢٠	١٢٩٠	سلمناأصر الاول
تغلت نن الاول	١٣٠٠	١٢٦٠	تغلت نينيب الاول
. . .	....	١٢٤٠	أسور ناصربال
. . .	....	١٢٣٤	أسور نيراري الاول
بيل كدرازور	١٢٣٠	....	بيل كدناصر
نين بلازيرا	١٢١٠	....	نيني بلاصر
أشورديان الاول	١١٩٠	١١٨٢	أشوردان الاول
متغل نبو	١١٧٠	١١٤٥	متكل نوسكو
أسور رس إليم	١١٥٠	١١٣٥	أسور ريشيشي
تغلت فلاسر الاول	١١٣٠	١١١٥	تغلاتبلاسر الاول
أشور بلكالا	١١١٠	١١٠٠	أشور بيل كالا
شمس فول الاول	١٠٩٠	....	شمشيداد الثالث
. . .	....	....	أسور ناصربال الثاني
. . .	....	....	أرباداد
. . .	....	....	أسور نادنخا الثاني
. . .	....	٠٩٥٠	تغلاتبلاسر الثاني
أشورديان الثاني	٩٣٠	٩٣٥	أسوردان الثاني
فول لوش الثاني	٩١١	٩٠٠	ادادنيري الثاني
تغلت نن الثاني	٨٨٩	٨٩٠	تغلاتينيب الثاني
أشور ازيربال	٨٨٣	٨٨٥	أشور ناصربال الثالث
سلمناأصر الثاني	٨٥٨	٨٦٠	سلمناأصر الثالت
شمس فول الثاني	٨٢٣	٨٢٥	شمشيداد الرابع
فول لوش الثالث	٨١٠	٨١٢	ادادنيراري الثالث
سلمناأصر الثالث	٧٩١	٧٨٣	شلمناأصر الرابع
أشورديان الثالث	٧٧١	٧٧٢	أسوردان الثالث
أشورلوش	٧٥٣	٧٥٤	أسورنيراري الثالث

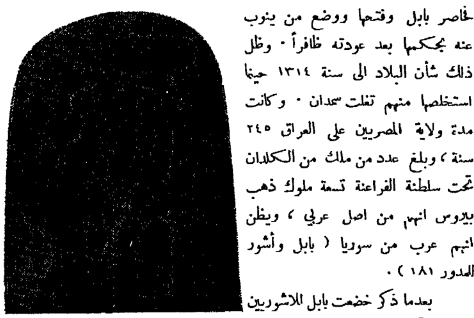
تغلتبلاسر الثاني	٧٤٥	٧٤٥	تغلاتبلاسر الثالث
سلمنأصر الرابع	٧٢٧	٧٢٧	سلمنأصر الخامس
سرجون	٧٢٢	٧٢٤	شركينا الثاني
سنحاريب	٧٠٥	٧٠٥	سنحاريب
أسرحدون	٦٨١	٦٨٠	أسرحدون
أسور بانيبال	٦٦٨	٦٦٨	أسور بانيبال
. . .	. . .	٦٢٧	أشور تيليلاني
. . .	. . .	٦٢٠	سينشاريسكين

٢ — الكلدان

هم احدى الامم القديمة في التاريخ . وجدت في العراق العربي ونشأت كأمة ودولة في القرن الثالث والعشرين ق‌م . ومؤسسها حسب التقليد المتناقل نمرود الجبار واقدم دولها الدولة الاكادية ، انشأها رجل سامي الاصل سنة ٢٧٥٠ يدعى سرجون . كان ماهراً في الفنون الحربية . ففاز بمقدرته على السومريين سكان البلاد الاصليين . ومزق شمل رماحتهم وكسر ملكهم شر كسرة . فاستتبت له السيادة في سهل شنعار كله . ودانت له المدن السومرية حتى مصب الرافدين (براستد عدد ١٧٢) وكان اول قائد عظيم في تاريخ الجنس السامي ، واول ملك انشأ أمة عظيمة في آسيا الغربية .

ويأتي بعد هذه الدولة بالاهمية دولة قيل انها عربية . وهي خامس دولة في تاريخ دول الكلدان (بورتر ص ٤١) أنشأها الاموريون القادمون من سوريا حوالي سنة ٢٢٠٠ ق‌م . فاستولوا على بابل الصغيرة واخذوا يشنون الغارات على سومير واكاد للاستيلاء عليها . ومن مشاهير هذه الدولة حمورابي سادس ملوكها الذي ملك نحو ٣٠ سنة صرف معظمها في الحروب حتى فاز على جميع خصومه وجعل بابل قاعدة ملكه سيدة مدائن البلاد منذ القرن الحادي والعشرين . وعاش حمورابي بعد فوزه ١٢ سنة كانت عهد سلام . برهن خلالها انه اقدر ملوك الاسرة الاموية . ودلت رسائله الباقية على انه كان من اعاظم المشرعين .

وولي الدولة العربية المذكورة دولتان اخريان تعتبران نهاية العهد الاول للدول الكلدانية القديمة ، اذ انحطت دولة بابل القديمة بعد ان ظلت قاعدة المدنية الشرقية ازيد من الف وخمسمائة سنة (مايار عدد ٣٦) وفي ابان هذا الضعف زحف المصريون على الفرات وحصلت بين الفريقين وقائع متعددة استمرت نحو قرن (١٦٦٥—١٥٥٩) انبث فيها المصريون في البلاد الكلدانية ، وكانت شراذمهم تسطو على الاهلين وتعيث فيها فساداً . واخيراً عبر توتمس الاول الفرات وفتح بابل عنوة . فلما مات تمرد الكلدان على خلفائه فجدد توتمس الثالث الحملة عليهم فحاصر بابل وفتحها ووضع من ينوب عنه بحكمها بعد عودته ظافراً . وظل ذلك شأن البلاد الى سنة ١٣١٤ حينما استخلصها منهم تغلت سمدان . وكانت مدة ولاية المصريين على العراق ٢٤٥ سنة ، وبلغ عدد من ملك من الكلدان تحت سلطنة الفراعنة تسعة ملوك ذهب بيروس انهم من اصل عربي ، ويظن انهم عرب من سوريا (بابل وأشور المدور ١٨١) .



حمورابي اشهر ملوك الكلدان يصلي

(انظر ص ٤٩ و١٧٣)

بعدما ذكر خضعت بابل للاشوريين وظلت تحت سلطتهم الى اواسط القرن الثامن حينما كسر نير أشور من اعناقهم نبونصّر سنة ٧٤٧ (بورتر ٧٤)

وظل الكلدان بعد هذا الملك يتداولهم الهبوط تارة والارتفاع اخرى الى ان نبغ نبوبلاسر (٦٢٥—٦٠٥) فوطد نفوذها وموقفها الاستقلالي ثم خلفه ابنه نبوخذنصر الشهير الذي بسط سيطرته على بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين ، ومات بعدما ملك ٤٣ سنة . ثم خلفه ابنه مرودخ فملك سنتين وقتله نيرغلوسر وملك اربع سنوات . ثم خلفه ابنه لابوسوراكوس فلم يثبت له الملك سوى بضعة اشهر وقتل . فخلفه رجل اسمه نبونادو ـ الذي ثلّ عرشه كورش الفارسي بعدما

ملك ١٧ سنة ، وقتل ابنه بلشاصر . وتدعى هـذه الدولة الاخيرة الدولة الكلدانية الثانية . وهذه اسماء ملوكها وتواريخ ملكهم :

٦٢٥ ق‌م نبو بولاصر
٦٠٥ نبوخذنصر ابنه (٢ مل ٢٤ : ١) .
٥٦٩ بلسوم اسكون ثاب منابه وقت جنونه (دا ٤ : ٢٨) .
٥٦٣ عودة نبوخذنصر الى العرش .
٥٦١ اويل مرودخ بن نبوخذنصر .
٥٥٩ نيرغلاسر صهر نبوخذنصر .
٥٥٦ لايوسوراكوس لبث شهراً واحداً .
٥٥٦ نبونيد (اشترك مع ابن عمه ثم فرّ وقت المحنة)
٥٤٦ بلشاصر بن نبونيد .
٥٣٨ ملوك الفرس .

٣ ـ الفرس

أمة آرية الاصل يشاطرها في الانتساب الى هذه الارومة القبائل الهندية. وقد انفصل هذان الفريقان احدهما عن الآخر في القرن التاسع عشر ق‌م احتل احدهما الهند والثاني هضبة ايران . وهؤلاء سكن بعضهم البلاد الجبلية في الشمال الغربي ودعوا ماديين والآخرون سكنوا القسم الجنوبي وسموا الفرس (براستد عد ٢٥٧ ، ومير عد ٧٨) .

والاخبار القديمة عن هذه الامة سقيمة جداً لا يركن اليها ولا يعرف عنها ما يستحق الذكر ، وخلاصة ما روي ان الفرس كانوا في العصور القديمة قبائل متفرقة . اجتمعت في القرن العاشر بخضوعها للسلطة الاشورية . وظل ذلك شأنها حتى برزت دولة مادي في القرن السابع . وهذه اقدم دول ايران تلتها الدولة الكيانية في اواسط القرن السادس وبها يبدأ العصر الفارسي الحقيقي (الهلال ١٦ : ٣٤٥ و٢٥ : ٥٧) ومـا نقل عن الحقبة التي سبقت العصر الفارسي

ماخص في ما يلي :

كان زمام البلاد في هـذه الحقبة للماديين الذين سيطروا على الجبال الواقعة شرقي دجلة . ثم اتسع نطاق صولتهم من خليج فارس شمالاً بغرب على موازاة الجبال الى حدود البحر الاسود (براستد عدد ٢٦٠) .

ولم يكن الفرس ينكرون سيطرة الماديين . حتى ان كمبيز ابا كورش كان خاضعاً لاستياج المادي كما روى هيرودوت فضلاً عن ان نبوخذنصر الشهير ملك الكلدان كان مع عظمته ينظر اليهم نظرة حذر .

على ان الماديين كانوا هم انفسهم في ما سبق تحت سلطة الاشوريين الى سنة ٧٥٩ ق م حينما نهض ارباسيس القائد المادي لجيش سرنفول ملك أشور بالاتفاق مع بيليزيس بثورة سنة ٧٦٠ فأسقط الملك عن عرشه واستقل بالسيادة على مادي وظل في العرش حتى توفي . خلفه ديوسيز (الضحاك) الذي رووا انه بنى اكبتانا (همذان) واحاطها بسبعة اسوار جاعلاً كلاً يعلو على الثاني بمقدار شرفة . واختلفت هـذه الشرفات بالالوان من ابيض الى ازرق فأحمر فأرجواني فأسود ففضي فمذهب وداخل الاخير سراي الملك (البستاني ٤ : ١٠٩) .

وطالت مدة حكم هذا الملك حتى بلغت ٥٣ سنة فلما توفي خلفه فراورت . وحاول هـذا فتح نينوى فلم يفلح ، بل قتل تحت اسوارها مع عدد كبير من عسكره وكانت مدة حكمه ٢٢ سنة . فخلفه ابنه كياكسار بعدما ملك ٤٠ سنة . وخلفه ابنه استياج الذي رووا انه كان وكلاً كسولاً لم يرزق سوى ابنة واحدة اسمها مندانة تزوجها كمبيز امير الفرس الخاضع له .

رووا ان استياج رأى حلماً اقضّ عليه مضجعه . وهو ان كرمة كانت في بستانه، خرجت من قصر ابنته وامتدت اغصانها حتى ظللت آسيا كلها . وفسر حلمه العرافون بان ابنته تلد ابناً يسيطر على جميع اقـاليم آسيا ، فراعه ذلك فاستقدم ابنته من بلاد الفرس وحجزها عنده ، فلما ولدت ذكراً استدعى احد قواده وكلفه سراً بقتل الطفل . فنصحته زوجته ان لا يفعل لان الطفل هو الوريث الوحيد لعرش استياج . فسلم الطفل الى احد الرعاة وكلفه بتتميم ما امر الملك به . فعذبه ضميره جداً ، واتفق ان امرأته ولدت طفلاً ميتاً فأشارت على زوجها ان يلقي ابنها الميت على احد الجبال ويبقى ابن مندانة لتربيه هي . ففعل ما اشارت به بعدما ألبس

ابنه الميت ثياب الامير الطفل . وارسل القائد ارباغوس احد خدامه ليتحقق من تنفيذ امر الملك فوجد الطفل ملقى على جبل عال فاقد النسمة فاطمأن .

ربت زوجة سباكو (الراعي) الطفل ودعته كورش (السيد) فنشأ نشأة تدل على النبوغ والطموح الى السيادة واحدى حوادثه كانت السبب في كشف ما خفي :

فانه لما كان ابن عشر سنوات جمع اترابه وقام رئيساً فيهم . وكان بين الاولاد غلام من اسرة شريفة تمرد على كورش فأمر بجلده فجاء واخبر أباه . فشكاه هذا الى الملك الذي استقدم الراعي للحال مع ابنه واستجوب الفتى فكان جوابه المحكم سبباً لتأمل الملك ولما عرف من الراعي سنه انفرد بالراعي واستنطقه بتهديد فأخبره بما حدث . فعذر الراعي ونقم على ارباغوس القائد وفتك بابنه وأطعم اباه من لحمه . ثم ارسل كورش الى اهله في فارس فأخبر والديه بما جرى له فسراً به . وتابعا تربيته العسكرية فنشأ جبار بأس حازماً كان موضع احترام الفرس كافة . ولما درى ارباغوس بالامر اخذ يراسله سراً مطمعاً اياه بالعرش ومهيئاً له الاسباب التي منها كره معظم الماديين لجده بحيث اذا تقاعس هو تولى العرش سواه . فجهز للحال حملة كانت القاضية على الجيش المحارب عن استياج . ووقع استياج اسيراً بيد حفيده وظل اسيره حتى مات بعد ما ملك ٣٥ سنة .



« كورش الفارسي »

على رأسه تاج وعلى كتفيه اربعة اجنحة رمز السلطة الملكية . وجدت في سهول مرغب حيث كانت العاصمة .

تولى عرش مادي سنة ٥٣٨ احد ابناء كورش المدعو كياكسار الثاني اوداريوس المادي فلم يبق فيه سوى سنتين وتوفي

فطمع بالعرش احد اشراف بابل ومادي وكان كورش موفقاً في حروبه اذ اخضع البرتيين والارمن والاناضول ومـا بين النهرين وسوريا وجزءاً من بلاد العرب ومـات بعدما ملك ٣٠ سنة . وبلغت الدولة في ايامه من الهند شرقاً الى المتوسط غرباً .

وورث خلفاء كورش منه الحقد على اليونان فحصل لهم معهم حروب كثيرة ، من اشهرها خمس انتصر الفرس في اثنتين منها وخذلوا في ثـلاث ، الاوليان معركتا ساردس سنة ٥٤٧ ومصر سنة ٥٢٥ والثلاث معارك ماراثون سنة ٤٩٠ وترموبيلي سنة ٤٨٠ واربيلا سنة ٣٣١ .

قال براستد (عدد ٢٥٢) معظم التاريخ القديم عبارة عن انبـاء نزاع مستمر بين الشعب السامي الجنوبي وبين الهندي الاوربي الشمالي . وقـد كان هذان الشعبان متقابلين كجيشين كبيرين يمتدان من آسيا الغربية الى الاتلانتيك غرباً . والحروب الناشبة بين رومة وقرطاجنة احدى هـذه المعارك . والانتصار الذي احرزه الفرس على الكلدان كان من نتائجها فوز الميمنة على الميسرة . وبعد هـذا النزاع الطويل ، فاز الشعب الهندي الاوربي (الفرس) في الميمنة والميسرة والقلب . وصحب هذا الانتصار عراك بين ابناء شعب الشمال انفسهم ، طمعاً بنيل السيادة العامة ، المنتقلة من الطرف الشرقي الى الغربي . من الفرس الى اليونان فالرومـان الذين بسطوا سلطتهم على مناطق البحر المتوسط وسائر بلدان المشرق اهـ .

وفي ما يلي جدول ملوك مادي وفارس

سنة ق م	
٧٥٩	ارباسيس
٧٠٩	ديجوسيز
٦٥٦	فراورت
٦٣٤	كياكسار الاول
٥٩٣	استياج
٥٥٨	كياكسار الثاني

٥٥٦ كورش على مادي

٥٣٦ كورش على مادي وفارس وبابل

٥٢٩ كمبيز بن كورش

٥٢٢ سمرديس

٥٢١ داريوس هستاسب

٤٨٦ زركسيس الاول

٤٦٥ ارتحششتا الطويل اليد

٤٢٤ زركسيس الثاني ٤٥ يوماً فقط

٤٢٣ داريوس نوتوس

٤٠٤ منيمون اوخوس

٣٥٨ اوخوس بن منيمون

٣٣٧ ارسيس بن اوخوس

٣٣٥ داريوس قدمانوس وهو آخر ملوكهم وقد بطش بـه اسكندر المكدوني سنة ٣٣١ .

الصلة بين الحقبتين الثالثة والرابعة

عانت حمص في الحقبة الثانية مشقة مناهضة الدولة المصرية لاقتسامها مع الحثيين الديار المصرية وبسطها سيطرتها عليها مدة ليست بقصيرة (المقتطف ٢٢ ص ٢٦١ و ٤٣٤) . وعانت في الحقبة الثالثة معاركة العبرانيين لطموح هؤلاء نحو الشمال . اما في هـذه الحقبة فقد قام عراكهم مع الاشوريين — وكان قد بدأ في الحقبة السابقة — ثم مع الكلدان وتلاهم الفرس. وكانت حمص اقوى اجزاء سوريا دفاعاً عن حوزتها . فلما دانت للفاتحين دان الكل لهم. وفي ما يلي لمحة عن المحن التي نزلت بحمص يسهل معها فهم الاسباب التي اودت بحمص وجعلتها ترضى بالشرب على القذى وهي المتمردة على كل عتو .

فقد هاجم مملكة حمص تغلتبلاسر الاول مرتين الاولى في السنة الثانية

من ملكه . والثانية في الرابعة فأحرق عماراتها وآب بالغنائم الوافرة (بورتر ٥٢) غير ان هـذه المفاجأة لم تتكرر اذ ان الحصيين اخذوا حذرهم فلم يعد يجرأ هو ولا خلفاؤه على وطء هذه البلاد . وظل ملوك أشور ٣٥٠ سنة او تزيد لم يجوسوا خلال الديار لشدة المقاومة التي توقعوها من آرام حمص اولاً ثم من فينيقيي الساحل وعبرانيي الجنوب . وانحصرت جنود أشور ضمن حدودهم حتى القرن الثامن (براستد عد ٢١٤) .

ويستثنى مما ذكر أشور نزيربال الذي اجتاح البلاد السورية بعدما كسر شوكة الحثيين في الشمال وفتح عاصمتهم كينالو (بين عفرين والعاصي) ثم اجتاز العاصي الى الجانب الشمالي من لبنان سنة ٨٧٥ (البستاني ١٠:٢٠٩) .

وتلاه ابنه شلمنأصر الذي بلغت غزواته ٢٣ فاز في تاسعتها على ملوك سوريا المتحالفين ومنهم بنهدد ملك صوبا (حمص) وسكهولينا ملك حماه . ثم اجتاح سوريا بعد سنتين فلم يقاومه سوى بنهدد ملك حمص ودمشق واستطاع هذا ان يربح المعركة . وبعد مرور ثلاث سنوات حشد شلمنأصر قوات عظيمة لاسترداد مكانته الحربية بعد فشله السابق فعنا لقوته حثيو الشمال والحمويون وتقهقر الفينيقيون وصمد له الحصيون والدماشقة . غير ان انفرادهم في المعركة مكن شلمنأصر من زحزحتهم بقواته العظيمة واكراههم على اللواذ بانتيلبنان بعد خسارتهم ١٦ الفاً (البستاني ١٠:٢١٠) وختمت حوادث الحقبة المنقضية بتل عرش رصين آخر ملوك منطقتي حمص ودمشق المتحدتين على ما مرّ بك . واليك اهم حوادث حمص في هذه الحقبة .

١ ـ سرجون وثورة سوريا الشمالية

لم يرد اسم سرجون في العهد القديم سوى مرة واحدة في سفر اشعيا (٢٠ : ١) فاتهم الملحدون اشعيا بالجهل . وظلت هذه القضية مدار حيرة القدماء مدة ليست بقصيرة . وحاول بعضهم التوفيق بين رواية الكتاب وما ذكره المؤرخون القدماء . فذهب البعض الى انه نفس شلمنأصر الخامس وظن آخرون

انه سنحاريب . غير ان الاكتشافات الحديثة حلت الاشكال وايدّ رواية اشعيا اذ عرف ان سرجون هو خليفة شلمنأصر وابو سنحاريب واليك خلاصة ما اجتمع من رواية الآثار عنه :

كان شلمنأصر مع ابيه تغلتبلاسر معجبين ببابل يفضلانها على نينوى عاصمة أشور . فاستاء الاشوريون منهما ولاسيا من الاخير . فلما انهمك شلمنأصر بحصار السامرة استحسنوا الفرصة ونادوا بسرجون (شركينا) قائد الجيش ملكاً على أشور .



سرجون ملك أشور مع احد موظفيه انظر ص٤٢

واظهرت الآثار ان سرجون المذكور كان من اعاظم ملوك أشور نال انتصارات كثيرة على الممالك المجاورة لاشور . غير ان انتصاراته هذه لم ترح باله اذ اقضّ مضجعه ثورة سوريا الشمالية التي قام بها ياهوبيد (ايلبودي) ملك حماة . واسباب هذه الثورة نلخصها عن الكتاب والآثار بمايلي :

انالقائد الاشوري(سرجون) تمكن من فتح السامرة سنة ٧٢١ بعد موت شلمنأصر . فسبى سكانها واسكن موضعهم اقواماً من كوتا (هبت) وعوا وحماة وسفروايم . ولما سقطت المملكة الاسرائلية بسقوط السامرة زال الحد الفاصل بين مصر وأشور . فخاف ملك مصر اقتحام الاشوريين الاراضي المصرية ، فحالف ملوك سوريا الشمالية واغراهم على محاربة أشور واعداً اياهم بالنجدة ، فانصاع هؤلاء لمواعيده ودفعهم الاباء الى الثورة وتسلم قيادة جيوش الحلفاء ياهوبيد ملك حماة لصلته بن قطن السامرة من الحمويين الذين وعدوه برفع لواء العصيان في السامرة حالما تعلنه الشمال .

فعظم الامر على سرجون جداً فجهز حملة عظيمة قادها بذاته . وسار على

العصاة فنشب القتال في عدة مواضع ولم يستطع المتحالفون الوقوف امامه . اذ لم تكن لهم المعنويات التي لقواته . وظل سرجون يسير من نصر الى نصر والمتحالفون يتابعون تقهقرهم ، حتى كانت المعركة الفاصلة عند «قرقر» وهناك تم له النصر التام . اذ وقع ياهوبيد اسيراً بيد سرجون فأمر بسلخ جلده وهو حي واخذ من فرسانه ٦٠٠ ومن عرباته ٢٠٠ ضمها الى معسكره . وقتل جميع الذين اضرموا نار العصيان في الشمال . ثم تابع حملته الى الجنوب فداهم غزة بجيوشه ففر ملكها حانون الى رافيا حيث وصلته نجدة مصرية يقودها سباقو فحمل عليهما سرجون وقهرهما معاً فأسر ملك غزة وفر سباقو الى مصر وكان ذلك سنة ٧٢٠ (ادي شير ٨٩ ويورتر ٥٩ والدبس ٢:٤٧٧ ويوست ١:٥٥٥ والبستاني ٩:٥٥٨).

وقد نقش سرجون هــذه المعارك على صفحات من الاجر ما برح بعضها محفوظاً وان تحطم بعض منها . كما اشار اشعيا الى هذه الحوادث قبل وقوعها بنحو ثماني سنوات (١٤:٢٩—٣٢) . وبعدما ملك سرجون نحو ١٧ سنة ملأى بالحوادث الهامة اغتاله احد الكلدان وهو في قصره الذي بناه لنفسه في مدينته الجديدة خرسباد .

٢ — غزوات سنحاريب

ادرك الاجل سرجون سنة ٧٠٥ فخلفه ابنه سنحاريب في ١٢ آب من السنة نفسها ، وهو من اشهر ملوك أشور . قضى مــدة ملكه البالغة ٢٤ سنة في الحروب وقد خادنه النصر في جميع غزواته الا ما قل منها . والذي يهمنا من حملاتــه اثنتان احداهما حصلت سنة ٧٠٢ والثانية سنة ٦٨٩ اللتان غزا فيهما سوريا .

من اسباب حملته الاولى ان ملوك صيدا وعسقلان ويهوذا خلعوا الطاعة لملك أشور سنحاريب على اثر وفاة سرجون . وحالفوا ملك مصر عليه . ولما جاهر ملك عقرون بتحزبه لملك أشور ثار عليه قومه واعتقلوه واسلموه الى حزقيا ملك يهوذا فحبسه في اورشليم . فغضب سنحاريب وجهز حملة كبيرة اجتاح بها البلاد السورية ووقع رعبه في جميع البلاد المجاورة فقدم له ملوك ارواد وجبيل

وعمون ومواب وادوم واشدود هداياهم. واحتفظ بالموقف السلبي حزقيا ملك يهوذا وصدقيا ملك عسقلان . اللذان انتظرا نجدة ملك مصر خاب املهما . وزحف سنحاريب على بلاد عسقلان ففتح حصونها واعتقل صدقيا ملكها ونصب مكانه شرلوداري بن روكيش. ولكن لما اراد الزحف على عقرون قدمت جيوش مصر فلاقاهم سنحاريب واوقع بهم فانهزموا اشنع هزيمة تاركين في الميدان قسماً من مركباتهم الحربية وكثيرين من القتلى والجرحى .

ولما درى حزقيا بما حصل اطلق سراح بادي ملك عقرون واسترضى سنحاريب بثلاثمائة وزنة فضة وثلاثين وزنة ذهب. فعاد الى نينوى وكان ذلك سنة ٧٠٢.

اما الحملة الثانية التي حدثت بعد ١٢ سنة من الاولى فسببها ان حزقيا جدد العهد مع ترهاقة ملك مصر الشجاع الذي قتل سباقو وحل محله . فحمل سنحاريب على ارض يهوذا ، وضيق الحصار على اورشليم ولكن وباء حل بجيشه قضى على معظمه فاضطر سنحاريب ان يعود الى نينوى بالفشل سنة ٦٨٩ وقد كتم امر فشله هذا غير ان عدم عودته الى سوريا يؤيد ما ذكر اعلاه .

وفي اواخر ايام سنحاريب هجم عليه ابناه ادرملك وشرآصر وقتلاه بالسيف وهو يصلي لآلهه نسروخ وكان ذلك في ٢٠ كانون الثاني سنة ٦٨١.

وفي رواية بعض المؤرخين ان حيقار الحكيم كان في ايام سنحاريب هذا بل كان وزيره الاول وقصته معروفة متداولة .

٣ — اسرحدون

كان سنحاريب قد اقام حال حياته ابنه البكر اسرحدون ملكاً على بابل ولعل تخصيص ابيه اياه بهذه النعمة كان سبب نقمة اخويه على الاب . فلما بلغ اسرحدون وهو في بابل نبأ اغتيال ابيه اسرع في الحال للانتقام من اخويه ففرا الى جهات الفرات فتبعهما اسرحدون مشياً على الاقدام رغم شدة البرد في شباط . ووقع العراك بين الفريقين فانتصر اسرحدون وتوارى الاخوان في ارمينيا وانطفأت الفتنة بعد عراك دام ٤٢ يوماً (٢٠ ك ٢ — ٢ آذار) وعاد اسرحدون الى العاصمة حيث تسنم العرش في ١٨ آذار سنة ٦٨١ (ادي شير: ١١٥).

على ان هذه الفتنة تركت اثراً سيئاً في المملكة اذ جرأت كثيرين على طلب الاستقلال . ومن هؤلاء كلدان سواحل خليج العجم والفينيقيون على سواحل المتوسط ، فقد نشر الفريقان لواء العصيان وتأهبوا لمحاربة اسرحدون ، فأرسل حملة خضدت شوكة الاولين سنة ٦٨٠ وحملة ثانية سنة ٦٧٩ قضى فيها على قوة الفينيقيين اذ اعتقل ملكهم عبد ملكوت وهو فار وقطع رأسه .

وبعد هذه الحادثة بنحو سبع سنوات ثار السوريون باغراء ترهاقة الحبشي ملك مصر محاولين خلع نير أشور وكان عددهم ٢٢ ملكاً (يوست ١ : ١٠) من اشهرهم بعل ملك صور ومنسى ملك يهوذا فساق اسرحدون حملة عظيمة على سوريا تمكن بها من اخضاع السوريين كلهم . واعتقل منسى ملك يهوذا بسلاسل وارسله الى بابل (٢ اي ٣٣ : ١١—٢٣) . ولما امتنعت صور عليه ترك قوة تحاصرها وقصد مصر لقطع جرثومة الفتنة . فبلغها ثالث تموز وكانت المعركة الفاصلة في ١٦ منه . في نهايتها فاز اسرحدون وتمكن من فتح منف في ١٢ منه حيث اسر الملكة وولي العهد وفر ترهاقة فلم يستطع لحاقه وفي اثناء عودته وضع اثراً على نهر الكلب بجانب رسوم رعمسيس الثاني وتغلت بلاسر الاول وشلمنأصر الثاني (ادي شير ١٢٠) .

٤ — أسور بانيبال

أسور بانيبال هو الابن الصغير لأسرحدون تسنم عرش أشور سنة ٦٦٨ على اثر وفاة ابيه لان اخاه البكر كان قد عين ملكاً لبابل على حياة ابيه ، فكان هذا الملك من اعظم ملوك أشور وفق في معظم حملاته حتى هابه جميع الامم المجاورة .

ومن حروبه التي لها صلة بتاريخ حمص حملته على العرب التي نلخصها عن ادي شير (١ : ١٣٢) .

ان أسور بانيبال بعدما انتهى من اذلال العيلاميين ، وجه غارته على العرب لانهم اعانوا اخاه يوم دارت رحى الحرب جنوبي الفرات وغربيه ، وكان عبياتا ملك العرب اتفق مع ملك النبط في حوران والملك هُوَينة . فعبر الاشوريون الفرات سنة ٦٤٢ واجتازوا الصحراء مارين بتاش وقيدار يقطعون الشجر ويسدون

الآبار ويستاقون المواشي حتى بلغوا الشام ودخلوا دمشق بغنائم وافرة وخرجوا من دمشق ثالث آب متوجهين الى حوران فاستولوا على تلك البلاد بعدما فتحوا حاحولتي واسروا عبيانا وضربوا الجزية على نادان ، وفي رجوعهم نكلوا بمدينتي عكا وأوشا في فينيقية لعصيانهما عليهم . وعادوا الى نينوى بغنائم عظيمة جعلت ثمن الجمل نصف مثقال فضة . هذه الحادثة اهم ما يهمنا الاطلاع عليه من تاريخ أشوربانيبال الذي ملك اكثر من اربعين سنة (٦٦٨—٦٢٧) ليلمح القارىء منه موقف منطقة حمص إبان فوضى السياسة في تلك العصور .

وبعد وفاة بانيبال انحطت دولة أشور ، اذ خلفه بعد وفاته أشور تيليلاتي (دايلي) ولم يترك له اثر يستحق الذكر ثم خلفه سنة ٦٢٠ اخوه سينشاريشكين (سراتوس) الذي في ايامه سقطت دولة أشور على يد الكلدان سنة ٦٠٨.

٥ — غزوة فرعون نخو

في الفترة التي تخللت سقوط الدولة الاشورية وقيام الدولة الكلدانية الجديدة . هاجم البلاد السورية فرعون نخو ملك مصر (٦١٢—٥٩٦) سائراً في الطريق الذي سلكه اسلافه . قاصداً اغتنام الفرصة السانحة للانتقام من أشور ابان ضعفها . فعارضه عند مضيق مجدو يوشيا ملك يهوذا ، ولكنه لم يستطع الوقوف امام الجيش المصري فوقع قتيلاً في المعركة وتشتت جيشه (٢ مل ٢٣ : ٢٩ و ٢ اي ٣٥ : ٢٠) وتابع نخو سيره حتى انتهى الى بلاد حمص فاستولى على قادس ثم اجتاز سوريا الشمالية حتى الفرات واستولى على كركميش ، ولما عاد من حملته الناجحة سنة ٦٠٧ رأى اليهود قد ملّكوا يواحاز بن يوشيا فغضب نخو لتمليكهم الاصغر دون الياقيم الاكبر الذي نصح اباه والشعب ان لا يعارضوا ملك مصر إبان سيره فلم يسمعوا له . فأرسل نخو فريقاً من جنده فاعتقل يواحاز وسيق اليه وهو في ربلة من اعمال حمص . فعزله بعد ثلاثة اشهر من ملكه واقام اخاه الياقيم ملكاً بدله وسماه يوياقيم بعدما اخذ غرامة من اليهود (٢ مل ص ٢٣) وقد اشار الى هذه الحادثة النبيان ارميا (٢٢ : ١٠) وحزقيال (١٩ : ٢) .

ملاحظة — نسبت ربلة الى حماة في سفر الملوك مع انها من اراضي حمص وفي هذا تأييد لما سبق ايراده من ان المدينتين كانتا تحملان اسماً واحداً في القديم وتميز حمص عن حماة احياناً بنسبتها الى مملكة صوبا فيقال « حماة صوبا » واحياناً ترد بلفظ حماة وحدها مجردة كما في هذه الآية (٢ مل ٢٣ : ٣٣).

٦ — حملات نبوخذنصر

نبوخذنصر بن نبوبلاسر هو من اعظم ملوك الدولة الكلدانية الجديدة بلا منازع . كان ابوه نبوبلاسر من اقدم أسر كلدة فولاه أسور بانيبال ملك الاشوريين على بابل . فأحسن ادارة البلاد ونال ثقة الاهلين وحسبوه هو ملكهم العظيم . فلما ضعف امر الاشوريين على ما مرّ بك نال لقب ملك ولكنه ظل خاضعاً لأشور الى سنة ٦١١ فلما اضطرب شأن الدولة الاشورية لم ير بدأً من محالفة الاسكوزيين والماديين على نينوى ، فحاصروها مدة ثلاث سنوات وفيها سراتوس آخر ملوك أشور . فلما رأى هذا ان النجاة غير ممكنة . وأبت نفسه الاستسلام للاعداء ، جمع اثاثه وجميع ماله وأسرته في قصره الخاص واضرم النار فيه فباد وجميع من له ، وكان ذلك سنة ٦٠٨ (ادى شير ص١٣٦—١٤٠) فتقاسم البـــلاد الماديون والكلدان. فأخذ الاولون البلاد الشمالية واخذ نبوبلاسر بعض عيلام وما بين النهرين وسوريا .

واغتنمت مصر فرصة محاصرة نينوى فحملت على سوريا بغية احتلالها وكان ملكها نخو الثاني بن بسياتيك فقتك بيوشيا ملك يهوذا . وبعدما انتصر في مجدو استولى على فارس ووصل بفتوحاته الى الفرات حيث فتح كركميش وكل شمالي سوريا (هيرودوت ك٢ عد ٢٥٩) .

آنئذ اهتم نبوبلاسر لاسترداد اعمال سوريا من نخو . ولكن شيخوخته التي بلغت حدها الاقصى حالت دون ما تمنى . فعهد بذلك الى ابنه نبوخذنصر . فقاد هذا الحملة الى سوريا واصطدم بالجيش المصري عند كركميش . وبالرغم من كثرة عدد الجنود المصريين المؤلفة من مصريين واحباش ويونان ، فاز نبوخذنصر عليهم وكسرهم شر كسرة . وتتبع آثار الفارين حتى آخر سوريا دون ان يجسر

احد من ملوكها على معارضته . ثم تابع سيره الى مصر شاطراً جيشه قسمين ، سيّر احدهما على الساحل والاخير من عبر الاردن. ولكنه لما بلغ حدود مصر اتاه نعي ابيه تخشي حدوث فتنة لوجود دعي للعرش. فعقد عهدة مع ملك مصر وقفل راجعاً الى بابل حيث ضبط الصولجان سنة ٦٠٤ واستقر له الامر .

حملة الثانية — وفي اثناء ذلك انحاز يوياقيم الى مصر . فاستاء منه نبوخذنصر ولكنه كان وقتئذ منهمكاً بشؤون المملكة في الشرق فاكتفى باثارته الكلدان القاطنين في جنوبي بين النهرين والآراميين والموابيين والعموتيين على ملك يهوذا المذكور (٢ مل ٢٤: ١٢ وحز ٢٩: ٨) فضايقوه وطوقوا اورشليم مدة ولكن يوياقيم احسن الدفاع عن عاصمته فلم ينل المحاصرون منها مأرباً . فاضطر اذ ذاك نبوخذنصر ان يقود بنفسه الحملة على يهوذا . فتمكن من فتح المدينة واعتقل يوياقيم بسلاسل من نحاس بغية اخذه الى بابل . غير أن يوياقيم قضى نحبه قبل السفر . فطرحت جثته على الارض كما تنبأ عنه ارميا النبي (٢٢: ١٩) ووضع نبوخذنصر بدلاً منه على عرش يهوذا يهوياكين بن يوياقيم وعاد الى بابل سنة ٦٠٢ .

« نبوخذنصر »

صورته وهو شاب وعلى رأسه خوذة وجدت على خاتم محفوظ في متحف برلين

حملة الثالثة — ولم يطل الوقت على ما ذكر حتى بدت علامات التمرد على يهوياكين بتأثير المصريين . فجهز نبوخذنصر حملته الثالثة على سوريا فاستولى على فلسطين وضبط اورشليم وساق قسماً من اهلها الى بابل . وفيما بين الاسرى كان يهوياكين نفسه الذي ظل في بابل ٣٧ سنة (٢ مل ٢٥: ٢٧) واقام نبوخذنصر صدقيا عم يهوياكين ملكاً بدلاً منه سنة ٥٩٨ .

حملة الرابعة — بعد عشر سنوات مما ذكر ، عصى صدقيا على بابل فأتى نبوخذنصر واخذ المدينة بعدما برّح بها الجوع الشديد (٢ مل ٢٥: ٣) وفرّ صدقيا ليلاً من ثغرة بين السورين الى واد منحدر نحو الجنوب الى طريق اريحا . بغية اجتياز الاردن والاتجاه الى موآب (شرح الملوك ٤: ٤٨٧)

ولم يدر ان الكلدانيين كنوا له على الطريق (مرا ١٩:٤) فطاردوه وادركوه واعتقلوه بدون قتال . اذ انفض رجاله جميعهم من حوله جبناً ويأساً . فاقتيد الى نبوخذنصر الذي كان معسكراً في ربلة فعامله بقسوة اذ قتل ابنيه امامه. ثم قور عينيه واخذه اسيراً الى بابل ، وولى على اليهود جدليا بن احيقام صديق ارميا النبي (٢ مل ٢٥ : ٢٢ وار ٤٠ : ٥) .

ولكن اسمعيل بن نثنيا احد الذراري الملكية الذي لجأ الى بني عمون خوفاً من نبوخذنصر لما عرف باسناد الحكم الى جدليا عـاد الى فلسطين . وفي اثناء وليمة اقامها له جدليا استسنح غفلة منه بعد العشاء فاغتاله وفر الى بلاد العمونيين (ار ٤١ : ٢٢) كما فرّ عدد كبير من اليهود الى مصر خوفاً من الكلدان الذين حملوا عليهم حملة شديدة وسبوا من بقي منهم الى العراق . ثم زحفوا على الموابيين والعمونيين والادوميين فاخضعوهم كلهم (اديشير: ١٤٤ وبورتر ١٤٩—١٥١).

وكانت هذه الحملة آخر ما مني به السوريون ولاسيا الجنوبيون منهم من معارك الكلدان ، ونرى من المفيد تلخيص ماجريات ملوك الدولة الكلدانية قبل الانتقال الى حوادث حمص في ايام الفرس .

كان نبوخذنصر اعظم ملوك الكلدان بل من اشهر ملوك العالم القديم. وقد ذكر في اسفار الملوك والايام وعزرا ونحميا واستير وارميا ودانيال (قاموس الكتاب ٢ : ٤١٢) غير ان حملاته الناجحة اوجدت فيه غروراً عظيماً وعجباً زائداً (دا ٤ : ٣٠) فاصيب بمرض دماغي افقده ادراكه وهـام على وجهه في القفار مـدة سبع سنوات (٥٦٩—٥٦٣) . ومع ان الآثار لم تذكر ذلك صراحة ، فقد وجد رولنسون الماعاً اليها اذ يقول في احد آثاره : « عدة سنوات لم يسرّ قلبي بالسكنى في مملكتي ولم ابن بناء لها بقوتي . . . وفي عبادة مرودوخ الهي لم ارتل . ولم اقدم الضحايا على مذبحه اه » ولكنه قبل موته بمدة عـاد اليه صحوه فملك سنتين ومات فخلفه ابنه « اويل مرودوخ » الذي لم يكن له سطوة ابيه فتنازع السلطة في ايامه فريق الاشراف والكهان ، فثار عليه صهره نرغيلزاصر وقتله وجلس مكانه على العرش بحجة ان اويل مرودوخ اخلى سبيل يهوياكين ملك يهوذا واقامه قهرماناً لبيته (٢مل ٢٥ : ١٧—٣٠ وار٥٢ : ٣١—٣٤).

ثم توفي نرغيلزاصر بعد خمس سنوات من توليه العرش فخلفه ابنـه

لابوسوراكيس وملك تسعة اشهر فقط وقتله نبونهيد زعيم فرقة الاشراف ، وكان هذا واهي العزيمة قليل المبالاة بشؤون الدولة ، فاغتنم كورش هذه السانحة واستولى على بابل سنة ٥٣٨ رغم مدافعة بلشاصر بن نبونهيد الذي دافع بشجاعة فقتل هو وأسر ابوه ونفي الى قرمان وتمت بذلك نبوة ارميا (٥١: ١و٣٢).

ومما يلفت النظر ان ثلاث دول عظيمة شرقية سقطت الواحدة تلو الاخرى في مدة سبعين سنة فقط ، أشور التي انقرضت سنة ٦٠٨ ومادي التي بادت سنة ٥٥٩ وكلدة الثانية التي سحقت سنة ٥٣٨ .

وانما سقطت هـذه الدول من حالق مجدها بسرعة لان ثباتها انما كان بشخصيات ملوكها لا باستعداد اهلها ومراعاتهم النظام الدولي .

فالاولى اخذت تنهار بعد وفاة ملكها الجبار أشور بانيبال الذي ملك ٤٢ سنة (٦٦٨—٦٢٦) .

والثانية بعد موت ملكها العظيم المقدام كياكسار الذي ملك ٤٠ سنة (٦٣٣—٥٩٣) .

والثالثة بعد موت ملكها العظيم نبوخذنصر الذي ملك ٤٣ سنة (٦٠٥—٥٦٢)

ومما لا بد من الاشارة اليه ان وطأة الكلدانيين على سوريا الشمالية كانت خفيفة جداً والمظنون ان حمص في ايامهم كانت حاصلة على حاكم آرامي يدير شؤونها بالحكمة ولم يكن حظ حمص اقل من ذلك في ايام الفرس كما سترى.

٧ — كورش وحمص

بعد سقوط الدولة الكلدانية واستيلاء كورش على جميع ممتلكاتها ، امتدت سلطته الى سوريا كلها وفي جملتها حمص التي لم تبد منها معارضة كسائر مدن الداخلية نظير حلب وحماة ودمشق . كما ان مدن الساحل لم تجد بداً من الاستسلام لسطوة الظافر بعد رؤيتهم خضوع المدن الاخرى .

واظهر كورش من الدهاء والحنكة ما اكسبه عطف السوريين كافة ومن ذلك سماحه للسبيين من اليهود بالعودة الى بلادهم بعد جلاء سبعين سنة . وكان للعدل الفارسي بسطة في القلوب. فعمَّ الاقرار بسيادته سنة ٥٣١ (بيني ١٠٨)

ولم يوجد من يرفع صوته بالاحتجاج او يبتغي الفتنة .

وقد اكتشف العالم هرمز رسام سنة ١٨٧٩ اسطوانة اجر في خرائب بابل ، كتب عليها ٤٥ سطراً اتلفت الايام منها ٢٥ سطراً . وبقي منها ما ترجمته عن الاشورية : ان كثيرين من الملوك المقيمين في الحصون والذين كانوا من قبائل متعددة تسكن ما بين البحرين الاعلى (الروم) والاسفل (خليج العجم) من ملوك سوريا وما وراءها من البلاد غير المعروفة قدموا جزاهم كاملة وترامو على اقدامي ... اما الآلهة التي كانت عندهم فقد اعدتها الى مواضعها وجعلت لها مقراً ثابتاً وجمعت كل شعوبهم وامرت باعادتهم الى بلادهم...

ان الاسرة القديمة الملكية ... قد انقضت سلطتها عند دخولي بابل ظافراً حيث اقمت عرشي في القصر الملكي بسرور وبهجة ومرودوخ الآله العظيم الحارس القديم لابناء بابل ... توطدت بالامان سلطتي الفسيحة الانحاء في بابل واعمال سومير واكاد العديدة...

عنيت باصلاح هيكل مرودوخ الآله العظيم فأمدني بعونه ورثف بي انا كورش الملك المتعبد له وبكمبيز ابني فلذة كبدي وبجيشي الامين فاستطعنا اعادة معبده الى كماله الاول .. اما آلهة سومير واكد التي كان نبونيد يكرمها في اعياد سيد الآلهة مرودوخ العظيم فقد اقمتها مكرمة في معابدها ... (الدبس ٢ . ٦٠٠)

٨ — حمص في ايام كمبيز

مات كورش في احدى معاركه مع التتر سنة ٥٢٩ وخلفه ابنه كمبيز الذي حارب مصر واجتاز جيشه الاصقاع السورية بدون معارض بل انجده الساحليون باسطول رافق جنده البري من البحر . كما ان كثيرين من السوريين تطوعوا في جيشه هذا ، وبينهم نخبة من ابطال حمص . وقد فاز كمبيز على المصريين فبطر واتى ما لا يحمد (هيرودت ٣:١٦) ثم نوى ان يغزو قرطجنة فأبى الفينيقيون مرافقته لمحاربة اخوانهم فيها . فتحول عزمه الى غزو الحبشة غير مبال بما يعترضه من الصعاب . فلما عانى الاهوال في الصحراء لقلة الماء والزاد عاد الى مصر وقد هلك معظم جيشه . فاختل شعوره حتى صدرت منه اعمال لا يعملها الا من اصابه

مس ، ومنها انه حاول الزواج بشقيقته الصغرى فلم يجرأ القضاة على صده فتزوج اخته ثم قتلها (هيرودوت ٣: ٣١) .

وبينما كان كبيز يأتي هـذه الاعمال حصلت ثورة في بابل فأسرع لتدارك الامر . ولكنه عندما وثب على الفرس سقط غمد خنجره فجرحه الخنجر في فخذه. فلم يبال في جرحـه بل تابع سيره بدون مبالاة ، فقاح الجرح وسوّس العظم وامتدت الغنغرينا الى كل الفخذ بسرعة فمات على الطريق في اراضي حمص في قرية دعاها اليونان اغبطانا ، وهي غير اغبطانا مادي (هيرودوت ٣: ٦٢ و ٦٤).

ملاحظة — قال هيرودوت : كان قمبيز قد انذر بنبوءة ان ايامه تنتهي في اغبطانه ، فتوهم انـه يموت هرماً في اغبطانه مادي حيث كانت كنوزه ، ولكن كان المراد من النبوءة اغبطانة سورية . فلما رأى ان جرحه قتال سأل عن اسم المدينة التي كان فيها آنئذ فقيل له انها اغبطانه. . . فاستفاق وفهم معنى النبوءة . فقال هنا يجب ان يفارق قمبيز بن كورش حياته بحسب القدر اهـ .

وبما ان اغبطانه السورية مجهولة الموقع اليوم فقد ظن بعضهم انها في جبل الكرمل ، وظن غيرهم انها في وادي العاصي بين حمص وحماة . ويرى هؤلاء ان السوريين رأوا عظمة اغبطانا المادية وجمال موقعها فبنوا مدينة بهذا الاسم في موضع تؤم من سوريا ، ورجحوا انها على العاصي لاتمام المماثلة بين البلدين القديم والجديد فان اغبطانا المادية بنيت عند حضيض جبل اوروند وهو الجبل الواقع الى الجنوب الغربي من بحر الخزر والى الشمال الشرقي من بابل والله اعلم .

اما اغبطانه المادية فقد روي عنها لاروس الكبير مـا ترجمته : اغبطانه مدينة كبيرة في آسيا القديمة عاصمة مادي وهي على بعد ٢٣٥ كيلومتر الى شمالي سوزس و ٣٦٠ كيلو الى الشمال الشرقي من بابل تعرف في التوراة باسـم « احمثا » ولم يتفق العلماء على معنى هذا الاسم . فيقول هيرودوت ان اغبطانا انشأها ديجوسيز ملك مادي الاول في القرن الثامن ق م. وحسب رواية ديودور الصقلي عن كتازياس ان اصلها يعود الى اقـدم من ذلك الزمن . فتحها كورش سنة ٥٦١ واستولى عليها ايضاً الاسكندر . ونهبت بعد ذلك مراراً وموقعها الحقيقي غـير مؤكد . ويعتقد الكولونيل رولنسون — وهو من المستشرقين اللامعين — انـه وجد مدينتين باسم اغبطانا احداهما في مادي السفلى (وهي همذان الآن) والاخرى في مادي العليا في

خرائب « تخت سليمان » اه ·

٩ ـ حمص في ايام داريوس الاول

كان هـذا الملك من اعظم ملوك الفرس حتى ان بعضهم فوّقهُ على كورش ، هذا رأى بعين البصيرة ان البابليين والاشوريين ما برحوا يطمحون بابصارهم الى ملكهم السابق ، فوضع حداً لاطماعهم بتنظيمه المملكة حسناً ، اذ قسمها الى عشرين ولاية (هيرودوت ٣ : ٨٩) سماها « دهقانات » وفرض على كل ولاية جزية سنوية · وكانت المنطقة السورية خامس هذه الولايات وجزيتها ١٥٠ وزنة من الفضة ، والقبائل العربية الضاربة في البادية السورية الى تخوم مصر خضعت لدهقانات هذه الولاية معفاة من الجزية · وجعل الدهاقنة كلهم من الفرس يعضدهم جند فارسي ومادي · على انه ادخل رهطاً من الرجال السوريين في الجندية الفارسية بغية استمالتهم · وكان للحمصيين حظ من هذا الالتفات ، فاستتب الامن في البلاد ورتعت سورية في بحبوحة من العيش · لوجود عدد من ابنائها عيوناً على من يحاول العبث والفساد ، والضرب على يد كل من سولت له نفسه الاخلال بالامن العام سواء أكان من الحكام ام من السوقة (براستد عد ٢٧٦) ·

ومن آثار هذا الملك الدالة على عظمته ما كتب في اصطخر بامره تخليداً لذكره وملخص ترجمته ما يلي : رأى اهورامزدا الارض التي أئتمنني عليها فنظمت احوالها · ايها الانسان اذا حدثتك نفسك بمعرفة ما ملكه دارا فانظر الى هذه الصورة · انهم يحملونك عرشي فعسى ان تعرفهم · ستعلم اذاً ان رماح رجال فارس قد بلغت مدىً بعيداً ··· كل مـا عملت انما قمت به بفضل اهورامزدا الذي امرني حتى اكملت العمل وارجو ان يحفظني وبيتي وهذه البلاد ·

هذا امر اهورامزدا اليك ايها الانسان : لا تظن سوءاً ، لا تحد عن الطريق السوي ، لا ترتكب اثماً اه (العرب والفرس لعزام : ١٣٠) ·

ومن احاسن صفات داريوس واثره الطيب في بلادنا انه حاسن الفينيقيين فمالوا اليه وبنوا له اسطولاً حربياً عظيماً (براستد عد ٢٨٠) ولكنه لم يتوفق

في محاربة اليونان فأثرت كسرة ماراتون فيه سنة ٤٩٠ ق م فات بعدما ملك ٣٦ سنة (المقتطف ١١ : ٤٩٥ ويورتر عد ١١—١٤) ٠

وقد حاول زركسيس ابنه ان ينتقم له من اليونان فلم يفلح ولم يفده جيشه العظيم شيئاً ازاء وطنية خصومه ٠ وحسب القارىء ان يذكر جواب ليونيداس الاسبارطي على رسالة زركسيس المليئة بالعجب التي قال فيها : ان لم تسلم امطرت السماء عليكم سهاماً ، فأجابه ليونيداس : اذن نقاتلكم في ظل السهام٠ ومما حفظه التاريخ لابطال ترموبيلي الـ ٣٠٠ الذين أبوا التسليم فقتلوا عن آخرهم ونقش على قبودهم : هنا ثلاثمئة اسبارطي قاتلوا ثلاثة ملايين ٠ وكانت هذه الحادثة سنة ٤٨٠ وانتهت بفشل الفرس رغم كثرتهم واخيراً اغتال زركسيس اثنان من اعوانه فمات سنة ٤٦٥ بعدما ملك عشرين سنة ٠ ويرى بعض المحققين ان زركسيس هذا انما هو احشويروش زوج استير اليهودية وهو الذي قسم المملكة الى ١٢٧ ولاية (استير ١ : ٢) وفي زمنه كان هامان المذكور في التوراة والقرآن٠

١٠ — حمص في ايام ارتحشتا

ارتحشتا هو الملقب بالطويل اليد تولى الملك بعد ابيه وفي ايامه كان عزرا ونحميا ٠ وكان ليناً دمث الاخلاق فأطمع لينه المصريين به فتمردوا عليه بقيادة رجل ليبي اسمه ايناروس ايده رجل مصري اسمه امرتيوس ٠ فقتل هذا مرزبان الفرس وحاصرا قوات الفرس في ممفيس ففتحاها بمساعدة الاسطول اليوناني واستوليا على حصونها عدا واحداً منها ٠

فأوفد ملك الفرس مغابيس مرزبان سوريا بجملة قوة انتظم في سلكها عدد من ابطال حمص المغاوير ، فأفرج الحصار عن برج ممفيس وخضد شوكة الثائرين فاستسلم ايناروس لمغابيس بعدما أمّنه وارسله القائد الى الملك٠ ولكن هذا باستسلامه الى عاطفته الثائرة امر بصلب المستسلم خلافاً للاصول وللعهد الذي ناله من القائد مغابيس ٠ فثار هذا وثارت معه سوريا برمتها سنة ٤٥٥ فبعث اليه ارتحشتا بسرية من الجند لتطويعه فكسرها ٠ واردفها باخرى فلم يكن حظها افضل من الاولى ٠ ولما تفاقم الامر وخشي الملك الفارسي النتيجة

اضطر ان يسترضي مغابيس راضياً بالشروط التي املاها عليه تلافياً للفتنة ، ومات هذا الملك سنة ٤٢٥ بعدما ملك اربعين سنة (بورتر ص ١٦٨) .

١١ — فساد الاعاظم وثورة ابن مغابيس

خلف ارتحشستا ابنه زركسيس الثاني وهو الابن الوحيد الذي كان له من زوجته الشرعية . اما اولاده الباقون وعددهم ١٨ فقد كانوا من الجواري لذلك حصلت فتنة قتل فيها زركسيس بعدما ملك ٤٥ يوماً وخلفه محله اخوه سغديان الذي قتله . ولكن ملك هذا لم يطل اكثر من نصف سنة . اذ قام عليه اخوه اوخوس وقتله وملك مكانه باسم داريوس الثاني في حين ان اليونان اعطوه لقب « نوثوس » اي النغل ، ورأى ان مركزه قلق فتزوج عمته بنت زركسيس الاول . وكان الرأي لها في شؤون الدولة ، غير ان وجود خونة كثيرين في المملكة ادى لحدوث فتن كثيرة وسبب كثرة الخونة تسليمه المرازبة قيادة الجيش في الولايات . واقامته مرزباناً واحداً لولايتين او اكثر في احيان كثيرة . الامر الذي قوى المرازبة واطمعهم بالاستقلال ومن هؤلاء احد اولاد مغابيس مرزبان سوريا السابق الذي اتفق مع احد اخوة الملك وثارا معاً عليه . فوعدهما بانالتهما ما يريدان اذا اخلدا الى السكون والطاعة فاستسلما فقتلهما . فكان ذلك مدعاة لتفاقم الشر والفساد الذي بدأ في اواخر ايام زركسيس الاول وبلغ غايته في ايام داريوس الثاني (المقتطف ٢٣ : ٦٢٩) الذي مات سنة ٤٠٥ بعدما ملك عشرين سنة .

١٢ — ثورة سوريا في ايام ارتحشستا الثاني

لما مات داريوس الثاني الملقب نوثوس خلفه ابنه ارتحشستا الثاني بعد حرب دامية بينه وبين اخيه كورش قتل في نهايتها اخوه المذكور سنة ٤٠١ واستتب الملك لارتحشستا الذي لقبه اليونان منيمون لقوة ذاكرته (البستاني ٢ ٧٨٢) ولم يكن حظ الدولة به حسناً ، اذ لو نجا كورش بحياته في معركة كوناكسا (كما قال

بورتر ص ١٧١) وتولى الملك لساس الدولة بنشاط وحكمة وجدد حياتها ورفعها من حضيض ذلها. لان اخاه ارتحشستا كان مولعاً بالتنعم والرفاهية فتأخرت المملكة في ايامه وظلت تتدهور حتى خربت .

كثرت الخيانة في الولايات ولاسيا سنة ٣٦٢ حينا خرج الجانب الاعظم من آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا . وقويت مصر وقام ملكها تلخوس وهاجم سوريا التي مالت لكسر نير الفرس . فالأته على غرضه . لكن نكوله بوعده لاجيسلاس الاسبارطي القائد المدرب . وتسليمه قيادة الجيش لخابرياس ادّى الى فشله في الساحل الفينيقي ، فتنازل عن عرش مصر ولجأ الى ارتحشستا نفسه ثم قتل عند اسوار طانيس سنة ٣٦٠ ومات بعده ارتحشستا سنة ٣٥٩ لمضي ٤٦ سنة من ملكه وعمره ٩٤ سنة (بورتر ص ١٧٩) وخلفه ابنه الصغير اوخوس بعد قتل اخيه الاكبر (داريوس) وانتحار الثاني (ارياسيس) .

١٣ — عصيان تانيس والي فينيقية

ملك اوخوس سنة ٣٥٩ باسم ارتحشستا الثاني وقد اهلك كل ذكر في اسرته ليأمن على نفسه ، فكرهه الجميع اذ ضم الى قباحة وجهه شناعة افعاله ؛ فثار عليه اهالي قبرص وآسيا الصغرى وفينيقية ، فاسترد قبرص الى الطاعة ولكن جنوده انكسرت في سوريا فثار غضبه وحشد من اقاليمه ٣٠٠ الف مقاتل عززها بعشرة آلاف محارب استأجرها من اليونان وهاجم سوريا ففاز في عدة معارك واكره تانيس ان يعتصم في صيدا فحاصرها بشدة فطلب اهلها الامان فأباه عليهم فآثروا الاحتراق في بيوتهم على ان يدوس عزتهم الفرس وكان عددهم ٤٠ الفاً سنة ٣٤٦ .

ولم يكن اوخوس ذاك الرجل الذي يستطيع اخماد الفتن واخضاع العصاة ، لو لم يكن حوله مشيران قديران وهما باغواس الخصي ومنتور اليوناني . اذ كان الاول وزيره الاعظم والثاني قائد كتائبه . وبهما استطاع اعادة تخوم مملكته الى ما كانت عليه ، وتفاخر بانه خليفة كورش وداريوس الاول .

على ان ما اظهره من الظلم والجور كرّه الناس به وملأ قلوبهم حقداً

عليه ، فنقم عليه باغواس وقتله سنة ٣٣٨ بعدما ملك ٢١ سنة .

١٤ ـ تقلص ظل الفرس عن سوريا

قتل باغواس ارتحشستا الثالث واقام على العرش اصغر بنيه « ارسيس » واهلك سائر ابناء الملك ، ولما حاول ارسيس خلع باغواس خشية فتكه قتله باغواس سنة ٣٢٦ واقام مكانه احد حفدة داريوس الثاني المدعو قدومانوس فلما تسنم السدة سمي داريوس الثالث ، وكان هذا على رأي بورتر من افضل ملوك الفرس خلقاً ، ولولا الظروف الداخلية والخارجية التي اوجدت الدولة على شفا جرف هار لأيّد المملكة ورقاها ولكن سقوطها حان فلم يستطع رد القضاء الجازم.

وكان توسده العرش في نفس السنة التي ملك فيها اسكندر المكدوني. ولا حاجة لتفصيل مقاصد الاسكندر من فتح العالم فانه بعدما بسط سيطرته على شرقي اوربا امتد الى آسيا فوقف داريوس في وجهه فشتت الاسكندر قواته عند الدردنيل ثم استحوذ على آسيا الصغرى كلها وتقابلت جيوش اليونان والفرس عند خليج ايسوس حيث استظهر اسكندر على داريوس ووقعت اسرة الملك في اسره فعاملهم بلطف ورقة ، وقال اني احارب داريوس لا كرهاً بشخصه بل لاملك آسيا ، وكانت معركة ايسوس سنة ٣٣٣ .

وارسل داريوس يطلب اسرته على ان يقدم فدية عنها عشرة آلاف وزنة ويعطيه ابنته زوجة ، ويسلمه كل ما هو غربي الفرات . فلم يقبل الاسكندر بسوى التسليم التام . وبعدما اجتاح الاسكندر سوريا ومصر عاد الى مطاردة الفرس ، وفي المعركة التاريخية التي وقعت في اربيل سنة ٣٣١ قضي على الفرس القضاء الاخير وفرّ داريوس وقد واراه الغبار عن نظر اسكندر. ولاذ باغبطانه عاصمة مادي فتبعه الاسكندر اليها ففر منها الى بكتريا (بلخ) فتابع اسكندر مطاردته يبغي اعتقاله حياً ، وخشي قادة الفرس ان يدركهم الاسكندر فقتلوا داريوس وتركوه في البرية ، فحزن عليه الاسكندر حزناً شديداً وامر بتحنيط جثته وارسالها الى والدته لتدفنها حسب عادة ملوك الفرس في اجداث اسلافه ، وكان مقتل داريوس سنة ٣٣٠ .

المدن التي برزت في تاريخ هذه الحقبة

١) اغبطانه

ورد في الجغرافيات القديمة ذكر ثلاث مدن بهذه الاسم الاولى عاصمة مادي وموقعها الى الشمال من سوز مسافة ٢٣٥ كيلو والى الشمال الشرقي من بابل مسافة ٣٦٠ كيلو وتعرف في التوراة باسم احمثا واسمها الآن همذان والثانية في مادي العليا وتعرف الآن باسم «تخت سليمان» وهما اللتان يذكرهما الاثريون.

ولكن ثمة اغبطانا ثالثة وهي اغبطانا السورية التي مات فيها كمبيز بن كورش وهو عائد جريحاً الى بلاده ، وقد فهم من وصف هيرودوت ان موقعها على العاصي ما بين حمص وحماة .

ويظن بعضهم ان الحمصيين بنوها بعدما رأوا اغبطانه الاولى الواقعة عند لحف جبل اوروند . وسموها باسمها لتشابه الناحيتين والله اعلم .

٢) تفسح

ذكرت عند مطاردة اسكندر المكدوني لداريوس قدماتوس وموقعها على ضفة الفرات الغربية . وقد ذكرت في سفر الملوك الاول (٤ : ٢٤) كحد اخير للمملكة سليمان في الشمال . كما جعلت غزة حدها الجنوبي .

٣) ربلة

ذكرت في تاريخ حمص بداعي اسر نخو ليهواحاز ملك يهوذا فيها (٢مل ٢٣ : ٣٣) وقتل ابناء الملك صدقيا فيها بعد قلع عينيه بامر نبوخذنصر (٢مل ٢٥ : ٦ وار ٣٩ : ٥ و٦ و٥٢ : ٩—٢٧) .

والاثريون رأوا انها ربلة الحالية الواقعة قرب ضفة العاصي على مسافة

٢٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من حمص .

وقد وصفها سفر العدد (٣٤ : ١١) بانها شرقي عين ولا شك ان المراد بهذه العين ، العين الكبيرة التي ينبجس منها نهر العاصي . وهي الى جنوب قاموع الهرمل وتسمى الآن العين الزرقاء او نبع العاصي . تبعد عن ربلة ١٧ ميلاً الى الجنوب الغربي .

٤) سفروايم

مدينة ورد ذكرها في هـــذه الحقبة بمناسبة نقل ملك أشور قسم من اهلها لاسكانهم في السامرة بدل من جلاهم من الاسرائيليين (٢ مل ١٧ : ٢٤ و٣٠ و٣١) .

وذكرهم سنحاريب في رسالته الى حزقيا ملك اليهودية كقوم لا يستطيعون مقاومتهم (٢ مل ١٨ : ٣٤ و١٩ : ٣١) .

ويرى روبنصون انها مدينة بنيت على ضفتي الفرات بين جت وبابل اسم شطرها الاول سبيارا شمس (المكرسة للشمس) والثاني سبيارا انونيت (المكرسة لانونيت) وكان فيها مكتبة تشبه مكتبة نينوى وقد بنيت على انقاضها مدينة المسيب الحالية .

٥) عوّا

ذكرت بين المدن التي نقل بعض اهلها الى السامرة . ويظن روبنصون انها هيت التي على الفرات .

٦) هينع

مدينة استولى عليها ملك أشور ويظن انها اناك الواقعة على الفرات وتبعد على بابل مئتي ميل .

خلاصة الحوادث

كما عانت حمص في الحقبة الثانية مناهضة الدولة المصرية . وفي الحقبة الثالثة محاربة العبرانيين اولاً والاشوريين ثانياً. اضطرت في هذه الحقبة ان تعنو لثلاث دول قوية تتابع حكمها على سوريا كلها وحمص من جملتها واذا حوصر المرء وانقطع عنه المدد لا بدّ له من اختيار احدى اثنتين ، اما التسليم للقضاء الذي لا مرد له او الموت .

اما حمص فقد استطاعت ان تقف في وجه الجيوش الاشورية وتوقف تقدمها مدة ثلاثة قرون ونصف ، ولكنها بعدما تبددت قواتها وانفردت عن سائر المقاطعات السورية ، مالت الى الهدوء والسكينة . وعنت للقوى الاشورية الغازية . اذ اجتاح البلاد سنة ٧١٩ سرجون وقهر ياهوبيد ملك حماة (او حمص) ثم تتالت هجمات خلفائه سنحاريب وأسرحدون وأشور بانيبال . فخضدت بهذه الحملات شوكة الحمصيين . الذين كانوا ينالون دائماً الصفعة الاولى . فعنوا لاحكام الفاتحين كسائر اجزاء سوريا .

وقبل تقلص ظل الدولة الاشورية ، هاجمها فرعون نخو ملك مصر . واستولى على سوريا الشمالية حتى الفرات . وفي ربلة احدى اجناد حمص اوثق يهواحاز ملك يهوذا ، واخذه اسيراً الى مصر حيث قضى فيها .

وظل نخو باسطاً سيطرته على سوريا ثلاث سنوات . ثم قلّص ظله عنها نبوخذنصر العظيم ملك الكلدان . الذي استولى على

أشور ودانت له البلاد التي كانت تحت سلطتها . وظلت سيادة الكلدان فيها نحو سبعين سنة (٦٠٦–٥٣٦) حينما تحولت السيادة على سوريا الى الفرس بواسطة كورش الفارسي الكبير . واظهر ملوك الفرس ميلاً خاصاً لسوريا ولاسيا حمص اذ اعفوا بدوَها من تأدية الرسوم . ولم يتقاضوا من سوريا كلها (بما فيه قبرص) ثلث ما تقاضوه من غيرها من الولايات العشرين .

كما ان كمبيز بن كورش لما جرح في مصر احب ان يقضي آخر حياته في اغبطانه السورية التي يرجح انها احدى مدائن حمص المبنية على اورانتس (العاصي) .

وثارت سوريا في اواخر ايام الفرس ثلاث مرات احداها سنة ٤٥٥ وكان رافع لوائها مغابيس والي سوريا. والثانية سنة ٣٦٢ في ايام تاخوس المصري. والثالثة سنة ٣٤٦ بقيادة تانيس والي فينيقية وفي الثورات الثلاث العادلة كان للحمصيين فيها يد نافذة . وانما ظهرت هذه الثورات ، لما تقلص ظل العدل الفارسي وتطرق الفساد الى الحكم منذ ترركسيس حتى قدمانوس الذي تم انهيار الدولة الفارسية في ايامه . وتحولت السيادة الى اسكندر المكدوني وخلفائه .

وفي هذه الحقبة حلت اللغة الآرامية محل اللغة الكنعانية . غير انها احتفظت ببعض الفاظ عبرانية . وبرزت في هذه الحقبة عدة مدن لها صلة قريبة او بعيدة بحمص منها اغبطانه وتفسخ وربلة وسفروايم وعواً وهينع وهذه المدن وان اندثر معظمها غير ان الآثار والتواريخ القيمة حفظت لنا اسماؤها .

الملحوظة الى تاريخ مختص من كتاب هذه الحقبة

١) ارميا الحزين (٦٢٨–٥٨٦)

هو ابن حلقيا اللاوي ولد في عناثوت من منطقة بنيامين. ومنذ صغره مال قلبه لخدمة الله فظهر نبوغه منذ حداثته وقام بواجب النبوة قبل خراب اورشليم باربعين سنة وتابع ذلك الى ما بعد السبي البابلي.

عمل الخير لاهله اولاً ثم لابناء وطنه فلم يقدروا له غيرته وحاولوا قتله فنجا.

وكان اليهود في خطر من جهتين. مصر من الجنوب وأشور من الشمال ففضل بعضهم مصر وآخرون أشور، فنصحهم ارميا ان يعتصموا بالله غير ان يوشيا مال الى أشور وعارض مصر فقتل.

ولما عظم شأن نبوخذنصر زحف على فرعون نخو وقهره وسطا على اليهود فصار يهوياقيم عبداً له. فاخبرهم ان ما اصيبوا به من الذل انما هو نتيجة زيغهم وغوايتهم فثاروا عليه والقوه في الجب. ولكان هلك لولم ينقذه رجل كوشي.

بعد مدة جاء نبوخذنصر الى اورشليم واسر ملكها وكثيرين من الاعيان هناك نظم ارميا مرثاته المؤثرة التي ناح فيها على خراب ارض آبائه فاحسن اليه جدليا الذي اقامه نبوخذنصر حاكماً في اورشليم. ولكن هذا قتل في احدى الولائم نخاف اليهود النتيجة. ففروا الى مصر واخذوا معهم ارميا بالرغم منه. فوبخهم هناك لاجل انكبابهم على عبادة الاصنام فثاروا عليه ورجموه.

املى ارميا سفر نبوته على كاتبه باروخ بالعبرانية التي وجد فيها بعض عبارات كلدانية (ص١٠عد١١) ولنشاؤه يرتفع تارة الى طبقة النظم العالي، وينزل اخرى الى درجة النثر الساذج. لكن هذه السذاجة لم تخله من معنى سام ومقصد دقيق.

اما لغة مراثيه فاعلى طبقة من سفره. وقد نظم كلا من فصولها الثلاثة (١و٢و٤و٥) ٢٢ بيتاً صدر كل بيت منها باحد حروف الهجاء العبرانية. غير

ان الفصل الثالث بلغت ابياته ٦٦ في صدر كل ثلاثة منها حرف هجاء . اما الفصل الخامس فنظمه ٢٢ بيتاً بدون ان يتقيد كل منها بحرف هجاء .

وقد نسب جمهرة من الكتاب الى ارميا سفري الملوك الاول والثاني واستدلوا على ذلك بما يلي :

١) ان سفري صموئيل خلصت عبرانيتهما من الالفاظ والاساليب الاعجمية بينما مازج سفري الملوك الفاظ كلدانية .

٢) كاتب سفري صموئيل صرف عنايته الى تدوين اخبار الاشخاص والتبسط فيها ، بين كاتب سفري الملوك اوجز العبارة واهتم بتدوين الحوادث اكثر من الاشخاص .

٣) قلت الاشارة في سفري صموئيل الى اسفار موسى بينما سفرا الملوك اكثرا من الاستشهاد بها .

٤) اشير في سفري الملوك الى السبي مراراً بينما خلا سفرا صموئيل من ذلك . وقد افادنا كثيراً سفرا الملوك عموماً وسفر ارميا خصوصاً الى معلومات دوناها في تاريخ حمص .

٢) حزقيال (٦٢٤—٥٧١)

هو ابن بوزي عاصر ارميا ودانيال . سبي الى بابل وهو صغير اذ كان تابعاً ليكنيا . وشرع في السنة الخامسة لسبيه يتنبأ فاخبر رفقاءه بالمصائب المحدقة باورشليم . وفي السنة الخامسة والعشرين لسبيه وصف الهيكل الجديد الذي سيقام في اورشليم بعد تحرر شعبه ، وكانت هذه النبوة آخر نبوآته ، اذ لم يرد له ذكر بعد السنة السابعة والعشرين (٢٩ : ١٧) ويروى ان احد الامراء المسبيين قتله لانه وبخه على عبادة الاصنام .

كان حزقيال اقل حظاً من ارميا ودانيال . لان الاول تركه الكلدان في وطنه يندب سوء حاله . والثاني توفق في مساعدة شعبه واعادتهم الى وطنهم . اما حزقيال فقد عاش كل حياته منغصاً اذ سبي معهم ولم يدرك النجاة فاحتمل ضيقة الجلاء بصبر جميل .

قال فيه الاستاذ هايد : انه لم يكن فقيهاً كاشعيا ولا مصلحاً كارميا ولا اميراً كدانيال ، ولكنه تصرف ككاهن في كل اعماله . وسمي ابن آدم اكثر من مئة مرة ، ولم يطلق هذا اللقب على سواه من الانبياء عدا دانيال الذي لقب به مرة واحدة (دا ٨ : ١٧) وانما تكرر هذا اللقب لحزقيال للدلالة على انه كان للسبيين لا شاهداً فحسب ، بل كان كاهناً مكرماً بل كابن الانسان نفسه اهـ .

من آثار حزقيال العلمية سفره القيم المتضمن ٤٨ فصلاً . ويمتاز ببساطة كلامه . لكنه حوى مع هذا من التشابيه والرموز الطبقة العليا الآخذة بمجامع القلوب تولي قارئها دهشاً وعجباً .

ومما له صلة بتاريخ حمص ذكره صدد احدى البلاد التابعة حمص ، ولد حزقيال سنة ٦٢٤ ودعي الى النبوة سنة ٥٩٣ فباشرها مدة ٢٢ سنة ومات قتلاً سنة ٥٧١ .

٣) دانيال (٦٢٢-٥٣٤)

من اعظم بيوتات يهوذا سبي وهو صغير الى بابل لما سبا نبوخذنصر يهوذا لاول مرة . فادخل مع الفتيان الثلاثة الى مدارس كلدة حيث اتقن لغتهم وتفقه بعلومهم . فانخرط في سلك خدمة الحكومة . ونال منزلة خاصة عند نبوخذنصر عندما احسن تعبير حلم له . ولم يذكر بعد نبوخذنصر في ايام خلفه ولا ايام من خلف خلفه . ولكنه ذكر في ايام بلشاصر آخر ملوك بابل حينما تنبأ له بسقوط المملكة . ولما غلب الماديون والفرس المتحدون على بابل . نال في ايام داريوس المادي كرامة فائقة اذ جعل اول الوزراء الثلاثة في الدولة . فحسده اعداؤه واوغروا عليه صدر الملك فطرحه في جب الاسود . فنجا كما باعجوبة فاكسبه ذلك نفوذاً عظيماً مكنه من التوسط لاعادة شعبه الى اوطانهم ، ثم مات شيخاً وعمره ٨٨ سنة .

امـا سفره فقد كتب بالعبرانية الا ما تضمن حديثه عن ملوك بابل ومادي وفارس ومنشور نبوخذنصر فقد كتبه بالكلدانية (ص ٢ : ٤-٧) .

وقد حوى سفره ما سكت عنه سواه من المؤرخين وظل موضع شك لدى القارئين حتى ايدته الآثار . واستفدنا منه لموضوعنا في نقاط كثيرة مما حدث من ايام نبوخذنصر الى كورش الفارسي .

٤) مردخاي (٥٢١-٤٩٥)

مردخاي بن يائير من مسبيي اليهود كان من رجال بلاط احشويروش ربى ابنة عمه هدسه « استير » حتى صارت ملكة . فحقد عليه هامان وزير احشويروش وحاول اهلاك اليهود بحيلة ليقتل مردخاي معه . فعرفت الملكة قصده الخبيث فاحبطت سعيه بحكمتها . واعيد كيد هامان الى نحره فصلب مع اولاده العشرة . وارتقى مردخاي الى منصب عال في الدولة .

ويرجح الخبراء ان سفر استير انما اخذ عن سجلات الحكومة التي حفظت مذكرات مردخاي واستير .

عبارة السفر صحيحة مضبوطة لكن فيها ما يدل على ان لغته عبرانية حديثة لامتيازها عن سائر الاسفار بما فيها من كلام محدث وتضمن السفر تاريخ ٢٦ سنة (٥٢١—٤٩٥) وفيه ما تهم معرفته عن الفرس الذين بسطوا سيطرتهم على حمص مدة طويلة .

٥) زكريا (٥٢٠)

هو ابن برخيا بن عدو احد الكهنة الذين صعدوا من بابل الى اورشليم مع زربابل (نح ١٢ : ٤ و٦) وقد نسبه عزرا الى جده عدو (٥ : ١ و٦ : ١٤) لان اباه برخيا كان قد توفي .

عاصر زكريا حجي غير ان سفره اوسع نطاقاً من ذاك . وقد شرع فيه وهو فتى بعد (٢ : ٤) بعد شروع حجي بنحو شهرين سنة ٥٢٠ وقد فاق زكريا بصراحته جميع كتاب العهد القديم عدا اشعيا . اما لغة سفره فهي العبرانية التي مازجها احياناً عبارات كلدانية . ويبدو انشاؤه تارة نظماً مقفًى واخرى نثراً . لكن

السفر بالاجمال مليء بضروب الفصاحة وانواع الكنايات والاحاجي التي كانت نقطة تأويلات كثيرة .

ومما له صلة بتاريخ حمص كلامه عن حدراك (٩ : ١) وهي احدى المدن التابعة لمملكة آرام المتحدة . وقد ظل موقعها مجهولاً زمناً طويلاً الى ان حققته الآثار فاذا بها مدينة كانت في سهل البقاع .

واستدل بعضهم من الفقرة التي تلتها ان حماة المذكورة فيها انما هي حمص لقوله : « وحي كلمة الرب في ارض حدراخ ودمشق محله لان للرب عين الانسان وكل اسباط اسرائيل . وحماة ايضاً متاخمتها وصور وصيدون الحكيمة جداً » فان حمص اقرب الى حدراك فهي اجدر بان يقال فيها متاخمتها في حين ان حماة تبعد عنها نحو ثلاث مراحل فتأمل .

٦) عزرا « ونحميا » (٥٥٤—٤٣٤)

هو عزرا بن سرايا ابن حلقيا يتصل نسبه بالعازر بن هرون . كان ماهراً في سنّة موسى عاملاً بها عاش معظم حياته في بابل . فلما سمح كورش للاسرائيليين بالعودة الى بلادهم بقيادة زربابل سنة ٥٣٨ كان شاباً وظن بعضهم انه رافق زربابل الى اورشليم ثم عاد الى بابل فبقي فيها الى ايام ارتحششتا الذي قربه اليه لما آنس فيه من ذكاء وخبرة واسعة ، فاستأذنه بالسفر الى اورشليم فسمح له في السنة السابعة من ملكه سنة ٤٥٧ فاصلح ما رآه من الخلل مادة ومعنى . وبقيت له السلطة النافذة في اورشليم حتى حضر اليها نحميا من قبل ارتحششتا سنة ٤٤٥ فتخلى عن السلطة المدنية واكتفى بالسيادة الدينية .

وقام نحميا بالعمل العظيم الذي كان له الحظ باتمامه من بناء السور والابراج رغم معارضة حساد اسرائيل له ، ثم عـاد الى بابل بعدما قضى في اورشليم ١٢ سنة ، ولكنه ما كاد يستقر فيها حتى وصلته انباء محزنة عن انحراف الاسرائيليين عن جادة الصواب بعد وفاة عزرا سنة ٤٣٤ فاضطر ان يستأنف العودة الى اورشليم باذن ارتحششتا سنة ٤٣٣ لاصلاح ما اختل وانشأ مكتبة جمع فيها اخبار الملوك والانبياء واقامها في الهيكل (٢مك ٢ : ١٣) وتوفي نحميا

نحو سنة ٤١٥ .

شغل عزرا مركزاً مهماً في امته اذ انشأ المجمع الكبير. وجمع اسفار العهد القديم كلها في كتاب واحد . وضم اليها سفر الايام الذي هو خلاصة التواريخ الاسرائيلية من آدم الى رجوع اليهود من السبي البابلي . واضاف اليه حوادث ايامه في سفر سمي سفر عزرا فيه تاريخ ٨٠ سنة وقد جمع اخبار الايام من اسفار موسى وصموئيل ومذكرات ناثان النبي وجاد الرائي واخيا الشيلوني ، ورؤى يعدو وشميا وياهو بن حناني واشعيا وسواهم من الرواة ، وقد ضمن الفصول التسعة الاول جداول انساب الاسرائيليين الى ايام الملوك . ثم اتى على اهم الحوادث التي وليت ذلك ويلاحظ انه اضرب عما ذكر في الملوك من تاريخ ملوك اسرائيل الا ما اضطره اليه تاريخ ملوك يهوذا . وسد ما في تاريخ هؤلاء من النقص .

ومما يمتاز به سفر الايام عن اسفار الملوك ١) جداول النسب من آدم الى آصيل سنة ١٢٠٠ ق‌م ٢) انه يهتم اهتماماً خاصاً بالهيكل وفرائضه وخدامه ٣) ذكره النتائج الروحية للحوادث الجارية بينما سواه يتركها لاستنتاج القراء . وقد رأينا في سفري الايام مصدراً هاماً لمعلوماتنا الخاصة استقيناها منه ومن سفري عزرا ونحميا اللذين حويا تاريخ مئة سنة تقريباً (٥٣٦—٤٣٤) .

٧) هيكاثاوس (٥٥٠ ٤٧٦)

راوية تاريخي جمع في تاريخه اهم واقدم مـا ظهر فيه ادب اليونان في الشطر الثاني للقرن السادس واول القرن الخامس . وقد همنا تاريخه اذ افادنا بتبيانه عوامل بروز الامتين اليونانية والفارسية . ونشأة دولتيهما العظيمتين المتزاحمتين على السيادة العالمية . وقد وضع مؤلفه على منوال تاريخي اخرج به الرواية من الاثر الضئيل الى البيان الوافي .

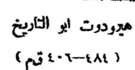
قال فيه براستد عد ٢٨٣ : قام رجل من ميليتس ومن علماء الجغرافية اسمه هكاثاوس امعن في السياحة في الارض التي كانت معروفة في عصره . فجاء مصر وساح في وادي النيل والف كتاباً في جغرافية العالم جاعلاً البحر

المتوسط مركزاً للعالم وكانت الارض المحيطة به حتى امد قصير من ساحله ، كل ما كان يعرفه المؤلف من الارض . والف هكاتاوس تاريخاً سداه اساطير اليونان القديمة ولحمته حكايات الاجيال الغابرة التي كان قد سمعها في الشرق وهو — بعد المؤرخ العبراني المجهول — اقدم مؤرخ من ابناء العالم القديم اه .

وما نقله من الاساطير والروايات كشف النقاب عن معميات التاريخ واثار بعض الظلمات من تاريخ حمص القديم .

٨) هيرودوت (٤٨٤-٤٠٦)

هو الملقب بابي التاريخ . ولد في هاليكرناس وتلقى علومه فيها . وحفظ قصائد هوميروس . ثم رحل مراراً الى الاقطار الشاسعة وعاد الى وطنه . وظل كذلك حتى بلغ السابعة والثلاثين من عمره . فانتقل اذ ذاك الى اثينا فقوبل بحفاوة واكرم بالهدايا . وكان هيرودوت يطوف المدن اليونانية يتلو عليهم ما كتبه ويقص ما شاهده من الغرائب . وتعرف اثناء ذلك بالشاعر المبدع صوفوكليس . فمدحه هذا بقصيدة عامرة الابيات اكسبته شهرة واسعة . واتصل بكبار نوابغ اليونان فاستفاد من معاشرتهم ما مكنه من تنقيح كتابه الذي قضى في مراجعته عشرين سنة .



هيرودوت ابو التاريخ

(٤٨٤—٤٠٦ ق م)

ولما استثقل حياة البذخ في اثينا هجرها مع الجالية التي بعث بها بيركليس الى ايطاليا سنة ٤٤٣ وكان معه عصبة من رجال الادب . فاضاف الى تاريخه عدة اضافات قيل انها بلغت مقدار نصف الكتاب . وحدثت في اثناء ذلك فتنة بين الطليان ومهاجري اليونان قضى هيرودوت على اثرها وعمره نحو ٩٠ سنة على رواية و٧٧ على رواية اخرى . وقال بعضهم بل لم يتجاوز الستين (المقتطف ٢١ : ٨١) .

وقد ذكر هيرودوت منطقة حمص في تاريخه مراراً ومنها ١) عند تخلي

نحو عن اتمام العمل في الترعة (ك ٢ : ١٥٨—١٦٠) و٢) عندما اراد كمبيز الزحف على مصر (ك ٣ : ٥) ٣) موت كمبيز في اغبطانة السورية التي يرجح انها احدى مدن منطقة العاصي (ك ٣ : ٦٤) و٤) اشارته الى حث وقادس (ك ٤ : ٨)الخ .

٩) توسيديديس (٤٧١ ٣٩٥)

هو مؤرخ يوناني مشهور شهد الحرب البيلوبونيسية (٤٣١—٤٠٤) وتولى قيادة الجيوش في اولها · ولكنه لم ينل حظوة عند الاثينويين فابعدوه · فكان ذلك من حظ التاريخ· لأنه ألف وهو في منفاه تاريخ تلك الحرب العظيمة · ومات قبل ان ينجز تاريخه · فكان ما ألفه موضع اعجاب المؤرخين الحدثاء لما ابدى فيه من الامانة في الرواية ، ودقة النظر في بيان الاسباب الخفية والنواميس الطبيعية (البستاني ٦ : ٣٣٨) ·

قال فيه براستد (عد ٦١٢) كان تاريخ هيرودوت قبله يعزو مقدرات الامم وحظوظها الى الآلهة · اما توسيديديس الذي نظر الى حقيقة الاشياء نظراً ثاقباً ، فقد تتبع الحوادث التاريخية وردها الى اسبابها الطبيعية بين الاقوام الذين حدثت بينهم · وكانت مكاتب المهذبين اليونان تحتوي هذين السفرين اللذين كتب احدهما قبل الآخر بثلاثين سنة لا غير · ولكن الفرق عظيم بين السفرين القديم والحديث· فان الاخير عدّ من انفس ذخائر كتب النثر في العالم كله اه·

وقال فيه ميار (عد ٢٥٩) ان اعظم خطباء العصور الحديثة ومؤرخيها يجتهدون في درس ما كتبه ذلك الاثينوي العظيم للاستفادة منه· وكان ديموستين يكرر قراءة كتاباته لتحسين انشائه اه ·

طبع تاريخه لاول مرة سنة ١٥٠٢ في البندقية وترجم الى الانكليزية· وطبع في لندن سنة ١٥٥٠ ثم توالى طبعه بعد ذلك·

وفي ما كتبه هذا المؤرخ الدقيق عدة عبر لها مساس بوقف المشارقة عموماً ومن سكن البقعة الحمصية خصوصاً · ومما استحسنه من قدماء اليونان وظل اثره ظاهراً في حمص الى امد غير بعيد قوله : خير النساء من قل الكلام فيها بين الرجال خيراً كان ام شراً (مايار عد ٣٨٠) .

١٠) زنيفون «اكسانيفون» (٤٤٥—٣٥٥)

لم يتح لتوسيديديس اتمام تاريخه فاهتم زينفون باتمام ما حرمه اياه القدر . لكن التفاوت الكبير بين انشاء الرجلين والمقدرة التاريخية كادت تخسره مكانته لولا انه توفق الى نيل الشهرة بمؤلفه الشهير «اناباسيس» الذي وضعه لتاريخ الحملة الحربية المؤلفة من عشرة آلاف يوناني التي قادها زنيفون نفسه انتصاراً لكورش الثاني سنة ٤٠١ فانه صور فيها بوصف دقيق فرس ايامه وعاداتهم واخلاقهم ودرجة تأثيرهم في البلاد التي سادوها ومنها المنطقة الحمصية (براستد عد ٥٧٨ والنعمة ٤٠٧:٤) ويأتي في الدرجة الثانية مؤلفه ميمورابليا او خواطر سقراط كلاهما جعلا اسمه مشهوراً في التاريخ . ومن حكمه المأثورة التي جرت مجرى المثل قوله : يفعل الله في يوم ما لا تستطيعه كل القوى الاخرى في زمن طويل ، وهو جعل الجبان شجاعاً اه .

١١) ابقراط ابو الطب (٤٦٠—٣٧٥)

نجعل ختام هذه الحقبة ترجمة ابقراط ابي الطب الذي نسبه عدد كبير من الكتاب الى حمص ، ولعل المراد انه في اثناء تطوافه مر بحمص فاستطاب مناخها فقطن فيها مدة والقى دروسه الطبية في بستان كان وسط المدينة ولعله الموضع الذي يعرف الآن —بستان الديوان— ونبغ فيه عدد من التلامذة اشهرهم ماغنس الحمصي صاحب كتاب البول الذي عاش تسعين سنة كما ذكر ابن ابي اصيبعة (٣٣:١) واليك خلاصة ترجمة ابقراط عن مشاهير الثقات :

«ولد ابقراط في جزيرة كوس التي يسميها العرب قوة سنة ٤٦٠ ق‌م وتلقى معارفه الاولية عن جده ابقراط الاول وابيه هيراكليو . ثم قصد اثينا وهو شاب واستفاد من اختبارات اطبائها . وسمع ديموقريط الحكيم . وطاف الاقطار في طلب المعرفة . وصرف معظم اجتهاده الى تحصيل الطب . فنال منه ما لم يحلم به سواه حتى نسب اليه بعضهم ما يكاد يكون معجزاً .

كان ابقراط ربعة القامة ابيض البشرة حسن الصورة اشهل العينين معتدل اللحية ابيضها · في ظهره قليل من الانحناء ، عظيم الهامة متأن في حركته ، اذا التفت مال بكليته ، كثير الاطراق ، متريث في كلامه ، يكرره على سامعه ليفهمه ، اذا سكت اجاب ، واذا سكت محادثه سأله هو ، فيه مداعبة ، كثير الصوم قليل الاكل ، قلما شوهد الا بيده مبضع او مرود (دائرة وجدي ١ : ٢٩)

رووا عن صراحته ونزاهته القصة التالية : ان احد تلامذته اراد ان يمتحن فراسة افليمون المشهور فصور له هيأة ابقراط وطلب منه ابداء رأيه في صاحبها· فتأملها افليمون ملياً ثم قال له انها صورة شبق · فخطأه التلميذ فوراً واخبره انها صورة ابقراط المعروف بعفته ، فقال له افليمون سله قبل تكذيبي· فلما سئل ابقراط قال لهم صدق افليمون فاني احب النساء ولكني اضبط نفسي (آثار الادهار : ١٠٣ وطبقات الاطباء ١ : ٢٧ وتاريخ الحكماء : ٦٥)·



ابقراط ابو الطب

(ولد سنة ٤٦٠ وتوفي سنة ٣٧٥ ق·م)

من آثار ابقراط في الطب ٦٠ مؤلفاً ونيف اهتم الاوربيون باستخراجها الى لغاتهم وطبعها ١٨٦١ · ولقب ابقراط بابي الطب لا لانه ابتدعه ، لان الطب وجد عند اليونان قبل ابقراط ، وانما نسب اليه لانه رقاه ونقاه من الشعوذات وجعله علماً راهناً· وقد لقب بالعظيم وهو في قيد الحياة (الحديقة ٣٣ : ١٩) ·

ومن مأثوراته التي ايدها الطب : ان الجسم يشتمل على مواد تساعد المرء على الشفاء مما يلم به ، وان الطبيعة تمنح المرء اعظم مساعدة لنيل البرء من المرض ·

قال فيه صاحب اخبار الحكماء (٦٤) بقراط بن ايراكليس امام معروف مشهور سيد الطبيعيين في عصره نشأ قبل الاسكندر بنحو مئة سنة · وله في

الطب تآليف شريفة موجزة الالفاظ كثيرة المعاني مشهورة في العالم بين ممارسي فن الطب . وكان مسكنه في مدينة حمص من بلاد الشام وكان يتوجه الى دمشق ويقيم في غياضها للرياضة والتعليم . وفي بساتينها موضع يعرف بصفة بقراط الى الآن (اي الى سنة ٦٤٦ ﻫ) وكان فاضلاً متألهاً زاهـداً يعالج المرضى احتساباً طوافاً في البلاد اه .

وقال ابن العبري (ص ٨٥) وفي هذا الزمان (زمان داريوس هستاسب) عرف ابقراط الطبيب . كان يسكن مدينة حمص ويـتردد الى مدينة دمشق ويأوي الى بستان كان له فيها . ومكانه معروف الى يومنا هـذا (٦٨٣ ﻫ) وكان رجلاً آلهياً يداوي المرضى مجاناً . وقد احسن جالينوس في وصفه له حيث قال : ان جالينوس ادبه الدرس ، اما ابقراط فقد ادبته الطبيعة . وقال ايضاً : ان ابقراط انغمس في الطبيعة وسرى معها حتى انتهى الى اعماقها واخـبر عما شاهد هنالك (البستاني ١ : ٣٢٤) .

ومما روي عنه انه دخل يوماً ما على عليل فقال له : انا وانت والعلة ثلاثة ، فان اعنتني على العلة بقبولك ما تسمعه مني صرنا اثنين وانفردت العلة فقوينا عليها ، والاثنان اذا اجتمعا على واحد غلباه (الهلال ٢٦ : ٤٠٠) .

ومما نقل عنه قوله : مـا لا يشفى بالدواء يعالج بالسكين وما لا يشفى بالسكين يعالج بالنار .

قيل انه توفي في لاريسا (بكّي شهر) واختلفوا في سنة وفاته ، فقال بعضهم انه عاش ٨٥ سنة وآخرون ٩٠ وغيرهم ١٠٩ ووفاته وقعت بين سنتي (٣٧٥—٣٥١) .



الحقبة الخامسة

حمص

في ايام خلفاء الاسكندر السلوقيين

٣٣١ ـ ٨٠ ق م

توطئة

ذكر فلاسفة العمران البشري ان المدنيات الممتازة ذات الاثر الثابت في المجتمع الانساني ، ثلاث ١) المدنية المصرية و٢) المدنية الاشورية و٣) المدنية اليونانية . نشأت الاولى في القارة الافريقية والثانية في القارة الاسيوية والثالثة في القارة الاوربية . ثم تسرب كل من هـذه المدنيات الثلاث الى ما جاورها من الاصقاع وتخطتها احياناً الى ما هو ابعد . فنشأت بعد ذلك المدنيات المتعددة في اوربا وآسيا وافريقيا .

ومن الغرابة ان احدث هذه المدنيات تلك الآن ناصية المدنية في العالم وقد ارتفع لواؤها فوق البلاد التي نشأت فيها المدنيات القديمة السابقة . فهل يدور دولاب الدهر دورته ويعود القاعدون بعد سبقهم الى عهدهم السالف ؟ ذلك جواب المستقبل .

احتكت المنطقة الحمصية في ثاني حقبة لوجودها بالمدنية المصرية . وفي الحقبتين الثالثة والرابعة كان لها تماس عميق بالمدنية الاشورية . امـا الآن في حقبتها الخامسة فانها تحتك بالمدنية اليونانية ؛ وهـذا انما حصل على اثر بسط اسكندر المكدوني سيطرته على هذه الاصقاع . وتركه تراثه لدولتي البطالسة في مصر والسلوقيين في سوريا ، فوجب علينا اذن ١) الالماع الى تاريخ اليونان القديم و٢) ذكر لمعة عن الدولة المكدونية حتى الاسكندر و٣) مختصر تاريخ

خلفاء الاسكندر في سوريا . بغية التوصل الى معرفة مـا جرى المنطقة الحمصية إبان ارتفاع اللواء السلوقي على ربوعها .

١ — تاريخ اليونان الاقدم

ينسب المؤرخون اليونان الى ياوان بن يافث (بورتر: ٢٠٠) ويقول بعضهم ان اصلهم مجموع قبائل من الجنس الهندي الاوربي ، نزحوا الى جانب البحر الاسود الغربي انتجاعاً للمراعي . كما ظعن انسباؤهم (الفرس) الى جانب بحر قزبين الشرقي (براستد : ١٩٢) .

ويدعوهم الناس هيلانيين نسبة الى هلاس وطنهم الاصلي . امـا اليونان فيفهمون من كلمة هيلانيين معنى اوسع اذ قال قدماؤهم : حيثما كان الهيلانيون فهناك هلاس . يعني ان هذا اللفظ لا يقتصر على هلاس فقط بل يشمل كل بقعة يقطنها اليونان ، الاناضول وجنوبي ايطاليا وصقلية وسواها في المتوسط وشواطىء الدردنيل والبحر الاسود (تاريخ اليونان القديم ص ٧) .

ويسميهم الرومان اغريق وهو اللفظ الذي يكثر استعماله الاوربيون . في حين ان معظم مؤرخي الشرق القديم يسمونهم يونان . وتاريخ اليونان القدماء يقسم الى قسمين الاول ما سبق الحروب الفارسية والثاني ما تلاها الى ظهور الاسكندر .

القسم الاول — اليونان قبل الحروب الفارسية

اعظم حوادث القسم الاول مجيء سكروبوس المصري في القرن السابع عشر . حاملاً معه فنون وادي النيل وحكمة كهانه . فبنى سكروبيا التي صارت في مـا بعد حصن اثينا وملك سنة ١٦٥٧ ق م (الاساطير : ١٧٦) ثم قدم اليها قدموس الفينيقي حاملاً معه الحروف الهجائية وبنى مدينة ثيبة وملك فيها سنة ١٥٨٠ ق م .

وتلا ذلك حروب بين فصائل اليونان لاسباب معظمها تافه ومن هـذه الحروب :

١) حرب الارغونوط الذين حاولوا جلب جزة الذهب من كلشيد ليستغنوا (مير: ١١٨) .

٢) حرب الولاة السبع في القرن الرابع عشر لطرد اوتوكول من ثيبة .

٣) الحرب التي اثيرت على الفينيقيين لاخراجهم من ثيبة .

٤) حرب تروادة التي لاجلها نظم هوميروس الياذته استمرت عشر سنوات (١١٩٤—١١٨٤ قم) .

٥) الغزوة الدورية سنة ١١٠٤ التي استرد فيها ذراري البطل هيراكليس سلطة جدهم .

بتأثير هـذه الحروب هاجر كثير من اليونان الى الاناضول واهم هذه الهجرات ثلاث :

الاولى — هجرة الايوليين الذين استوطنوا الشمال الشرقي من الاناضول .

الثانية — هجرة الايونيين الذين استقروا على التخم الجنوبي لمواطن الايوليين وبنوا مدينة عظيمة منها افسس وميليتس .

الثالثة — هجرة الدوريين الذين استولوا على جزيرتي خوس وردس وفتحوا كريت واستعمروها .

هذه الاحداث كانت بداءة الميل الاستعماري في اليونان وسبباً للمناظرات التي قامت بين المدن اليونانية العظمى سبرطة واثينا وثيبة . فاشتهرت الاولى ببطولتها والثانية بعلمها والثالثة بفنها . ومن مشاهير الاولى ليكورغوس المتشرع النابغ في اواخر القرن التاسع قم . ومن مشاهير الثانية صولون الحكيم (٦٣٨—٥٥٩) ومن مشاهير الثالثة ابا ميننداس (٤١٨—٣٦٢) الذي شهد له مؤرخو اليونان انه ازدان بكل فضيلة وتنزه عن كل رذيلة .

على ان تزاحم هذه المدن الثلاث على الاولية ، وتفرق القوى اليونانية في مستعمرات آسيا واوربا وافريقيا ، اوجد في النفوس ميلاً للاستئثار والتباين . واظهر فيهم كثيراً من الطغاة الذين استأثروا بالمصالح العامة ومن اشهر هؤلاء برنيدر في كورنتوس (٦٢٥ — ٥٨٥) وبيسيسترات في اثينا (٥٦٠ — ٥٢٧)

وبوليكرات في ساموس (٥٣٥-٥٢٢) .

غير ان وجود الطغاة على ما فيه من ضغط ، نفع الامة اليونانية . اذ ايقظهم (ولاسيا الاثينويين منهم) الى وجوب التمسك بالديموقراطية ، تخلصاً من استئثار الطغاة . بالرغم من ان بعض هؤلاء كانوا حماة للصناعات ومحسنين . وقد افادوا اليونان بجاهدتهم الاجانب وانقذوا المدن اليونانية من خطر الاعتزال (مبار عد ١٥٤ و ١٥٥) .

القسم الثاني — الحروب الفارسية الى ظهور الاسكندر

ما انتصف القرن السادس حتى اصطدم النشاط اليوناني بالطموح الفارسي . الذي برز جلياً بشخصية كورش العظيم لما اسر كريسوس ملك ليديا واضطر اليونان القاطنين في السواحل الاسيوية ان يقدموا له الطاعة . فتنازل البعض عن امتيازاتهم والبعض الآخرون فهجروا ليديا. وبعد مدة ثار الايونيون سنة ٥٠٠ قم بغية كسر نير الاستعباد الفارسي فلم يفلحوا . واقتصرت حركتهم على حرق ساردس سنة ٤٩٩ قم . على ان هذه الشرارة اصلت العالم كله ناراً حامية (مبار عد ١٧٠).

منذئذٍ نشبت الحروب بين الفرس واليونان بصورة متتابعة . وقد اظهر اليونان في هذه المعارك شجاعة ودربة ، قدرها لهم المؤرخون. فانهم مع قلة عددهم فازوا في معظمها . وتألق مجد اليونان في معارك ماراثوان سنة ٤٩٠ وترموبلي سنة ٤٨٠ وبلاتيا سنة ٤٦٩ وأمال كفة العظمة من آسيا الى اوربا . حتى قال هيرودوت في آخر معركة : عادت الحرية اليونانية للدردنيل والجزائر . وتبارى الخطباء والشعراء والمصورون لتخليد اعمال الابطال الذين حالوا دون الاخطار التي توقعوها .

على ان هذا الفوز العظيم ادى بعد مدة غير طويلة الى انحلال الروابط بين البلاد اليونانية ولاسيا بين اثينا وسبرطة . فان اثينا تفوقت بانشائها محالفة مع المدن الايونية والجزائر وسواحل الدردنيل والبوسفور سنة ٤٧٧ فحسدتها سبرطة واثارت غيرة ثبية عليها . ولولا بريكليس (٤٦٩-٤٢٩) لوقعت اثينا في خطر . ولكن هذا القائد الحكيم وقاها من الاخطار المحدقة بها وصارت

اثينا في عهده اقوى مملكة بحرية . ولكن قبل ان يلفظ بركليس نفسه الاخير بدأت الحروب البلونيسية بين المدينتين (سبرطة واثينا) واستمرت ٢٧ سنة (٤٣١—٤٠٤) وانتهت بانتصار سبرطة وتلاشي القوة الاثينوية) .

قبضت اسبرطة على صولجان السيادة ٣٣ سنة (٤٠٤—٣٧١) فبطرت واشرت وأدى طموحها الى اغتصابها حصن ثيبة . فثار الثيبيون عليها ، وقاد صفوفهم لمحاربتها القائد الثيبي الخبير « ابامنونداس » الذي دحر الاسبارطيين في لكترا سنة ٣٧١ بعدما فتك باربعة اسباعهم . وهي اول معركة غُلب فيها الاسبرطيون مع من هم اقل عدداً منهم . ومن هذه الحادثة تألق مجد ثيبة ولكن نوره لم يطل اذ انطفأ بموت ابامنونداس سنة ٣٦٢ وتحولت قيادة اليونان الى مكدونيا مما سنلم به قريباً .

كان لكل فصيلة يونانية في العهد المنقضي ملك مستقل . ثم فضل معظمهم الحكومة الجمهورية . فابطلت اثينا الملكية سنة ١١٣٢ وارغوس سنة ٨٢٠ وكورنثوس سنة ٧٤٧ وانحصرت الملكية في اسبرطة فنجمل سلسلة ملوكها من اقدم ادوارها الى الانحلال خاتمة الفصل الاول :

١٨٨٠ ق‌م	سبرطون	١٢٢٠ ق‌م	تيسامان
١٧٤٢	لاكسيوس	١١٩٠	اريستوذام والد بركليس
١٦٨٠	ميلوس	١١٨٦	بركليس
١٦٣١	هيروتاس	١١٤٢	زويس وافريبون
١٥٧٧	لاكيدمون	٩٨٦	بريطانيس
١٤٨٠	اميكلاس	٩٠٧	بوليذاكت
٠٠٠٠	ارغاموس	٨٩٨	خاريلاوس القاصر
١٤١٥	سينورتاس	٨٧٩	ليكورغوس
٠٠٠٠	اوبالوس	٨٠٩	نيكاندروس
٠٠٠٠	ايبوكون	٧٧٠	ثيوبموس
١٣٢٨	تندار	٧٢٣	زافكسيدام
١٢٨٠	منلاس صهر تندار	٦٩٠	اناكسيدام
١٢٤٠	اوريست ملك ارغوس	٦٥١	ارخيذام

٦٤٥	اغاسيكلس	٣٣٠	افذاميذس
٥٩٧	اريستون	٢٩٦	ارخيذام الرابع
٥٢٠	قبارات	٢٦١	افذاميذس الثاني
٤٩١	ليونيداس	٢٤٤	آجيس الثالث
٤٦٩	ارخيذام الثاني	٢٣٩	افروداميذس
٤٢٧	آجيس الاول	٢٣٤	اوكليدش
٤٠٠	اجيسلاس	٢١٩	ليكورغوس الظالم
٣٦١	ارخيذام الثالث	٢١٠	ماشانيد الظالم
٣٣٨	آجيس الثاني	٢٠٥	قابيس الظالم — ١٩٢

٢ً — مكدونيا

مكدونيا منطقة في البلقان موقعها الى الشمال من بلاد اليونان. اختلفت حدودها باختلاف العصور ويحدها في الغالب من الشمال جبل هيموس الفاصل بينها وبين ميسيا ومن الشرق تراكيا ومن الجنوب اخائيا ومن الغرب ابيرون والليريكون .

عرفت مكدونيا كمملكة سنة ٨١٤ ودخلت اخبارها في دور التحقيق في اواسط القرن السادس ق م في ايام ملكها اميندداس الاول الذي اضطر ان يخضع لداريوس الاول ملك الفرس لما هاجم السكيثين . وخلفه اسكندر الاول الذي خضع لزركسيس لما هاجم اليونان . وخلفه بردكاس الثاني الذي استنجد الاسبارطيين ابان الحروب البلوبونيسية لابعاد الاثينويين عن تخومه . وخلفه ارخيلاوس الاول الذي اشتهر بادخاله بذور المدنية الى مكدونيا وتوسيعه المجال لدخول بعض فلاسفة اليونان الى بلاطه . قال فيه توسيديديس : انه انشأ حصوناً واوجد طرقات ازدادت بها قوته الحربية فكان ذلك اساس العظمة التي بنى عليها فيلبس واسكندر جدران القوة المكدونية اه . وقال فيه افلاطون انه كان ابناً شرعي لبردكاس (سلفه) ولذلك قتل كل اولاد بردكاس الشرعيين ليخلو له الجو . ولكنه مع قسوته كان ملكاً عظيماً نجحت البلاد في ايامه اه ولعل قسوته المذكورة على اولاد بردكاس سببت اغتياله ونتج عن ذلك شغب

واضطراب عدة سنوات ثم تسنم السدة اميندلس الثاني وهو ابن اخي بردكاس الذي لم يملك في اول الامر سوى مكدونيا العليا . ولكنه نازع اخاه بعدئذ فامتلك ما كان بيده ثم نازع بوسانياس ما اختلسه فتم له الملك على كل مكدونيا سنة ٣٩٣ (بورتر: ٢٨٨) ولكن ارغوس بن بوسانياس تغلب عليه بعد ذلك واقصاه من المملكة فلم يستطع استردادها حتى ساعده اهالي تساليا. ثم توطد عرشه بمحالفته اسبرطة .

وكان لامينداس المذكور ثلاثة اولاد وهم اسكندر وبردكاس وفيلبس. فلما مات عظم الاضطراب والشغب في من يخلفه ، فتدخل بالامر بيلوبيداس الثيبي وهدأ الفتنة واخذ معه الى ثيبه ٣٠ شخصاً رهينة كان معهم فيلبس بن امنتاس. وسلم السدة الملوكية لاخيه اسكندر فخانه البعض وفتك به (بورتر: ٢٨٨) فتدارك اخوه بردكاس الفتنة وظفر بالخائن وقتله ، وملك عوضاً عنه. واستقدم اخاه فيلبس من ثيبة وكان قد مرّ عليه فيها ثلاث سنوات وسمت دائرة اختباراته بما تلقاه عن اباميننداس من الخبرة العسكرية . فاقطعه اخوه قسماً من المملكة ولما مات ولم يكن له سوى ولد صغير تولى فيلبس زمام الملك بصفة وصي على الصغير. ولما حدث شغب في الدولة اشار عليه اربابها باتخاذ مقام الملك دون ابن اخيه لقطع دابر الفتنة ففعل وكان ذلك سنة ٣٥٩ .

اهتم فيلبس قبل كل شيء بتنظيم الجندية واخترع النظام المعروف بالفالانكس وهو ترتيب صفوف كتيبة من اقوياء الجند يحملون رماحاً طويلة جداً ، متى بسطوها امامهم كانت لهم سياجاً من حديد لا يمكن الدنو منه . اذ يطعنون به اعداءهم وهم في مأمن منهم . ثم درب الفرسان على الفنون الحربية بحيث تؤلف منهم كتلة واحدة عند الحاجة تقف سداً في وجوه الاعداء. ولم يكن للفرسان شأن يذكر قبل فيلبس اذ كان امتطاء الخيول خاصاً بالاشراف. تتألف منهم وقت الحرب كتائب لانظام لها. تحارب احداها كيف ومتى شاءت. وادخل في فن المحاربة تحسيناً هاماً اذ الف قلب الجيش من صفوف المشاة المتراصة . وجعل جناحيه من الفرسان وجعل القوة المؤلفة من القلب والجناحين ترحف كلها معاً كأنها آلة حربية لا تقاوم . ولما رأى اليونان هذا النظام الفريد خافوا المقاومة . وشعروا باهمية الانقياد الى زعامة واحدة حازمة .

ورأى فيلبس بحسن فراسته ان يبدأ بفتح الاقاليم ذات المقاومة الضعيفة. ومتى انتهى منها ووقعت هيبته في القلوب بادر الى سواها . فتمكن بهذه الخطة من توسيع نطاق مملكته حتى بلغ الدانوب شمالاً والدردنيل شرقاً . وكانت فتوحات فيلبس (٣٥٥–٣٤٦) ذات اثرين متضادين احدهما ايجابي يؤيده ابقراط الشيخ الذي رأى في فيلبس المنقذ للعالم اليوناني من الاضطراب والقادر على توحيد شتات هذه الامة . والثاني سلبي ومؤيده ديوستين الخطيب المصقع الذي ارتأى ان لا يستأثر المكدوني بالسيادة العامة . وتمكن هذا الاخير من استمالة المجلس الكبير الى المقاومة . ولكن قوة فيلبس غلبت منطق ديوستين فبوأته معركة خيرونا الفاصلة سنة ٣٣٨ ق‌م منصب الزعامة العامة على اليونان عدا سبرطة .

وكان فيلبس في اواخر ايامه قد اختلف مع زوجته اوليمباس (والدة اسكندر) فطلقها وتزوج باخرى اسمها كليوبترا وولد له منها ولد . وحاول فيلبس باغراء البعض تعيين ابنه الصغير ولياً للعهد دون اسكندر . فأدى ذلك الى استياء محازبي الاسكندر فاستسنحوا الفرصة وفتكوا بفيلبس ابان حفلة زفاف ابنته سنة ٣٣٦ق‌م فتسلم اسكندر العرش وهو ابن عشرين سنة .

شيء عن اسكندر المكدوني

ولد اسكندر في ٢٩ تموز سنة ٣٥٦ فعهد ابوه الى ليسماك بتربيته الاولية ولما بلغ الثالثة عشرة سلمه لاريسطو الفيلسوف الذي عني به عناية خاصة . وكانت الياذة هوميروس اول شيء تعلمه . فنشأ منذ حداثته حربياً ميالاً الى المجد . ومن اخبار صبوته انه حينما كان يتلقى اخبار فوز ابيه كان يتململ ويقول : اخذ ابي كل شيء ولم يدع لي ما آخذه . ومن ذلك ان سفير الفرس زار يوماً سراي ابيه فلم يجد فيه سوى اسكندر . فجلس يداعبه فرأى من جده ورصانته ما يعجب به . ومما ادهشه بنوع اخص ان الاسئلة التي القاها عليه الاسكندر كانت غير ما كان يسأله اترابه ، كسؤالهم عن الجنان المعلقة في بلادهم وعن غنى ملوكهم الخ . اما اسكندر فاخذ يسأله عن اقصر الطرق واسهلها للوصول الى

بلادهم ، وكم مسافة بعدها عن مكدونيا ؟ وما هي مواقفهم ابان الحرب ؟ الى غير ذلك من اسئلة انما تهم الفاتحين العظام لا من كان بسن الاسكندر . فدهش السفير وقال : لئن كان ملكنا الكبير غنياً فان هذا الامير الصغير عظيم .

اتقن الاسكندر عدا الفصاحة والفلسفة ، الاخلاق والصحة . ومما كتبه لاستاذه اريسطو — إبان اشتغاله بالحرب في آسيا — ان شغفي بالتفوق على الناس في ادراك الامور السامية هو اهم عندي من تفوقي عليهم بالعظمة وامتداد السيطرة اه . على ان اسكندر كان حزوماً لدرجة العناد ، ومقداماً لدرجة التهور والمغامرة . رافق اباه وهو حدث في عدة معارك ابدى فيها من ضروب الشجاعة والاقدام ما ادهش به الناظرين . وناب مناب ابيه في سياسة المملكة وهو ابن ١٦ سنة فاظهر كفاءة اقدر السياسيين . وشارك اباه في معركة خيرونيا وهو ابن ١٨ سنة فادهش القادة المحنكين والابطال المدربين .

ولما توفي ابوه سنة ٣٣٦ كان عمره عشرين سنة فقط فتولى الملك والاخطار تحيط به من كل جانب فاهتم بادىء بدء بتسويد الامن في البلاد لكي لا يبقى وراءه ما يشغل البال . فقضى على كل من توقع مزاحمته على العرش . ثم سار الى بلاد اليونان لاثبات ملكيته فانتخب رئيساً عاماً كابيه ولم يعارض في ذلك سوى اسبرطة فأجل خضد شوكتها الى فرصة اخرى . واهتم باخضاع الثائرين في الشمال فاخضع كل القاطنين حول الدانوب والايليريين والثيبيين وادخل الرعب في قلوب العتاة وكل من زينت له نفسه التمرد عليه .

وبعدما هدأت الحركات في اوربا قرر محاربة الفرس سنة ٣٣٥ فكتب له الفوز بثلاث معارك .

الاولى — معركة نهر غرانكوس قرب سواحل مرمرة في ربيع سنة ٣٣٤ وكان جيش الاسكندر لا يحسب شيئاً مذكوراً ازاء جيش الفرس العظيم .

الثانية — معركة مضيق ايسوس قرب اسكندرون في ٢٩ ت٢ سنة ٣٣٣ فاز فيها على جيش داريوس الضخم واسر ام داريوس وامرأته وابنه وفر داريوس الى الشرق .

الثالثة — معركة اربل على ضفاف الدجلة في ٢ ت ١ سنة ٣٣١ حيث كسر الفرس شر كسرة وفرق شملهم تفريقاً لا اجتماع بعده .

يقول الخبراء في الفنون الحربية ان الاسكندر انتصر على الفرس مع كثرة عدد هؤلاء، لان جيشه كان متحد القوى شديد الثقة بقائده . بينما كان الفرس متعددي الميول والمناهج، مسوقين الى حرب لا ثقة لهم بنتائجها.

قاد الاسكندر حملته وهو في شرخ الشباب . وعرف الطرق التي يحسن السير بها. بعدما درس ما صنعه الفاتحون فعل ما لم يستطعه الشيوخ المدربون. اذ فتح الاناضول بمدة قصيرة وبمقاومة لا تذكر . واكمل فتح بلاد الفرس بمدة ثلاث سنوات . ثم عمد الى مهاجمة الهند سنة ٣٢٧ فقطع جبال هندكوش في ربيع سنة ٣٢٦ وحاول منعه الملك فقهره الاسكندر واخلى سبيله بعد الاسر معيداً له عرشه فصار من اعوانه . وعارضه اهالي بنجاب بقوة فلم يستطيعوا الوقوف امامه .



اسكندر المكدوني ولد سنة ٣٥٦ ومات سنة ٣٢٣

ولما شعر ان جيشه عراه التعب لم يرد ان يحمله فوق ما يستطيع فعاد الى بابل سنة ٣٢٤ وهناك اخذ يسعى لتنفيذ خططه العظيمة . اذ سولت له نفسه توحيد الفرس واليونان فصاهرهم واجبر قادته ان يفعلوا فعله، وادخل في الجيش اليوناني عدداً كبيراً من جنود الفرس محاولاً ان يجعل العالم كله دولة واحدة وأمة واحدة فلم يرق ذلك جنده القديم . فصرف المعارضين الى مكدونيا .

ولكن حظ اليونان — كما قال احدهم، او حظ العالم كما قال آخر — لم يكمل لقصر حياة الاسكندر الذي مات سنة ٣٢٣ لمضي ١٢ سنة و٨ اشهر

على ملكه وقد مات في الوقت نفسه الذي نوى فيه تنفيذ الخطط التي اختلج بها ذلك الصدر الواسع واوحاها ذاك الدماغ الصحيح . ولو فسح له في الاجل عشرين سنة اخرى لكان العالم غير ما هو عليه بعد تمكنه من الانقلاب العظيم الذي اراد احداثه (براستد عد ٦٥٧) ولسوء الحظ لم يؤت احد من خلفائه عبقريته لينفذ ما رسمه فانه ترك أخاً معتوهاً وارملة حبلى ولدت له بعدئذ ولداً لم يستطع ان يكون سر ابيه ؛ ونرى من المفيد ان نذكر في ختام الكلام على مكدونيا من ميزات الاسكندر ما يجدر بالاعتبار في حياته القصيرة .

١) عزمه

لما وصل الى نهر غرانكوس الذي لا بد له من اجتيازه ، والعدو قد احتل الشاطئ الثاني . رأى قائده برمينيون ان ينتظروا الغلس ليجتازوا النهر خلسة ، بدون التعرض للخطر . فاجابه الاسكندر ان عبور النهر خلسة عار يذكر في المستقبل فنخجل به . ولما تردد القائد اقتحم الاسكندر النهر وتبعته طلائع الفرسان وتعالى هتاف الجيش كله . فوقع الذعر في قلوب الفرس فتزحزحوا من اماكنهم واجتاز اليونان النهر بضحايا اقل بكثير من ضحايا الفرس .

ولما وصل الى كورديوم (غلاطية) قضى فيها مدة الشتاء وفي اثناء وجوده فيها زار هيكل ديوس (المشتري) فعرضت عليه العقدة الشهيرة المدعوة «غورديا» نسبة الى من حبكها بدقة غريبة . وقال له كاهن الهيكل انها طلسم قديم من استطاع حلها ملك آسيا بجملتها . فتأمل فيها الاسكندر وثار ذكاؤه في صدره مع شهوة الملك وامسك العقدة بكلا يديه يحاول حلها فلم يفلح اذ لم يرَ لها اول ولا آخر . وكانت اطرافها مستترة من كل الجهات وقد دخل الطرف الواحد في الآخر . فلما لم يجد وسيلة لحلها وضع العقدة على منضدة خشبية واستل سيفه وضربها بعزم فقطعها وانفرطت العقدة وقال ان فككتها او قطعتها فالامران واحد .

ولما فرّ دارا الى الشرق اتجه اسكندر الى سوريا فوردت اليه وهو في فينيقية رسالة من دارا يعرض عليه المال الذي يطلبه ليرد عليه امه وامرأته

واولاده . ولكنه لم يسم اسكندر ملكاً ، فاجابه اسكندر بجزم جواباً مسهباً يقول له في ختامه : ان حضرت الي طائعاً رددت عليك بدون فداء امك وامرأتك واولادك ، لتعلم اني اعرف كيف افوز وكيف احلم على من اظفر بهم . على اني اذكرك اذا كتبت الي مرة اخرى فاعلم انك تكاتب ملكك نفسه اه .

فكتب اليه دارا رسالة اخرى وصلته وهو في صور يسميه فيها ملكاً ويعيد الكرة لاجل افتداء اسراه بعشرة آلاف وزنة وانه يزف اليه ابنته سائرة. خاتماً كلامه بان الحظ لا يخدمه دائماً وان عبور الرافدين ليس بالامر السهل .

فلما قرأ الاسكندر الرقيم قال له القائد برمينيون لو كنت الاسكندر لقبلت التقدمة ، فاجابه الاسكندر ولو كنت انا برمينيون لقبلتها ، واجاب دارا بما ملخصه ، انه ليس بحاجة الى مال دارا . وان ما وعد بتقديمه ليس لدارا . وان النهرين لا يخيفان من تعود اجتياز البحور .

ولما اجتاز الاسكندر النهرين ارسل دارا يطلب الصلح بشروط حسبها حسنة . فاجابه الاسكندر : كيف تصالحني على ما ملكت يداي . ان العالم لا يحتمل شمسين فكيف يحتمل سيادتين فلتختر احدى اثنتين الاذعان اليوم او الحرب غداً ، ولن يكون الند معه احسن حظاً من الامس اه . فقال احدهم ان دارا مستعد للقيام بمئة واربعين الفاً . فاجابه فوراً : ان الجزار لا يخشى كثرة الغنم .

٢) مغامراته

ابان اقتحامه نهر غرانكوس اصيب بعدة نبال فلم يبال ، وتابع هجومه فاتكاً بعدة من اكابر الفرس . فحمل عليه احدهم من خلفه يريد ان يهوي على هامته بسيفه لو لم يدركه احد خاصته (كليتوس) بضربة سيف قطع بها يد العدو وانقذ سيده (بورتر : ٢٩١) .

وابان محاصرته صور فتح منفذ في احد الاسوار فصعد اليه احد القادة الشجعان فقتل . فلم يرد اسكندر اضاعة الفرصة فاسرع وصعد الى برج عالٍ محاذٍ للسور فصوب الاعداء سهامهم اليه فلم يخشاهم بل اقتحمهم فقتل بعضهم بسيفه وبعضهم بمجنه ودخل المدينة .

وفي الهند حاصر مدينة ما فأمر بنصب السلالم لتسلق الاسوار ولما تباطأ الجند ، اختطف من احدهم سلماً يحمله وعلا السور . وتبعه قائدان وبضعة من الجند فتحطم السلم وبقي الملك وحده هدفاً للسهام . فلم يبال بالخطر بل وثب الى ساحة المدينة فبلغ الارض منتصباً وفتك . بمن كانوا بقربه فدنا منه احد الزعماء يبغي نيل الفخر بقتله ، فعاجله الاسكندر بضربة سيف صرعته . ولما تكاثر الجمع عليه اسند ظهره الى شجرة قريبة منه يتقي بها السهام المراشة عليه من خلف واخذ يتقي ما يراش عليه بترسه من الامام . فصوب اليه هندي سهماً اخترق درعه واصاب رأس وركه الايمن . فسال منه دم غزير خارت قواه لكثرة ما نزف من الدماء . ولكان قضى لولا وصول قائدين في تلك الدقيقة ، فدافع احدهم عنه وفتح الآخر باب السور . فتدفقت الجنود الى المدينة وحمل اسكندر الى خيامه منهوك القوى . وخيف عليه ولكن بجرحه برىء بعد سبعة ايام .

٣) بطولة ورقة شعوره

لما وقع برفير الملك الفارسي بيد الاسكندر بكت ام دارا الاسيرة بكاء مراً لانكساف مجدها ودرى الاسكندر بذلك لحضر لمؤاساتها ومعه مرافقه الخاص اغاستيون . فلما رأتها ولم تكن تعرف ايهما الاسكندر سجدت للمرافق وهي تظنه الاسكندر فخطأها احد الحاضرين فخجلت واعتذرت . فقال لها الاسكندر لا تخجلي فهذا ايضاً اسكندر . ثم طيب خاطرها واعلمها ان ابنها ما برح حياً وان اسكندر ابن ثان لها يقوم بالواجب نحوها ما دام ابنها دارا بعيداً عنها .

ولما استولى على سوس وصل اليه نوع من البرفير الممتاز فاهداه الى والدة دارا . وطلب اليها ان تعلم بنات ابنها النسج على هذا المنوال . فبكت لاعتبارها ان شغل نساء الكبار عار . فبادر الاسكندر للاعتذار عما بدا منه وهو يجهل عادات الفرس . وختم اعتذاره بقوله : اعتبرتك اماً لي ولذلك حلت دون ركوعك امامي . ولم اجلس امامك بدون اذنك علماً مني أن الابن عندكم لا يجلس بدون اذن من امه .

ولما قتل دارا عظّم الاحتفاء بأمّه وحنّط جثته وسيرها الى والدتــه لتدفنها على عادة ملوك الفرس في مدافن اسلافه ثم انتقم من قاتليه .

٤ً) آماله الكبيرة

لمــا خلف الاسكندر اباه ، وزع هباته على جنوده حتى نفذ جميع ما لديه . فقال له وزيره : ما الذي ابقيته لنفسك يا مولاي ؟ قال الرجاء . فقال الوزير متململاً وهل يكفينا الرجاء مؤونة ؟ قال الاسكندر ان الذي قلته (انت) عن غير اقتناع هو الواقع وستری (براستد عد ٦٥٧) .

وفي ابان حداثته القى امام الذبيحة ملء راحتيه بخوراً والبخور عندهم له قيمته . فعاتبه ليونيداس حاكم مكدونيا على تبذيره هذا قائلاً : ان هــذه الطيوب قليلة ونادرة فالواجب يقضي بالحرص في صرفها . فاجابه الاسكندر فوراً : انما يحرص الجبان القليل الثقة بذاتــه . فلما فتح غزة حصل على كمية عظيمة من البخور فارسل منها ٥٠ الف ليبرة وكتب الى ليونيداس يقول : اني مرسل اليك ما لا يبقى معه عذر للضنّ به على الآلهة .

٥ً) استخلاصه اصدقائه

على اثر اغتساله بماء بارد وهو محرور مغمور بالعرق ، اصيبت يده بيبس وخشي الاطباء معالجتها خشية ان يقضي فيتهموا بقتله . فاقدم على معالجته طبيبه الخاص فيلبس . وركب له دواء اعتقد انه يذهب ما به من بأس . فتناول الاسكندر كاس الدواء بيمناه وناوله باليسرى طرساً مطوياً . واذ كان فيلبس يقرأ الطرس كان اسكندر يجرع الدواء حتى اتى على ثمالة الكأس . ووراع الامر فيلبس اذ حوى الطرس وشاية من احد اعدائه يحذر بها الاسكندر من شرب الدواء بدعوى انه مسموم ورآه الاسكندر مرتاعاً فقال : لا تخف ان ثقتي بصداقتك جعلتني اشرب الكأس بدون اقل تردد-لا لاعتقادي باخلاصك فحسب . بل لاني لا ارى في الحياة لذة لو وجد صديق يقدم على خيانة صديقه .

٦) مقدرته على ضبط عواطفه

روى بلوطرخ ان اسكندر انقطع عن زيارة اسرة دارا الواقعة في اسره لئلا يجنح به ميله الى الملكة، عن سنن الاستقامة . وقد اشار الى ذلك في رسالته التي بعث بها الى القائد برمينيون يوصيه فيها بقتل الجنود الذين اعتدوا على نساء الاعداء بعد الفوز . ويضع نفسه قدوة لهم بقوله : حسبهم اني لم ادع سبيلا لقول قائل اني اطلت النظر الى امرأة دارا ، بل لم ارض ان يتكلم احد عن جمالها امامي .

ومما يذكر بهذا الشأن ان امرأة دارا ماتت بعد عودة الاسكندر من مصر فعظم الحفاوة بدفنها ودرى بذلك دارا فخامره شك في عفاف زوجته واعتبر ان هذه المبالغة في الاحتفاء بجنازتها ، ناتجة عن تسليمها نفسها للاسكندر حال حياتها . غير ان الخصي الفارسي الذي نقل لمولاه الخبر والذي استحلفه دارا ايمانا معظمة ليصدقه الحقيقة ، اخبره بتأدب اسكندر العظيم تجاهها وحرصه الشديد على شرفها . فدهش دارا ولم يتمالك ان رفع يديه الى العلاء طالباً من الآلهة احد امرين . عودته الى العرش لمكافأة الاسكندر على علو شيمته ، او توسيد العرش الفارسي الى الاسكندر دون سواه لانه اليق الناس بالملك العالمي اه .

هذا قليل من كثير مما نقل عن اسكندر الكبير الذي قال فيه براستد : لم يقم من نسل آدم كله شخص واحد كان له في وقت يسير تأثير خالد في الشؤون البشرية كالاسكندر ، في مدة حياته القصيرة . واذ ختمت به عظمة الدولة المكدونية نأتي على سلسلة ملوكها ختاماً للبحث .

سلسلة ملوك مكدونيا

٧٩٦	كارنواس	٦٤٧	ارغوس الاول
٧٦٦	كونوس	٦٠٩	فيلبس الاول
٦٩٥	بردكاس الاول	٥٧٦	اجيروباس

٥٥٦	اليتاس	٣٨٨	اميداس الثاني ثالثة
٥٣٨	اميداس الاول	٣٧٠	اسكندر الثاني
٤٩٦	اسكندر الاول	٣٦٩	بتولماوس
٤٥٢	بردكاس الثاني	٣٦٦	بردكاس الثالث
٤٢٩	ارخيلاوس الاول	٣٦٠	اميداس الثالث
٣٩٨	اميداس الثاني	٣٥٩	فيلبس الثاني
٣٩٧	بوسانياس	٣٣٦	اسكندر الثالث الكبير
٣٩٦	اميداس الثاني ثانية	٣٢٣	فيلبس الثالث
٣٩٠	ارغوس الثاني	٣١١—٣١٧	اسكندر آغوس

٣ — الدولة السلوقية — خلاصة من التاريخ العام

استولى اسكندر المكدوني على آسيا الوسطى سنة ٣٣٤ وبعد معركة ايسوس سنة ٣٣١ اقتحم سوريا واستولى عليها . ولما عـاد من مصر لمطاردة داريوس قدمانوس وراء الفرات ، اقام برمينيون والياً على سوريا المجوفة التي تشمل دمشق وبعلبك وتلحق بها احياناً حمص وحماة اللتان تضمان تارة الى سوريا المجوفة واحياناً الى سوريا الشمالية .

بعدما انهى اسكندر عمله الحربي في الهند والعراق توفي سنة ٣٢٣ بدون ان يعين خلفاً له . ولما سألوه وهو يحتضر عمن يريد ان يخلفه ؟ اجاب : الاقوى فيكم ، او « اكثركم اهلية » . ثم خلع خاتمه وسلمه للقائد بردكاس فكان قائمقام الملك . فوقف القادة موقف الحيرة في ما يجب عمله بعد موت الاسكندر . وارتأى معظمهم على ما في صدورهم من مطامع ان لا تجوز قسمة المملكة ما دام في الاسرة المالكة من يطالب بالعرش . والذين يطالبون بالعرش آنئذ ارهيدي اخو الاسكندر ، والطفل هرقل ابن اسكندر من برسين ، والجنين الذي تحمله روكسانا من اسكندر . وتعددت الآراء بحسب الاغراض لحل الاشكال . اذ اعترض بعضهم على تعيين ارهيدي لسذاجته ، واعترض آخرون على هرقل بطفولته ، وعلى الجنين لعدم التحقق بانه ذكر او انثى ، واخيراً اتفقوا على تسمية ارهيدي

خليفة على ان يشاطره العرش ابن روكسانا — فيما اذا كان ذكراً — ويكون بردكاس الوزير الاول ومليا كر نائبه وكراثر مدير الشؤون باسم ارهيدي. ولما ولدت روكسانا ابناً دعوه اسكندر واقروا له بالملك مع ارهيدي فكانا ملكين اسماً لا فعلاً ، اذ كان العمل بيد من ذكر اعلاه .

قسم بردكاس المملكة ٣٤ قسماً وجعل كلاً من الكبراء والياً على احدها. وحقق لنفسه قيادة جيش آسيا والوصاية على الملكين بحجة وجود خاتم الاسكندر معه .

على ان هذا التقسيم لم يفض الاشكال ولم يرد المطامع الخاصة بل ادى الى منازعات وحروب قتل في اثنائها بردكاس سنة ٣٢١ وارهيدي سنة ٣١٧ ووالدة الاسكندر سنة ٣١٦ واسكندر الطفل وامه سنة ٣١١ وهرقل الصبي وامه سنة ٣٠٩ وكليوبترا اخت الاسكندر سنة ٣٠٨ . وسمى القادة ذواتهم ملوكاً ، وانتهت المعارك الدموية سنة ٣٠١ باقتسام الملوك الظافرين المملكة كما يلي :

١) كسأندر — على مكدونيا وسائر اليونان .
٢) ليسماس — على تراكيا وآسيا الصغرى .
٣) بتولمايس — على مصر واليهودية وفينيقية .
٤) سلوقوس — سوريا الشمالية وما بين النهرين الى الهند .

«روضة جوسيه»
حيث يظن بعض المؤرخين ان فيها كانت الفراديس الثلاثة حيث اجتمع خلفاء اسكندر لاقتسام البلاد .

وسميت الدولة التي تسلطنت على سوريا سلوقية نسبة لسلوقوس الاول اول من تسنم العرش فيها ، وفي ما يلي خلاصة عن ملوك هذه الدولة :

١ً) **سلوقوس الاول** — هو ابن انطيوخوس احد كبار قادة الجيش المكدوني في ايام فيلبس المكدوني والد اسكندر . وقد سار سلوقوس في ركاب الاسكندر كما سار والده في ركاب فيلبس ، فأبرز في غزواته همة واقداماً جعلته موضع ثقة الاسكندر ، لذلك اعطيت له بعد انتهاء المنازعات ولاية سوريا الشمالية الى الهند ، وقدرت مساحة ملكه بمليون متر مربع وقد بنى في مدة ملكه ٢٤ مدينة . منها سلوقية على الدجلة التي اتخذها اول عاصمة لملكه . وانطاكية التي نقل اليها العاصمة بعدئذ . وافاميا وسواها ومات سنة ٢٨٠ عن ٧٣ سنة .

٢ً) **انطيوخوس الاول** — ولد سنة ٣٢٥ وكان في معركة ايسوس قائداً لفرسان ابيه وخلف اباه على العرش سنة ٢٨٠ ثم حارب الغالة سنة ٢٧٥ وفاز عليهم فاعطي لقب سوتر (المنقذ) واخيراً قتل في معركة قرب افسس سنة ٢٦١.

٣ً) **انطيوخوس الثاني** — هو ابن انطيوخوس الاول وخلف اباه سنة ٢٦٠ واعطي لقب « ثيوس » لانه انقذ اهالي مليتوس من طاغيتهم تيمرخوس وجرت له معارك هائلة مع بطليموس فيلادلفوس ملك مصر ثم تصالحا سنة ٢٥٠ ومات سنة ٢٤٦ بسم دسته له قرينته برنيكي بنت بطليموس لانـه استبدل زوجته لاوديكي .

٤ً) **سلوقوس الثاني** — هو ابن انطيوخوس الثاني من زوجته لاوديكي خلف اباه على العرش سنة ٢٤٦ وكان اول عمل عمله ان دبر مع امه لاوديكي مكيدة لقتل برنيكي زوجة ابيه ، فاستاء اخوها بطليموس افرجات ملك مصر وثارت بين الملكين حرب اقضت مضجعه . اذ اكتسح بطليموس عدة ولايات من سوريا وضمها الى مصر . ولولا فتنة نشبت في مصر لدانت له كل الاقاليم السورية . ولم يكن سلوقوس هـذا موفقاً في حروبه اذ اسر في حربه مع البارثيين سنة ٢٣١ وظل اسيرهم حتى توفي سنة ٢٢٥ .

٥ً) **سلوقوس الثالث** — هو ابن سلوقوس الثاني ، كان واهي العزيمة فائل الرأي . ولكنه سريع الحركة فلقب كيراونوس «الصاعقة» لم يأت عملاً يستحق الذكر ومـات قتلاً بيد اثنين من اتباعه سنة ٢٢٢ لثالث سنة من ملكه .

٦ً) **انطيوخوس الثالث** — هو ابن سلوقوس الثاني من زوجته لاوديكي ولد سنة ٢٣٨ وخلف اخاه على العرش سنة ٢٢٢ والمملكة مختلة فاصلح شؤونها وخاض عدة معارك كتب له الفوز في معظمها . وتمكن من ارجاع الوحدة الى سوريا سنة ١٩٧ بعدما تمزقت اوصالها فنال لقب الكبير . وفي ايامه لاذ بسوريا هنيبال البطل القرطجني الشهير ، فأدى ذلك الى وقوع حرب بين انطيوخوس والرومان ، لم يوفق فيها واضطر ان يؤدي لهم غرامة الحرب ولاجل ذلك استصفى كنوز هيكل جوبتر في عيلام لحنق عليه الشعب وقتله سنة ١٨٧ ق م .

٧ً) **سلوقوس الرابع** — هو بكر انطيوخوس الكبير ، وقد لقب فيلوباتر لمحبته اباه تسنم العرش سنة ١٨٦ ولم يكن في ايامه ما يستحق الذكر سوى انه ظلم اليهود لاشباع مطامع مشيره هليودور ، ولكن الرجل الذي اشبعه هو الذي غدر به وسقاه سماً مات به سنة ١٧٥ .

٨ً) **انطيوخوس الرابع** — هو ثاني اولاد انطيوخوس الكبير ، كان رهينة عند الرومان سنة ١٨٨ لاجل الغرامة فتوسط اخوه سلوقوس لاخلاء سبيله على ان يضع بدلاً منه ابنه ديمتريوس فأطلق سنة ١٧٥ واذ كان على الطريق عرف ان هليودور قتل اخاه فاسرع الى سوريا وبمساعدة ملك برغاموس تمكن من طرد المختلس واسترداد العرش . وبعد ان استتب له الامر رأى ان يحاسن اليهود فاكرمه سنة ١٧٣ وحارب مصر اربع سنوات (١٧١—١٦٨) فصادف نجاحاً لم يلقه سلفه . ولولا الرومانيون لتمكن من فتح البلاد كلها ، غير ان خزينته فرغت بسبب الحرب فمد يده الى هيكل اورشليم فثار اليهود فاضطهدهم فظهرت الفتنة المكابية التي تركت اثراً هاماً في التاريخ السوري . فلما فرغت يده من سوريا الجنوبية لتسديد العجز المالي حاول نهب هيكل عيلام ففشل

وعجلت خيبته منيته سنة ١٦٤ .

٩) انطيوخوس الخامس — خلف اباه وهو لم يزل حدثاً فتولى ارشاده ليسياس . فسالم اليهود ليستطيع صد مزاحمه على العرش ، وهو ديمتريوس بن سلوقوس فليوباتر ، بصفته الوريث الشرعي للعرش دون انطيوخوس الرابع «ابيفان» فلم يفلح ، ووقع مع ليسياس في قبضة ديمتريوس فقتلها معاً سنة ١٦٢ .

١٠) ديمتريوس الاول — هو ابن سلوقوس فيلوباتر ، كان كما سبق في السنة التي مات فيها ابوه رهيناً في رومة ، وابت رومة تلبية طلبه بالعودة الى سوريا فاستولى على العرش عمه انطيوخوس ابيفان ، ثم خلفه ابنه انطيوخوس الخامس ومرّ على ديمتريوس في اسر رومة ١٢ سنة في نهايتها تسنى له الحضور الى سوريا فقتل انطيوخوس وليسياس وضبط العرش سنة ١٦٢ ثم اخذ يحارب المكابيين فقتل يهوذا المكابي في احدى المعارك ثم صالحهم سنة ١٥٨ وبعد سنتين اعترف به الرومانيون ملكاً على سوريا .

غير ان نجاحه هذا ابطره فتجبر واسلم نفسه للاهواء المنحرفة فمقته الشعب بل حاشيته نفسها . ونهض اسكندر بالاس يطالب بالعرش بحجة انه ابن انطيوخوس ابيفان فحاربه وقتله سنة ١٥١ .

١١) اسكندر بالاس — روسي الاصل طمحت نفسه الى العرش سنة ١٥٢ ونازع ديمتريوس فلم ينجح فاستأنف القتال اخيراً فكسر ديمتريوس واكرهه على الفرار . ولما قتل ديمتريوس استأثر بالسلطة ووطد عرشه بتزوجه كليوبترا بنت بطليموس فيلوماتر ، ولما اطمأن على العرش فترت همته فثار عليه ديمتريوس نيكاتور بن ديمتريوس الاول مطالباً بعرش ابيه سنة ١٤٧ ولكن يوناتان المكابي صديق بالاس احبط الثورة .

ثم حصلت نفرة بين بالاس وحميه بطليموس ادت الى الحرب فانكسر اسكندر ثم قتل سنة ١٤٦ .

١٢) ديمتريوس نيكاتور — هو ابن ديمتريوس الاول سوتر ، استولى على العرش بمطالبة بطليموس . ولكنه لما استتب له الامر استسلم للاهواء ، فثار

عليه اهل انطاكية وكادوا يقتلونه لولا وفد المكابيين ، ولكن متابعته مسلك التعسف اثار عليه الشعب في عدة جهات فتسنى لديودوت الافامي (تريفون) ان يسقطه وينصب مكانه ابن اسكندر بالاس .

١٣) **انطيوخوس السادس** — هو ابن اسكندر بالاس من زوجته كليوباترا ، كان في بلاد العرب لما قتل ابوه ، فاحضره وهو حدث ديودوت ليناظر ديمتريوس على العرش . فتم له ذلك وخضع له معظم السوريين الناقمين على ديمتريوس ، وكان ديودوت وصياً عليه لحداثته فلما مات تسنم العرش هو .

١٤) **ديودوت الافامي** — ويدعى تريفون ايضاً ، تسنم العرش ولما استقر فيه فعل كمن سبقه من حيثية الانصراف عن المصلحة العامة الى الخاصة فقام عليه انطيوخوس السابع سيدات اخو ديمتريوس ونشب بينهما القتال ، فانضم عدد من جيش ديودوت الى الثائر ، فلم يستطع ديودوت الوقوف امام خصمه ففر الى بلده افاميا حيث القي عليه القبض وقتل سنة ١٣٨ .

١٥) **انطيوخوس السابع سيدات** — هو ثاني اولاد ديمتريوس الاول تزوج كليوباترا امرأة اخيه ديمتريوس الثاني سنة ١٤١ وبمساعيها تمكن من الوصول الى العرش سنة ١٣٨ ، ولكنه قتل في معركة مع البرثيين سنة ١٢٩ .

١٦) **اسكندر زبينا** — هو في الاصل ابن دلال من الاسكندرية ، اغراه فيسكوس ملك مصر ان يدعي انه ابن اسكندر بالاس ، لينازع ديمتريوس نيكاتور الملك ، فتمكن بعد جهاد من نيل امنيته سنة ١٢٥ بعدما قتل ديمتريوس في صور وملك زبينا في انطاكية في الوقت نفسه الذي ملك سلوقوس بن ديمتريوس في الجنوب (عكا) ، ولما قتل سلوقوس استقدمت امه اخاه انطيوخوس غريفوس (الاقنى) لحارب زبينا وانتصر عليه ففر زبينا وقتل سنة ١٢٣ .

١٧) **انطيوخوس الثامن غريفوس** — هو ابن ديمتريوس نيكاتور من زوجته كليوبترا ، استتب الملك لغريفوس نحو ست سنوات (١٢٠—١١٤) ، ثم سار

عليه انطيوخوس شيزيك السابع ووقعت الحرب بين الاخوين ، وبعد معارك متعددة انتصر شيزيك واضطر غريفوس الى الفرار .

١٨) انطيوخوس التاسع شيزيك — هو ابن انطيوخوس سيدات (الصياد) وهو اخو انطيوخوس غريفوس لامه دون ابيه ، اكره اخاه سنة ١١٦ على الفرار . ولما عـاد غريفوس بجيش عظيم مطالباً بالعرش اتفق الاخوان سنة ١١٤ على اقتسام المملكة فكانت سوريا المجوفة وفينيقية من نصيب شيزيك والباقي من نصيب غريفوس . ولما مات غريفوس سنة ٩٧ ساد شيزيك على سوريا كلها ، ولكن سلوقوس السادس حاربه بعد مـدة وغلبه فصعب عليه الامر فانتحر سنة ٩٥ .

١٩) سلوقوس السادس — هو احد اولاد غريفوس ، تبوأ عرش انطاكية اولاً سنة ٩٧ ثم حارب شيزيك وغلبه سنة ٩٥ وظل مستقراً على المملكة كلها مدة غير طويلة حيث زاحمه على العرش انطيوخوس بيوس وقاتله ففاز عليه سنة ٩٤ وفرّ الى كيليكية حيث استثار اهـالي المصيصة وطأته فأحرقوه في بيته سنة ٩٣ .

٢٠) انطيوخوس العاشر بيوس — هو ابن انطيوخوس شيزيك غلب سلوقوس السادس على الملك ولكن بعد سنتين ثار عليه اولاد غريفوس وقاتلوه فغلبوه سنة ٩٢ ففر الى برثيا ويظن انه مات فيها سنة ٧٥ .

٢١) انطيوخوس الحادي عشر فيلادلفوس — هو ابن غريفوس ، لقب ملكاً مع اخيه فيلبس بعد قتل سلوقوس السادس اخيهما البكر حرقاً في المصيصة سنة ٩٣ فانتقما له من اهل المصيصة ولكن انطيوخوس العاشر استظهر عليهما وخلعهما وغرق انطيوخوس فيلادلفوس في العاصي في اثناء هربه سنة ٩٠ .

٢٢) ديمتريوس الثالث اوثر — هو رابع اولاد غريفوس ، استقدمه بطليموس لاوثر (ملك مصر) من كريت ليزاحم انطيوخوس بيوس (العاشر) . وذاك على اثر تزوج انطيوخوس المذكور بسيلانه ارملة غريفوس تعزيزاً لمركزه .

اذ ان هذه المرأة الذكية احتفظت لنفسها ببعض اعمال المملكة يحرسها جنود ذوو بأس ·

وكان انطيوخوس المذكور في حالة حرب مع فيلبس بن غريفوس · فاغتنم ديمتريوس هذه الفرصة وبسط سيطرته على سوريا المجوفة · ولما استظهر فيلبس على انطيوخوس العاشر ولاذ هذا بتريدات ملك برثيا تقاسم الاخوان المملكة · فكانت انطاكية عاصمة فيلبس . ودمشق قاعدة ديمتريوس سنة ٩٥ ·

وبعد سنتين عـاد بيوس من برثيا وقد امده البرثيون بجيش لاسترداد عرشه المفقود فاستحوذ سنة ٨٩ على بعض اعمال سوريا وحدثت له عدة معارك مع فيلبس ، ورأى ديمتريوس الفرصة سانحة لامتلاك ما بيد اخيه فيلبس فاستنجد هذا البرثيين فامدوه على ديمتريوس فقادوه اسيراً الى برثيا حيث مات سنة ٨٧ ·

٢٣) انطيوخوس الثاني عشر دانيس — هو خامس اولاد غريفوس ، لما رأى اضطرام المعارك بين انطيوخوس وفيلبس وديمتريوس حشد جيشاً واستولى على دمشق مكان اخيه ديمتريوس وسمى نفسه ملك سوريا المجوفة ولبث يحكمها مدة ثلاث سنوات (٨٩—٨٦) .

٢٤) ديكران — لما وقعت الوحشة بين اولاد غريفوس نفر الناس منهم جميعاً فاستقدموا ديكران الارمني سنة ٨٣ ليملك عليهم فلبى الطلب وظل حاكماً في سوريا ١٤ سنة ·

٢٥) انطيوخوس الاسيوي الثالث عشر — هو ابن انطيوخوس العاشر ، ربي في اواسط آسيا ومنها اخذ لقبه الاسيوي · ظل مـدة طويلة بعيداً عن السياسة ولكن لوكلس اجلسه سنة ٦٩ على العرش السوري الذي خلع عنه ديكران اباه · ثم غلبه بمبيوس الروماني على املاكه وجعل سوريا ولاية رومانية سنة ٦٤ ق‌م ·

سلسلة ملوك اليونان في سوريا

٣٣٣	اسكندر الكبير	٣٢١	انتيغون
٣٢٣	ليوميدون	٣١١	سلوقوس الاول

٢٨٠ انطيوخوس الاول
٢٦٠ انطيوخوس الثاني ثيوس
٢٤٦ سلوقوس الثاني كالينيكوس
٢٢٥ سلوقوس الثالث كيراونوس
٢٢٢ انطيوخوس الثالث الكبير
١٨٦ سلوقوس الرابع فيلوباتر
١٧٥ انطيوخوس الرابع ابيفان
١٦٤ انطيوخوس الخامس اوباتور
١٦٢ ديمتريوس الاول سوتر
١٥٠ اسكندر بالاس
١٤٧ ديمتريوس الثاني نيكاتور
١٤٥ انطيوخوس السادس
١٤٢ تريفون (ديودوت) الافامي
١٣٨ انطيوخوس السابع سيدات
١٢٩ ديمتريوس الثاني ثانية
١٢٥ اسكندر زبينا
١٢٤ سلوقوس الخامس مع امه
١٢٠ انطيوخوس الثامن غريفوس
١١٤ انطيوخوس التاسع شيزيك
٩٥ سلوقوس السادس
٩٤ انطيوخوس العاشر بيوس
٩٣ انطيوخوس ١١ فيلادلفوس
٩١ ديمتريوس الثالث اوثر
٩١ فيلبس في انطاكية
٨٩ انطيوخوس الثاني عشر دانيس
٨٣ ديكران
٦٩—٦٤ انطيوخوس الـ١٣ الاسيوي

وخلاصة ما يقال عن امة اليونان ان نفوذها استغرق اربعة قرون بانتصاراتها وانكساراتها معاً. فقد ظهرت على مسرح التاريخ اثناء حروبها مع الفرس ٤٨٠ق م وظهر نوابغها بعد الحروب في كل فروع المدنية من الشعر والتمثيل والتاريخ والنقش والتصوير والفلسفة . ولم يكن ذلك بانتصارها فقط بل في انكسارها ايضاً . ففي القرنين الثاني والاول ق م غزت رومة ممالك اليونان فأشربت عاداتها ومبادئها وتمدنها . ثم احيي هذا النفوذ بعد سقوط القسطنطينية في القرن الخامس عشر يوم فرّ علماؤها الى اوربا فكان ذلك مبدا العصر العلمي (الرناسانس) فنشأت منه رأساً او بالواسطة فنون وعلوم وفلسفة جديدة . وتأثير ذلك مشاهد في كل زاوية من زوايا العالم . وفي ذلك عظة ادبية تدل على ان عظمة الامة لا تتوقف على سلطتها السياسية ، بل على سيادة البصيرة على العاطفة فيها. فلئن غلب السيف العقل مرة ، فالعقل يعتقل السيف في معظم المعارك . والامة التي تهجر الملاهي والملاذ الباطلة ، وتعتنق العلم والمعرفة والمدنية الصحيحة ، تفوز حتى على مستعبديها .

حوادث هذه الحقبة الخاصة بحمص

١ — الاسكندر وسد بحيرة حمص

بعدما اخضع الاسكندر مصر لسلطانه وبنى هناك مدينة الاسكندرية ، انعطف بقواته على بلاد الفرس ليتم فتحها . فسار في ربيع سنة ٣٣١ ماراً في نفس الطريق التي اجتازها براً ، اتباعاً لخطة الفاتحين من ملوك مصر . فاجتاز البقاع وبعلبك وحمص فتدمر . ولكنه لما وصل الى سهل حمص رابطت جنوده هناك مدة درس فيها آثار الحملات المصرية على مدينة قادس الحصينة . التي اعجب بموقعها الطبيعي العزيز المنال . ورأى في اثناء اقامته القصيرة المدة ان يستأنف اصلاح السد الذي حجزت به مياه العاصي قرب قادس لتكون بمثابة خزان لتلك المياه . وقد تُرك له عند بنائه منفدان كبير وصغير . الاول لري الاراضي التي يمر بها والثاني لاجل الاستقاء .

عندما زار الجوالة الاميركي الشهير روبنسون هذه البحيرة سنة ١٨٥٦ كتب عنها ما يلي : يتكون من نهر العاصي على بعد نحو من ثلاث ساعات من ربلة نحو الشمال ، بحيرة تسمى بحيرة قادس وبحيرة حمص . طولها مسافة ساعتين وعرضها مسافة ساعة واحدة . وطرفها الشمالي يبعد عن حمص مسافة ساعتين . واكثر اجزاء البحيرة — ان لم نقل كلها — صناعية فهي مؤلفة من سد قديم يعترض جريان النهر . وطول هذا السد من اربعمئة الى خمسمئة يرد . وعلوه لا يتجاوز اربع عشرة قدماً . وعلى طرفه الشمالي الغربي برج صغير . وفي الجهة الشمالية جزيرة صغيرة وتل ...

وذكر ابو الفداء هذه البحيرة وسماها بحيرة قادس واعتبرها صناعية . اذ لو هُدم السد لجرى الماء ولم تبقَ ثمة بحيرة بل نهر . وكانت العامة على عهد ابي الفداء تنسب هذه البحيرة الصناعية الى اسكندر الكبير اه .

والصحيح — كما قال المطران يوسف الدبس (١٦٨:١) — انها قبل الاسكندر بقرون ولا بد ان كانت قادس على جانب هذه البحيرة كما حقق

كثيرون من اهل العلم . ومنهم الاب جوليان اليسوعي الذي نشر مذكرات تطوافه في سوريا المجوفة سنة ١٨٩٠ في مجلة الدروس الدينية التاريخية الفلسفية في شهر حزيران من تلك السنة .

وهذا الرأي هو الراجح اذ لم يكن الاسكندر في سعة من الوقت تمكنه من انشاء السد من اساسه . وهو في موقف يقتضي الاسراع لادراك دارا . فلا بد اذن من انه رأى ثغرة في السد فأمر باصلاحها ليترك اثراً حسناً في هذه المنطقة وهو الغرض الاصلي لحملته الحربية

٢ — اقتتال خلفاء الاسكندر على اقتسام سوريا في منطقة حمص

مرّ بك ان قادة الاسكندر بعد اقرارهم الملك لارهيدي اخي الاسكندر اقتسموا المملكة فيما بينهم وكانت سوريا من حظ ليوميدون . ولكن لما وقعت الحرب بين انتيغون واومين . طمع بطليموس بضم اليهودية وفينيقية وقبرص الى مملكته اتقاء لهجمات ذوي المطامع . فبعث نيكاتور بجيش بري الى سوريا وقاد هو الاسطول لفتح السواحل . فتوفق الاثنان وصارت سوريا طوع يديه بعدما وقع ليوميدون اسيراً بيد نيكاتور .

ولكن لما تحالف بطليموس وكسأندر وليسياك وسلوقوس سنة ٣١٥ على انتيغون واخذوا منه قبرص . حشد هو جيشاً كبيراً وقدم بــه الى سوريا للثأر من بطليموس فلم تحل استعدادات بطليموس العظيمة دون فوزه بجهاده العظيم وبمهارة ابنه ديمتريوس . وعادت فلسطين وفينيقية وسوريا المجوفة التي منها حمص الى ولاية انتيغون سنة ٣١١ .

وحدث بعد هذا ان نشبت ثورة في مملكة انتيغون فانتهز بطليموس الفرصة واسترد اليهودية وفينيقية وسوريا المجوفة . ثم حصلت عدة حروب بين خلفاء الاسكندر كانت نهايتها سنة ٣٠١ اذ اتفق الكل على محاربة انتيغون ففازوا عليه في معركة هائلة وقعت في فريجيا قتل فيها انتيغون وفر ابنه ديمتريوس .

على اثر ذلك اجتمع القواد في منطقة حمص في موضع سمي آنئــذ الفراديس الثلاثة (تري باراذيسوس) . يرى العلامة رينه دوسو ان موقعه بقرب

جوسيه القديمة . ويرى غيره انه كان في سهل قرية الزراعة حيث ينابيع ومياه دافقة تسقي الاراضي .



بقعة الزراعة حيث يمر نهر العارون ، ولعله الموضع الذي اقتسم خلفاء الاسكندر البلاد حيث سماه المؤرخون الفراديس الثلاث

في هـذه البقعة النضراء تم اقتسام البلاد اربعة اقسام : مكدونيا الكسآندر ، والاناضول للسياك ، ومصر لبطليموس ، وسوريا لسلوقوس .

وقسمت سوريا ثمانية مناطق منها في سوريا المجوفة اربعة وهي دمشق وبعلبك وحمص وحماة . وكانت سوريا المجوفة ذات مركز هام في سوريا لذلك ظلت مدة طويلة سبب التطاحن بين البطالسة والساوقيين تضم الى هؤلاء تارة والى اولئك اخرى كما ترى في ما يلي .

٣ — انطيوخوس سوتر يسترد حمص

لما قتل سلوقوس سنة ٢٨٠ خلفه ابنه انطيوخوس سوتر الذي انما لقب سوتر لانقاذه الاناضول من عبث الغالبين سنة ٢٧٥ فكان من همه استرداد سوريا المجوفة ورأى سانحة لما انهمك بطليموس فيلاذلفوس بفتنة اخيه ، فنازل دمشق قاعدة سوريا المجوفة وفتحها ثم ضبط سائر مدن المنطقة سنة ٢٦٢ فانسلخت حمص مع حماة وبعلبك عن مصر وضمت الى ... ١ .

ولكن لما مات انطيوخوس سوتر نشبت حرب ... د وملك مصر

سنة ٢٠٠ ادت بعد معارك متتابعة الى استيلاء بطليموس افرجانت على سوريا المجوفة وعبر الفرات .

٤ — انطيوخوس الكبير يسترد حمص

انطيوخوس الثالث من اعاظم ملوك الدولة السلوقية بل هو اعظمهم بعد سلوقوس الاول . تسنم العرش والمملكة مبتورة الجناح فحاول ان يعيد لها ما اكتسح منها . فجهز حملة بعث بها الى الجنوب لاسترداد ما قطع منها وقبل وصول قواته الى السهول الواقعة بين لبنان وانتيلبنان بلغه انتصار العصاة وراء الفرات على القوى الموجهة لتطويعهم ، فاضطر ان يغير وجهة سفره . فسار الى افاميا حيث حل عدة مشاكل عرضت له ثم عبر الفرات في الشتاء ثم باغت العصاة في ربيع سنة ٢٢٠ فانتصر عليهم انتصاراً باهراً جعل قادتهم ينتحرون لشدة الخوف واليأس .

ولما عاد من حملته هذه اراح جنوده قليلا في انطاكية . ثم امرها بالسير الى سوريا المجوفة وجعل مركز الاجتماع افاميا . فسارت العساكر سنة ١١٩ بعدما ضبطت سلوقية وطردت بقايا الجنود المصرية منها . فكانت حملته موفقة اذ لم يكتف باسترداد سوريا المجوفة ، بل ضم اليها فينيقية الساحلية . وبلغ جنوبي سوريا وكاد يدخل مصر لولا علمه بفتح سدود النيل ، فاكتفى بما ناله واقام تيودوت والياً على سوريا المجوفة وما يليها وقفل راجعاً .

غير ان الحروب الكثيرة التي اثارها انطيوخوس ولقب لاجلها بالكبير انهكت قوى جيوشه واضطر اخيراً ان يسترضي ملك مصر بتقديمه فلسطين وسوريا المجوفة مهراً لابنته التي اعطاها زوجة لملك مصر .

٥ — انطيوخوس الرابع ابيفانه يطالب بحمص

كان المصريون يدعون ملكية فلسطين وسوريا المجوفة بحجة ان هذين الصقعين وقعا منذ بدء القسمة في حصة بطليموس الاول . وقد اعترف انطيوخوس

الكبير بهذا الحق اذ ردهما الى مصر بزفاف ابنته لملكها . اما السلوقيون فكانوا يدعون ان سوريا كلها بما فيه فلسطين وسوريا المجوفة وقعت بعد القسمة في حصة سلوقوس نيكاتور وان انطيوخوس الكبير انما وهب ما وهبه بطريقة الاحتيال .

فلما بلغ بطليموس فيلوماتور السنة الخامسة عشرة من عمره واعدت الحفلات لتتويجه . ارسل انطيوخوس ابيفان ابولون احد كبراء دولته لتهنئة الملك وهو يبغي معرفة نية الملك من جهة سوريا. ففهم ابولون ان المصريين يستعدون لاخذ فلسطين وسوريا المجوفة . فجهز حملة وبعث بها لمعارضة المصريين فالتقى الجيشان بقرب فرما سنة ١٧١ حيث استظهر السوريون على المصريين . وفي ربيع سنة ١٧٠ حدثت معركة ثانية انتصرت فيها جيوش انطيوخوس ايضاً . وتوغل ابيفان في مصر موصياً جنده بعدم ايذاء المصريين فاستسلم له المصريون . واستقبلوه بترحاب . واستسلم ايضاً بطليموس ابن اخته فاكرم مثواه وعامله معاملة نسيب وصديق .

٦ — شجاعة حمصي

لما تسنم عرش سوريا انطيوخوس ابيفان كان ديمتريوس بن سلوقوس الرابع رهينة عند الرومان . فلما مات عمه انطيوخوس المذكور التمس من الرومانيين اخلاء سبيله ، وكان من مصلحة الرومان ان يتولى سوريا ملك قاصر نظير انطيوخوس الخامس ، فأيدوه وارسلوا وفداً سنة ١٦٣ لتطبيق العهدة التي اتفقوا عليها مع انطيوخوس الكبير ، وادعى الموفدون انهم وجدوا في سوريا سفناً وفيلة اكثر مما نصت عليه العهدة . فأحرقوا ما زاد من السفن وقتلوا الاكثر من الفيلة . فاستصعب السوريون هذه المعاملة وملأت الحماسة صدر رجل من المنطقة الحمصية اسمه ليبتين . فهجم على رئيس الوفد المدعو اوكتاف وصرعه بصفعة شديدة افقدته الحياة ، ثم اختفى بين الجماهير . فاتهم الوفد ليسياس بحدوث ما حصل . فارسل الى رومة وبرر نفسه . ولكن رجال الندوة احتفظت لنفسها بحق الفحص عن هذه الجريمة ومعاقبة فاعلها .

فلما ملك ديمتريوس سنة ١٦٢ رأى ان يوطد عرشه بالزلفى الى الرومانيين فارسل اليهم هدايا ثمينة وبعث سنة ١٥٩ بليبتين الذي فتك بسفيرهم مصحوباً برجل يوناني اسمه سقراط للمدافعة عن المذكور . ولكن الرومان حفظوا لانفسهم حق المطالبة بالترضية ولم يجد الدفاع شيئاً (الدبس عد ٤٣٦ و٤٣٩) .

٧ً — مساع جديدة لالحاق سوريا المجوفة بمصر

بعدمـــا استولى اسكندر بالاس على العرش السوري سنة ١٥٠ وعزز مركزه اخلد الى الراحة وعكف على الترف . فجاهر ابولون والي بقاع سوريا بالانحياز الى ديمتريوس الثاني فأقره هذه على ولايته واقامه قائداً للجيش . ولكن يوناتان المكابي تصدى للخائن وورد المقاطعة الى بالاس . فبعث هذا له عروة من ذهب تعود القدماء اهداءها للملوك .

وفي اثناء ذلك حضر حموه بطليموس السادس من مصر متظاهراً بالانتصار لصهره على المتمردين عليه وهو ينوي استرداد سوريا المجوفة . فأحسنت المدن السورية استقباله بامر بالاس . فكان هو يترك في كل مدينة يمر بها حرساً من الجند ويقصد سواها ، فلما بلغ انطاكية كان قد بسط نفوذه على كل مدن سوريا ، فوضع تاج سوريا على رأسه غير مبال بصهره اسكندر بالاس الذي كان في كيليكيا . فلما درى بما حصل خفّ لقتال حميه واسترداد العرش ، ولكن الجيش الذي بقي معه لم يكن كافياً لمقاومة الجيشين المصري والسوري الذي مع بطليموس ، فدارت الدائرة على بالاس وفرّ بخمسمائة فارس لائـــذاً بزبديئيل احد امراء العرب الضاربين في سوريا الشمالية . ولكن هذا رأى ان نجم بالاس قد أفل فاراد اسداء الملك بطليموس منة فقطع رأس بالاس وارسله اليه (١ مك ١١ : ١—١٩) وكان ذلك سنة ١٤٦ ق م .

٨ً — معارك في سهول حمص

بعد قتل اسكندر بالاس استتب الامر لديمتريوس الثاني . ولكنه مـــا

كاد يطمئن على عرشه ، حتى اخذته العنجهية فأساء التصرف وتعسف فمقته الشعب وثارت عليه الرعية . فاستسنح الفرصة ديودوت الافامي وكيل بالاس سابقاً فمضى الى «ايلكوئيل» امير العرب الذي اودع عنده انطيوخوس بن اسكندر بالاس طالباً منه ان يسلمه الامير الصغير . وبعد لأي سلمه الامير ليعيد اليه عرش ابيه . وفي اثناء ذلك هاج الشعب على ديمتريوس ، فلما حضر انطيوخوس الامير الصغير مع ديودوت (تريفن) انضوى الجند الثائر اليه للحال ونادى به ملكاً باسم انطيوخوس ثيوس . وحالما تسنم العرش كتب بايعاز تريفون الى يوناتان يقره في وظيفته مبيحاً له لبس الارجوان وعروة الذهب التي اهداه اياها ابوه (بالاس) فاخلص يوناتان له وحارب القوة التي جمعها ديمتريوس بمعركة حدثت في سهول حمص (١مك١٢ : ٢٤) هلع لها قلب ديمتريوس وجنده فاضرموا النار في محلتهم ليوهموا يوناتان انهم ما برحوا في المعسكر . وفروا تحت جناح الظلام مجتازين العاصي على جسر الرستن ، ولما اشرقت الشمس وعرف يوناتان بفرارهم تعقبهم فلم يستطع لحاقهم لاجتيازهم مسافة بعيدة ، فارتد الى قبيلة الزبديين التي كانت مخيمة هناك . فضربها وسلب مواشيها لممالأتها الاعداء ثم اتى الى دمشق ، (١ مك ١٢ : ٢٤—٣٩) .

٩ً — قتل تريفون في افاميا

روى بعض المؤرخين ان تريفون اغتال الامير الصغير انطيوخوس ولبس تاجه ، ولكن تريفون ومحازبيه يقولون ان انطيوخوس مات على اثر عملية جراحية باشرها الاطباء لاخراج حصاة من مثانته . ولكن الشعب لم يصدق ما قاله ، فثاروا عليه . وكان المكابيون حكام اليهودية ناقمين على تريفون لقتله يوناتان في السلط سنة ١٤٣ ق م فلما قدم سيدات من رودس مطالباً بعرش ابيه ديمتريوس الاول آزره المكابيون من الجنوب . ورأى الجيش السوري عظمة القوى التي تناهض تريفون فانحاز معظمهم الى سيدات ، ففر تريفون الى طرطوس بحراً ومنها قصد افاميا مدينته حيث قبض عليه وقتل سنة ١٣٨ .

١٠ — انقسام الدولة السلوقية او الخطوة الاولى لاستقلال حمص

لما اغتال تريفون يوناثان المكابي سنة ١٤٣ خشية ان يؤدي فوزه الى معارضته ، استاء اليهود وثاروا بقيادة سمعان المكابي ضد تريفون . ثم تلا ذلك وقوع ديمتريوس (مزاحم تريفون على العرش) اسيراً بيد متريدات ملك برثيا ابان محاربته البرثيين ، واضطراره ان يتزوج ابنة ملك برثيا ويبقى عنده . فاستاءت ايضاً زوجته كليوباترا ، واستقدمت اخاه بطليموس سيدات من رودس . فاتفق مع سمعان المكابي على محاربة تريفون بعدما تزوج كليوبترا امرأة اخيه ، ففاز على تريفون وتسنم العرش السوري ، ثم جهز حملة حارب بها فرهاد البرثي ففاز عليه واسترد بابل ومادي. فسرح فرهاد ديمتريوس ليثير الشغب في سوريا على سيدات ويضطره لمبارحة برثيا ففعل . ولكن قبل ان يصل ديمتريوس الى انطاكية اغتيل سيدات في برثيا . فحصل الاضطراب العظيم في سوريا وانقسمت الدولة السلوقية لاهواء متباينة . اذ جر الخلاف الواقع في مصر بين بطليموس فيسكون (البطن) وبين زوجته كليوبترا ، الى استقدام ديمتريوس من انطاكية . فلما برحها حصلت ثورة انتهت بتسنم زبينا العرش السوري وقتل ديمتريوس وانقسام المملكة بين كليوبترا وزبينا سنة ١٢٥ . فانتهز اليهود هذه الفرصة لخلع نير الطاعة للسلوقيين. وقطع كل صلة لهم بهم . فكان هذا النواة الاولى لاستقلال الحمصيين .

١١ — غريفوس وشريك يقتسمان سوريا

كان لكليوبترا من ديمتريوس ابنان اكبرهما اسمه سلوقوس والثاني انطيوخوس الملقب غريفوس (الاقنى) فحاول الاول امتطاء العرش فقتلته امه وملكت الثاني لصغر سنه لتستأثر هي بالعرش . ولما استرشد هذا حاولت قتله فسبقها هو اذ قتلها بنفس السم الذي اعدته له . وثار القتال بين زبينا وغريفوس اذ حاول كل منهما الانفراد بالسيادة فساعدت الظروف غريفوس على الفوز فقتل زبينا سنة ١٢٣ .

ولما استراح غريفوس من مزاحمه على العرش حاول اعـادة اليهودية الى

طاعته ، فاغتنم الفرصة اخوه (لا ٨٠) انطيوخوس شيزيك بن سيدات وقام على غريفوس وكانت الحرب سجالاً بين الاخوين وانتهت اخيراً باتفاقهما على قسمة البلاد ، فاخذ هو انطاكية وسوريا الشمالية وشيزيك فينيقيا وسوريا المجوفة سنة ١١١ .

واستفاد هركان بن سمعان المكابي من هـذه الظروف فألحق السامرة بولايته فكان حاكماً على اليهودية والسامرة والجليل .

ولما قتل غريفوس سنة ٩٧ استولى شيزيك على انطاكية ولكن سلوقوس بن غريفوس كبير اولاد غريفوس الخمسة استخلصها منه وقتله سنة ٩٥ واستتب له الملك في سوريا .

١٢ — انقسامات جديدة والخطوة الاخيرة لاستقلال حمص

لم يرتح سلوقوس بن غريفوس مدة على عرشه لان ابن عمه انطيوخوس بيوس نادى بنفسه ملكاً سنة ٩٣ في رواد وحصل القتال بين الفريقين ففاز بيوس وفر سلوقوس الى كيليكيا حيث اميت حرقاً ، فثار اخواه انطيوخوس وفيلبس على بيوس وانتهت المعارك بغرقه في العاصي . ثم تلا ذلك حروب بين اولاد غريفوس ضاق بها السوريون ذرعاً فاستقدموا ديكران الارمني لحكم سوريا ١٤ سنة (٨٣–٦٦) وكان هذا الخطوة الثانية لاستقلال المنطقة الحمصية .

١٣ — اباء الحمصيين

ولا نجـد زحته قبل ختام هذا الفصل من ذكر حادثة جرت في ايام السلوقيين تدل على اباء الحمصيين وميلهم الى الاستقلال .

سيق في زمن السلوقيين عدد كبير من السوريين ارقاء الى اوربا بعضهم لمشاغب احدثوها وبعضهم لضرائب عجزوا عن تأديتها ، وبعضهم لجرائم اتهموا بها ، ومن هؤلاء المسوقين الى بلاد غير بلادهم عدد من اهالي منطقة حمص . ولم نكن لنعرف تفاصيل مـا اتوه لولا ان الحظ حفظ لنا اسم البعض منهم لاحداث سياسية قاموا بها . ومما يجدر بالذكر ، ان المشار اليهم كانوا يظهرون

تعلقاً باهداب الوطنية لا يكاد يضارعهم فيه مضارع . اذ لم يكتفوا باظهار تعلقهم الشديد بوطنهم الاصلي بل اظهروا في دار غربتهم ما اوجب على النازلين بينهم احترام عاداتهم وتقاليدهم الخاصة . بلفتهم الانظار اليها وجعلها محلى احترام اهالي البلاد التي ابعدوا اليها .

من ذلك ان رهطاً من مبعدي حمص كان حظهم في صقلية . ولم تقعد هؤلاء شواغل الغربة بل شمروا عن ساعد الجد فحرثوا الحقول واستثمروها بالطريقة التي اعتادوها في الشرق ، فاخضلت المزارع واصبحت حقول صقلية جناناً تروق الناظر وتؤتي اكلها في حينه . لكن سادة البلاد بالغوا في الضغط عليهم . ولم يكن هذا مما ألفوه فاستثقلوا وطأة هذا الضغط ونهض فيهم شاب لم يحفظ لنا التاريخ سوى اسمه « يونس » بدون لقب ولا نسبة . هذا لم يز وسيلة لاثارة قومه سوى ان يرد الامر الى الآلهة . فادعى ان الآلهة عينته قائداً لجمع السوريين الذين في صقلية وامرته ان يرفع لواء الثورة على الذين لم يحترموا « افروديت » معبودة السوريين وبعلها « هود » ولما طلبوا منه شاهداً على صحة دعواه ابتلع الجمر بدون ان يلحق به اذى . فوجد نداؤه هذا آذاناً صاغية فاندلعت نار الثورة وطار شررها في البلاد فتركت صقلية قاعاً صفصفاً وكان ذلك سنة ١٣٥ ق م ، وقد اشار الى هذه الحادثة الدكتور فيليب حتي (المقتطف ٥٠ ص ٥٣٨) .

عمران المنطقة الحمصية في هذه الحقبة

مر بنا ان سلوقوس الاول بنى في مملكته ٣٤ مدينة ، وكان لمنطقة حمص حظ في هذا العمران اذ بني فيها مدينتان لهما اثرهما في التاريخ :

الاولى — افاميا

اختلف المؤرخون فيما اذ كانت افاميا من بناء السلوقيين ام من بناء

السوريين ؟ فزعم بعضم ان المكدونيين بنوها وسموها بيلا على اسم المدينة التي اتخذها فيلبس المكدوني قاعدة لملكه . وفيها ولد اسكندر المكدوني فاتح المشرق فكبرها سلوقوس نيكاتور وجعلها اهلاً لان تكون مستودعاً للافيال والخيول والمؤن والذخائر وسماها افاميا باسم امرأته . فازهرت حتى كانت احدى المدن الاربع في مقاطعة سوريا الغربية وهي سلوقية وانطاكية واللاذقية وافاميا (المقتطف ٧٨ : ٣٣٤ والمشرق سنة ١٩٣١ ص ٢٠) .

ولكن المتداول ان منشئها سلوقوس الاول الذي استحسن موقعها وما وجده في بقعتها من المراعي الواسعة والكلأ المنتشر فأمر ببنائها على الضفة الشرقية من العاصي وعلى مسافة ٤٠ كيلو من حماة شمالاً غرباً ودعاها افاميا على اسم امرأته . ولما اتم بناءها وتحصينها ، وضع فيها ٣٠ الف فرس وخمسمائة فيل وثلاثمئة جاموس . وانشأ فيها مدرسة لتعليم الفروسية . وكانت قاعدة المقاطعة الواقعة شمالي لاوذيكي . وصارت في عهد الرومـــان قاعدة مقاطعة سوريا الثانية الواقعة جنوبي العاصي (آثار الادهار) .

وتدل آثار هذه المدينة على انها ظلت زاهرة مـــدة طويلة قبل المسيح وبعده . والمعروف من تاريخها المدني ان كسرى الثاني فتحها وفرض عليها اتاوة سنة ٥٤٠ .

ثم بعد مدة باغتها قائده ادرميتس بعدما صالح اهلها الفرس ودفعوا لهم الضريبة تفادياً من النهب . فخرق القائد المذكور المدينة وصفّد الاهلين بالاغلال وقادهم اسرى الى ما وراء الفرات سنة ٥٧٣ .

ثم عمرت افاميا بعد ذلك وصارت تابعة لحمص فعوملت ابان الفتح الاسلامي معاملة حمص سنة ٦٣٨ . ولما داهم الصليبيون سوريا ملكوها ، ثم اغتصبها منهم نور الدين .

ولم يبق لها بعد ذلك ذكر مهم ، وسنة ١٠٥٢ حصل فيها زلزال هائل هدم مبانيها وحول صروحها الجميلة الى ركام حجارة ، نقل العرب كثيراً منها وبنوا بها قلعة المضيق . وظلت افاميا منسية حتى اهتم بالتنقيب عن آثارها بعثة بلجيكية سنة ١٩٢٨ .

الثانية — اريثوسا (الرستن)

اتفقت كلمة المؤرخين القدماء على ان بانيها سلوقوس نيكاتور ودعاها اريثوسا باسم مدينة في مكدونيا ذكرها ابيان (عد ٥٧) ولعله دعاها اريثوسا لوقوعها على ضفة النهر . واريثوسا هي احدى بنات الماء في الاساطير اليونانية .

كانت اريثوسا في ايام سترابون قاعدة امارة عربية دخلت تحت حماية الدولة الرومانية في ايام اوغسطس وطيباريوس ، وذكرها زوسموس المؤرخ اليوناني ابان بسطه حروب زينب واوريليان ، اذ شرح تعقب القيصر لزينب حينما عادت الى حمص تستنجد فرسان العرب فيها ، وفتح في طريقه افاميا ولاريسا (شيزر) واريثوسا حتى بلغ ضاحية حمص حيث حصلت المعركة العظيمة في السهل العظيم الكائن ما بين حمص واريثوسا (الرستن) .

وروى الواقدي انها امتنعت على ابي عبيدة فاودع فيها صناديق مقفلة وضع فيها رجالاً ، فلما اشتغل اهلها بالصلاة خرج الرجال من الصناديق واخذوا مفاتيح المدينة ، من ردهة صاحبها وفتحوا الابواب للجيش العربي فدخلها خالد ابن الوليد برجاله .

ذكرها بعد ذلك ابو الفداء وياقوت وكلاهما اشار الى خرابها . ونقل السيد يوسف اليان سركيس عن السائح الالماني شارل وكنر ما يلي (المقتطف٣٢ص١٠٠٠) .

ان بقايا جلالتها القديمة هي حطام اسوار وبرجين فقط ... ومنذ كتب عنها ابو الفداء لا يظهر انه نزل بها نازلة او تغير فيها شيء . وينسب بناء الخان والجامع القائمين على ضفة العاصي الى السلطان مراد المشهور ببناء الخانات . ولا يرى من اريثوسا القديمة سوى بعض اسس الابنية او اكوام الحجارة .

وروى ابن الشحنة في تاريخه انــه في سنة ١١٠٢ م (٤٩٦ هـ) نازل الافرنج الرستن ، ثم رحلوا وخرجوا من تل باشر واغاروا على بلد حلب الشمالي واحرقوه .

وارتأى السيد سركيس المومأ اليه رأياً خالف فيه مؤرخي اليونان القدماء ، اذ ذهب الى ان بناءها اقدم عهداً مما ذكروا بكثير بدليل وجود آثار حجرية

عليها كتابة حثية تشبه الهيروغليفية . وان اسمها اليوناني (اريثوسا) مأخوذ من الرستن ، لا الرستن من اريثوسا ، والله اعلم .

ويظن بعضهم انها هي نفس ارثوسيا التي روى مؤرخو اليونان ان تريفون فرّ اليها من طرطوس ثم قصد مدينة افاميا ، وان هذا احسن حل للاشكال الذي رواه البستاني في دائرته (٢:٧٩٦) لتوفيق المؤرخين الذين زعم بعضهم انها (اي ارثوسيا) شمالي طرابلس بمسافة ١١٣٠ استادة عن اورنطس ، وبعضهم انها الى الجنوب من طرطوس مسافة ٣٠ ميلاً والى الشمال من طرابلس مسافة ١٢ ميلاً الخ الخ...

اللغة اليونانية تزاحم الارامية في المنطقة

منذ استولى الاسكندر على هذه المنطقة واورثها لخلفائها اخذت اللغة اليونانية تجد لها محلاً في الاندية الادبية في البلاد السورية . ولم يمر وقت طويل حتى شعرت الطبقات العالية بحاجة الى تعلمها باتقان . فاخذ نوابغهم يدرسونها لا لاجل الزلفى الى الحكام فحسب . بل لاجل ارتشاف المعارف من معين مؤلفي اليونان الغزير .

فترجم في هذه الحقبة العهد القديم الى اليونانية في مصر . وسادت هذه اللغة لا دواوين الحكومة فحسب. بل صارت مرجع الكتاب في جميع الفنون ، ووجد الوف القطع الاثرية كلها مكتوبة بها .

وبالرغم من ان اللغة الآرامية ظلت لغة العامـــة كانت اللغة اليونانية لغة الخاصة في الحديث والمراسلة . وقد تركت اثراً في المؤلفات الآرامية نفسها التي لا تكاد تقرأ صفحة منها حتى تجد بضع كلمات يونانية نقلت الى تلك اللغة وامتزجت بها . حتى ظن بعضهم انها من اصل آرامي .

قال العلامة رينان : ان اللغة اليونانية اثرت في اللغات السامية عمومــاً والآرامية منها خصوصاً . اثناء المــدة الواقعة بين نشأة الدولة السلوقية والفتح الاسلامي وظل العنصر السامي مــدة عشرة قرون خافض الجناح تجاه السيادة

اليونانية حتى جاء الاسلام فاعادت السامية الكرة واخذت الثأر . . .

ومنذ عصر السلوقيين استولى اليونان على سوريا من ضفاف الفرات فصارت اللغة السريانية فيها ثانوية المقام ، ما خلا المدن التي لم يكن للسيادة اليونانية عليها اثر كبير كالمدن والقرى المجاورة الفرات ، التي حافظت على الآرامية او استعملت لغة مركبة من اللغتين . ولم يتوقف نفوذ اللغة اليونانية بصيرورة الحكم الى الرومان في سوريا بل بالعكس ازدادت توغلاً في البلاد وبني في انطاكية وبيروت مدرستان يونانيتان حسبتا من اعظم مدارس السلطنة اه .

(المقتطف ١٢ : ٦٨٧)

ЄΥΔΟ ΖΙΟCΑΜΑCΥΝΒΙѠΚΑΙΤЄΚΝΟΙC

ΜЄΝΟCЄΥΗΦѠCЄΝΠC

ΔΙΑΚCΙΟΥC

كتابة يونانية نقلت عن فسيفساء وجدت في احد منازل السيد خالد بحمص

ترجمة السطر الاول اقدوكسيوس مع زوجته واولاده . اما السطر الثاني والثالث فقد تهشما فتعددت قراءتها وترجمتها .

خلاصة ماجريات هذه الحقبة

انقلب وجه البسيطة بفتوحات اسكندر المكدوني العظيم . ودخلت سوريا وفلسطين تحت سيادته منذ فاز على داريوس قدمانوس سنة ٣٣١ ق م . ومما استفادته حمص في ايامه ، استئنافه عمل السد الذي حجزت به مياه العاصي قرب قادس ليكون خزاناً لتلك المياه . وقد ترك له عند بنائه منفذين كبيراً ، لري الاراضي . وصغيراً للاستقاء .



الاسكندر عند جثة داريوس

يظهر اسفه على خصمه الصريع ، انظر ص ٢٢٥ .

على ان حظ اليونان (على رأي حكمائهم ، وحظ العالم على رأي آخرين) لم يكمل لقصر حياة اسكندر الذي دعي الكبير بحق . فانه مات في الوقت الذي كان ينوي ان ينفذ فيه الخطط التي وضعها ، والآمال الخطيرة التي كانت تختلج في ذلك الصدر الرحب . ولو فسح له في الاجل عشرين سنة اخرى ، لتمكن من بلوغ الانقلاب الذي رام احداثه في العالم (براستد عد ٦٥٧) .

ولكن لم يؤت احد من خلفائه عبقريته لينفذ الخطط التي رسمها . اذ لم يستطع اخوه الساذج ارهيدي ، ولا طفله هرقل ، ولا الجنين الذي ولدتــه روكسانا بعد وفاته وسمي اسكندر اوغوس ، ان يمـلأ الفراغ العظيم الذي احدثه . فضاعت وحدة المملكة بين القادة والاوصياء . واضمحلت الاســرة المالكة في اثناء النزاع .

غـير ان احدى بقاع حمص النزهة المدعوة قديماً « الفراديس الثلاث » كانت مثوى الاتفاق بين كبار القـادة على اقتسام المملكة العظيمة . وكانت سوريا من حظ سلوقوس الاول الملقب نيكاتور . المعتبر مؤسس الدولة السلوقية . التي لا تنكر الاصقاع السورية آثارها الحسنى في مدتها الاولى . ومـا برحت انطاكية وسلوقية وافاميا واريثوسا — مـدن العاصي العظيمة — من آثار هذه الدولة ، دالة على مبلغ عنايتهم بسوريا . وكانت افاميا مركز القوة الحربية العظمى للسلوقيين . حفظوا فيها قطعان الافيال التي كانوا يستخدمونها في حروبهم . والمواشـي الكثيرة التي تركوها تسوم مراعيها الخصبة لوقت الحاجة .

لم يطل الامر على استقرار قدم السلوقيين في هذه البلاد ، حتى وقع الـنزاع بينهم وبين البطالسة . اذ كان اول البطالسة باسطاً سيادته على اليهودية وفينيقية وسوريا المجوفة ، مقابل ما ناله سلوقوس من امتداد سلطانه الى ما وراء الفرات حتى بابل والهند . فلما اخذ ظلهم يتقلص عن كثير من املاكهم في الشرق ، رأوا الحاجة ماسة الى استرداد ما اقتطع من سوريا لمصر فاخذ الـنزاع مداه بين ملوك سوريا ومصر بشأنها ولا سيا سوريا المجوفة ، وبدأ

الـنزاع بين الفريقين من ايام انطيوخوس الثاني وظل الى ايام بالاس. وكانت الحرب بشأنها سجالاً بين الفريقين. تارة تضم الى المصريين واخرى الى السوريين ، واخيراً انتهى الامر بضمها الى سوريا.

ورأى السلوقيون ان يحاسنوا السوريين فمنحوا الاهـالي استقلالاً ادارياً على النمط اليوناني القديم بحيث تعتبر كل مدينة كبرى مستقلة يحكمها رهط من سكانها على ان تخضع للملك وتؤدي له الجزية.

لكن هذه السياسة مع الخلاف الذي حدث بين سلوقيي سوريا وبطالسة مصر ، وتوالي عدة ملوك ضعفاء في سوريا اوسع المجال للثورات والاضطرابات. فثار اليهود في فلسطين سنة ١٦٧ وظلوا كذلك حتى اعترفت لهم الدولة السلوقية بالاستقلال الاداري سنة ١٤٢ ق.م ثم استقلوا استقلالاً تاماً سنة ٣٠ ق.م. وقام بعد ذلك في حمص وجبيل واديسا زعمـاء من ارباب الاقطاع وانشأوا حكومات ذاتية. اعترف بسيادتها السلوقيون الذين صارت سيادتهم — في اواخر ايامهم — اسميه لا فعلية (براستد عد ٦٦٢).

على ان التجارة الحمصية راجت في ايام السلوقيين وفتح لها اسواق في معظم الاصقاع الاوربية نالت بعد مدة شهرة عظيمة. وسادت اللغة اليونانية البلاد السورية ، فاصبحت لغة الكتابة العامة ، علاوة عن الدواوين. وكثر ما حفر منها على الآثار التي برزت من الارض في منطقة حمص في ظروف متفاوتة.

ولما اضطرب امر السلوقيين اخيراً ، تسنم زمام الحكم في المنطقة الحمصية بعض زعمائها بدون ان يكون لاحد سيطرة عليهم. مما سيكون موضوع الحقبة التالية.

المشهورون الى منطقة حمص منه كتاب هذه الحقبة

اولاً ـ الجغرافيون القدماء

١) اوقليديس

رياضي يوناني ولد في الاسكندرية وقيل في صور. وروي ان اباه سوري من دمشق اسمه «نوقراطوس» توطن اغريقية قبل الميلاد بثلاثمئة سنة وفيها ولد له اوقليديس.

لاوقليديس مؤلفات كثيرة في الفنون الرياضة من اهمها «اصول اقليديس» وما برح مؤلفه هذا المهندسي اساساً لهذا الفن حتى الآن. درّس الرياضيات في الاسكندرية، وكان يحضر دروسه بطليموس فيلادلفوس بين التلاميذ.

٢) ارخميديس

اشهر المهندسين القدماء. ولد في سيراكوسة سنة ٢٨٧ وكانت له صلة نسب بملكها. تلقى علومه الاولية في بلده، ثم قصد مصر فمكث فيها بضع سنوات وعاد الى وطنه حيث تفرغ لدرس الرياضيات. ولما حاصرهم الرومان سنة ٢١٢ قم اوجد في قومه حماسة وجرأة بما اخترعه من الآلات التي احبط بها مساعي مهندسي الرومان. ومما قاله مباهياً «اعطوني مكاناً اقف فيه (غير الارض) لازحزحها لكم (براستد عد ٦٨٦).

ومن نكاته الخاصة اهتدائه الى معرفة الثقل النوعي، وذلك ان الملك نسيبه طلب منه معرفة الغش الذي احكم الصائغ مزجه في ذهب تاجه. فلما كان في الحمام رأى الماء يرتفع في اثناء انغماسه فيه. فاستنتج من ذلك ان كل جسم ينغمس في السائل يفقد من ثقله كمية توازي ثقل ما شغل مكانه في ذلك السيال. ولشدة فرحه بهذا الاكتشاف خرج من الحمام عارياً ليقابل الملك وهو يهتف افركا (وجدتها)، وكان عمره لما قتل ٧٥ سنة.

٣) ابلونيوس

مهندس قديم ولد في برغا (قره حصار) سنة ٢٥٠ قم . وهو ممن فاخر بهم عصر بطليموس فيلوباتر . الف كتباً كثيرة في الهندسة فلقب «المهندس» ولم يبق من مؤلفاته سوى اربعة كتب كان الفضل في حفظها للعرب . وكاد يدرك ابلونيوس في كتبه الطبقة التي وصل اليها علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر .

٤) ايبارخوس

عالم فلكي ولد في فينيقية في اواسط القرن الثاني قبل الميلاد . وتعاطى العلوم في رودس سنة ١٢٨ قم وضبط ساعات الليل والنهار . وعين اوقات الكسوف والخسوف لمدة ستمئة سنة بعد زمانه . والف كتباً كثيرة فلكية وسواها ، وقد اتبع لائحته الفلكية بطليموس الجغرافي الشهير .

ثانياً — المؤرخون

١) كتازياس الكنيدي

هو طبيب ارتحششتا الفارسي (٤٠٥—٣٥٩) ساعدته دالته على الملك ان يتمكن من البحث في المكتبة الفارسية التي كانت في القصر الملكي . فاستخرج منها اخبار المشرق بسفر ضخم ألفه باليونانية وتركه اثراً حسناً يعرف به ابناء العصور المتأخرة ما جرى في العصور المتقدمة . غير ان النقاد رأوا ان الخرافات شابت صفحات كثيرة من سفره المذكور . ولم يبال هو بتحريها وتنقية ما جمعه منها . ولكن علماء اليوم جردوها مما لابسها من الاساطير البائتة . فاصبحت مما يمكن الاستفادة منه ولاسيما بعدما نقلها ديودور الصقلي .

٢) بيروز الفارسي

مؤرخ كلداني اصل اسمه « برحوشا » بابلي الوطن . كان كاهناً لبيل . تعلم اليونانية وذهب الى جزيرة كوس حيث درس الفلك . ثم شخص الى اثينا سنة ٣٤١ فأتم دروسه فيها واخذ معلوماته التاريخية عن الواح حفظت في هياكل بابل . وكان كتابه يحوي مراقبات فلكية لمدة ٤٨٠ سنة . فنال شهرة عظيمة حتى شادوا له تمثالاً تقديراً لنبوغه . قيل انه باشر كتابة تاريخه في ايام الاسكندر وانهاه في ايام سلوقوس الاول . غير ان كتابه هذا فقد ولم يبق منه سوى فقرات نثرت في مؤلفات يوسيفوس واوسابيوس وكليمس وكيرلس الاسكندري .

٣) مانيتون السمنودي

هو مؤرخ قبطي نشأ في سمنود احدى مدن المديرية الغربية . عاش في القرن الثالث ق م . وكان عظيم كهنة عين شمس (اون او هليوبوليس) والمحافظ على السجلات التاريخية القبطية في ايام بطليموس الثاني (٢٨٥—٢٤٨) وقد عني بوضع تاريخ مصر القديمة اتباعاً لرأي الملك المذكور ، فجاء طبق ما تمنى . تضمن حوادث الملوك السابقين برواية صادقة اخذها عن مصادرها الاصلية ولكن سوء الحظ اضاع هذا السفر النفيس . ولم يبق منه سوى بعض قطع وجدت في اسفار رهط من المؤرخين كيوسف بن كريون اليهودي ويوليوس افريقانو واوسابيوس القيصري .

٤) بوليب (٢٠٤ ١٢٢ ق م)

نبغ في القرن الثاني ق م ووضع تاريخاً عاماً (٢٦٤—١٤٦ ق م) اعاد فيه النظر بكل ما اتصل به من التواريخ . فلخصها باحكام اذ حكم عقله في ما نقله . ومما قدره له المحققون انه انصف الرومان الذين سادوا قومه اليونان مع

شدة حبه لجنسه . كما انه قابل بين قرطاجنة ومكدونيا فنسب سقوطهما كليهما الى اسباب طبيعية . منها اضطرار الضعفاء ان يخلوا محلهم للاقوياء . فقال فيه احد الباحثين : انه في طليعة من وضع فلسفة التاريخ .

ومما يؤسف عليه انه لم يبق من تاريخه القيم سوى جزئين . ومما رواه ان العاصي (الذي يسميه مرسيا) يفصل بين افاميا والناززاريين . وذكر ايضاً المستنقعات الراكدة في سهل البقاع (٥—٥٩—١٠) .

٥ً) ابولودور النحوي

هو ابن اسكليبادس من مشاهير نحاة اثينا . نبغ في نصف القرن الثاني ق.م ووضع عدة مؤلفات ضاع معظمها . ومن اهم الباقي قصيدته التاريخية التي ضمنها سلسلة التاريخ من سقوط ترواده الى زمانه .

ثانياً — نوابغ المنطقة الحمصية

١ً) تيرانيو الغراماطيقي

لم تصل الينا ترجمة مفصلة لحياة هذا اللغوي القدير ، ولكننا رأينا في ترجمة سترابون انه اخذ الغراماطيق عن تيرانيو اللغوي الحمصي ... وفي اخذ سترابون هذا العلم عن تيرانيو دليل على مكانته العلمية . وهذا مما يؤتي الحمصيين فخراً ان ابناء بلادهم كانوا منذ القرون العريقة في القدم ، محجة الرواد ومحط رحال طلاب العلم من سائر الاقطار .

٢ً) ارشيجنيس الطبيب

ومن نوابغ حمص في هذه الحقبة ارشيجنيس الذي ذكره جوفنال المؤرخ مراراً بين ممارسي الطب في رومة . ومازه بانه كان من الاخصائيين بالامراض العقلية . ومن مؤلفاته كتاب في النبض شرحه جالينوس . وهو احد الذين هاجروا

من المنطقة الحمصية في ايام السلوقيين . وآلت مهاجرته الى خبرة واستفادة معاصريه من مواهبه (المقتطف ٥٠ : ٥٢٩) .

٣) ديودوت «تريفون» الافامي

رجل حربي نبغ من افاميا التابعة منطقة حمص . بلغ رتبة جنرال في ايام اسكندر بالاس . اخلص لمولاه المذكور فوثق به كثيراً حتى انابه عنه في تدبير المملكة ابان غيابه . واسند اليه حاكية انطاكية لما ثار عليه ديمتريوس سنة ١٤٧ ق.م وظل ديودوت محافظاً على ولائه حتى قتل سنة ١٤٦ . فاحتفظ بابنه واودعه عند ايلكوئيل امير العرب منتظراً سوانح الفرص لاعادة العرش له . واغتنم اول فرصة لتحقيق فكره فنودي به ملكاً تحت رعاية ديودوت .

ولما مات الامير الصغير (انطيوخوس السادس) على اثر عملية جراحية تسنم العرش ديودوت نفسه . غير ان خصومه اثاروا الشعب عليه فعظمت الفتنة حتى عجز عن اطفائها فعاد الى افاميا حيث قبض عليه وقتل سنة ١٣٨ .

٤) بوسيدون الافامي

فيلسوف رواقي ولد في افاميا سنة ١٣٣ ق.م ودرس في اثينا ثم جاب اوربا كلها . واخيراً اتخذ رودس موطناً له . وانشأ فيها مدرسة كانت محجة مشاهير الناس ، الذين أمُّوها من مواضع بعيدة ليسمعوه . وحسبك تقديراً لعلمه ان من طلابه پومپيوس القائد وشيشرون الخطيب . وسنة ٨٤ ق.م ارسله اهل رودس سفيراً عنهم الى رومة فاستقبل فيها بحفاوة عظيمة .

تفوق بوسيدون في الرياضيات والطبيعيات والفلك كما برع في الفلسفة ووضع عدة مؤلفات في فنون شتى . ومنها التاريخ الذي كان له فيه القدح المعلى . لم يبق من مؤلفاته الا القليل وقد مدحه شيشرون في كتاب نسجه على منواله ، توفي بوسيدون سنة ٤٩ ق.م .



الحقبة السادسة

حمص

في ايام حكومتها الوطنية

من سنة ٨٠ ق م – ٧٩ م

توطئة

ان هذه الحقبة من الحقبات السعيدة الذكر في تاريخ حمص . لا لأن حكومتها كانت وطنية فحسب ، بل لانها حقبة نهوض من كبوة طال امدها . واذا كان لا بد للمؤرخ النزيه من ربط الحوادث بمسبباتها ، والاعتراف بمصادر الخير الذي يجنيه ، كان لا بد من الاعتراف بان الذي سهل للحمصيين بلوغ الامنية العزيزة لديهم — وهي الاستقلال — انما كان بسبب ثورة اليهود في فلسطين على الدولة اليونانية . فان ثورة اليهود التي طال امدها اجبرت السلوقيين على السعي لاخمادها بكل الوسائل الممكنة ، فانصرف فكرهم بكليته الى اليهودية ، فرأى الحمصيون الفرصة سانحة لنيل مـا أملوه . وشعر السلوقيون بالامر فرأوا من الحكمة محاسنة الحمصيين ليأمنوا جانبهم فكان مـا كان . فالواجب يقضي والحالة هذه باحاطة علم القارىء بتطور موقف اليهود في فلسطين . وكيف توصلت الى الاستقلال الذي كان مقدمة لاستقلال عـدة مناطق في مقدمتها حمص .

قال احدهم : اذا اعتبرنا في تاريخ اليهود ما لديهم من الكتب القديمة والآثار الباقية حكمنا بانه لا توجد امة من امم الارض تملك من تاريخها مثل ما يملك بنو اسرائيل من الاسانيد والاعلام (دائرة وجدي ١ ص ٢٨٠) .

وقد قسم المؤرخون تاريخ الامة اليهودية الى خمسة ادوار :

الاولى — من ابراهيم الخليل الى وقت خروجهم من مصر ١٩٩٦—١٥٦٦.

الثاني — من الخروج الى نشأة النظام الملكي ١٥٦٦—١٠٩٥ .

الثالث — من الملوك الى سبي بابل ١٠٩٥—٥٨٦ .

الرابع — من السبي الى خراب الهيكل الثاني ٥٨٦ ق‌م— ١٣٥ م

الخامس— من خراب الهيكل سنة ١٣٥ م — الى الآن .

وقد مرّ بنا الماع الى الادوار الثلاثة الاولى .

فنأتي في ما يلي على ما حدث لهم في الدور الرابع مما له صلة قريبة بتاريخ حمص في هذه الحقبة .

١ — العودة من السبي ودواعي الاستقلال

قضى نبوخذنصر على الدولة اليهودية وسبى الشعب الى بابل . فقضى الاسرائيليون سبعين سنة ذاقوا فيها مرارة العبودية والذل . ولما قربت النهاية استولى كورش على بابل وقضى على الدولة البابلية ، فرأى اليهود استسناح هذه الفرصة لنيل امنيتهم بعطف هذا الملك العظيم. فالتمسوا منه الرخصة بالعودة الى بلادهم لترميم ما تهدم من اسوارها وتجديد الهيكل . فسمح كورش بعودة ٤٢ نسمة لتحقيق ما تمنوه سنة ٥٣٦ ق‌م .

فشرع اليهود حال وصولهم الى اورشليم بترميم ما تهدم . ولكن عملهم لم يتم لان السامريين عرقلوا مساعيهم اكثر من مرة . فلما ملك داريوس سنة ٥٢١ ق‌م استلزم الامر زيادة التدقيق في ما اتهم به اليهود خصومهم . فروجعت السجلات ووجد امر كورش القاضي بتجديد بنيان ما تهدم . فاثبت داريوس ما امر به كورش ، وتم بناء الهيكل في السنة السادسة لداريوس (٥١٦ ق‌م) وهي السنة السبعون لخراب الهيكل الاول .

وسنة ٤٥٦ (بورتر ص ٣٣٤) سار عزرا من بابل الى اورشليم ومعه نحو ١٨٠٠ نسمة منهم العائلة المالكة ، فاصلح امور البلاد ووحد العواطف .

وسنة ٤٤٥ اتى نحميا احد موظفي دار الملك في فارس الى اورشليم ، وقد

عينه الملك والياً. فرمم اسوار المدينة بالرغم من معارضة السامريين. واستراحت البلاد في ايامه الى سنة ٤٢٥ فلما انقضى عصره تحولت الزعامة اليهودية الى الحبر الاعظم الذي شغل مركز رئيس ديني وسياسي معاً ، على ان يخضع لملوك الفرس.

فلما قضى اسكندر المكدوني على الجيش الفارسي في معركة ابسوس ودخل الشام ، كان يهوياداع بن يوناتان الحبر الاعظم على اليهود ، فدعاه الاسكندر الى الطاعة فأبى الخروج عن طاعة الفرس ، فاغتاظ الاسكندر ولكنه مالك نفسه وصبر حتى فتح صور وغزة ثم عاد الى اورشليم لتأديب الناشز ، ولكن اليهود خرجوا مع كهنتهم وعلى رأسهم شمعون الصديق يستقبلونه بحفاوة ، فأغضى الاسكندر عما مضى.

وخضع اليهود بعد الاسكندر لبطليموس سوتر ولخلفائه نحو مئة سنة ولم يكن نير السلطة في هذه المدة ثقيلاً عليهم ، اذ ظل احبارهم ينوبون مناب الولاة. واشتهر شمعون المذكور اعلاه الملقب بالعادل. وخلفه اخوه لعازر الذي ساعد فيلادلفوس بترجمة التوراة الى اليونانية. ولكن في سنة ٢٥٠ أبى اونيا الثاني بن شمعون تأدية الجزية ، فقصد الملك تأديبهم. فهدأ يوسف ابن اخي الحبر ثائرة غضب الملك بحسن سياسته. ومن لطيف ما ذكروه عنه ، انه لما طلب من الملك ضمان خراج اليهودية والسامرة وفينيقية ، سأله الملك ومن يكفلك ؟ اجاب بسرعة وجرأة : جلالة الملك وقرينته. فاعجب الملك به ومنحه ما طلبه. وظل يوسف على امانته للملك مدة عشرين سنة ، وكان على الحقيقة هو الرئيس السياسي. اما الحبر الاعظم فكان رئيساً دينياً فقط. وافلح اليهود في ايام البطالسة.

ولكن لما حاول بطليموس فيلوباتور الدخول الى قدس الاقداس لتقديم الذبيحة لانتصاره سنة ٢١٧ على انطيوخوس الكبير ، الذي اراد ضم فلسطين الى حكمه ، منعه الحبر فاغتاظ الملك واضطهد اليهود بعد ذلك. فتوترت الحالة بين الفريقين (بورتر ص ٣١٧ و ٣٣٦). ولما فاز انطيوخوس على ملك مصر سنة ١٩٨ احسن اليهود استقباله في اورشليم ، فاحسن اليهم واستراحت اليهودية في ما بقي من ايامه وايام خليفته سلوقوس (١٨٦—١٧٥) ولكنها بقيت موضوع

نزاع بين ملوك مصر وسوريا . فآل ذلك الى الانشقاق اذ مال بعض الاهالي الى مصر والآخر الى سوريا . وكان هركان صغير اولاد يوسف المذكور اعلاه قد حاول الاستيلاء على مال ابيه ، واستعان بملك مصر فأيده هذا . ونتج عن ذلك مشاجرات شديدة قتل فيها اثنان من اولاد يوسف . لكن اونيا الثالث الحبر الاعظم أيد الاخير على هركان . ففر هذا الى حشبون وضاق به الامر فانتحر . وتخاصم سمعان وكيل الهيكل مع الحبر على ثروة يوسف المودعة في خزانة الهيكل فلاذ سمعان بسلوقوس الرابع ، فارسل امين صندوقه للاستيلاء على الثروة فأهين . واضطر سمعان ان يذهب الى انطاكية للاجابة عما حدث .

وكان آنئذ على عرش انطاكية انطيوخوس ابيفانيس العاتي . فقلد وظيفة الحبر الاعظم ليشوع اخي اونياس وكان هذا مائلاً لليونان فسمى ذاته ياسون وادخل الى البلاد العادات اليونانية . غير ان اونياس ابتاع الرتبة الحبرية باكثر مما دفعه ياسون وسمى نفسه منلاوس ، واغتنم ياسون فرصة غياب انطيوخوس في مصر سنة ١٧٠ فأتى على اورشليم بألف جندي واستولى عليها وحاصر منلاوس في البرج وقتل كثيرين . ولكنه لم يتمكن من التسلط على المدينة بتمامها فعاد انطيوخوس ساخطاً . فقتل كثيرين من محازبي ياسون ونهب الهيكل ونزع الذهب عن المنارة والمذبح وسلب الخزانة وكان فيها ١٨٠٠ وزنة واقام والياً يونانياً في البلاد سنة ١٧٠ .

وفي سنة ١٦٨ استأنف انطيوخوس سخطه الشديد على اليهود فأرسل قائداً اسمه ابلون وكان داهية دهماء . صبر الى ان دخل السبت ودخل المدينة وسرح جنوده ينهبون ويقتلون . واحتل برج صهيون فأصبحت المدينة كلها تحت تسلطه . ومكن بذلك انطيوخوس من اذلال اليهود والحكم فيهم . فدنس الهيكل واكره اليهود على اتمام الفرائض الدينية . ومنعهم من الختان وحفظ السبت . وقتل كل من خالف امره بفظاعة لا مثيل لها . من ذلك ان امرأتين ختنتا ابنيهما فأهلكهما مع الولدين بان شنق الولدين في عنقي الوالدتين ثم شنق والدتيهما .

٢ — ثورة المكابيين او زعامة الاحبار ١٦٦ — ١٠٦

هذه الاعمال الفظيعة ادت الى الثورة اليهودية العظيمة التي قام بها

الكاهن متاثيا سليل يهوياريب (١ اي ٢٤: ٧) .

كان متاثيا المذكور في مدينة مودين حينما حضر رسول الملك لاكراه اليهود على الوثنية . فقام عليه متاثيا فقتله ونادى بالدفاع عن الشريعة اليهودية. فتبعه عدد ليس بقليل من الغيورين على الشريعة لأذوا بكهوف الجبل وكان ذلك سنة ١٦٨ وقرر متاثيا وجوب المقاومة الشديدة والقتال ولو في يوم السبت. وكان متاثيا شيخاً طاعناً بالسن. وبعدما وضع اساساً لهذه الثورة مات سنة ١٦٦ فخلفه ابنه يهوذا وكان اشجع اخوته ، فدرب جنوده على تبييت العدو (مهاجمتهم فجأة) فنجح في عدة معارك اوقعت هيبته في الاعداء ، فصار يهاجمهم جهراً ، فاصطدم بهم في بيت حورون (حيث قهر يشوع الاموريين قديماً) (يش ١٠) فهزم السلوقيين شر هزيمة على قلة رجاله . فارسل انطيوخوس له قوة كبيرة نحو خمسين الف مقاتل. فبعد مداورات تمكن يهوذا من الفوز عليهم ودحرهم. وباع عدداً من الاسرى بمال عظيم استعان به على متابعة القتال. فعاد انطيوخوس وارسل له في السنة التالية جيشاً مؤلفاً من ستين الفاً فاصابه ما اصاب سابقه من الخيبة . واستولى يهوذا على اورشليم وطهر الهيكل واقام الخدمة الدينية فيه سنة ١٦٥ ق.م بعد الغائها بثلاث سنوات .

ومات انطيوخوس ابيفان سنة ١٦٤ وهو يحرق الارم على يهوذا . فنادى ليسياس بابنه الصغير خلفاً له واخذه معه لانجاد المحصورين في برج اورشليم . وكان جيشه هذه المدة مؤلفاً من ١٢٠ الف مقاتل معها ٣٢ فيلاً . فخاف اليهود ولكنهم اظهروا من الشجاعة في القتال ما خلد له الذكر الحسن ، ومن امثلة ذلك ان اليعازر اخا يهوذا هاجم احد الافيال ودخل تحت بطنه وطعنه بسيفه فقتله ولكن الفيل وقع عليه فقتله .

وسنة ١٦٢ هلك ليسياس وانطيوخوس الصغير، وملك ديمتريوس الاول. فارسل جيشاً آخر بقيادة بكاديس لمقاومة يهوذا ففشل. فارسل جيشاً آخر بقيادة نيكاتور فقتل نيكاتور بعد معارك شديدة وعلق رأسه على سور اورشليم . فعاد فارسل بكديس سنة ١٦١ في نحو عشرين الفاً ولم يستطع يهوذا ان يجمع اكثر من ثلاثة آلاف . ولكن يهوذا ثبت ثبات الابطال وتمكن من كسر ميمنة الجيش وفيها بكاديس نفسه . غير ان الميسرة دارت من خلفهم فطوقتهم

فقتل يهوذا ومعظم رجاله ·

فسيطر بكاديس على اورشليم وظلم اليهود كثيراً . وثقل نيره عليهم فاستصرخوا اخوة يهوذا ، فاجابوا ولم يبق منهم سوى يوناثان وسمعان · وتسلم الاول القيادة موضع يهوذا فحشد جيشاً في البرية قرب الاردن فهاجمه بكاديس يوم سبت ظناً منه انهم لا يقاتلون فيه . ولكن يوناثان اجاز لهم القتال فاهلكوا من الجيش السلوقي اكثر من الف شخص · ثم اجتاز اليهود النهر ونجوا الى العبر . ومل بكديس من هذه المناوشات الفاشلة وعاد الى انطاكية سنة ١٥٨ . فاستراح اليهود مدة ست سنوات واستفادوا من النزاع الذي وقع بين ديمتريوس وبالاس . اذ اخذ كل منهما يتودد الى يوناثان ليؤيده على خصمه · واخيراً مال يوناثان الى اسكندر بالاس فاقامه حبراً اعظم بدل الكيميس ، ولما فاز بالاس سنة ١٥٠ عظم شأن يوناثان · فصار رئيس اليهود الديني والسياسي معاً فحاصر البرج الذي كان لم يزل بيد السلوقيين ولكنه لم يستطع فتحه .

وحاول تريفون اغتصاب الملك من انطيوخوس السادس ولكنه خشي معارضة يوناثان ، فاستقدمه اليه ولما حضر اعتقله وقتله سنة ١٤٣ .

فاخذ سمعان جثة اخيه ودفنها في مودين وخلفه في الرئاسة . وشدد الحصار على البرج ففتحه سنة ١٤٢ ثم دكه الى الحضيض لئلا يجدد ويكون سبباً لويلات شديدة . واحسن سمعان السياسة واعتبر اليهود انفسهم مستقلين واخذوا يؤرخون حوادثهم من هذا الاستقلال الذي جعلوا بداءته سنة ١٤٣ ثم وهي السنة الاولى لسمعان ، ولما عظم شأنه عاهد الرومانيين وحالف السبارطيين . ولكن صهره صاحب اريحا فتك به ابان وليمة اقامها له . مريداً ان يخلفه وحدث ذلك سنة ١٣٥ غير ان يوحنا هركان خلف اباه حالما درى بالامر . ولما توطد امره سار بجيش الى اريحا للانتقام من صهره وانقاذ امه واخوته · فحاصر المدينة ولما عجز بطليموس صهره عن الدفاع اخرج الام وبنيها واوقفهم على السور · وتهدد هركان بطرحهم الى اسفل ان لم ينصرف عنه . وعرفت ام هركان بما ينطوي عليه صدر بطليموس من الخيانة فحرضت ابنها على متابعة عمله ولو هلكت مع اولادها · ولكن هركان لم يطاوعه قلبه على تعريض من يحب الى الهلاك وانصرف عن اريحا · غير ان بطليموس ابى الا اظهار سوء

نيته لانه حالما افرج عنه قتل الجميع وفرّ من المدينة ·

وكان انطيوخوس السابع قد استعد لمكافحة اليهود فحاصر اورشليم محاصرة شديدة · ولكنه لم ينل اربه منها لمتانة اسوارها وشجاعة اهلها · ووقع في اثناء الحصار عيد لليهود فطلب هركان هدنة لاقامة العيد · فرضي انطيوخوس ولم يكتف بهذا بل قدم له ايضاً ذبيحة قيمة · فأثر ذلك في هركان وطلب مسالمة انطيوخوس · فاتفقا على ان يعترف هركان بملك انطيوخوس ويؤدي له ٥٠٠ وزنة من الفضة وفض النزاع سنة ١٣٣ .

غير ان خضوع اليهود للسلوقيين لم يطل لان انطيوخوس سار الى محاربة البرثيين سنة ١٢٨ ق‌م فرافقه هركان ، فلما انكسر جيش انطيوخوس عاد هركان الى بلاده سالماً وانتهز الفرصة لاعادة الاستقلال لفلسطين ، وكان هذا في السنة الاربعين لثورة متاثيا جد هركان (١٦٨—١٢٨) ·

ولما استتب الامر لهركان عمد الى اخضاع القبائل المجاورة فبسط سيطرته على ادوم والسامرة وهدم هيكل جرزيم بعد بنائه بمئتي سنة · واوصل تخومه الى المتوسط ، فاستغاث السمرة بانطيوخوس شيزيك ملك دمشق فامدهم بجيش لم يكتب له النجاح · وحينئذ انتقم هركان من السامريين اذ فتح عاصمتهم السامرة سنة ١٠٩ وضم بلادهم الى مملكته ، مضيفاً اليها الجليل ايضاً · فصارت مملكة ذات شأن تجدد عهد داود الملك · ولكن محنة اصابته في آخر حياته بسبب البغضة الشديدة الكائنة بين الفريسيين والصدوقيين · فقد حاول استرضاء الاولين واقام لهم وليمة عظيمة وفي اثناء الطعام خطب فيهم مظهراً حسن نياته لامته · وطلب اليهم ان يذكروه بما اذا كان ظهر منه ما يعيب ليتداركه · فاثنى عليه الحضور ثناء طيباً ، ولكن احد ادعياء الجرأة وحرية الضمير المدعو اليعازر نهض وقال له : ان شئت ان تسلم من النقد فاعتزل رتبة الحبر الاعظم · لان امك سبية غير يهودية · وبما ان ما ذكره هذا الرجل لا اصل له اغتاظ هركان ومن معه من هذا الافتراء الشنيع · وخيل اليه ان الرجل مغرىً على ما قاله بغية تقليل اهميته · ورأى الصدوقيون الفرصة سانحة لاثارة غضبه على الفريسيين ، فالقى احدهم المدعو يوناتان في روعه ان المغرين انما هم الفريسيين اذ لا يجرأ سواهم على ذلك · فنقم عليهم وكان ذلك سبباً لهلاكه سنة ١٠٦ ق‌م بعدما ملك ٢٩ سنة ·

ولم يقم بعده من حكاه في الحمية والاباء .

٣ــ الدولة الحشمونية او زعامة الملوك ١٠٦ــ ٧٠ ق م

فخلفه ابنه ارسطوبولس وهو اول من لبس التاج من دولته فكان ملكاً ورئيس كهنة ايضاً . وكان اول عمل اثاره انه اعتقل امه واخوته عدا اخيه انتيكوس الذي كان شريكه في المعارك الظافرة في ايام ابيه ، وقد احبه جداً . غير ان بعضهم وشى به فقتله . وعرف بعدئذ ان السعاية كاذبة فحزن عليه جداً وانفجر احد شرايينه فمات بعد سنة .

فخلفه اخوه اسكندر وحالما انتظم له الامر حاول فتح غزة وصور وعكا فاستنجد هؤلاء ملك قبرص . فامدهم بجيش عظيم خضد شوكة اليهود ، وقتل منهم مقتلة عظيمة . فاستصرخ اسكندر كليوبترا ملكة مصر وكانت تخشى فوز لاتروس ملك قبرص . فانقذت اسكندر سنة ١٠٦ واستتب له الامر واستولى على المدن التي لم تكن خاضعة له ومنها غزة . ولكن ما اجراه من القسوة نفّر منه الناس . وحدث خلاف بينه وبين الفريسين ، فرموه في عيد المظال بالترنج فسخط عليهم وقتل منهم ستة آلاف نسمة سنة ٩٥ ، ثم حارب العرب فانتصر على عبيد ملكهم . وذلل الموابين وفرض الجزية عليهم . ولكن اعداءه كمنوا له في مسلك حرج وزحمه قطار من الابل كاد يهلك فيه . ونجا ولكن بشق النفس ، فجرأ هذا الحادث مسوديه فحاربوه مدة ست سنوات هلك فيها من الفريقين عدد عظيم . ولكنه فاز اخيراً على خصومه وصنع وليمة لنسائه وسراريه في مكان مرتفع اشرفن منه على قتل ثمانمائة رجل مع نسائهم واولادهم الذين ابسلهم تجاه عيونهن سنة ٨٦ .

وبعدما اخمد اسكندر ثورة اليهود اغتنم فرصة تنازع الملوك السلوقيين ومحاربة احدهم الآخر ففتح عدة مدن ولكنه مات ابان محاصرته احد الحصون سنة ٧٨ .

وروي انه بسبب انعكافه على الملاذ ومعاقرة الخمرة اصيب بحمى الربع التي لازمته مدة ثلاث سنوات بدون ان يترك حروبه . وبينما كان محاصراً احد

حصون شرقي الاردن ، اشتد مرضه وظهرت عليه علامات الاحتضار . فدخلت عليه الملكة اسكندرة وعيناها مغرورقتان بالدموع وقالت له : الى من تتركني مع اولادك وانت عارف بحقد الشعب عليك ؟ فاشار عليها ان تخفي موته حتى ينتهي الجند من فتح الحصن . وحينما تعود الى اورشليم ظافرة تسالم الفريسيين وتخولهم ما يريدون من الوجاهة . ثم تريهم جثته وتفوض اليهم الامر والمشورة فيكون لها خير .

فعملت بما اشار وكانت النتيجة ان الفريسيين اعتبروها جداً وعضدوها وعملوا له جنازة فاخرة سنة ٧٨ ق م .

وكان لاسكندر ابنان هركان وارستبولس فصار الاول حبراً اعظم والثاني قائد الجيوش . وكان من دهاء الملكة ان جعلت ابنها هركان من حزب الفريسيين والثاني يعطف على الصدوقيين ، فأدى ذلك الى تنازع الحزبين. واراح هذا الخلاف الملكة حتى وفاتها سنة ٦٩ .

وبعد موتها ثار الشعب على هركان لمالأته الفريسيين على الايقاع بكل من لم ينقد لآرائهم . وتزعم هذه الثورة ارسطوبولس نفسه . فاضطر هركان ان يتخلى لاخيه عن التاج والحبرية معاً ، وانصرف الى ادارة املاكه .

وظهر في ايام ارسطوبولس الثاني انتيباتر الادومي الذي تهود في ايام اسكندر وولاه على ادومية . فتمكن هذا بحذقه ودهائه ان يثير هركان على اخيه ثم اشار عليه ان يلجأ الى الحارث ملك العرب ليحميه ، ففعل. واذ كان الحارث صديقاً لانتيباتر حمله هذا على محاربة ارسطوبولس . فسار الحارث بخمسين الف مقاتل الى اليهودية وحاصر اورشليم .

واحضر محازبو هركان شيخاً تقياً طلبوا اليه ان يضرع الى الله — لانه مستجاب الدعاء — لينصرهم على ارسطوبولس ويفتح المدينة . فأبى الشيخ ان ايدعو على قومه بالشر . ولما الحوا عليه صلى هكذا : يا الله مالك الكائنات اطلب اليك ان لا تستجيب دعاء فريق على آخر لانهم اخوة . فنقم عليه محضروه وقتلوه فأدركهم العقاب — على رواية الكاتب اليهودي — فأتى سوريا آنئذ اسكاروس نائب يومبي القائد الروماني الكبير . فحكمه الفريقان بالقضية فحكم لارسطوبولس لانه اكثر رشوة ، وامر هركان وقومه بالافراج عنه .

ولما عاد الحارث حشد اريسطوبولس قوة لمطاردته فاوقعت به اضراراً كبيرة سنة ٦٤ .

ولما قدم بومبي الى دمشق وفد عليه اريسطوبولس وهركان وعرضا له امر اختلافهما على الملك فأجل بومبي الجزم باي منهما احق بالملك الى ما بعد محاربة العرب ، فاستاء اريسطوبولس واساء الظن به ، فخرج عليه واعتصم في اورشليم . وكانت النتيجة ان بومبي دخل اورشليم ظافراً وتمكن من انتهاك حرمة الهيكل . واقام هركان حبراً ورئيساً سياسياً سنة ٦٣ تحت طاعة رومة . غير ان ثورة اسكندر بن ارسطوبولس غيرت النظام الذي وضعه بومبي اذ ابطل الحكم الملكي ، وصارت الامور تدار بواسطة اعيان الشعب .

في هذه الاثناء عظم شأن انتباتر الادومي ، واوصله ذكاؤه الى مركز عزيز المنال عند الرومانيين ، وصار مشيراً لهركان الثاني ، وذا نفوذ في الشرق فتقوى حتى تمكن نسله من التسلط على اليهودية .

فانه لما رأى تأخر بومبي آزر قيصر وانجده بجيش عند ضيقته في مصر ، وقد برّز في القتال حتى قيل انه كان سبب فوز قيصر ، فانعم قيصر عليه بما اراد من ملك اليهودية وعظم شأنه جداً حتى سيطر على هركان نفسه ، ومنحه قيصر رعوية رومة واقامه نائباً عنه في اليهودية سنة ٤٨ . وكان له اربعة اولاد منهم (فازائيل) الذي سلطه على اورشليم وهيردوس الذي اقامه حاكماً على الجليل قبل ان يتجاوز الخامسة عشرة من عمره فصار ملك اليهودية الى يد انتباتر الادومي وبنيه وظل هركان رئيس كهنة وعظيم الامة في الظاهر .

ونقم اليهود على انتباتر واولاده لانهم ظلموا الرعية ظلماً فاحشاً . وجمعوا للرومانيين الاموال الباهظة منهم . فاحتال بعضهم على انتباتر وقتله فانتقم هيردوس لابيه . ولم يستطع هركان ان يحول دون ذلك لسيطرة هيردوس عليه . وتزوج سنة ٣٧ ق م مريمنى بنت اسكندر اريسطوبولس حفيدة هركان الاول لينال حق الملك ويجمع بين بيتي هركان واريسطوبولس . فلما غزا البرثيون اليهودية ، سلموها الى انتيغون بن اريسطوبولس واستودعوه هركان وفازائيل . فانتحر الاخير ليأسه . وجدعت اذنا هركان ليحال بينه وبين الحبرية . اذ لا يجوز للحبر عند اليهود ان يكون معيباً بجسده .

اما هيردوس ففر الى رومة لائذاً بانطيوخوس . فأمده هذا بجيش استولى به على اليهودية . فأباد كل من سبقت له مقاومته واستأثر بالسلطة لرضى الدولة الرومانية عنه فلقب بالكبير . وفي اواخر ايامه ولد السيد المسيح .

٤ — اواخر السيادة اليهودية

توفي هيردوس الكبير بعد ميلاد السيد المسيح بسنة . فقسم اوغسطس القيصر الروماني اليهودية الى ثلاث ايالات جعل في كل قسم منها احد اولاد هيردوس . فكان ارخيلاوس والي فلسطين الجنوبية وانتيباس والي الجليل وفيلبس والي حوران .

فساد الخلل في البلاد وكثر النزاع لفساد الاخلاق فانتزع الرومان الملك من ابناء هيردوس وولوا نواباً رومانيين ومنهم بيلاطس البنطي الذي في عصره حكم على السيد المسيح بالموت ، وعلى اثر ذلك شدد الناس الشكاية عليه لكثرة مظالمه ، فنفاه طيباريوس الى غاليا سنة ٢٧م . وبعد موت طيباريوس تسنم العرش الروماني كاليغولا الذي ادعى الالوهية وامر ان تقام له نصب في كل المملكة ، فثار اليهود ضد هذا الامر .

وتدخل بالامر الملك اغريباس اليهودي فلم يسأ الى اليهود كثيراً ، ولكن احوالهم ساءت بعد موته سنة ٤٤ ولاسيما في ايام فيلكس الذي اشتد كثيراً في اذلالهم حتى عزل سنة ٦٢ واذا استثنينا فستوس من الولاة الذين خلفوه ، رأيناهم كلهم شديدي الشكيمة .

فنشبت الثورة وقاد الثوار ثلاثة رجال احدهم لعازر بن حنان الكاهن الكبير ، والثاني يوحانان الجليلي ، والثالث شمعون بن جيبورا المتمرد . الذين الف كل منهم عصابة بحجة انقاذ البلاد من سلطة الرومان ، ولكنهم في الوقت نفسه كان يحاربون احدهم الآخر .

وقد اصيبت البلاد اليهودية بمحنة عظيمة بسبب ما ذكر وأدى انقسام الزعماء الثلاثة الذين يسميهم يوسيفوس المؤرخ « الخوارج » الى فوز الرومان على اليهود فتمكنوا من خرق اسوار اورشليم بعد حصار طويل وحرق الهيكل

ونقض بنيان المدينة الى الاسس بعدما هلك من اليهود عدد كبير جداً .

اما الزعماء الثلاثة فاحدهم يوحانان استسلم فحقن تيطس الروماني دمه . وحاول شمعون الهرب فامسك ، وعرضه تيطس على المتفرجين في حفلة النصر التي اقيمت في رومة . اما لعازر فانه انتحر مع آله كلهم لكي لا يجلوا من بلادهم .

ثالثة الاثافي

يعتقد اليهود بشؤم اليوم التاسع من آب لانهم اصيبوا فيه بأعز ما لديهم . ففيه من سنة ٥٨٦ ق‌م هدم الهيكل الاول الذي باشر بناءه سليمان سنة ١٠١٢ ق‌م .

وفي مثله سنة ٧٠ م أحرق الهيكل الثاني — الذي جدده زربابل سنة ١٥٦ ق‌م — بيد الجيش الروماني الذي قاده تيطس .

وفي مثله ايضاً سنة ١٣٥ م سقطت قلعة بيت عير بيد الجيش الروماني في ايام القيصر ادريانوس .

واليك ما رواه الثقات عن الحادثة الاخيرة التي تعتبر ثالثة الاثافي عند اليهود .

بعدما استولى الرومان على اورشليم ودكوا اسوارها الى الحضيض ، اهتموا باعادة بنيانها . وكان العدد الاعظم من اليهود قد برحوا فلسطين الى جهات اخرى ولم يبق فيها سوى النذر اليسير الذي لا يخشى جانبه . فلما اعيد بناء المدينة المقدسة طمحت نفوس اليهود في فلسطين وسواها الى استردادها مع ما حولها . واخذوا ينتظرون الفرص لنيل غرضهم هذا . ففي اوائل العقد الرابع من القرن الثاني ، عندما كثر ظلم الرومان لليهود ، وثقلت وطأة الحكم عليهم في ايام ادريان اذ هدم لهم ٤٨٠ مجمعاً (البستاني ٥ : ٣٠٠) ظهر بين ظهرانيهم رجل يهودي شجاع اسمه بركوكب ادعى انه المسيح الذي اشار اليه بلعام بقوله : يخرج كوكب من يعقوب الخ . وأيده الربان عقيبا حبر اليهود الكبير في تلك الايام بمريديه البالغين ٢٤ الفاً . فنشبت الثورة وقام بركوكب على رأس جيش

عظم عضده اليهود كلهم في فلسطين وسواها (الدكتور مويال ص ٣٦) .

فحارب مع رجاله الرومانيين حروب المستقتلين طمعاً باعادة الاستقلال اقتداء بالمكابيين . واستولى على الاماكن الحصينة وطرد منها الجند الروماني ، ثم فتح اورشليم عنوة ونودي به ملكاً في بيت عير (بتير) التي اتخذها قاعدة لحكمه وصك فيها نقوداً باسمه .

فلما دري ادريان بالامر ارسل جيشاً كثيفاً بقيادة يوليوس سيفروس حاكم بريطانيا العسكري ، فقدم هذا بقواته الكبيرة الى فلسطين فلم يقتحم العصاة دفعة واحدة بل اخذ يضيق الخناق عليهم شيئاً فشيئاً . اذ قطع اولاً عنهم موارد الرزق ، ثم اخذ يفتح القلاع واحدة بعد الاخرى . ففتح خمسين حصناً ودمرها واستولى على تسعمئة قرية . وبلغ عدد القتلى في مدى سنتين نحو ٥٨٠ الفاً هلك بعضهم بالجوع وآخرون بالامراض وسواهم ابان حرق البيوت والقلاع . وكان بركوكب من جملة القتلى . اما عقيبا فالقي عليه القبض وسلخ جلده وهو حي . وشغلت هذه الثورة مدة ثلاث سنوات وانتهت سنة ١٣٥ م .

وقد تشتت اليهود بعدها تحت كل كوكب وبقيت منهم بقية في فلسطين حنت رؤوسها للسيادة الرومانية مرغمة صارفة نظرها عن السياسة الى الدين ولوازمه . فانشأت المدارس لتثقيف ناشئتها . وقام فيها اساتذة اهتمت بجمع التعاليم الشفاهية من عهد موسى الى زمنها في اسفار دعوها المشنه « اي ثانية الشريعة » ثم وسعوا دائرة معلوماتهم بما ضموه اليها من الشروح التي سموها الجمارة « اي التكميل » وكلاهما المعروف بالتلمود وهو قسمان الاورشليمي الذي بدء به في اورشليم في القرن الثاني ، والآخر البابلي الذي جمعه رهط من الربيين الذين هاجروا الى بابل ، وقد اكمل الاول في القرن الرابع والآخر في القرن السادس للميلاد .

واول من باشر هذا العمل العظيم من احبارهم الربي يهوذا هناسي ابن الربان شمعون الثالث آخر الأئمة المعروفين بالتنائيم .

ويقول أئمة اليهود ان التعاليم التلمودية قد اخذت بالتلقين من موسى حتى وصلت الى الربي هناسي بواسطة اربع فرق كل منها ١٢ جيلاً .

الاولى فرقة القضاة التي اولها عتنيئيل وآخرها عالي .

والثانية الانبياء اولهم صموئيل وآخرهم حزقيال .

الثالثة الجامعة الكبرى اولها جحي وآخرها نحميا بن حكليا .

والرابعة التنائيم اولها انطيغونوس سوخو وآخرها الربان شمعون الثالث والد الربي هناسي .

حوادث هذه الحقبة الخاصة بحمص

بعدما اتينا على خلاصة تاريخ هذه الحقبة العام . مما له صلة بحمص نأتي الآن على ما عرفناه من تاريخها الخاص .

اولاً — صلة اليهودية بالمنطقة الحمصية

لليهودية بحمص صلتان ، احداهما سياسية والاخرى قومية . الاولى متأتية عن استيلاء اليونان على منطقتي سوريا الجنوبية والشمالية ، ولا فرق بين ان يكون السلوقيون هم القابضون على دفة السياسة فيهما معاً ، ام البطالسة ، ام احداهما على هذه وتلك على اخرى . والشيء المهم ان تلك السلطة لم تستطع ان توجد في نفوس الاهلين الطمأنينة التي تهون على المحكومين الخضوع لغير ابناء جنسهم . وسواء أكان هذا القلق نتيجة اضطهاد الحكومة الديني لليهود وارغامهم على قبول ما يخالف اعتقادهم . ام بانتهاك قوى الاهلين في سوريا الشمالية والجوفة ، بكثرة المعارك التي توالى نشوبها بين الطامعين بالعرش من السلوقيين . والمصيبة توجد صلة قربى بين المصابين .

هذه هي الصلة الاولى بين منطقتي حمص واليهودية . والثانية الروح القومية فقد اشتهر الحمصيون في التاريخ بتعصبهم لقوميتهم تعصب اليهود لجنسيتهم ، ووقوفهم ضد كل من يريد بها شراً . واحتفاظهم بها ما دام ذلك ضمن دائرة الامكان . ومتى كان بين فريقين من الناس تشابه في عدة نقاط اجتماعية او اخلاقية ، سهل تفاهمهم وسيرهم في طريق واحدة . او متابعة بعضهم بعضاً .

وذكر بعض المؤرخين صلة ثالثة بين يهود فلسطين وبين قاطني المنطقة

الحمصية جعلت الآخرين يسعون سعي الاولين للاستقلال المنشود وينالونه . وهي ان احدى الاسر الناهضة في حمص كانت لها صلة نسب مع احدى الاسر اليهودية ، وقد تكررت المصاهرة بينهما مراراً . ويرى بعضهم ان هؤلاء الامراء كانوا ممن يدين باليهودية ، اذ لا يعقل ان امراء اليهودية على ما عرف عنهم من التعصب لدينهم وتضلعهم من العلم والثقافة اليونانية ، يرضون بمصاهرة غير الاكفاء لهم في الثقافة والمبدأ ليكون لبناتهم الحياة الطيبة التي تمتعوا بها في قصور والديهن (المباحث ٤ ص ٢٦٨) .

متى عرف هذا فهم كيف سرى روح الطموح الى الاستقلال في الحمصيين سريان الشرارة في الهشيم بعدما نال اليهود استقلالهم في فلسطين .

ثانياً — حمص تستقل بدون ان تهرق دماً

جاهد اليهود زمناً ليس بقصير حتى نالوا استقلالهم . ولم يكن ذلك بالامر السهل فانهم قدموا ضحايا كثيرة من الاموال والرجال . وثبتوا على ذلك مدة طويلة توفقوا في آخرها الى نيل هدفهم السامي . امـا الحمصيون فبلغوا امنيتهم بدون قتال للاسباب التالية :

من نصف القرن الثاني قم حتى فتحت سوريا بقيادة بومبي سنة ٦٤ قم قام على عرش انطاكية ملوك ضعفاء . فابتلعت برثيا ما كان للدولة السلوقية شرقي الفرات ، وانتشرت الفوضى في الجزء الباقي . وظهر زعماء محليون في اجزاء مختلفة من سوريا .

فان محاولة السلوقيين نشر النفوذ اليوناني في فلسطين ادى الى ثورة اليهود سنة ١٦٧ . ورأت رومة نكاية بالسلوقيين ان تعاهد الثوار وتعترف باستقلالهم في حين انها لم تساعدهم بشيء . غير ان هذا شجع الثوار ، واظهر زعماء الثورة كفاءة في موقفهم الذي وقفوه ، دل على انهم فرسان الميدان . اذ ارغموا السلوقيين على الاعتراف باستقلالهم سنة ١٤٢ قم واعفائهم من تأدية الجزية .

كما ان القبائل العربية النازلة في تخوم سوريا الشرقية بدون نظام . ألفو

دولة واحدة جعلوا عاصمتها التبراء واتسعت سلطتهم حتى وصلت الى دمشق ·
ورأى زعماء عـدة مقاطعات الفرصة سانحة لنيل الاستقلال ، فانشأوا لانفسهم حكومات اهلية لم يجد السلوقيون بداً من الاعتراف بها · على شرط ان يعترف بسيادة السلوقيين العليا عليهم · فرضي هؤلاء الزعماء بذلك لتيقنهم ان هذه السيادة لا تتجاوز الاسم · وكانت اولى هذه المناطق حمص ثم تلتها جبيل في لبنان واديسا (اورفا) في الشمال (براستد عد ٦٦٢) ·

ثالثاً — متى تمتعت حمص الاستقلال الاداري

في اواخر مدة دولتي البطالسة في مصر والسلوقيين في سوريا ، وقع الاضطراب بين متولي الحكم في كل منهما · وكان الخلل في سوريا اكثر منه في مصر · فثارت اليهودية بقيادة المكابيين وساعدهم على الفوز بالاستقلال تقسم وجهات النظر في حكام سوريا (بورتر ٣٤٢) وتنظر الحمصيون الى هـذا الحادث الهام نظرة دقيقة جعلته موضوع درس لتحقيق اماني تختلج في صدورهم ·
كانت صلات فلسطين بسوريا المجوفة حسنة · والعاطفة الوطنية متبادلة الصدى بينهما ، فاخذت المنطقة الحمصية منذئذ تفكر بنيل ما نالته فلسطين سنة ١٤٢ قم ولكن قوتها لم تكن كافية لارغام السلوقيين وانالة الحمصيين مـا يرغبون · فاخذوا يطلبونها من طريق اخرى · وقد سنحت لهم هـذه الفرصة في القرن الثاني قم حينما بلغت المناظرة بين المتزاحمين على العرش حدها ·
ففي سنة ١٠٥ تجددت الحرب بين الاخوين غريبوس وشيزيك وظلت مدة تسع سنوات لم يغلب فيها احدهما الآخر · فتزعزعت اركان المملكة بهذه المشاغب · وانفصلت منها عدة ولايات كصور وصيدا وسلوقية وكيليكية · وقام العرب يغزون سوريا من الجانب الواحـد ، والمصريون من الجانب الآخر · وساد القلق المملكة حتى قام على غريبوس احد خاصته وقتله سنة ٩٦ قم (بورتر ٣٣٣) منذئذ هيأت حمص ذاتها للحياة الوطنية بارشاد نخبة من اعيانها الذين سموا فيما بعد امراء او ملوكاً وكان لهم ذكر في التاريخ ·
ودلت بعض الآثار التي وجدها العلامـة الاثري وادنغتون على ان استقلال

منطقة حمص بقيادة امرائها الوطنيين ، يرتقي الى اوائل القرن السابق التاريخ الميلادي.

واكتشف سنة ١٨٩٨ بعض مدافن الاسرة المالكة الحمصية ، وفيها كتابات باسماء بعض مشاهيرها . من هؤلاء يوتاب وتيم الله وغايوس وسهيم واسكندر ومنعم . غير ان هذه الاسماء لم تقترن بما يعين تاريخ كل منهم (قلعة قادش ٤٨) .

وينتظر حدوث اكتشافات جديدة يستطيع المؤرخ معها بأن يتبسط في تاريخ هذه الحقبة .

رابعاً — من هو الامير الاول ؟

الامر الذي كاد يكون في حكم المقرر ان السلوقيين لما ارادوا التفرغ لامر اليهودية ، خافوا ان يقطع عليهم الحمصيون خط الرجعة فيما لو كانوا حرباً عليهم . فمنحوا منطقتهم شبه استقلال اداري . لتحسين اقتصاديات المنطقة ، والاحتفاظ بثروتها الطبيعية ، فسهلوا لها بهذا سبيل الرقي . واعطت الارض ارزاقاً وافرة لاهتمام الاهلين بترقية الشؤون الزراعية .

ولما تفاقم الشر بين رواد السلطة رأى الحمصيون بعين البصيرة النقادة ، ان امر الدولة السلوقية صائر للزوال . واذ خافوا استئثار دولة جديدة بمصلحة البلاد ، لاذوا بأحد امرائهم الذي كان يشغل مركزاً حكومياً في احدى المناطق السلوقية ليتولى شؤون منطقتهم الادارية . فلبى الطلب وكان عند حسن الظن بـه . واذ كان القسم المتوسط من سوريا يئن من الاضطراب الحاصل بسبب تدخل ديكران الارمني في الاحكام (٨٣—٦٩ ق م) ، والقسم الجنوبي يعاني المشقات بمكافحة القائد الروماني الكبير بومبي (٦٤ ق م) ، كانت حمص تنعم بظل حكومتها الوطنية .

من هو هذا الحاكم الاول ؟ سؤال تتعذر الاجابة عليه بضبط ، ولم يجزم القدماء بتعيين مسماه لتعذر وجود ادلة كافية لمعرفة اول من تسلم قيادة الاستقلال الحمصي . ولكن بين المتأخرين من الباحثين من رجح ان سميغرام الاول هو اول من تسنم سدة الحكم الحمصي ومنهم من رأى انه قد سُبق الى الحكم وان دابل

ملكا الذي يذكره كثير من الباحثين في آخر من عرفت اسماؤهم من حكام حمص الوطنيين وممن رأى الرأي الاول من الحدثاء الاب اسحق ارملة. وممن جنح الى الرأي الثاني الاب لامنس الذي اوصل الاسرة المالكة الحمصية الى اوائل القرن الاول قبل الميلاد. وليس لنا ان نجزم بأي الرأين اصح ما دام الامر مبنياً على التخمين ، على اننا سنضع دابل ملكا في صدر هؤلاء الامراء اذ لا يزال التاريخ فارغاً في بداءة هذه الحقبة. وندع لتحقيقات الايام ابقاءه في محله او ابداله بسواه ونقله الى المؤخرة.

خامساً — شيء عن امراء حمص

ليس من السهل معرفة كل ما يلزم عن امراء حمص في هذه الحقبة ، لان افكار الكتاب انصرفت آنئذ الى شؤون الدول الكبيرة ، ولو لم تعرض لهم في اثناء مباحثهم لفتات بسبب صلة هؤلاء الامراء بغيرهم ، لما وصلت ايدينا الى شيء من المعلومات عنهم ، وما عرفناه نتيجة بحوث مضنكة التقطناها ممن بذلوا ما في الوسع لاستخراجها من مكانها.

أ — دابل ملكا

ذكر هذا الملك لاتورمان في مقالة نشرها في كتابه «الف باء فينيقية» وقال انه رأى اسمه على نقد نحاسي بالحروف الاسطرانجيلية ، وعلى رأيه ان هذا النقد النحاسي ضرب في انطاكية بامر مجلس الشورى الروماني ، ويرى في هذا النقد — بدل صورة القيصر — رأس متوج يرمز الى الشمس وقد حفر على دائرته اسم:

«دابل ملكا»

وأكد لاتورمان ان هذه الصكة من نقود حمص مستدلاً عن ذلك بان

هذه المدينة كانت مركزاً لعبادة هذا الآله باسم « ايل دابل » وهذا ما جعله يتيقن ان « دابل ملكا » هو احد ملوك حمص . ولم يتردد بضمه الى مصافهم .

٢ـ سمسيغرام

المعروف عنه انه كان في اول الامر رئيساً لاحبار هيكل الشمس المنشأ في حمص . وقد جمع في شخصه الولاية على الشؤون الدينية والمدنية معاً (ارملة) . وقد وجد البحاثة الاثري العلامة ودنغتون اسمه في اثر مكتوب باليونانية في حمص . ويذكر في هذه الكتابة سيلاس او (شيلا) الذي اقتحم ليسيا المجاورة افاميا الشهيرة .

وذكر سترابون الجغرافي (ك ١٦ : ٢) اسم سمسيغرام عند كلامه على حصار افاميا . وخلاصة ما قاله : ان القائد الروماني استنجد عن اضطرار بالملوك المجاورين كليزباس وسمسيغرام وابنه يمليك اللذين كانا مخيمين في الرستن .

وذكر الاب لامنس في رحلته الى حمص ان سمسيغرام امير عرب حمص وملك قلعة اريثوسا (الرستن) تدخل في مشاغبات الشعب الانطاكي في زمن انطيوخوس الاسيوي الذي استعان بسمسيغرام عندما استولى بومبي على سوريا . وقد لقبه اهالي رومة آنئذ سمسيغرام الروماني (قادش ٤٨) .

كان سمسيغرام معاصراً شيشرون الخطيب الروماني (١٠٧—٤٣ قم) الذي ذكره في احدى رسائله (١٥ : ١) وشبّه بومبي الروماني بسمسيغرام على سبيل المداجنة .

٣ـ يمليك « جمبليك » الاول

هو ابن سمسيغرام الكبير خلف اباه على عرش المملكة الحمصية ، وكان محازباً لمرقس انطونيوس على اوكتافيوس ولكن انطونيوس هذا خشي جانبه ففتك به سنة ٣١ قم ونصب مكانه اخاه اسكندر .

٤ً — اسكندر بن شميغرام

ما كاد اسكندر يتبوأ العرش ، حتى كتب الفوز لاوكتافيوس على انطونيوس سنة ٣١ ق‌م فناهضه هذا القيصر وضيق الخناق عليه . وما لبث ان ألقي القبض عليه وسيق الى رومة حيث صدر الامر بقتله . وظلت حمص بعد اسكندر مدة بدون ملك .

٥ً — يمبليك الثاني

وبعدما انقضى امر اوغسطس وتسنم السدة الرومانية طيباريوس قيصر (١٤—٣٧م) عاد النظام الى حمص وتولى امارتها يمبليك الثاني ابن يمبليك الاول وذلك في السنة العشرين الميلاد ، فاستعادت حمص مكانتها الاولى .

٦ً — شميغرام الثاني

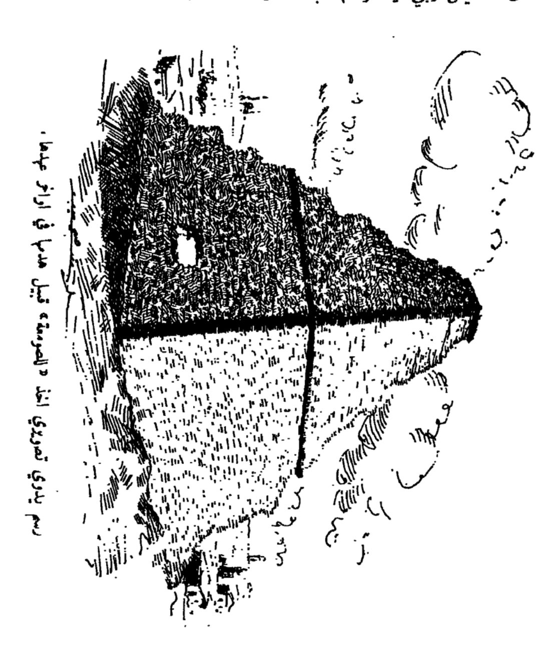
ذكر هذا الملك يوسيفوس المؤرخ اليهودي (١٩ : ٨) وخلاصة ما قاله فيه : انه لما عاد اغريباس الملك (٣٧—٤٤) من بيروت الى طبرية قابله انطيوخوس ملك كوماجنة وشميغرام ملك حمص وغونوس ملك ارمينيا الصغرى وبوليمون ملك بنطس وغيرهم . فاحتفى بهم اغريباس حفاوة باهرة . مظهراً شهامته وسخاءه وجدارته باستقبال الملوك المتعددين الذين يتقاطرون الى زيارته .

وذكر بعض المؤرخين ان ابنة شميغرام الثاني المدعوة يوتاب اقترنت بارستوبولس ثالث اخوة هيردوس اغريباس (قادش ٤٩) .

ويظن ان هذا الملك العظيم هو الذي بنى القصر التاريخي الذي ظل قائماً في ضاحية حمص الغربية الى عهد غير بعيد (وهو المعروف عند الحمصيين الحدثاء بالصومعة) وكان قبل الحرب برجاً يناهز علوه الـ١٥ متراً ، ذا ثلاث

طبقات تفتتت العاليـــة منها وبقي من الدورين الاول والثاني زاوية طرفاها من جهتي الغرب والشمال وقد وجدت عليها كتابة يونانية هذا نصها :

« كايوس ايوليوس فاريا سمي غيراموس » . وكان فيها نقوش هندسية جميلة وحجارة ملونة بقيت الى زمن الحرب العظمى سنة ١٩١٤ حيث دكت الى الحضيض وبني في موضعها البناء المعروف الآن بالكازخانة .



رسم يدوي تصويري اخذ « الصومعة » قبيل هدمها في اوائل عهدها .

٧ — عزيز

هو ابن سمسيغرام الثاني . وقد خلف اباه متسلماً بعده مقاليد الدولة الحمصية وكانت له صلات قوية مع اغريباس الاول . حتى ان هـذا زفّ اليه ابنته دروسلّا كما ذكر يوسيفوس (١٥ : ٢٠) وخلاصة مـا رواه بهذا الشأن : ان فتنة حدثت بين اليهود والسمرة . فرفع الآخرون دعواهم الى القيصر وكادوا يستميلونه اليهم لولا توسط اغريباس صديق امرأة كلوديوس قيصر (٤١—٥٤)، وفي اثناء ذلك زف الشاب اغريبا اخته دروسلّا الى عزيز ملك حمص الذي احبها حباً جماً ولاجلها تهود واختتن ولكنها بعدما اقترنت به احبت فيلكس الوالي الروماني ولزمته مع وجود زوجها عزيز اهـ .

ويرى البعض ممن يريدون تبرئة دروسلّا ان عزيزاً اختتن ليرضي اغريباس ولكن لما طلب هذا منه الاعتراف بالدين اليهودي أبى وسرح عروسه. ودرى بالامر فيلكس حاكم اليهودية الروماني فبعث صديقه سمعان اليهودي القبرصي فخطب له دروسلّا واقنعها بفيلكس زوجاً لها بناء على الترضيات الحسنة التي وعدها بها فيما اذا اصاخت سمعاً لطلبته فنزلت عند ارادته واقترنت به .

وفيلكس هذا هو المذكور في سفر الاعمال (٢٤ : ٢٤ و ٢٥) وما ذكر ثمة يؤيد الرأي الاول . وقد قال في فيلكس مؤرخ روماني ما يأتي : انه جمع بين قوة الملوك وخساسة العبيد فانه سعى بقتل احد احبار اليهود على درج الهيكل واغوى دروسلّا بنت هيرودس اغريباس الاول (واخت اغريباس الثاني وبرنيكي) فتركت رجلها وصارت اليه. ولكنه افاد اليهود بقضائه على اللصوص في معظم الانحـاء. وطرد المصري الموسوس الذي زعم انه نبي محاولاً اثارة العصيان اهـ (اليزا افرت ص ٢٩٩) .

اما دروسلّا فقد ماتت تحت انقاض بركان فيزوف سنة ٧٢م مع ولد لها اسمه اغريباس (يوسيفوس ٢٠ : ٧٥) .

واما عزيز ملك حمص فقد مات في مدينته حمص ودفن في ضاحيتها كما اشار الى ذلك مؤلف سوريا المقدسة الذي قال : ان قبر هذا الملك يحاكي الهرم

وهو واقع خارج باب المدينة الشمالي اه .

٨ً – يوليوس سهيم

هو ثاني ولد لسمسيغرام الثاني خلف اخاه عزيزاً على العرش الحمصي سنة ٥٥ م وعاصر نيرون وفاسباسيان. وعاون الرومان في حملتهم الحربية على اورشليم كما ذكر ذلك تاشيت المؤرخ (٢:٥١:٢) وقد وجد اسمه على اثر لاتيني اللغة وجد في حفريات بعلبك هذه ترجمتها :

« الملك الكبير غايوس يوليوس صوئيم (سهيم) ان الملك الكبير سمسيغرام محب القيصر ومحب الروم ... »

هذا ما امكن معرفته من اسماء ملوك حمص في هذه الحقبة . ونرجح ان ثمة غيرهم قد يكشفها المستقبل اما الوقت الذي وجد فيه هؤلاء الملوك او الامراء فيمكن ترجيح ما يلي بشأنه :

١)	دابل ملكا	٨٠—٦٠ قم
٢)	سمسيغرام الاول	٦٠—٤٤ ق
٣)	جمبليك الاول	٤٤—٣١ قم
٤)	اسكندر بن سمسيغرام	٣١قم—٢٠ م
٥)	جمبليك الثاني	٢٠م—٣٤ م
٦)	سمسيغرام الثاني	٣٤ —٤٥ م
٧)	عزيز بن سمسيغرام	٤٥ —٥٤ م
٨)	سهيم بن سمسيغرام	٥٤ —٧٩ م

سادساً – منبت أسلة هؤلاء الملوك

بين الباحثين خلاف في الامة التي انجبت هؤلاء القادة ؟ اهم العرب ام السريان ؟ اذ لا يخفى ان منطقة حمص في هـــذه الحقبة حوت من الجنسين

السرياني والعربي . الاول قديم العهد فيها وقد بقيت منه بقية لا يستخف بها رغم المصائب التي نزلت بهذا القطر ، وتعدد العناصر التي بسطت سيطرتها عليه . من حثيين وأشوريين وكلدان وفرس ويونان وارمن والثاني تدفقت رجاله عليه من عهد غير بعيد . ولاسيا بعدما رأوا ضعف القوة الحاكمة فاحتلوا ارباضه ومراتعه ، يطلبون الكلأ لمواشيهم والمأوى لعيالهم حيث استطابوا المستقر .

في هذه الآونة ظهر النوابغ المقدم ذكرهم فاخذت كلا الامتين السريانية والعربية تدعي صلتهم بها . وليس من السهل الجزم بأي الدعويين احق بالقبول لان كلتيهما ممكنة . ولكن ليس لكليهما ادلة يحل فيها اليقين موضع الظن . فلكي لا يكون في ما اتيناه نقصاً تتطلبه روح القارىء ، وتوقعاً لما يجلو الشبه عن محيا الدعويين نأتي في ما يلي على ما ابداه كل من الفريقين وندع للاكتشافات الحديثة جعل احداهما محجة الرواد .

يقول المدعون سريانية هؤلاء الملوك :

١) ان اهالي سوريا في ذلك العهد كانوا سرياناً . حتى ان الشام سميت سوريا نسبة اليهم . فلا بد أن هؤلاء الملوك كانوا من الجنس السرياني (السوري) .

٢) ان اسماء هؤلاء الملوك تدل على انهم سريان فان شمسي جرم مركب من لفظين سريانيين « شمشو » ومعناه الشمس و « جرم » ومعناه « الحاكم » ومعنى اللفظين معاً « الحاكم (باسم الآله) شمس » .

والذين ينكرون هذه الدعوى يجدون في هذين الدليلين ضعفاً . اما الاول فلأن هذه البلاد كانت مباءة لعدد كبير من الطوائف التي نزلت بها كالعمالقة والعموريين والفينيقيين والعبرانيين والحثيين والميطانيين والاشوريين والكلدان والفرس واليونان والارمن الخ . فلم نخص الحمصيين بتسلسلهم من دم سرياني ؟ ولِمَ لا يكونون من دم آخر ينسب لاحدى تلك القبائل ؟ ولاسيا وان بعضها طال مكثها في هذه المنطقة اكثر من سواها . وتشرب الاهلون عاداتها ولغاتها كالحثيين مثلاً واليونان ؟

واما الثاني فلأن اسماء هؤلاء الملوك ليست كلها سريانية اللغة لتصح الدعوى او تترجح . واذا كان بينها اسمان (على تقدير ان سميغرام سرياني اللفظ) فان فيها ثلاثة اسماء يونانية واثنان عربيان وهما عزيز وسهيم .

فالاستناد اذاً على الدليلين لا يؤدي الى الجزم بصحة القول في ان هؤلاء الملوك من جنس سرياني .

اما الذين قالوا بعربية الملوك فاستندوا الى ما يأتي :

١) ان العرب الذين تسربوا الى الشمال الشرقي من سوريا في القرن الاول قبل المسيح ، كانوا من الجرأة وحب الاستقلال ما لا ينكره عليهم منكر . فلا ينكر عليهم ان يقودوا الامة التي نزلوا بين ظهرانيها الى مراتع الحرية ويؤكده ان الحمصيين لبثوا مدة طويلة ، ولم يجرأوا على طلب الاستقلال قبل الوقت الذي قدموا فيه الى بلادهم .

٢) ان المؤرخين صرحوا ان شمسيغرام كان امير عرب حمص وملك قلعة الرستن . ومن هؤلاء الاب هنري لامنس اليسوعي ، ولا عـبرة للاجتهاد مع وجود النص :

٣) ان الآثار دلت على ان العرب المتحضرين امتزجوا بالاهلين امتزاج الراح بالماء . فتعلموا لغاتهم مع محافظتهم على لغتهم الاصلية . وفي آثار الصفا قطع كتبت باللغة العربية المحضة . واخرى باللغتين العربية والسريانية معاً . وغيرها بالعربية والنبطية او العربية واليونانية . مما دل على ان الكتاب عرب . وأيد ذلك الفيلولوجيون بدليل ان ما كتبه اولئك الراقون بغير اللغة العربية لم يكن بلغة فصحى لاخذهم تلك اللغات عن المتحدثين لا عن المتعلمين (المباحث٤:١٧٦).

على ان هذه الادلة وان كانت اقوى من تلك فانها مـا برحت ضمن دائرة الظن المرجح . والجزم بصحة احد الرأيين انما هو تسرع يأباه من كانت الحقيقة الناصعة هدفاً له ، وانما لخصنا ما قاله الفريقان لاطلاع القارىء العزيز ، غير جازمين بأيهما اولى بالنزول عنده ، لان قضية كهذه يلزمها لاجل التيقن ادلة اوفى وشواهد اصرح .

سابعاً — الملكات اليهوديات

ممن كان لهم صلة بتاريخ حمص في هذه الحقبة ، ملكتان يهوديتان مرّ ذكرهما اكثر من مرة . ولكي يحيط القارىء بتاريخهما الخاص الذي له صلة

بالتاريخ العام ، نأتي بترجمتها ملخصة في ما يلي :

١ — اغريباس الاول

هو هيردوس اغريباس بن اريسطوبولس بن هيردوس الكبير . ولد في سنة ١٠ ق م ، ولما قتل جده هيرودس اباه اريسطوبولس سنة ٧ م أرسل الى رومة حيث تربى هناك مع كليوباترا وكلوديوس وهما في سن الصبا . وعاش براحة كل مدة ملك اوغسطس . فلما تسنم العرش طيباريوس اودعه السجن لاشتباهه باخلاصه وظل سجيناً حتى مات طيباريوس . فلما خلفه كليغولا سنة ٤٠ م اخرجه من السجن وصاغ له سلاسل من ذهب ثقل السلاسل الحديدية التي قيده بها طيباريوس . وولاه على جزء من مملكة جده هيرودس الكبير ثم سماه ملكاً سنة ٣٩ م . فغارت اخته هيردويا واغرت زوجها انتيباس بالذهاب الى رومة التماساً لعطف القيصر عليه وتنصيبه ملكاً . فمضى ومعه هيردويا . ولكن اغريباس اسرع وشكا للعاهل صهره المذكور متهماً اياه بتآمره مع سجانوس على طيباريوس . وانه مالأ ارطبان ملك برثيا ضد الرومان . وأيد دعواه بوجود اسلحة في خزائن انتيباس تكفي لسبعين الف رجل . ووصلت الرسالة قبل وصول انتيباس فأثارت غضب القيصر عليه . ولما لم ينكر انتيباس وجود الاسلحة عنده حينما استجوبه غايوس كليغولا عزله القيصر للحال ونفاه الى ليون . لكنه ترك لهيردويا ما كان لها من المال واعداً اياها بالعفو عنها اكراماً لاخيها اغريباس . فأبت هي نيل العفو مؤثرة عليه النفي مع زوجها (يوسيفوس ١٨ : ٩) .

بعد هذه الحادثة بمدة دفع الغرور كليغولا ان يدعي الالوهية . وامر باقامة النصب له في كل المعابد حتى هيكل اورشليم . فقاومه اليهود مقاومة عنيفة ، وكان اغريبا في رومة فاستدعاه القيصر واظهر نقمته لما عمله قومه في اورشليم . فأغمي على اغريباس ونقل الى فراشه في تلك الحالة . فلما افاق كتب رسالة الى القيصر يرجو منه فيها اطالة اناته ، وتأجيل اقامة التمثال الى فرصة يستنسبها هو . ومن حسن حظ اغريبا ان القيصر قتل بمؤامرة اغتاله فيها رئيس حرسه في ٢٤ ك ٢ سنة ٤١ .

ورأى اغريبا ان يستفيد من الحادث فسعى لدى ذوي النفوذ من الرومان باقامة كلوديوس قيصراً ونجح . وعرف كلوديوس له هذا الجميل فكافأه باعطائه حكم اليهودية كلها . وطابت بذلك نفوس اليهود فعظموه لدفع ذاك البلاء عنهم . وقدر لهم هو هذه العاطفة ولكنه غالى في ارضائهم اذ قبض على يعقوب بن زبدي وقتله بالسيف بغير ذنب جناه ارضاء لهم سنة ٤٤ م .

وذكر يوسيفوس (١٩ : ١) ان اغريبا هذا بنى في بيروت ملعباً ومسرحاً وحمامات وايوانات جميلة ولكنه جعل المسرح مشهداً لمؤلمات تمجها المدنية . اذ امر باحضار اربعمئة رجل محكوم عليهم بالموت . ثم قسمهم فرقتين تتقاتلان حتى لا يبقى منهما احد .

واتى اغريبا الى قيصرية بعد ذلك لمشاهدة الملاعب التي اقيمت لاجل القيصر . وكان لابساً حلة فائقة البهاء . فأجاءه الحضور كاله . وارتاح هو الى ذلك بدلاً من ان يردع المملقين . ورفع عينيه الى فوق إبان ذلك فوجد دماً فوق رأسه فتشاءم منه . وللحال شعر بمغص يقطع امعاءه . فحمل الى قصره ، وكابد العذاب خمسة ايام متوالية . ثم قضى وهو في الخامسة والخمسين من عمره لمرور سبع سنوات على ملكه (١ ع ١٢ : ٢٠) .

٢ — اغريباس الثاني

هو ابن اغريباس الاول . وسماه يوسيفوس اغريباس الصغير او الشاب تمييزه له عن ابيه . ولد سنة ٢٧ م في رومة اذ كان ابوه مقيماً فيها وظل هناك الى ان توفي ابوه سنة ٤٤ وكان عمره هو ١٧ سنة . فوعده كلود باقامته مكان ابيه ، ولكنه اخلف وعده هذا اتباعاً لنصيحة مستشاريه . على انه عطف عليه بعدئذ واقامه سنة ٤٨ ملكاً على كلشيد التي كانت لعمه هيردوس . وسنة ٥٢ اضاف له الربع الذي كان لعمه فيلبس . ثم ضم له ايضاً الابلية التي كان فيها ليسانياس .

ولما جلس نيرون على العرش اضاف الى ملكه بعض مدن الجليل وبيرية وولاه حراسة الهيكل وحق انتداب الحبر الاعظم . فتظاهر اغريباس بالغيرة

الدينية ليستميل اليهود اليه ، ولكن هؤلاء ترددوا في تصديق ما اظهره لانه تربى عند الرومان الوثنيين . وكان شكهم في محله لانه اتفق مع الرومان يوم عصاهم اليهود . ومما قلل اعتباره عندهم عيشته غير الطاهرة مع اخته برنيكي .

بلغ اغريباس هذا الثالثة والسبعين من عمره ومات في رومة سنة ٩٩ او ١٠٠ م وكان آخر الهيرودسين ، وآخر المتسلسلين من مريمى ، وآخر المكابيين وهو الذي احضر بولس الرسول امامه .

ثامناً — الآداب اليونانية في هذه الحقبة

حاول بعض المتعصبين للغة الآرامية (السريانية) إثبات انها كانت سائدة المنطقة الحمصية في هذه الحقبة . متخذين دعامة لرأيهم ورود كلمات آرامية فاه بها السيد المسيح في الانجيل . وذهل هؤلاء عن ان كتابة اسفار الانجيل باليونانية تدل على سيادة اللغة في هذه البلاد . اذ لولا ذلك لما كتبت بها هذه الاسفار التي لم تكتب للخاصة فقط بل للعامة ايضاً .

على ان تشبث البعض بزعمهم ان اللغة الاولى الآرامية هي السريانية ينفيه ما اورده العلامة ديونيسيوس بن الصليبي السرياني في مؤلفه تفسير التكوين (المخطوط) اذ يقول : « ارتأى كثير من الملافنة ان اللغة الاولى الآرامية هي اللغة السريانية . اما يعقوب الرهاوي وموسى بن كيفا واقليمس تلميذ الرسل واوسابيوس الحمصي ، فيثبتون انها العبرانية . بدليل ان اسماء آدم والبطاركة انما هي الفاظ عبرانية . وقد استعارها اللسان السرياني من العبراني كسائر الالسنة .

وثمة دليل آخر الآية الكتابية التي قيل فيها : « هذه تدعى امرأة لانها من امرىء مأخوذة » فهذا اللفظ لا يوجد له اشتقاق في لساننا . وانما هو مشتق من نفس لفظه في العبرانية . اذ ورد فيها « هذه تدعى إيشا لانها من الايش أخذت اهـ » .

ومن هذا يفهم ان اللغة السريانية لم يكن لها اهميتها الاولى في هذه الحقبة . وحسبك ان تعلم ان الادب اليوناني ساد الطبقات العليا من الامة

السورية . حتى ان كثيرين من العلماء اتخذوا اسماء يونانية مثل «ديودوت» و«ذيوس» و«فيلوسترات» وغيرها وكلهم ألفوا باللغة اليونانية . ومعظم الشهرة التي نالها فيلو الجبيلي ، انما استمدها من كتاب ألفه او نقله الى اللغة اليونانية لتاريخ فينيقية . وهو السفر الذي استفدنا منه كثيراً لنشأة حمص في دورها الاول .

وقد روى سترابون ان قد بنيت في صيدا بين سنتي ٤٠ و١٨ ق‌م مدرسة عالية لتدريس فلسفة اريسطو اليونانية . وانه هو نفسه قرأ الحكمة فيها . ورافقه في طلبها فينيقي اسمه «بوثيوس» وعرف أخا لرفيقه اسمه ديودوت كان من طلاب الفلسفة ايضاً .

ΕΤΘΥ
ΚΥΜΗ
ΝΟΕ.ΑΔΕΑ
ΑΑΙΘΥΚΒ
ΜΘΚΕΙΜ
ΘΕΜΑΘΕΙ
ΘΥΑΛΥΠΕ
ΧΑΙΡΕ

كتابة يونانية منقولة عن حجر محطمة في زيدل

والذي يستطيع مطالعة ما ابقاه الدهر من مؤلفات ابناء هذه البلاد لا يكاد يرى فيها فرقاً عن كتاب اليونان الخلص . واستغرب بعض الباحثين شدة تأثير هذه اللغة التي اجتاحت لا مصر والشرق الادنى فقط ، بل غشيت سوريا كلها في زمن قصير حتى اوغلت في البادية واستهوت بعض قبائلهم لجعلتهم ينتحلون الاسماء اليونانية .

وفي حمص نفسها وجد العلامة ودنيكتون ١٧ اثراً يونانياً في مجموعه المشهور (٢٥٦٧—٢٥٧٠) . ثم وجد الموسيو دوسو سبع كتابات اخرى نشرها في تاريخ رحلته . وكان قبل ذلك قد اخذ بعض العلماء رسوم كتابات غير هذه لم يحسنوا رسمها . منهم برتون ودراك . ثم تلاهما العلامتان فوسه وبردريزه . وذكر صاحب المشرق (٤٦:٤) انه وجد نحو ٧٠ اثراً يونانياً ، ولعل ما وجدناه في زيدل احدها .

تاسعاً — زراعة حمص

دعا بعضهم الحقبة التي استولى فيها السلوقيون على سوريا « حقبة حمص الزراعية » واذا ساغ اطلاق هذا الاسم عليها فيجب ان يخصص بالحقبة السادسة التي سلم نطاق العمل فيها الى حكومة وطنية ، يهمها الشؤون الزراعية اكثر من كل شأن آخر . لانهم اختبروا طبيعة الارضين وعرفوا تربة كل شبر فيها ، ولأي نوع من انواع المستنبتات يصلح . ولذلك بلغت الزراعة في هذه الحقبة درجة هامة . لا في حمص فحسب ، بل في سوريا كلها . ولاسيما ما اتصل منها بحمص اتصالاً مباشراً .

ورأى بعضهم ان الحمصيين بلغ من اجتهادهم في هذا الشأن ، ان تفوقوا على المصريين لذلك العهد . ولم يفضلوهم فقط بل بلغوا شأواً يكاد يقصر عنه من عانى الزراعة في البلاد المتمدنة الآن .

ومما خولهم هذا التفوق ، طبيعة الارض نفسها . فان سهل حمص الواسع الخصيب ، والاراضي الواقعة على ضفتي العاصي الممتدة مسافة طويلة ، والجبال المشرفة عليها ، والاحراش التي تستجلب المطر والندى ، كل ذلك جعل مهمة الزراع الشاقة سهلة . وجعلت الحراثة امراً ميسوراً . فكانت الخمائل الباسقة الاشجار تكتنف العاصي من منبجسه حتى مصبه . والاراضي الممتدة من شرقي حمص حتى الموضع المسمى الآن الفركلوس ، كانت عبارة عن غابات من الزيتون ، لا تنتهي احداها حتى تبتدىء الاخرى ، وقد وجد الاثريون ، ولاسيما المهندس النمساوي يوسف شرتيك والعالم شاس (الدبس ٤ : ١٤٥) آثار عشرين رحى ضخمة ونيف لعصر الزيتون في هذه البقعة . مما دل على ان هذه المنطقة كانت غنية بزراعتها من زيتون وعنب وحبوب . وكان الزيت والخمر والقمح الذي يستخرج من البساتين والكروم والحقول في منطقة حمص ، من أجود انواعه ، حتى ضرب المثل بجودته بعدئذ كما سيمر بك في حقبة اخرى . وانما يستغرب ما نرويه ولا يكاد يصدق ما تقول من يمر الآن بصحراء حمص الى تدمر ويرى الاراضي الجرداء المهملة ، لولا ان الاثريين شاهدوا بالعين المجردة آثار هذا العمران واطلال المدن والقرى

والمزارع واقنية الماء الممتدة من جنوبي حمص حتى تدمر .
والآمال معقودة على يقظة الحمصيين الحديثة لاسترداد ما خسروه في المدى الطويل من ايام الاستعباد .

خلاصة حوادث هذه الحقبة

لما حاول السلوقيون ارغام اليهود على اتباع عاداتهم ، التي لم يكن في اليهود استعداد لقبولها ، ولاسيما ما كان منها مخالفاً لعقائدهم الخاصة ، نظير التضحية للاوثان ، واقامة نصب لها في في الهيكل ، ثار اليهود عليهم في فلسطين . وظلوا يناضلونهم حتى كسروا نيرهم الذي طوقوا به اعناقهم مدة طويلة . ونالوا الاستقلال سنة ١٤٢ ق.م بعد نضال استمر نحو ربع قرن . وأدى هذا الاستقلال الى اضطراب الأمن في البلاد السورية . وساور ذلك حوادث داخلية وخارجية اقلقت الخواطر مدة ليست بقصيرة . ومن تلك الحوادث تزاحم امراء السلوقيين على العرش ، ومحاربة احدهم الآخر ، واستعانة بعضهم على ما يطمعون اليه بالاجانب عنهم . مما جرأ العرب على اقتحام البلاد السورية واستقرارهم في بعض مناطقها ، وظل الامر كذلك الى اوائل القرن الاول السابق للميلاد . فاستسنح الحمصيون هذه الفرصة لنيل استقلالهم ، وخاف السلوقيون ان يؤدي رفضهم ما يطمع به الحمصيون ، الى فتنة اخرى في سوريا المجوفة التي احتل قاعدتها الكبرى (دمشق) العرب . فمنحوهم استقلالاً ادارياً مشترطين عليهم الاعتراف بسيادة السلوقيين العليا . فرضي الحمصيون بهذا الشرط علماً منهم ان هذه

السيادة لا تتجاوز اللفظ . وتم هذا الاستقلال الاداري بعد سنة ٩٦ ق م . حيث هيأ الحمصيون انفسهم للحياة الوطنية بارشاد نخبة من اعيانهم . الذين عرفوا بعدئذ بامراء او مـلوك حمص . وقد عرفنا من هؤلاء ثمانية اشخاص ، ونأمل ان ترشدنا اكتشافات جديدة الى معرفة الباقين .

ونذكر في ما يأتي اسماء من عرفناهم مع تقدير سنة وجودهم على العرش الحمصي ، وهم : دابل ملكا (٨٠ ق م) سمسيغرام الاول (٦٠ ق م) جمبليك الاول (٤٤ ق م) اسكندر (٣١ ق م) جمبليك الثاني (٢٠ م) سمسيغرام الثاني (٣٤ م) عزيز (٤٥ م) سهيم (٥٤-٧٩) .

واختلف الباحثون في الامة التي نبغ منها هؤلاء الامراء . فظن بعضهم انهم من دم سرياني ، وبعض انهم من دم عربي . ولكل من الفريقين حجج تسمع . ولكنها ما برحت ضمن دائرة التخمين . غير ان المتفق عليه انهم حمصيو المولد والمنشأ .

وقد بلغت زراعـة حمص في هذه الحقبة درجة ممتازة . كاد يسبق فيها الحمصيون معاصريهم من المصريين . مع ما لديهم من بسطة يد فيها في ارض يخترق بقعتها وادي النيل المشهور بخصبه .

وقد وجد الاثريون في منطقة حمص آثار ارحية كثيرة ضخمة تتجاوز العشرين . لاجل عصر الزيتون الذي ملأت غاباته الاراضي الممتدة من شرقي مدينة حمص حتى الفركلوس . كما ان الخمائل الباسقة الاشجار اكتنفت وادي العاصي من منبعه حتى مصبه . فكانت حمص مضرب المثل بما تنتجه بساتينها وكرومها وحقولها

من زيت وخمر وقمح .

وظلت اللغة اليونانية في هذه الحقبة مكانتها ، اذ استعملها الكتاب الوطنيون في الدواوين والمؤلفات والمكاتبات الخصوصية التي بقي منها عدد ليس بقليل الى الآن .

المنصوص الى منطقة حمص منه كتاب هذه الحقبة

١) ارثيميدورس

جغرافي اغريقي من افسس نبغ في اوائل القرن الاول ق م وطاف اسبانيا والبحار الاسود والمتوسط والاحمر ، والاوقيانوس الهندي بغية اصلاح الاغلاط التي ارتكبها الجغرافيون الذين سبقوه . الف كتاباً في سياحاته وقع في ١١ جزءاً لم يبق منها سوى قطع حفظها سطرابون ومرکيان وسواهما من القدماء . جمعها بعدئذ هدسون وطبعها سنة ١٦٩٨ في اوكسفورد .

٢) كايوس سلست (٨٦ : ٣٤ ق م)

كان والياً لدولته في افريقيا ، فأثرى وعاد الى رومة فبنى فيها قصراً فخماً تحيطه حدائق غناء ، فكان مقصد رجال النبل وحملة الاقلام . فاستفاد من هذه الاجتماعات جداً ووعى في فكره الشيء الكثير من وقائع عصره فوضع عدة كتب تاريخية جعلته في مصاف اعلام المؤرخين . وبقي لنا من مؤلفاته هذه سفران نفيسان ، الاول « مكيدة الكاتلين » ، والثاني « الحرب الجوغراتية » كلاهما من اثمن ما كتبه الرومان بحسن السبك وطلاوة النثر . وهما يدرسان الآن في معاهد العلم في اوربا واميركا كنموذج انشائي يحذى حذوه .

٣) نقولا الدمشقي

ولد في دمشق سنة ٧٤ ق م ، ونبغ في صدر القرن الاول للميلاد ، ومن اهم ما خلفه للعلم والعلماء ، ترجمتان وضعهما لهيرودوس الادومي واوغسطوس قيصر ، وتاريخاً عاماً شغل ١٤٤ جزءاً نال به شهرة واسعة لحسن اسلوبه وفصاحة عبارته ، لم يبق منه الى الآن سوى فقرات باللغة اليونانية انتفعنا بها لموضوعنا التاريخي ، رآها القارئ في مواضعها .

٤) بوليهستور

هو اسكندر اليوناني العلامة الذي لقب لسعة اطلاعة وغزارة معارفه بوليهستور «الكثير القصص» ، ولد في مينيتوس ، واسره الرومانيون سنة ٨٥ ق م في الحرب التي اثارها على متريدات ، فصار عبداً لكرنيليوس لنتولس . ولكن هذا لما رأى غزارة علمه وحسن ادبه اعتقه وعهد اليه تهذيب اولاده ، فقام بما انتدب له قياماً حسناً . ثم توفي سنة ٧٥ ق م .

من آثاره القلمية عدة مؤلفات في الفلسفة والجغرافية والتاريخ معتبرة جداً ، وقد روى ما قصه القدماء نظير كتازياس وبيروز بصورة تستجلب النظر . ولكن لم يبق مما ألفه سوى بعض قطع من كتاب عنوانه « تاريخ امم المشرق » وكتاب آخر « نبذة في اليهود » وكلاهما مترجمان (البستاني ٣—٧٠٥ م) .

٥) ديونيسيوس الهاليكرناسي

يوناني الجنس اتى رومة سنة ٣٠ ق م ودرس اللاتينية فأتقنها . ثم جمع ما يلزم لتأليف تاريخ كبير نشره سنة ٧ ق م . وقد حوى هذا التاريخ فوائد قيمة لا توجد في سواه .

أصَّل في اوله الدول اللاتينية الى سنة ٢٦٦ قم ثم فصل كل مـا له صلة برومة القديمة ، من عادات وشرائع فوقع مصنفه هـذا في عشرين جزءا لم يبق منها الى الآن سوى ١١ وبعض قطع من الاسفار الاخرى .

ولديونيسيوس المذكور مؤلفات اخرى عدا تاريخه الكبير ، انتقد في بعضها المؤلفات القديمـة لكتبة اليونان ، وبحث بدقة في فصاحة ديوستين وانشاء توسيديديس وغير ذلك .

٦ً) سطرابون (٦٠ قم — ١٥ م)

اشهر جغرافي العصور القديمة ، ولد في اماسيا كبدوكية سنة ٦٠ قم واخذ الفلسفة عن المشائين ، والفصاحة عن ارستوذيموس الفينيقي ، والغراماطيق عن تيرانيوس الحمصي . ثم مال الى الاسفار فطاف غربي آسيا وشمالي افريقيا وسوريا وفينيقيا . ثم سار الى بـلاد اليونان وايطاليا ، وبعد عودته ألف جغرافيته الشهيرة التي وعت كل معارف عصره (قبيل الميلاد) وكان يعتمد في ما نقله على بوسيدون الافامي .

ومن خصائص سترابون قوله : ان اول من سمى الآراميين سوريين هم اليونان اذ لم يكن هذا الاسم معروفاً عند هومير وهسيود . وذكره العاصي باسم اورانتس وكان اسمه القديم تيفون ، وهو الذي سمى السهل المنبسط بين لبنان الشرقي والغربي سوريا المجوفة .

٧ً) ديودور الصقلي

احد مشاهير كتاب اليونان ، نبغ في ايام اوغسطس وعاش الى زمن طيباريوس . وله مصنف جليل سمي « المكتبة التاريخية » وهو تاريخ عام يبتدىء من الخليقة وينتهي بموت يوليوس قيصر . وقع في ٤٠ جزءا تضمنت الاولى منها اساطير اليونان . والاحد عشر التابعة لها ، تاريخ الحوادث من حرب ترواده

الى موت الاسكندر ، والباقية من موت الاسكندر الى قتل يوليوس قيصر ، ولم يبق من مصنفه هذا سوى الاجزاء الخمسة الاولى ، ومن العاشر الى العشرين ، مع بعض قطع من الاجزاء السادس والسابع الى العاشر .

وقد استغرق تصنيفه هذا التاريخ ٣٠ سنة . قضاها بتحري ما رواه ، ولذلك وثق به المؤرخون .

٨) اوبيد (٤٣ ق م — ١٨ م)

شاعر روماني نشأ من اسرة شريفة رشحته للمحاماة ، ولكن ميله لقرض الشعر حال دون نجاحه . وساح في آسيا وصقلية ، ثم عاد الى رومة .

تزوج ثلاثاً ، فترك الاولى لخيانتها ، والثانية لعذلها اياه ، اما الثالثة فقد عاش معها برغد نحو عشرين سنة من سنة ١٣ ق م الى سنة ٨ م ، حين نفاه القيصر الى تومي على البحر الاسود ، وهناك كتب معظم قصائده التي من اهمها ديوان عنوانه « المسخ » وقع في ١٥ جزءاً ، وفيه مطال على البقاع السورية .

٩) فيلون الجبيلي

مؤلف له شهرة في التاريخ . نبغ في مدينة جبيل في القرن الاول ، واشهر ما تركه من الآثار ترجمة تاريخ فينيقية لسنكونياتون الى اليونانية . وقد حفظ اوسابيوس فقرات كثيرة من كتاب فيلون المذكور وذيلها بقوله : ان هذه الامور عني ببسطها سنكونياتون وهو مؤلف قديم جداً يقال انه كان قبل حرب تروادة وانه كتب التاريخ الفينيقي متحرياً الصدق ، وقد نشر فيلون الجبيلي جميع مصنفات هذا المؤرخ بعدما ترجمها الى اليونانية وذكر ذلك خصمنا المعاصر (يعني برفيريوس الصوري) .

وذكر اوسابيوس مقدمة الجبيلي لتاريخ سنكونياتون وخلاصتها انه اراد

ترجمة هذا التاريخ ليظهر خطأ الذين يزعمون ان قصص الآلهة غير حقيقية. وانما هي رموز لحوادث طبيعية . وتقلبات فلكية . وانه اراد اظهار تاريخ الفينيقيين من غير كتب اليونان . الذين لا يوافق احدهم الآخر ، بل يقتصر كل منهم على انتقاد الآخر فضاعت بهذا الحقائق التاريخية اه .

١٠) بليني الكبير ٢٠–٧٩م)

ولد من اسرة شريفة ، ولما بلغ سن الشباب تجند وظهرت بسالته في عدة معارك (٤٦–٥٢) فلما ملك نيرون اعتزل الجندية وانصرف الى العلم . وظل كذلك حتى ملأ وطابه منه. فلما مات نيرون عين عاملًا للدولة في اسبانيا. ثم اعتزل السياسة واهتم باتمام تاريخ اوفيد باسوس فأوصله الى ايامه في ٣١ مجلداً. ومات بعد ذلك ضحية العلم بينما كان يراقب هيجان بركان يزوف سنة ٧٩. وقد ترك مؤلفات كثيرة لم يبق منها سوى تاريخه الطبيعي في ٣٧ جزءا .

ومما له صلة بموضوعنا انه ذكر في كتابه (١٩:٥) ان في كورة لاذقية لبنان (يريد سهل حمص الجنوبي) مدينة باراذيسوس (فردوس) وهي التي رجح الاثريون انها كانت في موضع جوسية القديمة .

١١) يوسيفوس اليهودي (٣٧-١٠٣)

هو يوسف بن كريون المؤرخ المشهور ، ولد في اورشليم من اب يعتبر من اعاظم كهنة اليهود وامه من سلالة المكابيين. ظهرت حذاقته منذ صباه. ثم سافر وهو ابن ٢٦ سنة الى رومة للمحاماة عن بعض اليهود ، وعاد بعد ثلاث سنوات فوجد الثورة اليهودية ناشبة في البلاد فحاول تهدئة خواطر قومه لما عرفه عن قوة الرومان . فلم يفلح بل بالعكس ارغمه الثائرون على الانتظام في سلكهم . ثم قلدوه زعامة الثائرين فأحسن القيادة ورأى ان يتجنبوا الخطر بالتحصن في الجليل . وجاهدوا ملياً فلم يفلح سعيهم ، وبعد جهاد ٧٤ يوماً

اضطروا للتسليم ، والذين رفضوا الاستسلام ومنهم يوسيفوس قتل بعضهم بعضاً ولم يسلم سوى يوسيفوس . فاعتقله فاسباسيان واحتفظ به لانه تكهن بصيرورة الملك اليه . فلما صحت نبوته بعد ثلاث سنوات اطلق سراحه . وصفح عن اخوته وخمسين من رفاقه .

على ان هذا لم يؤته حسن الحظ لان قومه نقموا عليه والرومان لم يثقوا به . فكان ذلك من حظ التاريخ ، لانه لزم بيته وانقطع الى الكتابة عن اليهود وآثارهم وتوفي في رومة سنة ١٠٣ م .

ومن آراء يوسيفوس الخاصة بتاريخ حمص ، ذكره سوريا المجوفة ذكراً حسناً وتعيينه فيها حماة باسم ابيفانيا ، وتعليله وجود مستنقعات في سوريا المجوفة بانها نتيجة ركود المياه التي يتخلف عنها تراب هذا السهل الخصب الخ (١١و١٧).

١٢) ابيان

مؤرخ يوناني ولد في الاسكندرية في اوائل القرن الثاني م ، ونبغ في اواسط القرن المذكور ، اذ سار الى رومة في ايام ترايان وظل فيها الى ان مات انطونيوس بيوس فلمعت مواهبه كمحام . ولما تقدم في السن سعى له صديقه فرونتو فشغل مركز نائب الامبراطورية . ثم مديراً للضرائب في مصر .

وقد ألف تاريخاً رومانياً سلك فيه مسلكاً جديداً اذ لم يتقيد بالتاريخ في ذكر الحوادث ، وانما ذكر كل الامم التي خضعت للرومان كل واحدة على حدة حتى ينتهي منها فيباشر سواها ، مبتدئاً من فجر تاريخ تلك الامة الى ان تندمج في الامبرطورية الرومانية .

وقع مؤلفه في ١٤ مجلداً باللغة اليونانية ، بقي منها الى الآن ١١ مجلداً وبعض قطع من اجزاء اخرى . وقيمة مؤلفه في وضوحه ودقته ونزاهته ، وهمنا منه بنوع اخص تاريخ السوريين والحروب التي نشبت فيها . وقال فيه بعضهم لولا كتاباته لنقص تاريخ العالم في اماكن كثيرة .



الحقبة السابعة

حمص

في ايام الرومان عموماً وأسرة باسيان القيصرية خصوصاً

٧٩ م - ١٩٣ - ٢٣٥ م

توطئة

تدخل حمص في هذه الحقبة تحت سلطة قياصرة روما . وقد تسنم العرش الروماني من ابنائها عـدة قياصرة استغرقت سيادتهم نحو ٤٢ سنة . فلا بد لنا والحالة هذه من الالمام بتاريخ الرومانيين لفهم حقيقة الحوادث التي لها صلة بتاريخ حمص . اذ بمعرفة الاسباب والمسببات تدرك حقيقة التطورات التي حدثت وصلة مدينة حمص التاريخية بها . وتقسم الماعاتنا هـذه الى ستة فصول يرى فيها القارىء صورة مصغرة لتاريخ الامة الرومانية التي كانت صغيرة وضعيفة في اول امرها ، ولكنها تقدمت حتى سبقت كل ممالك العالم بقوتها وامتداد سلطتها .

١ - اصل الرومان ١١٨٤ - ٧٥٣ ق م

لا يعرف شيء أكيد عن اصل الرومان القدماء . ولكن التقاليد اجمعت على انهم من اصل شرقي ، وان مصدرهم الاصلي تروادة .

فقد روى رهط من المؤرخين بعد تنقيتهم — من الخرافات والمبالغات الشعرية — الاساطير التي وصلت اليهم ، ان ابنياس احد امراء تروادة لما كل من العراك ، وعجز عن رد الاعـداء الذين دخلوا المدينة بالقوة سنة ١١٨٤ قم (الياذة هوميروس ن ٢٠ ص ٩٧٣) لجأ مع اسرته وقسم من ابطال تروادة الى معاقل جبل ايدا . ظناً منه ان الفاتحين يرحلون دون انتباههم اليه . غير ان المعاصرين بعد هدمهم المدينة وجمعهم الغنائم تتبعوا ابنياس للايقاع به وبمن معه . فسألهم السلام فقبلوا طلبه على ان يغادر البلاد للحال . فرحل الى لاتيوم الواقعة شرقي نهر التيبر ، بعدما ترك قسماً من رفاقه في احدى جزر مكدونية ، وقسماً آخر في صقلية . ودرى لاتينوس ملك لاتيوم بالنازلين في جواره فخشي جانبهم . ولاسيما اذ رآهم جيشاً منظماً مهيئاً للقتال . ولكن لما اخـبره ابنياس بما جرى له وانه نزيل لا يبغي بمضيفيه شراً ، بل هو مستعد لمعاونتهم على طوارىء الزمن . ارتاح لكلامه ورغب في مجاورته لانه كان في حالة نزاع مع بعض مجاوريه . ففسح المجال لسكناه مع رجاله وزوجه لافينيا ابنته واصبح الفريقان شعباً واحداً بطريق المصاهرة . واظهر ابنياس تقديره للاتينوس ببنائه مدينة سماها لافينيوم باسم زوجته اكراماً لها (يورتر ص ٣٨٢).

ولما مـات لاتينوس ولم يكن له من يخلفه استتب الامر لابنياس ، وملك بلاد اللاتيوم بلا معارض فلما مات خلفه ابنه اسكانيوس من كريوزا ابنة بريام ملك تروادة . الذي بنى مدينة البالونغا (المدينة الطويلة) تاركاً لافينيوم لاخيه سلفيوس ابن لافينيا وكان بناء البالونغا بعد لافينيوم بثلاثين سنة .

ملك اسكانيوس ٢٢ سنة ومات فخلفه بارادة الامة اخوه سلفيوس ومن ذرية سلفيوس هذا تسلسل نحو ١٢ ملكاً ملكوا نحو ٤٠٠ سنة ومن دم نوميتير آخرهم ولد روملوس الذي بنى مدينة روما سنة ٧٥٣ قم (تاريخ الرومان لطراد ص ١—١٢) .

٢ـ عهد الملوك (٧٥٣-٥٠٩ ق م)

لما انهى روملوس بناء مدينة روما ، اختاره الشعب ملكاً عليهم ملقبين

اليه مقاليد الامور . فاهتم بتنظيم شؤون الامة التي انضوت الى لوائه . واتفق بعد مدة مع زعيم قبيلة السابينيين فتألفت من القبيلتين دولة واحدة . وفي ايام هؤلاء بني الكابيتول والكورينال والبلاتين فكان الاولان في حظ السابينيين والاخير للاتيين . ولما قتل تاتيوس زعيم السابينيين انفرد بالسلطة روميلوس حتى مات بعدما قضى سيداً نحو اربعين سنة .

وخلفه بعد سنة رجل من اشراف السابينيين اسمه نوما بومبيليوس اشتهر بالفضل والاستقامة وكان من القادرين على ضبط ميولهم الخاصة الجانحين عن الرغبة في السيادة والاستئثار بمصالح الآخرين . وكانت امرأته تاتيا بنت الملك تاتيوس مثله بعدم الرغبة في امجاد الدنيا . توفيت بعدما عاشت معه ١٣ سنة . فلما قضت زهد في الدنيا واعتكف في البرية على عبادة الآله الواحد (بلوترخ) .

هذا انتدبه الرومانيون لتسنم عرش رومة فأبى . ولكنه بعد الالحاح الشديد ورؤيته الحاجة الماسة الى املاء العرش الفارغ . تفادياً من حدوث انقسام، قبل طلبهم . ولما اسند اليه الحكم سن لهم الشرائع النافعة وبنى هيكلاً ليانوس الذي زعموا انه يخرج مع الرومانيين في الحرب . لذلك كانوا يفتحون ابواب الهيكل ابان الحرب ويوصدونها في ايام السلم . على ان ابواب الهيكل المذكور ظلت موصدة كل مدة حكم نوما لمحبته السلم . ولكنها فتحت بعده وظلت كذلك الى ايام اوغسطوس قيصر، اذا استثنينا مدة وجيزة تخللت القرون السبعة التي وجد فيها الملوك .

ومن اعمال نوما العلمية اصلاحه حساب السنة اذ كان العام عند الرومانيين ٣٠٤ ايام فجعله ٣٥٥ يوماً حسب الاشهر القمرية وجعل بداءة السنة كانون الثاني بدلاً من آذار . ولكي تطابق السنة الشمسية، قرر اضافة شهر كل عامين ايامه ٢٢ في السنة الثانية و٢٣ في الرابعة وهكذا دواليك .

مات نوما عن ٨٢ سنة بعدما ملك ٤٣ عاماً فخلفه سنة ٦٧٣ ق م طليوس استيليوس وهو ابن احد قادة جيش روميلوس فوسع تخوم المملكة بمعاركه العديدة التي لقب لاجلها بالظافر .

ومما روي عن حروبه الاسطورة التالية : انه سعى لاخضاع اهالي البالونغا لرومة فأبى هؤلاء . فنشبت الحرب بينهما وكان في مقدمة كل من الجيشين ثلاثة

ابطال مولودين لأختين احداهما في البالونغا والاخرى في روما . فتبارز الابطال الثلاثة مع اولاد خالتهم الثلاثة فتجندل اثنان من ابطال رومة واثخن ابطال البالونغا بالجراح. فرأى ثالث الاخوين المجندلين ان يتقهقر ليفرق خصومه الثلاثة. فركض هؤلاء خلفه ولكنهم تفاوتوا في الجري وراءه . فلما رآهم وقد تفرقوا ارتد الى الاول فجندله وكذلك الثاني والثالث . وهكذا انتهت المعركة بفوز رومة وخضوع البالونغا .

ومات طليوس بعدما ملك ٣٢ سنة وخلفه انقوس مرتيوس ، حفيد نوما بومبيليوس من ابنته بومبيليا زوجة نوما مرتيوس . وكان انقوس سلمي الروح كجده نوما . فطمع اللاتين به فحاربهم وفاز عليهم . واستولى على جانبي التيبر من منبعه الى مصبه . حيث بنى مدينة اوستيا لتكون فرضة لرومه . ولذلك لقبه الرومان بالظافر .

وبعدما ملك انقوس نحو ٢٧ سنة مـات خلفه تركوينوس وهو يوناني هاجر ابوه كورنتوس تخلصاً من كبسلوس الطاغية وقطن اتروريا . فلما كبر ابنه تركوينوس ولم يلق فلاحاً في اتروريا ، هجرها الى رومة فأحبه انقوس واتخـذه مربياً لاولاده . وكان ذا خلق رضي جعله محبوباً من الرعية ، فلما مات انقوس اقاموه ملكاً عليهم فوسع دائرة المملكة وضم اليها كثيراً من مدن اللاتين . وترك آثاراً كثيرة في رومة منها المجرور المسقوف بحجر للاقذار الباقي الى الآن. وسد يمنع النهر من الطمو على الاسواق ابان زيادة الماء . والميدان المعظم لسباق الخيل وغيرها .

ومات تركوينوس بعدما ملك ٢٨ سنة فخلفه سنة ٥٧٨ سرفيوس طليوس ويرجح المؤرخون انه كان جندياً من جيش تركوينوس ففاق اقرانه بشجاعته ومروءته . فرقاه الملك وجعله قائداً وزوجه ابنته . ولما اشرف على الموت عينه نائباً عنه فخلفه لما مـات فسرت به الرعية ، ومن اعماله المجيدة بالذكر ترقيته شان العامة وخفض سلطة الاشراف فاعتبره الرومان منظم الحكومة والمؤسس الثاني للمملكة .

ومـات سرفيوس بعدمـا ملك ٤٤ سنة فخلفه تركوينوس سوبربوس (المتعجرف) سنة ٥٣٨ وكان له يـد في قتل سرفيوس لانه اراد تحويل

المملكة الى جمهورية ، لذلك نسخ قوانين سرفيوس ليرضي الاشراف ، ولما أمن جانبهم طغى وتجبر ، وفعل اولاده فعله فكرهه الناس وثاروا عليه وطردوه مع اهل بيته من رومة بعدما ملك ٢٥ سنة • مصرحين انهم لا يطيعون ملكاً في ما بعد . وكان ذلك سنة ٥٠٩ اي بعد بناء رومة بنحو ٢٤٤ سنة .

٣ — الجمهورية الاولى ٥٠٩ — ٢٦٧ ق م

لما انقلبت المملكة اقام الشعب موضع الملك حاكمين سمي كل منهما قنصلا راجعين الى قوانين سرفيوس • فاختاروا لذلك بروتوس من العامة وكولأتينوس . وكان كل منهما كالملك الا انهما كانا ينتخبان لمدة سنة .

واخذ تركوينوس يعمل على نشر الشغب في الدولة بواسطة رسل اوفدهم لنقل ماله من المدينة ، فأدى ذلك الى شقاق خسرت فيه المملكة معظم ما افتتحته على عهد ملوكها سنة ٥٩٥ ق م وظلت الحرب ناشبة بين رومة والقبائل التي عادتها نحو مئة سنة .

ومما يجدر بالذكر ما نقله الرواة عن سنسنات ، وهو رجل فاضل لكنه فقير . كان يحرث حقله ، حين وقع الرومان في مأزق حرج جداً . فطلبوا اليه ان يترأس جمعهم لانقاذ اخوتهم المحصورين في واد ضيق يتعذر الخروج منه . فسمع كلامهم وترك حقله واسرع الى المدينة فجمع جيشاً رومانياً وسار للحال فأحاط بالاعداء واسر البعض وقتل البعض . وعاد الى رومة منصوراً سنة ٤٥٨ ق م وبعد ذلك عاد الى حراثته وكانت مدة قيادته ١٦ يوما فقط .

وقد فعل الرومان في فاي اكبر مدن اتروريا ما فعله اليونان في تروادة . اذ حاصروا المدينة عشر سنوات (٤٠٥—٣٩٦) وولي الاستيلاء على فاي ، ضم غيرها من المدن الاتوسكانية الى رومة فصار كل جنوبي اتروريا رومانياً في الاساليب والعادات واللغة .

ولكن بينما كان الرومان يفتحون مدن اتروريا ، هاجمهم الغاليون فألقوا الرعب في قلوب الرومان . وكانت تلك الحرب يوماً اسود في تاريخ رومة . اذ فرّ معظمهم الى اتروريا ولم يقاوم سوى حرس القلعة بقيادة البطل مرقس

مانليوس مدة سبعة اشهر. ومما يذكر ان الغاليين طلبوا فدية لخروجهم من رومة الف وزنة من الذهب. ورضي الرومان بتأدية الفدية. ولكن بينا كانوا يزنون الذهب قال احد الرومان ان العيار مغشوش. فتقدم بريتوس القائد الغالي، وطرح سيفه في الكفة التي فيها العيار قائلاً «الويل للمغلوب». وفي تلك الدقيقة قدم كاميليوس احد الابطال الاعيان بجيش جمعه من الفارين فبدد شمل الاعداء. وقال: «قد فديت رومة بالفولاذ لا بالذهب». وكان اليوم الاسود في تاريخ رومة ١٦ تموز سنة ٣٩٠ ق م

وبالرغم من ان هذه المصيبة كانت قوية لم تتلاش معها قوة رومة. بل استعادتها بعد ٣٥ سنة تقريباً. وأكد ذلك الحروب الثلاث التي ثارت بينهم وبين السمنيين، التي دامت نحو خمسين سنة (٣٤٣—٣٤١) و (٣٢٦—٣٠٤) و (٢٩٨—٢٩٠) اذ استطاعت الفيالق الرومانية ان تبدد شمل اعدائهم الاقوياء وخضعت بعدئذٍ المدن اليونانية في ايطاليا الجنوبية (عدا تارانت) الى رومة، المدينة الثانية في القوة.

تارانت وبيروس — على ان استقلال تارانت لم يطل لان اهاليها اساؤوا الى بعض السجناء الرومان. فطلب هؤلاء استرداد الاهانة بواسطة سفير. فدنس احد الفتيان جبة السفير في الملعب وصفق له الجمهور الطائش. فرفع السفير الجبة المدنسة وقال لهم «اضحكوا الآن، ولكنكم ستبكون حينما تغسل هذه الجبة بالدم».

اعلنت رومة الحرب وخشي التارانتيون النتيجة فاستعانوا ببرُّوس ملك ابيروس، نسيب اسكندر المكدوني. وكان هذا رجلاً يخشى جانبه لانه كان جندياً مدرباً قوياً. عازماً ان يوجد امبراطورية يونانية غربية في ايطاليا وصقلية، في الوقت نفسه الذي كان خلفاء الاسكندر في الشرق يضيعون ما اورثهم اياه من المجد (براستد عد ٧٥٧).

فالتقى جيشا المتحاربين في هيراكليا سنة ٢٨٠ فكسر بيروس الرومان في معركتين وهزمهم شر هزيمة، واستولى على جزيرة صقلية كلها. لكنه خسر الوفاً من احسن جنوده. فقال وهو ينظر الى ساحة القتال حزيناً على ابطاله

الصرعى : « بانتصار آخر مثل هذا اصير الى الدمار » . فذهب قوله مثلاً لربح قليل بخسارة كبيرة . فقالوا في مأثوراتهم « انتصار بيروسي » . وكاد بيروس يحقق امانيه بتأليف مملكة يونانية غربية عظيمة لو لم يحدث ما لم يكن بالحسبان. فان القرطجنيين خافوا قيام خصم مخيف ازاءهم فظاهروا الرومان عليه. فاضطر ان يعود الى بلاده ابيروس . فسلمت المدن اليونانية اذ اصبحت بلا نصير بعد عودة بيروس . فبسطت الجمهورية الصغيرة سيادتها على ايطاليا كلها في نحو قرنين واصبحت رومة من اعظم دول العالم .

٤ — الحروب القرطاجية ٢٦٤ـ١٤٦ ق م

قدر لدولة رومة ان تكون لاتينية اللغة ، ايطالية الجغرافيا ، رومانية السياسة ، يونانية المدنية . فان الرومان لما استولوا على جنوبي ايطاليا ، وملكوا الطرف الغربي من العالم الهليني العظيم ، شعروا بتفوق مدنية العالم الجديد الذي دخلوه ، وان اخص عوامل المدنية الشؤون التجارية الكبرى . فأخذ الرومان يوسعون نطاق تجارتهم لانماء الثروة. ووقع التنافر التجاري بين رومة وقرطاجنة وأدى الى الحروب الطاحنة التي نشبت بين الفريقين (براستد عد ٨٦٣—٧٦٥) .

الحرب الاولى — استمرت ٢٣ سنة (٢٦٤—٢٤١) ، وسببها احتلال القرطاجيين قلعة مسّانا فانتصرت رومة للسيراكوسيين ، وانتصر القرطاجيون في اول الامر لنقص خبرة الرومان في الحروب البحرية . وتمكن هملقار القائد القرطجني ان يخرب باسطوله سواحل ايطاليا . ودفعت الارستقراطية نخبة من اعيان الرومان ، فاستطاعت دولتهم ان تنزل الى البحر سنة ٢٤٢ اسطولاً قوياً ، حطم الاسطول القرطجني سنة ٢٤١ ق م . واضطر القرطاجيون في نهاية هذه الحرب ان يذعنوا ويقبلوا الشروط الثقيلة التي وضعتها عليهم رومة ، التي صارت لاول مرة دولة بحرية قوية .

الحرب الثانية — استمرت ١٧ سنة (٢١٨—٢٠١) — بعد الحرب الاولى

ثار الجنود المستأجرون على قرطاجنة لانها لم تؤد لهم رواتبهم ، فتمكن القائد هملقار بقدرته وذكائه من اخضاعهم (٢٤١—٢٣٧) واوقف ذكاؤه مدة تسع سنوات لجعل القبائل المتعددة أمة واحدة ، واظهار معادن الفضة والذهب الكائنة في تلك المقاطعة . ولكنه قتل سنة ٢٢٨ . وكان هنيبال اكبر اولاده في التاسعة عشرة من عمره لما مات ابوه . فتسلم قيادة الجيش صهره اسدروبال ، ولكن لما مات هذا سنة ٢٢١ اجمع الجيش على اختيار هنيبال للقيادة . وكان عمره آنئذٍ ٢٦ سنة . فاظهر باقدامه اهليته للقب « نسل الاسد » الذي نعت ابوه به اولاده . فانه استطاع ان يوسع تخوم قرطاجنة الى حدود نهر الايبر . ولم يبق من شواطىء اسبانيا الشرقية سوى ساغنتم فأخضعها بالقوة رغم تحالفها مع الرومان . فاستاء هؤلاء وطلبوا من قرطاجة تسليمهم هنيبال فأبوا بعد لأيٍ . فشهرت رومة الحرب عليهم . وحدثت اربع معارك بين هنيبال والرومان ، فاز فيها كلها ، وهي معركة تسينو وترابيا وترسيمنوس اما الرابعة وهي معركة كاني سنة ٢١٦ فقد ادهش بها هنيبال العالم . فان جيش الرومان كان آنئذ اعظم جيش جهزته رومة للحرب . ولكن مهارة هنيبال مكنته من تطويق هذا الجيش واعمال السيف في رقابهم . وذبح منهم سبعين الفاً (على رواية بوليب او نحو ٤٣ الفاً على رواية ليفي) واسر بضعة آلاف ، ولم ينجُ سوى شرذمة صغيرة . وروى ليفي ان ماغو اخا هنيبال الذي نقل هذا الخبر الى قرطاجنة افرغ في مجلس الاعيان مكيالاً من الخواتم الذهبية التي اخذت من اصابع فرسان الرومان (ميار عد ٣٤٢) .

وهكذا تسنى للشاب القرطجني الباسل وهو في الثلاثين من عمره ان يتغلب على عدو جبار في اربع معارك . ويهلك ثلاثة من فيالقه في مدة سنتين فنال بحق لقب اعظم القواد الساميين (براستد عد ٧٩١) .

ولو ادرك خلفاء الاسكندر اهمية هذا العراك العظيم لظلت للشرق ميزته . ولكنهم شغلوا باختلافاتهم ، بينما المشيخة الرومانية استطاعت بحنكتها السياسية ان تثير يونان الغرب ضد المكدونيين . وتحول دون ارسال النجدات لهنيبال . فضاعت انتصاراته الاولى ، ومني بالفشل بعد اقامته في ايطاليا سبع سنوات ينتظر وصول النجدة واذا برأس اخيه « اسدروبال » يلقى بين يديه وهو ينتظر نجدته

بذاهب الصبر فلما نظر رأسه قال بحزن : « قد عرفت يا قرطاجنة ما قضي به عليك » وكان ذلك سنة ٢٠٧ ق‌م ·

وعاد هنيبال الى افريقيا لما عرف ان سيبيو ضيق الخناق على قرطاجة ، والتقى الجيشان في زاما ، ففشل هنيبال في هذه المعركة ، وكان هذا الفشل اول وآخر انكسار لقيه هنيبال · لانه بعد انتهاء الحرب ترك قرطاجنة ، لطلب الرومان من قرطاجنة تسليمه ، فقصد سوريا اولاً ثم برحها الى آسيا الصغرى حيث مات مسموماً سنة ١٨٣ (وعمره ٦٣ سنة) لما عرف ان مضيفه يبغي تسليمه لاعدائه ·

حرب ثالثة — استمرت ثلاث سنوات (١٤٩—١٤٦ ق‌م) — انقضى بين الحربين الثانية والثالثة نحو نصف قرن · استطاعت فيها رومة ان تسود على شرقي المتوسط كما سادت على غربيه بعد فوزها في قرطاجنة

في معركة سينوسفالي سنة ١٩٧ حاربت فيليب الخامس ملك مكدونيا لمساعدته القرطاجيين واضطرته ان يتنازل عن كل ما فتحه ·

وفي معركة مغنسيا سنة ١٩٠ انتصرت على انطيوخوس الكبير (السلوقي) واستولت على جزء كبير من الاناضول ·

وفي معركة بدنا سنة ١٦٨ سحق القائد الروماني القوة التي جهزها برسوس بن فيليب الخامس لاسترداد ما خسره ابوه · ولم تقم بعد ذلك قائمة لمكدونيا · وبعد هذه المعركة استاقت رومة من اعيان اخائيا الف شخص وجعلتهم رهينة في ايطاليا حيث ظلوا هناك ١٧ سنة ، وكان بين هؤلاء بوليب المؤرخ الذي كتب انباء هذه الحوادث مبيناً كيف صارت رومة سيدة العالم ·

في اثناء ذلك استأنفت قرطاجنة نشاطها التجاري · فخافت رومة نتيجة تقدمها هذا · وقررت بتأثير كاتو احد اعضاء المشيخة تدمير قرطاجنة لتأمن مغبة وجودها · ورأت حجة شهرت بها الحرب عليها وعرف القرطاجيون غرضهم فقرروا ان يموتوا موت الكرام او يصونوا مدينتهم من الدمار فلم تكد تعلن الحرب حتى صارت قرطاجنة معملاً كبيراً للاسلحة · يعمل فيه الرجال والنساء والاولاد ليلاً ونهاراً · فأذيبت اواني الهيكل والتماثيل لتعمل اسلحة · ونزعت مواد

الابنية وصارت ادوات للجنود. وجزت غدائر النساء ليجدل منها حبال للمنجنيقات. الامر الذي دهش له الرومان ولاسيما حينما رأوا من نزعوا منهم سلاحهم يقاتلون مسلحين فوق الاسوار .

غير ان هذا لم ينقذهم من الفاجعة . لان حفيد سيبيو (افريكانو الصغير) استطاع ان يفتح قرطاجنة بعد حصار اربع سنوات . ولم يبق من اهلها البالغين سبعمئة الف سوى خمسين الفاً . وظلت النار تلتهم المدينة مدة ١٧ يوماً فساوت الابنية الارض. وحرثها الرومان لاعنين كل من حاول تجديدها.

روى بوليب المؤرخ الذي نظر خرابها ، ان سيبيو الصغير لما رأى ركامها دمع وردد قول هوميروس : « لا بد ان يأتي يوم تسقط فيه تروادة المقدسة ويسقط بريام رب الحراب وشعبه (ميار عد ٣٥٩) .

وفي السنة نفسها التي دمرت قرطاجنة احرق الرومان كورنتوس ، فقضي على الحرية اليونانية سنة ١٤٦ وصارت الحكومة اليونانية ذات التاريخ المجيد والحضارة السامية ، تابعة لرومة ما عدا اثينا التي الا لها من ذكرى حسنة بقيت لها حريتها وظلت موطناً لكل ما هو شريف وجليل (براستد عد ١٧٠ و ٨٠٨) .

انتهى بسقوط قرطاجنة العراك الذي دام نحو ١٢٠ سنة وضمت امـلاك قرطجنه الى رومـة ودعيت ولاية افريقيا . كما ان سيبيو دمر ايضاً نومانديا في اسبانيا سنة ١٣٣ واصبحت اسبانيا كلها قسماً من املاك الدولة الرومانية .

٥ — تخاذل الجمهورية وسقوطها ١٣٣ – ٣١ ق م

الانتصارات العظيمة التي حازتها الجمهورية الرومانية ، جعلت المدينة الصغيرة (رومـة) سيدة لاتيوم اولاً ، وسيدة ايطاليا ثانياً ، ثم سيدة القسم الاعظم مما حول المتوسط ثالثاً (ميار عد ٣٦١) .

ولكن التاريخ اخذ يعيد نفسه . ومتى بلغ المرء القمة لا بـد له من الانحدار . فان عظمة الجمهورية آلت بالنتيجة الى انحطاطها وتمهيد السبيل للامبراطورية .

واول الحوادث التي ادت الى هذه النتيجة ، حرب العبيد الاولى في سيسليا (١٣٤—١٣٢) فان نظـام الاسترقاق الذي ظهر بأردإ مساوئه حمل العبيد على

الثورة. ولجأ ستا الف منهم الى السلاح ضد الدولة . وظلت الحكومة تناهضهم بخسائر باهظة مدة ثلاث سنوات حتى اخمدت الثورة . وفي اثنـاء ذلك حاول الاخوان طيباريوس وغـايوس كراخوس ان ينقذوا الطبقة العاملة من البؤس الذي انزله بهم الاعيان . ولكن هؤلاء فتكوا بالاول سنة ١٣٣ وبالثاني سنة ١٢١ . فخلّد العامة ذكرى الشهيدين واقيمت لهما بعدئذٍ النصب في الساعة العمومية .

واستئثار الاشراف بالمنافع العامة ، جرأت جوغرتا ملك نوميديا على قتل الولاة الرومانيين . ولعبت الرشوة دورهـا في هذه الآونة . فسلم بها جوغرتا من القصاص. وخاطب رومة بعدئذٍ قائلاً: «اينها المدينة المرتشية انك تودين ان تبيعي نفسك لو وجدت من يشتريها » . ولكن غايوس ماريوس انتصر اخيراً على جوغرتا سنة ١٠٦ بعدما اقلق راحة روما خمس سنوات. كما انتصر سنة ١٠١ على البرابرة الذين ارهبوا الدولة .

ولم يكد ينتهي خطر الـبرابرة ، حتى نشبت الحرب الاهلية بين رتب الرعايا الثلاث واستمرت ثلاث سنوات (٩١ـ٨٩) ، وانتهت اخيراً باذعان رومة للشروط التي عرضها الثائرون . فصار لرومة دستور ضيق الخناق عليها ، ولكنها رضيت به لحاجتها اذ ذاك الى نظام نيابي تحفظ بـه امبراطوريتها الواسعة . ونبه هذا افكار الناس الى ثورة لقلب الحكومة الجمهورية التي صارت آلة بيد الاشراف واقامة امبراطورية توقف هؤلاء عند حدهم .

فاستسنح متريدات السادس ملك بنطس هذه الفرصة ، وحكّم سيفه في رقاب ثمانين الفاً من الايطاليين القاطنين في الاناضول ، ثم اثـار يونان أوربا على رومة . ووصل الخـبر الى رومة فأحدث ضجة عظيمة . وحمل القائد ماريوس على القنصل صولاً طالباً عزله . فاحتكم الاثنان الى الحسام . وتحارب الرومان لاول مرة داخل اسوار المدينة . فاندحر ماريوس وقاد صولاً الحملة ضد متريدات سنة ٨٨ ق‌م ، وعاد فائزاً الى رومة سنة ٨٣ ، ففتك بعدد كبير من الاعيان محازبي ماريوس مستولياً على املاكهم . قيل ان احد الاعيـان لما رأى اسمه في لائحة المحكوم عليهم بالقتل قال : « واسفاه ان قصري علة قتلي » (ميار عد ٣٧٢) .

وكان بين المحكومين يوليوس قيصر لانه من اقرباء ماريوس ، ولم يكن له آنئذٍ من العمر اكثر من ١٨ سنة ، فشفع فيه بعضهم فعفا عنه . ولكنه بعدما

تفرس فيه قال « ان في هذا الفتى ماريوسين كثيرين » .

بعد هذا زاول صولاّ الحكم المطلق ثلاث سنوات (٨٢–٧٩ ق‌م) ثم استعفى فجأة ومات بعد سنة ، وكان هذا الحادث من مهيئات فكر الشعب لحكومة الفرد .

وعلى اثر وفاة صولاّ سنة ٧٨ ق‌م ، نهض حزب العامة يطلب الغاء القوانين القديمة . وكانوا قد تعلموا الاستفادة من الزعيم الحزبي . فوجدوا ضالتهم بشخص بومبي احد ضباط صولاّ ، الذي امتاز في حرب اسبانيا فانتخب قنصلاً سنة ٧٠ وخدمه الحظ بقضائه الاخير على متريدات في الحرب الثالثة التي شهرت ضده (٧٤–٦٤ ق‌م) وكان متريدات خصماً مخيفاً لرومة يذكره الرومان برعب كثالث الخصمين القديرين هملقار وهنيبال .

بعد مؤامرة كتلين (٦٤–٦٢ ق‌م) ظهرت الحكومة الثلاثية ، حكومة قيصر وكراسوس وبومبي . الذين استمالوا الناس اليهم ، الاول بديموقراطيته مع انه من الاعيان ، والثاني بثروته العظيمة ، والثالث بمهارته الحربية ، فسلموهم السيادة العليا عن طيبة خاطر . ومع ان قيصر لم يكن قد تجاوز الاربعين من سنه الا انه كان لولب العصبة الحاكمة . ولمع نجمه خصوصاً بعدما قُتل كراسوس سنة ٥٤ ق‌م . اذ نال انتصارات عظيمة في غربي اوربا غطت على شهرة بومبي . فلما تزاحم القائدان على السيادة العليا ، فاز قيصر واخذل بومبي ، وفر هذا الى مصر فاغتيل حالما نزل الى برها سنة ٤٨ ق‌م . وبعدما قضى قيصر على فتنة سليل متريدات بخمسة ايام سنة ٤٧ بعث برسالته الوجيزة البليغة المشهوره : « فيني فيدى فيسي » (اتيت فنظرت فغلبت) ومنذئذ صار يوليوس قيصر سيد العالم ونصب تمثاله بين تماثيل ملوك رومة القدماء السبعة .

من مآثر قيصر وضعه قوانين دقيقة لسيادة الدولة ، واصلاحه الحساب السنوي القمري بجعله السنة ٣٦٥ يوماً ، مضيفاً اليها كل رابع سنة يوماً .

وجد لقيصر رهط من شر الاعداء سعوا لاسقاطه فلم يفلحوا . فقتلوه غيلة في ١٥ آذار سنة ٤٤ ق‌م ، ولم يكن له من العمر اكثر من ٥٦ سنة . وكان بين قاتليه احد الذين سبقت له النعمة عليه . فدافع قيصر في اول الامر عن نفسه دفاع الابطال . ولكنه لما وقع نظره على بروتس قال له : « وانت ايضاً

يا بروتس» ، ثم لف وجهه بردائه واستسلم للقتل قائلاً : «الموت خير من الحياة مع صديق خائن» .

ووقع النزاع بعد قتل قيصر على العرش . ثم تمّ الاتفاق سنة ٤٣ ق‌م على تجديد حكومة ثلاثية ثانية . قوامها انطوني سكرتير قيصر ، ولبيدس احد قواده ، واكتافيوس ابن اخيه . واقتسم الحكام الثلاثة العالم الروماني ، فكان نصيب اكتافيوس الغرب وانطوني الشرق ولبيدس افريقيا . وثار قاتلوا قيصر على الحكومة الجديدة ففشلوا في معركة فيلبي سنة ٤٢ . ثم طرد لبيدس فعادت الحكومة الى يدي سيدين ، انطوني في الشرق واكتافيوس في الغرب .

ولم يطل الامر على هذا الحال حتى وقعت الحرب بين اكتافيوس وانطوني فانتصر اوكتافيوس في معركة اكتيوم سنة ٣١ وبانتصاره انتهى قرن الثورات والحروب الاهلية الذي بدأ سنة ١٣٣ ق‌م . وفوز اوكتافيوس هذا كان العلامة الفارقة لفوز قوة الفرد النهائية (براستد عد ٨٧٧) .

٦ — رومة الامبراطورية

لما عـاد اكتافيوس الى رومة سنة ٣٠ منحته المشيخة لقب اوغسطوس (السعيد) وكان اللقب المخصص لمنصبه في ما سبق (الاول) ولكنه منح بعدئذ ايضاً لقباً آخر لا يمنح الا للقائد الظافر وهو امبراطور . ومع ان اكتافيوس لم يتعرض للمشيخة بشيء ، بل منح السلطة التي له للمشيخة وعـامة الشعب سنة ٢٧ ق‌م . لكن السلطة الحقيقية انما ضبطتها يداه القويتان والناعمتان معاً دون ان يكون له معارض وكانت كتائب الجند رهن اشارته .

كانت الامبراطورية الـتي على رأسها اوغسطوس حدها الجنوبي الصحراء الكبرى ، وحدها الغربي الاتلانتيك ، وحدها الشمالي الرين والدانوب ، والحد الشرقي الفرات . ويرجح ان الجيش الذي كان يأتمر بأمر اوغسطوس يبلغ نحو ٢٢٥ الفاً (براستد عد ٨٨٣) .

ظل زمام السلطة بيد اوغسطس مدة نصف قرن تقريباً . وعقبه على العرش اربعة من سلالته كانت مدة ملكهم بالتسلسل نحو نصف قرن آخر (١٤—٦٨م)

فتم باوغسطس وسلالته قرن السلم الاول .

فقد خلفه سنة ١٤ طيباريوس ابن زوجته (من زوج سابق) ولما مات طيباريوس سنة ٣٧ خلفه غايوس ابن حفيد اوغسطس الملقب كاليغولا وهو في الخامسة والعشرين من عمره . فلما مات هذا سنة ٤١ خلفه كاوديوس — حفيد طيباريوس وعم كليغولا — وهو في الخمسين من عمره . فلما مات خلفه نسيرون سليل اسرة اوغسطوس من جهة والديه كليهما . وهو في السادسة عشرة من العمر . وكانت السنوات الخمس الاولى من ملكه . من احسن الادلة على تعقل ربيب سنكا الفيلسوف . ولكن نسيرون خلع العذار بعد ذلك ، وارتكب كل محظور . حتى صار اسمه مرادفاً لكل مـا هو شرير ومتناهٍ في القبح (براستد عد ٩٠٤) فتبرم اهل رومة من سلوكه الشائن . ومقته نفس المقربين اليه . وأباحت المشيخه دمه ، فانتحر سنة ٦٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره بعدما ملك ١٤ سنة ، وانتهى بموته قرن السلم الاول .

العصر الفلافياني — كان نيرون سادس وآخر امبراطور من اسرة قيصر . فلما مات ترشح للعرش ثلاثة اشخاص قتلوا الواحد بعد الآخر وهم غلبا واوتو وفيتليوس وتسنم العرش سنة ٦٩ فاسباسيان الشيخ المحبوب قائد كتائب فلسطين فبقي على العرش عشر سنوات ولما توفي سنة ٧٩ خلفه ابنه تيطس « صديق ومسرة الانسانية » ثم خلف تيطس اخوه دومتيان (٨١—٩٦) وبذلت الاسرة الفلافيانية المالكة جهودها لاستتباب الامن فكان لها ذلك ، ومن اهم مآثرها تأمين الثغور الشمالية .

الملوك الصالحون — وخلف الاسـرة الفلافيانية خمسة ملوك احسنوا ادارة المملكة فأنسوا الناس الآلام التي سببها دومتيان في اواخر عهده . فلقبهم الرومان بالملوك الخمسة الصالحين . وهم زفا (٩٦) وتراجان (٩٨) وادريان (١١٧) وانطونيوس بيوس (١٣٨) واوريليوس الفيلسوف (١٦١—١٨٠) ، وفي ايام الاخير او بعد ست سنوات من ملكه ، اخترق برابرة الجرمان الحدود الشمالية للدولة . وانهالوا انهيال السيل عليها . فانهار جدار السلم سنة ١٦٧ بعد استقرار مدة قرن كامل ، هو قرن السلم الثاني لاوغسطس .

فترة الاضطراب — خلف اوربليوس ابنه كومود سنة ١٨٠ ، ولكنه كان بئس الخلف لابيه . اذ استيقظت — بعد مدة من ملكه — فيه طباع نيرون احد اسلافه على العرش . فأدى ذلك الى شرور عظيمة ولكن المملكة نجت اخيراً من الطاغية المجنون بقتل اهله به سنة ١٩٢ .

وصين العرش بعده بجزم ارومة القياصرة الحصيين سبتيميوس سيفيروس ومن خلفه لمدة ٤٢ سنة (١٩٣—٢٣٥) وبعدما انتهى عصرهم بمدة غير طويلة اخذت الايدي تتقاذف العرش الملكي تقاذف الكرة. وظهر في التاريخ العصر الذي دعــاه المؤرخون « عصر الطغاة ال ٣٠ » (٢٥١—٢٦٨) وكان الـبرابرة يتجاوزون الحدود وكادوا يمزقون الدولة لولا ان يقيض الله لها وجود خمسة ملوك حازمين. وضعوا حداً لهذه الفوضى وهم كلوديوس واوريليان وتاسيتوس وبروبوس وكاروس (٢٦٨—٢٨٤) .

وعقب هؤلاء ديوكليتيان العظيم (٢٨٤—٣٠٥) الذي قابل جبون بينه وبين اوغسطس فقال : كان غرض الاول ستر القوة غير المحدودة التي للامبراطور وغرض الاخــير اظهار هذه القوة» . فاضطر لوضع نظم ادارية جديدة منها قسمته الدولة الى قسمين شرقي وغربي واستعانته على ضبطها باقامة شريك له جعل مركزه الغرب واتخذ هو نيقوميدية (ازميد) قاعدة للشرق الذي جعله حصته . ثم اقام معاونين آخرين احدهما للقسم الشرقي والآخر للغربي سماهما قيصرين وبموت هــذا الامبراطور تحولت السيادة الى قياصرة مسيحيين اولهم قسطنطين الملقب بالكبير ، ويستثنى من هؤلاء يوليان المرتد .

وخلاصة ما مر

١) ان الرومان قبيلة شرقية الاصل ظعنت من الاناضول الى اوربا . واقامت في وسط ايطاليا نحو اربعة قرون قبل بناء رومة .

٢) ان روميلوس احد المتسلسلين من هؤلاء ، بنى رومة سنة ٧٥٣ ق م ثم ملك وخلفه ستة ملوك آخرون في مــدة ٢٤٤ سنة فعظم شأن رومة ووفرت ثروتها .

٣) لما امتدت تخوم المملكة تحولت الحكومة جمهورية سنة ٥٠٩ ق‌م ضبط زمامها قنصلان يختارهما الاشراف لمدة محدودة . فذللت الجمهورية الصعاب .

٤) حدثت حروب قرطاجنة فانتصرت رومة وضمّ اليها صقلية واسبانيا وافريقيا .

٥) حدثت منازعات اهلية ولكنها ادت الى اتساع تخوم الدولة اذ اصبحت فرنسا اقليماً رومانياً وصارت رومة اعظم دول العالم .

٦) تحولت الحكومة الى الملكية في ايام اوغسطس في اوائل المسيحية وساد السلام منذ ايامه الى مئتي سنة يدعوها المؤرخون قرني السلام الاول (٣١ق‌م-٦٨م) والثاني (٦٩٠-١٦٧م) ثم تلت ذلك ثورات هدأها سيفروس . وبعد انقراض الاسرة الحمصية حدث الانفجار العظيم ، ثم نظم الدولة ديوكليتيان .

الحوادث ذات الصلة الخاصة بحمص

بعدما لخصنا تاريخ الدولة الرومانية منذ نشأتها الاولى حتى بلغت غاية عظمتها في عهد امبراطوريتها — اذ تحولت اورمتها (رومة) من مضرب لرعاة الغنم ، الى قرية ، الى مدينة محصنة ، الى امة صغيرة ، الى مملكة ذات صولة ، الى جمهورية ذات بأس وشرف ، الى امبراطورية حنى لها الدهر رأسه — وكانت المنطقة الحمصية احد اجزائها . ننتقل الآن من التاريخ العام الى الخاص ، لنوقف القارىء على الحوادث ذات الصلة المباشرة بحمص او الماسة لها :

أ — رجيع الصدى

مرّ بنا في الحقبة السابقة ان الدولة السلوقية التي ارتفع لواؤها على الاصقاع السورية من طورس شمالاً حتى اقصى فلسطين جنوباً فسحت لحمص المجال للاستقلال الاداري فرتعت هذه المنطقة بظل حكومتها الوطنية نحو قرن ونصف من الزمان ، ولعل القارىء يتطال بنظره ليعرف ما كان مصير الاقطار المجاورة لحمص بعدما احتلت الدولة الرومانية البلاد السورية بواسطة قائد قواتها

الشهير بومبي سنة ٦٤ ق م . ولاملاء هذا الفراغ الذي يؤدي اهماله الى وجود نقص في مادة التاريخ تكون موضوعاً للنقد . نعقد هذا الفصل بما امكن من الايجاز غير المخل .

لما تقلص ظل الدولة السلوقية عن سوريا ظهرت فيها الدولة الرومانية التي عرف القارئ مكانتها العظيمة التي وصلت اليها في الآونة المبحوث فيها . ولم يكن دهاؤها السياسي اقل من حنكتها الحربية . لذلك لم تجد من الحكمة ان تسرع لقلب الحالة التي كانت عليها البلاد السورية في اخريات ايام الدولة السلوقية .

وكانت عدة مقاطعات في سوريا قد ظهرت بمظهر الاستقلال او ما يشبه الاستقلال . وتألفت حكومات وطنية لادارتها نظير الرها في الشمال الاقصى، واليهودية في الجنوب . وسوريا المجوفة اذ لانت قاعدتها الكبرى « دمشق » للعرب الذين دخلوها وتشبثت قاعدتها الثانية « حمص » بحكومتها الوطنية . فمرت القيادة الرومانية بهذه الحالة — التي اعتبرتها غير مستقرة — مرور الكرام منتظرة السوانح لتغييرها . وساعدتها الظروف بالغاء استقلال اليهودية لكثرة ما نشب الخلاف بين الاهلين وحكوماتهم ولاسيما في ايام هيرودس الكبير فانتهى امرها بنفي ارخيلاوس سنة ١١ م واصبحت بعده اليهودية اقليماً رومانيا عينت له الدولة نواباً لتدبير شؤونه عرفنا منهم ١٤ والياً ، في ما يلي اسماؤهم وتاريخ ولايتهم :

١) كوبونيو	١١	٨) فارو	٤٤
٢) امبيغيو	..	٩) اسكندر	٤٦
٣) روفو	١٤	١٠) كومانو	٤٨
٤) كراتو	١٥	١١) فيلكس	٥٢
٥) بيلاطس البنطي	٢٥	١٢) فستوس	٦٠
٦) مرشلو	٣٥	١٣) البين	٦١
٧) اغريبا الاول	٤٠	١٤) فلور	٦٥

وفي ايام هذا الاخير بدأت الثورة اليهودية التي انتهت بهدم اسوار اورشليم وحرق الهيكل سنة ٧٠ .

على ان سوريا الشمالية دخلت تحت السيطرة الرومانية منذ فتح البلاد السورية القائد بومبي ووضع لها ولاة ، عرفنا منهم ٤٠ والياً حكموا المنطقة المشار اليها ، وما انضم اليها بعدئذٍ نحو ١٣٠ سنة واليك اسماءهم وتاريخ ولاية كل منهم :

الوالي	التاريخ
١) سكاور	٦٣ ق‌م
٢) فيليب	٥٩
٣) مرسلينو	٥٨
٤) كابينو	٥٧
٥) كراسو	٥٤
٦) لونجينو	٥٣
~~٧) بيبولس~~	~~٥١~~
٨) سيبون	٥٠
٩) قيصر	٤٧
١٠) باسو	٤٦
١١) باتو	٤٥
١٢) مرقس	٤٤
١٣) كاسيو	٤٤
١٤) دي لابلاّ	٤٣
١٥) سكسا	٤١
١٦) باسو	٣٩
١٧) سوسيو	٣٨
١٨) بلانك	٣٤
١٩) بيلبو	٠٠
٢٠) ديديو	٣١
٢١) مسّا	٣٠ ق‌م
٢٢) مرقس بن شيشرون الخطيب	٢٩
٢٣) فارون	٢٦
٢٤) اغريبا	٢٣
٢٥) ساتورنتيو	١٢
٢٦) قولتميو	٠٠
~~٢٧) قارو~~	~~٠٥~~
٢٨) ساترنينو	٠٥ م
٢٩) كورينو	٠٦
٣٠) سيلانو	١٠
٣١) بيزون	١١
٣٢) ساترنينو	١٩
٣٣) فلاكو	٢٣
٣٤) فيتليو	٣٥
٣٥) بترونيو	٣٩
٣٦) مرسو	٤٢
٣٧) لنجينوس	٤٥
٣٨) كدراتو	٥٢
٣٩) كرمولو	٦٠
٤٠) غالو	٦٥

٢ – تقلص ظل الاستقلال في المناطق السورية

بعدما توطد قدم الامبراطورية في الدولة الرومانية . وبعدما آنست من نفسها قــدرة على تعميم سيطرتها في كل الاصقاع . اخذت تهتم بجعل البلاد السورية كلها اقليماً واحداً رومانياً . على انها تدرعت بالحكمة لابراز هــذه الفكرة الى حيز الوجود . فوضع اوغسطس اربعة فيالق من الجند تحت امرة الوالي ، وفوض اليه استخدامها وقت الحاجة . واظهر الولاة الرومانيون مع الحكمة حزماً وجداً لتنفيذ الخطط التي قررت الدولة تطبيقها . وشعر الذين نالوا الاستقلال في ما سبق بتأثير الثورات المحلية ، ان قوتهم ضعفت ازاء القوة التي تستخدمها السلطة الرومانية ، والوسائل العديدة التي تكفل للسلطة فلاحها في ما ترمي اليه من الاغراض السياسية ، فأخذ هــذا الاستقلال يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى كاد يغيب اثره . وبدت طلائع هذه الحركة بصورة متعددة الجهات .

ففي ايام كلوديوس انضمت الابلية الى سوريا سنة ٤٨ م .

وفي ايام فاسباسيان انضمت كوماجنه سنة ٧٢ .

وفي ايام تيطس انضمت منطقة حمص سنة ٧٩ .

وفي ايام دومتيان انضمت خلكيس سنة ٨١ .

وفي ايام تراجان انضمت دمشق وتدمر سنة ١٠٦ .

فاستقلال حمص الاداري انتهى اذن حوالي سنة ٧٩ ومن هــذا التاريخ انتظمت في سلك البلاد المنضوية الى لواء الدولة الرومانية . وسرت عليها النظم والقوانين التي سرت على سائر المناطق . على ان انتظام المنطقة الحمصية في سلك المناطق الاخرى الخاضعة للدولة الرومانية ، لم يخسرها مكانتها التي كانت لها في ما سبق . فان الولاة الرومانيين شعروا بما يختلج في صدر الحمصيين من الاخلاص لمن يحسن معاملتهم . فأولوهم اهتماماً خاصاً جعلهم يستسهلون معه الانتماء الى رومة . والذي ساعد بالاكثر على حسن التعامل بين الحمصيين والمستعمرين ، ان بومبي لما اكتسح سوريا جلا عدداً كبيراً من اهالي البلاد الى ايطاليا فانتشروا في مقاطعاتها كلها . وبين هؤلاء عدد من الحمصيين الذين رأوا مجالاً واسعاً للعمل فيها لان الرومانيين

خسروا في الحروب التي قاموا بها ، عدداً كبيراً من السكان، بحيث بارت الاراضي لقلة عدد الفلاحين فيها . فملأ الحمصيون هذا الفراغ بما عرفوا به من مقدرة على الحراثة واستثمار الارض ، التي كان لهم المام كافر بمعرفة ما تصلح له من انواع المزروعات. وبعض هؤلاء المزارعين نال كرامة عظيمة فحررته الدولة الرومانية من الرق وخولته جميع حقوق الرومانيين (ليفي ٣٩:٦) .

٣ – الحمصيون في الجيش الروماني

بعدما انضوت سوريا الى لواء رومة ، وبعدما عرف القادة الشجاعة التي تختلج في صدور الحمصيين ، ضموا الى مدربي الجنود الايطالية فريقاً منهم . مرنوهم على النظام العسكري فاظهروا تفوقاً في دربتهم . بالنظر لما استقر في طبيعتهم من ميل للاعمال العسكرية . وقد عرفنا من التاريخ الروماني ان هذه المزية ظهرت في عدة امكنة وازمنة .

ففي الفرقة الاوغسطية الثالثة التي اقامت في نوميديا (تونس) المؤلفة من الشبان السوريين كان فيها رهط من الحمصيين. ولما انتخب فاسباسيان امبراطوراً سنة ٦٩ م نقل فرقته السورية معه الى رومة. وقد روى المؤرخ تاشيت(٣:٢٤) ان الفرقة التالية التي اسرعت لنصرة هذا الامبراطور كان افرادها يحيون الشمس عند شروقها ، وتلك كانت من مزايا الحمصيين بنوع اخص .

وكانت الفرقة التراجانية الثانية التي اقامت في الاسكندرية مؤلفة من عدد كبير من السوريين وفيما بينهم نخبة من الحمصيين . ولما اخضع تراجان داكيا (رومانيا) نقل اليها عدداً ليس بقليل من الرها وتدمر ، ولا مرية في انه كان بينهم عدد من الحمصيين (اوتروبيوس ٨:٦) .

وقد وجد بقرب سور ادريانوس شمالي انكلترا ابيات نظمها احد الضباط في مدح الآلهة السورية .

وفي التاريخ ايضاً ان احد القياصرة الذي تلوا من ذكرنا ، قد انتدبوا سرية من الرماة الحمصيين عددها الف جندي للاقامة في بانونيا (المجر) . وقد ترك هؤلاء كتابات عديدة حيث حلوا دالة على احتفاظهم الشديد بتقليداتهم

الوطنية وديانة ابائهم . وبعض هذه الكتابات ما برح باقياً حتى الآن . ومعظم هذه الكتابات باللغتين السريانية واليونانية (المقتطف ٥٠:٥٤١) مما يدل على ان هذا حدث قبل القرن الثالث الذي ازدهرت فيه مدرسة بيروت الشرعية ، التي فسح فيها مجال لدرس اللغة اللاتينية .

ولا نستغرب بعدما ذكر ان يكون معظم الجيش الذي جرده اسكندر سيفروس على المانيا ، كان من المشارقة عموماً والحمصيين خصوصاً . لان الامبراطور المذكور حمصي المنبت . فلا غرو في استخلاصه الحمصيين الذين عرف فيهم الاخلاص والحماسة .

٤ — هيكل الشمس والحجر الاسود في حمص

مما جعل لمنطقة حمص اهميتها في نظر الدولة الرومانية ، غير ما مرّ ذكره ، وجود هيكل الشمس فيها والحجر الاسود الذي صين فيه . فكانت موضع احترام معظم الاصقاع الرومانية فضلاً عن السورية منها . وقد كان السوريون يجلون هذا الهيكل جداً ويعتبرونه ملاذاً مقدساً . من لجأ اليه يحرم مسه بسوء وان كان مجرماً .

ودلت الآثار — عدا ما ذكره المؤرخون — على اهمية الحجر المحفوظ في هذا الهيكل . ولم تكن آنئذٍ عبادة الحجارة السوداء امراً غريباً . فقد جاء في الخطوط المسمارية ذكر سبعة حجارة سوداء ، كانت تعبد في هيكل ارك في بلاد اليونان .

وعبادة الحجر الاسود في حمص اخذت شهرة عظيمة حتى في ايام الملوك الرومانيين . وقد وجدت صورة هذا الحجر منقوشة على مصكوكات في سوريا وسلوقية والرها وسواها فضلاً عن حمص نفسها (الدبس ١:٢٦٥) .

وقد انتهت سدانة هذا الهيكل في القرن الثاني ، الى اسرة شريفة يظن انها من ذرية امراء حمص الوطنيين السابق ذكرهم في الحقبة السابقة . واشتهر من افراد هذه الاسرة الكاهن الوثني الجليل الذي طارت شهرته في الآفاق باسم باسيان . فأقبل كبار الرجال في العالم يخطبون وده . والمروي ان

هذا الرجل الكبير ، كان مزداناً باخلاق عالية وآداب سامية جعلته موضع احترام الجمهور ، وهيأت ذريته لتسنم اعظم المراكز في الدولة الرومانية . وقد خدم الحظ هذه الاسرة بتهيئة الاسباب التي بلغت بهم الى المنصة التي ارتقوا اليها كما ترى في ما يلي .

٥ — سبتيموس سيفيروس في حمص

سبتيميوس سيفيروس افريقي الاصل ولد في ١١ نيسان سنة ١٤٦ م ودرس الفقه في رومة فنبغ في القانون ، وتولى عدة مناصب حكومية في ايام اوربليوس وابنه كومود . وكان قائداً عسكرياً ماهراً احبه الجند جداً لانه كان ذا عطف شديد عليهم . ومما يؤثر عنه قوله للرومانيين : ايها الابناء ارضوا الجند ولا يهمنكم من بقي .

في ايام كلود بن اوريليوس الذي تسنم عرش رومة (١٨٠—١٩٢) حدث حادث جلل . وذلك ان احد الحمصيين المدعو يوليوس اسكندر ، ترأس عصابة عاثت في البلاد فساداً لدرجة اقلقت الخواطر ، وخشي الامبراطور كومود شرها . فلم ير بداً من ايفاد قائد مشهور بحزمه ومقدرته العسكرية لكبت الثائر وتهدئة الاضطراب . فلما بلغ سيفيروس المنطقة التي اعتصم بها الثائر المذكور طوقها بجنده وضيق عليه الخناق ، وحال دون وصول الزاد والمؤونة اليه . فلم يجد وسيلة للبقاء على ما هو عليه . ورأى الفرار من هذا المأزق الحرج اولى به . واذ وجد منفذاً لا تصل اليه يد القائد . فر مع صديق له يبغي النجاة بنفسه . ولكن الجند الذي طوق المنطقة التي كان فيها كان شديد السهر على الثائر . فلم يفته المسعى الذي اراده . ولم يكد يجتاز المضيق الذي اراد المرور به ظناً منه انه يستره عن اعين الرقباء ، حتى تاثره فرسان الرومان . وكان جواده كريماً ، فلم يدرك الجند اثره . ولكن صديقه قصرت زمالته عن مضارعة جواده بالركض . فأبت عليه مروءته ترك رفيقه فريسة لمطارديه . فتريث حتى لحق به وهو يبغي ان يردفه وراءه ليجتاز معه الخطر . ولكنه ما كاد يصل اليه حتى ادركه رهط من الفرسان ، وسبقه فريق آخر ليحول دون فراره . واصبح القبض عليه امراً لا بد منه . فلم يشأ ان

يموت اسيراً فسبقهم الى قتل رفيقه ، ثم قتل نفسه. وهكذا ركدت الفتنة (١٧٩).

وكان لما قام به سيفروس تأثير عظيم لدى الدولة والامة التي قدرت له ذلك اعظم تقدير لخشيتهم مغبة انتشار الفوضى في ايام كانت كثيرة المشاغب والاضطراب ، لا تكاد الحكومة تجد راحة في بقعة حتى تجد فتوق في ناحية اخرى.

وفي اثناء وجود سيفيروس في حمص. وقع نظره مرة على دومنة بنت كاهن حمص ، وكانت بارعة في الجمال . وضمت الى جمال الخلق حسن الخلق . وقد مكنها ذكاؤها واجتهادها من تحصيل حظ وافر من العلوم الطبيعية والفلكية . فكانت بمركزها الادبي والحسي مطمح الابصار .



جوليا دومنة

فلما رآها سيفيروس سحره جمالها وشعر بميل عظيم اليها ، ولاسيما انه بفراسته فيها ، توسم المستقبل المجيد الذي يبلغه باقترانه بها . غير انه تردد في اول الامر بطلبها من ابيها لانها كانت اصغر منه بعشرين سنة (جيونو المقتطف ٥١ : ٩) ولكنه اقدم بعد ذلك على اعلان رغبته فيها . وذلك على اثر اجتماعه بعرافة شجعته بقولها : ان هذه الفتاة ذات نجم عال وحظ حسن . وسيقترن بها يوماً ما رجل يتسنم عرش رومة . فللحال اقدم على طلب الفتاة من ابيها . ورأى ابوها في القائد كفوءاً لها واحس بميل في الفتاة اليه ، فلم يمتنع عن تلبية طلبه . فصارت دومنة زوجة للقائد سيفيروس. ورزق من هذا القران عدة بنين منهم كراكلا الذي ولد له في ليون سنة ١٨٨ وجيتا .

وتمت نبوءة العرافة النورية ، فان كومود مات مسموماً في ١ ك ١ سنة ١٩٢ فأقيم مكانه برتينكس والي سوريا ولكنه لم يستطع ارضاء الجند فثاروا عليه وقتلوه في ٢٨ آذار سنة ١٩٣ .

ونادى الحرسة في الفطرسة والوقاحة فعرضوا الرئاسة للمزاد ، فاجتمع كثيرون من العظماء وذوي الثراء واخذوا يتزايدون بالثمن ، وكان بينهم رجل غني جداً يدعى ديديوس يوليان . فاستقرت المبايعة عليه ، ونودي به امبراطوراً بعدما نقد الوزعة الثمن وكانت قيمته ازيد من ٤٠٠ الف ليرة انكليزية بعملة هذه الايام (ميار ٤١٥)

فلما بلغ هذا الامر الواطيء كتائب الجند في سائر الاصقاع ، اخذتهم ثورة الغضب ، ونادى كل جيش بقائده امبراطوراً . وكان آنئذٍ سيفيروس يقود جيش الدانوب . وهو محبوب جداً من جنوده لعلو همته ، فنادوا به امبراطوراً . كما نادت اقاليم المشرق بنيجر ملكاً . وبريطاليا بالبيوس قيصراً . فأسرع سيفيروس بجنوده الى رومة ودخلها بموكب عظيم وتبوأ سرير الملك . وللحال اصدر المجلس العالي الروماني حكماً بقتل ديديوس كمجرم فقبض عليه وقتل بعدما حكم ٢٦ يوماً (بني ١٨٠).

وانقسمت سوريا قسمين انطاكية وبيروت وما بينهما تحزبت لنيجر ، اما سوريا الداخليه واللاذقية وصور من السواحل فانها ايدت سيفيروس . فنقم نيجر على السواحل التي مالأت سوريا الداخلية ، فأرسل كتيبة الى اللاذقية باغتتها فاستولت عليها ودكتها الى الحضيض . ثم تابع زحفه على صور ففتحها واحرقها . وعول ان يعود بعد ذلك للانتقام من سوريا المجوفة ، ولكنه لم يكد يفعل حتى قدمت جيوش سيفيروس مجتازة طورس غير مبالية بتراكم الثلج فيها . فالتقتها جيوش نيجر وهم من شبان انطاكية . ونشب القتال بين الطرفين ، فانتصر سيفيروس على خصمه الذي لجأ الى انطاكية ، فلم يجد فيها قوة تدفع عنه الاذى فبرحها ووجهته الفرات . فادركه بعض المطاردين وقتلوه وهو حامل سلاحه ، وكان ذلك سنة ١٩٤ .

ثم عاد سيفيروس الى الغرب لمطاردة خصمه الثاني البيوس ، فأدركه خارج مدينة ليون على نهر الرون . فوقع بينهما قتال شديد كانت نتيجته فوز سيفيروس ووقوع خصمه بالاسر . فقتله سنة ١٩٧ واصبح امبراطوراً بلا منازع ، ولم يكن قيصراً لرومة فحسب بل احد القياصرة الافذاذ .

٦ — سيفيروس اول القياصرة الحمصيين

لم يكن سيفيروس حمصي المولد ولكنه كان حمصي العاطفة ، وكان زوجته

التي عرفت في التاريخ باسم جوليا دومنة أثر كبير في الدولة في ايامه . فقد كان لها سراي خاصة كانت عبارة عن معهد علم وادب وسياسة . وكانت هي محور تلك الحلقة المؤلفة من اشراف الرومان واعيان السوريين . وقد اعترف لها بهذه الميزة عدد كبير من مؤرخي الرومان انفسهم . واكدوا انها لطفت كثيراً من اخلاق زوجها العسكرية القاسية . وجعلت مدة ملكه طويلة ، في آونة كثرت فيها المشاغبات . وقصرت مدة حكم الملوك بحيث اذا استثنينا مدة حكم سيفيروس الاول والثاني يبقى معدل حكم الاباطرة الـ٢٣ الباقين سنتين فقط لكل منهم (بورتر ٥١٩) .

كان سيفيروس كما شهد له ابكاريوس المؤرخ (٣٦٨) من مضارعي يوليوس قيصر في الشجاعة والبسالة والادارة العسكرية . وبهذا انتصر على مقاوميه مع ما هم عليه من قوة ، وبالرغم من الاضطرابات التي جعلت الجند احزاباً متعددة . وانما استطاع أن يضبط العرش لما رأى ان الوزعة استأثرت بالقوة وكادت تكون لها الكلمة العليا . فبعدما اخمد الفتن الثائرة بسبب العرش أحضر الى رومة اربعين كتيبة من الكماة المختارين الذين اعتقد فيهم الاخلاص لتقوم مقام الوزعة جاعلاً رئيسهم ثانيه في الملك (بورتر ٥٢٠) .


سبتيميوس سيفيروس

وبعدما وطد سلطته غزا الشرق . واضاف الولايات الواقعة شرقي الدجلة الى مملكته . وفي اواخر ايامه قصد غربي اوربا فأدب الكلدونيين القاطنين شمالي بريطانيا ولكنه مات في يورك سنة ٢١١ .

وقد كان حظ سوريا عموماً وحمص خصوصاً حسنا بهذا ، القيصر اذ اولى هذه الاصقاع التفاتاً خاصاً وعناية جديرة بالبلاد التي اقام فيها مدة طويلة ، ولاسيما المدة التي كانت بين سنتي ١٨٢—١٨٤ التي اقترن فيها بجوليا دومنة بنت باسيان كاهن حمص ، فدرس حالة البلاد وعرف ما هي بحاجة اليه ، و ' جهده لتأمين

الطرقات وراحة البلاد بايجابه على الجند ، عدم الانحراف عن الواجب العسكري وتعويده الشعب على العمل المجـدي والانصراف عن الشغب الضار ، لذلك كثرت الآثار في سوريا الدالة على امتنان الشعب من امبراطورهم سيفيروس وامبراطورتهم جوليا دومنة ، كما يرى ذلك في الخطين ١٨٤٣ و ١٨٤٤ اللذين وجدهما ودنيـكتون (الدبس ٣ ص ٥٨٣) .

ومن آثار عنايته بسوريا قسمته اياها الى قسمين جعل القسم الاول سوريا الشمالية الممتدة من اقصى الشمال الى غاية السهول الممتدة على ضفتي العاصي الى انطاكية وما بين الـكام ولبنان ، والثاني سوريا الفينيقية والشطوط البحرية وشرقي لبنان الى البرية وتقع في هذا القسم بعلبك وحمص ودمشق وتدمر .

ومن آثار عنايته في هذه البقعة صيانته الحصون الـ ٤٢ الممتدة ما بين دمشق وتدمر . واطلال بعلبك وهي من احسن آثار المشرق واعظمها كان بناؤها في ايام سيفيروس (الدبس عد ٥٢٧) .

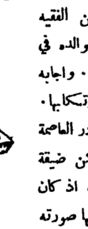
٧ ـــ كاراكلا ثاني القياصرة الحمصيين

مات سبتيميوس سيفيروس سنة ٢١١ بعد ملك مفلح (ميار عد ٤١٦) تاركاً الملك بعده لولديه كاراكلاّ وجيتا . اللذين سبق له ان اشركهما معه في الملك واعطاهما لقب قيصر . وانما فعل ذلك تفادياً من تغلب احدهما على الآخر بعد وفاته (بورتر : ٥٢١) فملكا كلاهما معاً نحو سنة . وفي قلب كل منهما على الآخر من الضغينة مالا يتوقع مثله في اخوين شقيقين ، ولكن امهما تداركت الامر واصلحت بينهما ، فلم يطل الامر على هـذه المصالحة حتى عـادت النفرة ، وفي اثناء عتاب قام بينهما في غرفة امهما دفع النزق كاراكلاّ على مهاجمة اخيه بغضب شديد ، فلجأ هذا الى امه ولكن كاراكلاّ عليه الغضب فقتك به وهو في حضن امه . ثم اسرع الى العسكر ؟الثهم بعدما انفرد بالسلطة فانقادوا اليه واطمأن على مركزه .

من الغرابـة ان كاراكلا الذي تولى تهذيبه إبان فتوته استاذ مسيحي (بورتر ٥٤٥) وظهر في زمن شبابه اديباً ورعاً حتى لقبه اترابه « بيوس » اي

التي ، قد انقلب لما تسنم السدة الملوكية الى رجل غضب مليء بالعجب والغطرسة . ويرى بعضهم ان البيئة التي عاش فيها — وقد اصبح زمام السلطة في الحكومة والجيش في معظم الاحيان (كما قال براستد عد ٩٦٨) بيد جماعة من الرعاع الاجانب — اثر فيه وظهرت آثارها بعد تسنمه العرش . اذ عزاه وسواس محبي السيادة والاستئثار بالسلطة . فخشي مزاحمة اخيه فقتله في غرفة امه سنة ٢١٢ ثم تطوح في اعمال شائنت اسمه وأدت الى موته وموت والدته حزناً عليه سنة ٢١٧ .

على ان المبادىء التي تلقنها في الصغر لم تمحها الايام من ذاكرته ولم يزل اثرها في عاطفته . فان ضميره بكّته شديداً على اغتيال اخيه وحاول اسكات صوت ضميره باستصدار فتوى من الفقيه بابنيان الحمصي ، احد انسباء والدته ورفيق والده في التلمذة . فأبى هذا ممالأته على ما طلب . واجابه ان جريمة القتل اخف وطأة من تصويب ارتكابها . وقد اثر فيه تبكيت ضميره . حتى انه غادر العاصمة ومضى يتلهى بتجواله في الولايات . ولكن ضيقة صدره جعلته يستهدف لاشر مما عمل . فانه اذ كان في اسكندرية اتصل به استقباح بعض اهلها صورته فأمر بمذبحة عامة (مايار عد ٤١٦) .



كاراكلا

على ان اعترافنا بما صدر عن كاراكلا من مساوىء لا يسوغ لنا نسيان ما اتاه من حسنات . فقد ذكر له المؤرخون ما ملخصه :

١) منحه حق الوطنية لجميع ساكني الامبراطورية ، فأدى ذلك الى إملاء الخزينة بالرسوم التي تقاضتها من الجميع الذين كانوا يؤدونها بطيبة خاطر لحصولهم على الرعوية الرومانية ، وهذه الفكرة تمخضت بها السلطة الرومانية في فجر التاريخ الروماني ولم تبرز الى الوجود الا في ايام كاراكلا (مايار عد ٣٠١ و٤١٦).

٢) اتمامه ما بدأ به من الآثار الخالدة في بعلبك فهو الذي انشأ الرواق والعرصة امام هيكل المشتري ، كما روي في تاريخ الرومان عن ديون كاسيوس معاصر هذا الملك (الدبس ٤ ص ١٤) .

٣) عرضه معونته على كل من يلوذ به . ومن اقواله لخاصته ان من صاحبه مدة ولم يطلب اليه شيئاً فهو غير واثق به . ومن لم يثق به شك في اخلاصه وساء ظنه (بودتر ٨ : ٦) .

٨ — ايليوكابال ٢١٨ — ٢٢٢

ذكرنا ان كاراكلا قتل سنة ٢١٧ وهو يحاول اخضاع البرثيين في الشرق . وانما اغتاله رئيس الحرس المدعو مكرينوس النوميدي . ولم يكن الجند راضياً عن اغتيال كاراكلا لانه كان يغمرهم بأعطياته . فأذعن بعضهم مرغماً ولكن الباقين اعلنوا استياءهم . ومن الناقمين المجاهرين الفيلق الحمصي ، الذين اعلنوا اختيارهم للعرش القيصري ايليوكابال ابن سليل الاسرة الباسيانية المحترمة جداً عندهم .

والذي ذكره المؤرخون في سبب ذلك ، ان مكرينوس هفا عده هفوات جعلته مكروهاً من الرومان . منها :

١) ان ملك الفرس ارطبان بسط سيطرته على ما بين النهرين وجهز مكرين حملة لاستردادها فلم يفلح . وليس ذلك فقط ، بل رضي بمصالحته واطلق له الاسرى ودفع له ١٤ مليوناً من الدراهم ليتخلى له عن بعض المواقع التي احتلها .

٢) انه ذل للملك الارمن تريدات فتخلى له على بعض البلاد في الكبادوك ورد عليه امه التي كان قد سباها كاراكلا .

٣) انه اهمل شؤون الدولة واقام في انطاكية لمشاهدة الرقص وسماع الاغاني . ولما عوتب ادعى انه انما اقام في انطاكية ليعيد الجنود التي امّن بها المشرق ، الى البلاد التي استقدمهم منها .

٤) واهم ما اثار الحمصيين عليه . انه عدا اغتياله وطنيهم كاراكلا وتسببه وفاة امه جوليا دومنة الحمصية ، ابعد عن رومة اختها ميزا وبنتيها سوميا ومامه . وكان هؤلاء حاصلات على قسط وافر من الذكاء ، وثروة عظيمة من المال لم يكنّ يبخلن ببذلها في سبيل المجد . وكانت صلتهن النسبية بالاسرة المالكة

خير عون لهن على نيل ما يطمحن بابصارهن اليه . وقد ترملت كل من سوميا ومامّه على ولد واحد ويدعى ابن الاولى افيتوس باسيان ، وابن الثانية اسكندر. فلما ابعدهما مكرينوس من رومة مع والدتهما ميزا ، عدن جميعاً الى حمص وجاورن هيكل الشمس فيها . وقدّمن ذواتهن ومالهن للعبد . وقبضت ميزا على مفاتيح الهيكل واقامت اكبر الولدين اعني به افيتوس كاهناً للهيكل وارثاً لجده باسيان . فاختتن وامتنع عن أكل لحم الخنزير اتباعاً لما يجب على سدنة الهيكل ، واظهر من التقوى والورع ما جعله محبوب الجميع ، ودلت الآثار القليلة الباقية على المنزلة العظيمة التي نالتها هذه الاسرة في هذا الدور ايضاً . فقد دعيت ميزا في احداها « الكلية القداسة » وسوميا « الزهرة » اما « مامّه » فحسبها ما نقل عن ادبها ورصانتها في مراسلاتها لاوريجانوس الشهير .

كان لأفيتوس باسيان آنئذٍ من العمر ١٤ سنة وكان جميل الصورة معتدل القامة . فاذا ذهب الى الهيكل لاتمام الواجب الكهنوتي شخصت اليه الابصار ، وتزاحمت الاقدام للقرب منه ، وتطالت الاعناق لرؤيته . فيبدو لهم بوشاحه البرفيري المذهب واكليله المرصع بالجواهر والحجارة الكريمة كملك او أعظم . وبذلت جدته ميزا وابنتاها المال الوفير للجند . فكاد اعجابهم بافيتوس يبلغ درجة العبادة . واعتقدوا انه ابن كاراكلا الجدير بان يخلف اباه على العرش (يني:١٨٢) ورأى آخرون انه حفيده (بورتر:٥٢٢) .

هذه الحالة جعلت العرش ادنى الى افيتوس من قابي قوس ، والاحتراس الذي ابداه مكرين بايفاده فرقة من الجيش لمراقبة الهيكل والقائمين بامره لم ينفعه شيئاً ، وصدقت اقوال سوميا امه ان البرفير يغطي كل عيب ، وان الجند يؤثرون نفعهم المالي على المملكة نفسها . فان ايثار ميزا جدته التاج الملكي على كل ما لديها من المال ، اوصلها في آخر الامر الى ما صبت اليه .

ففي احدى الليالي بينما كان الجند الموكلون بمراقبة الهيكل يغطون في نومهم . اتى افيتوس الى معسكر الجيش الحمصي ، تتبعه مركبات تقل الاكياس المملوءة ذهباً ، وكان مساء ، وكان صباح ، واذا الجند ينادون بافيتوس ملكاً ، وسمي اذ ذاك مرقس اوريليوس انطونينوس ايليوكابال ، وكان ذلك يوم ١٦ ايار سنة ٢١٨ .

فلما درى اوليبوس يوليان قائد الجيش المرابط في جوار حمص وهو احد رجال الحرس الملكي بما جرى . اسرع مع رهط من فرسانه الى المعسكر وحاول فتح ابوابه ، فصده الجند . ثم اعاد محاولته ثانية فلم ينل مأربا . بل بالعكس ارتقى الجند الى اعلى السور واظهروا لرفاقهم ابن كاراكلا . واكياس الذهب التي اتت بها ميزا جدته . فقلب الفرسان للحال ظهر المجن لقائدهم وقتلوا ضباطهم ، وانضموا الى جيش ايليوكابل . فلم يبال مكرين بادىء بدء لهذه الثورة واعتبرها حركة نسائية ليس الا . ولكنه لما وافاه رسول من معسكر حمص وطرح امامه هامة القائد يوليان وهو يهتف بملء صوته : « ابشر مولاي فقد جئتك برأس ايليوكابال » استغرب هذه الجرأة . وحاول ان يستعمل الوسيلة نفسها التي اوصلت ايليوكابال الى مرامه ، فلم يفلح . اذ عرف الجند ان هذا السخاء انما هو تعليل الخائف ، فأخذ جنوده يغادرون معسكره وينضمون الى فيلق حمص ، حتى ان فرقة افاميا برمتها انضمت الى الفيلق .


ايليوكابال

ولما رأى ايليوكابال ان قوته ليس مما يستهان به . طمع بالاستظهار على مكرين والتقى الجيشان على تخوم سوريا وتسلم قيادة الجيش الحمصي خصي لماميه —خالة ايليوكابال— فأحسن اتخاذ استحكامات حصينة ، وتقدمت الجيش ميزا وسوميا مع ايليوكابال ليزيدوه جرأة ، فأخذ الهلع قلب مكرين . ففر من الميدان تاركاً قادة جيشه وحدهم للمدافعة عنه . فلما رأى هؤلاء نذالته ، وسمعوا نداء ايليوكابال ووعده اياهم بابقائهم في مناصبهم ، سلموا سلاحهم وانقادوا اليه ، فأصبح كاهن هيكل الشمس امبراطوراً لرومة في ٨ حزيران سنة ٢١٨ .

اما مكرين الذي فرّ متنكراً وكان يبغي المناداة بابنه قيصراً بمساعدة ملك الفرس ، فقد القي القبض عليه في خلكيدون ، وادرك فرسان ايليوكابال ابنه عند الفرات فقتلوه . ودرى الاب بمقتل الابن . فسقط من المركبة فانخلع كتفه وأتم الجنود قتله بعدما ملك ١٤ شهراً ومات وله من العمر ٥٤ سنة .

وبعد هذا الظفر ، برح ايليوكابال حمص الى رومة مستصحباً معه الحجر الاسود ، فدخل رومة بثوبه البرفيري ، وميزا وبنتاها من خلفه . ولما استقر

على العرش اقام ندوة للنساء جعل امه رئيسة هذه الندوة . امـا مامّه خالته فاعتزلت أبهة العرش وانصرفت بكليتها لتربية ابنها اسكندر واعداده لاسمى المناصب عن جدارة .

اما ايليوكابال فقد انقاد الى اهوائه الشبابية وكان كثير المجون قليل المبالاة بشؤون الدولة ، وبلغ استياء الرومانيين منه الحد الاقصى لأمرين اتاهما بدون تفكير . اولهما تقديمه عبادة الحجر الاسود على آلهتهم . وثانيها اغتصابه احدى عذارى هيكل فيستا . وزاد على ذلك انه سلم اسمى مناصب الدولة الى زمرة من الشبان كانوا يساهمونه اعمال الطيش (بورتر) .

وشعرت جدته ميزا بالعاقبة السيئة التي تنتظر تصرفه الشائن ، فأوعزت اليه ان يسمي ابن خالته اسكندر قيصراً ويتخذه ابناً له ليعاونه في المقابلات الرسمية وتدبير المملكة وخدمة الآلهة . ولم يكن لاسكندر آنذاك من العمر سوى ١٢ سنة . لكنه كان ذكياً لين العريكة حازماً مع طلاقة وجه . وقد توقعت امه وجدته منه نجاح اسرتها ، ولاجل هذا الغرض اقامت له مهذبين يرافقونه دائماً لكي لا تزل قدمه الى رذيلة . وكانت نشأته هذه العالية سبباً لميل الجمهور اليه واعتبارهم اياه .

وشعر ايليوكابال بميل الجند اليه فحاول اهلاكه خشية مزاحمته اياه على العرش . ولكن والدته مامّه كانت ساهرة على ابنها ، واقامت خدامـاً تثق باخلاصهم ليحولوا دون وصول كل طعام يبعث به الملك اليه . ولما لم تنجح مساعي ايليوكابال السرية قرر الفتك به علناً . ولكنه خشي الجند ، فأراد ان يسبر غور محبتهم له . فأشاع موت اسكندر ليرى تأثير ذلك فيهم . ولكن هؤلاء عرفوا عدم صحة الاشاعة فتهافتوا على القصر الملكي طالبين بالحاح شديد رؤية اسكندر ، فاضطر ايليوكابال اخماداً لثورتهم ان يسير مع اسكندر بين الجند ليروه ويطمئنوا ، فعلا الهتاف بحياة اسكندر ، فاستاءت ام ايليوكابال واثارت وزراءه واصدقاءه على الجند ، فحصل عراك بين الحشد العظيم المنقسم الى فريقين انتهى بقتل محازبي ايليوكابال واضطر ايليوكابال ان يختبئ في مرحاض الجند ، فقتل هناك وجرت جثته في الاسواق ثم طرحت في نهر التيبر . وألحق به إلهه الاسود ، وكان ذلك في ١١ آذار سنة ٢٢٢ ونادى الجيش بابن خالته اسكندر ملكاً باسم مرقس اوريليوس اسكندر سيفيروس .

٩ — سيفيروس الثاني رابع القياصرة الحمصيين

ولد اسكندر سيفيروس في خريف سنة ٢٠٥ من ابوين فاضلين هما جسليوس مركيان وماميه باسيان . ودعي وقت ولادته اليكسيان باسيان . وكانت والدته مامّه من المشهورات بعلو المدارك وسمو الآداب ، لذلك ثقفت طفلها ثقافة عالية . ولما نشأ سلمته لافضل المعلمين واعلمهم . حتى قال فيه هيروديان (٦ : ١) انه كان لهذا الملك عند استوائه على العرش كل ما يليق بملك من وزراء وحاشية وحشم . ولما وسد العرش القيصري الى ابن خالته سنة ٢١٨ صحب امه معه الى رومة . وسنة ٢٢١ جعله ايليوكابال ابناً له بالتربية ومنحه لقب قيصر وهو لا يزال ابن ١٢ سنة . ثم تغير عليه وحسبه مناظراً له لا يستقر امره بدون هلاكه . فسعى لذلك جهده ولكن يقظة امه انقذته من الخطر الذي اعدّ له . واحبه الجند كثيراً فأفضى بهم ذلك الى الفتك بايليوكابال وتنصيب اسكندر على العرش فلقب نفسه سيفيروس للاتصال بمن حسب جداً له .

اسكندر سيفيروس

وحالما تسنم العرش شمر عن ساعد الجد لاصلاح ما اورثه اسلافه من الخلل . مستعيناً برأي جدته السديد وحصافة فكر والدته . فانتخب من رجال الندوة ١٦ رجلاً ممن حنكهم الدهر وشهد لهم الجمهور بالفضل ، والف منهم ديوان مشورة . وحظر على ارباب المجون والعازفين على الآلات والمغنين الدخول الى ديوانه .

ورأت والدته ان يستقدم اليه ابن وطنه اوليبان الفقيه . ويقيمه رئيساً للحرس الملكي ، بحيث لا يقابل الملك احداً بغير حضرته ، فأخذ هذا يرفع اليه دعاوي الناس ويلقنه كيفية حلها او التصرف بها .

واقام لجنة من اربعة عشر قنصلاً لمعاونة والي رومة في الدعاوي التي تعرض من احياء المدينة الاربعة عشر . فكان ذلك مجلساً بلدياً للعاصمة ، يحول دون استبداد الوالي او استئثاره .

وكان اذا تأخر عن مجلسه فضلاء القوم سلّى نفسه بمطالعة احد الكتب النافعة نظير « جمهورية افلاطون » او « مقالات شيشرون » او « رسائل هوراس ».

وكان في كل سبعة ايام يزور معابد الكابيتول مرة ، غير انه لم يكن يكثر التقادم لها ، ولما عاتبه على ذلك بعضهم اجابه : ان الآلهة تسر بممارسة الفضائل اكثر من احتكار المال .

ولاجل رفع شأن المرأة الى المستوى اللائق بها ، اقام ندوة للنساء ترأستها جدته ثم امه ، اعطاها سلطة واسعة في تهذيب كل امرأة تتجاوز حدود اللياقة. فأوقف بهذا الخلاصة التي كشفت عن معصميها وابرزت نهديها ، في عهد ابن خالته . واكثر الضرائب على الصاغة وباعة الحلي الذهبية والمنسوجات الفاخرة . ليقلل اسباب الترف . كما انه خفضها على الحاجيات ليخفف عبأها عن عاتق الفقير .

ومما حفظ من مأثوراته بشأن التبرج قوله :

« ان شغف النساء بالتبرج لا يبقي لهن من الوقت ما يجعلهن اعضاء عاملات في الهيأة الاجتماعية » .

« يستبيح الرجل مال غيره لاجل حلي المرأة ، وتستبيح المرأة غير قلب زوجها لاجل حليها » .

« ان الجوهرة الثمينة لا تستمد قيمتها من معدن آخر لان جمالها قائم في نفس جوهرها ، فلتتسابق النساء على حميد المزايا وحسن الخصال بدلاً من التهافت على الازياء » .

على ان سيفيروس الثاني لم يحارب الازياء فقط ، بل حارب المرابين ايضاً . اذ منعهم من تقاضي اكثر من ثلاثة في المئة ، وكان من اقل الملوك تمسكاً بالوثنية. مقتصداً في معيشته ولبسه ، نافعاً رعيته بمثاله الصالح . وقد كتب على باب قصره : لا تفعل بالغير ما لا تريد ان يفعله الغير بك .

ومما يؤثر عن محبته لجنده ، انه كان يعني بامرهم بذاته ، فيفتش على المرضى في خيامهم ، ويسأل عن اسباب امراضهم ، ومن يشتد مرضه ينقله الى مستشفيات المدينة ويقدم له العلاج من صندوق الحكومة . وكان يقول : تجب على الجندي الطاعة ، وعلى الدولة حفظ حياة جندها بحسن اللباس والسلاح الجيد ، وحفظ القدمين بالاحذية الواقية من البرد ، واملاء جيبه من الدراهم لكي لا تصغر مرؤته بسبب الحاجة

وسنة ٢٣١ دفع الغرور ملك الفرس فطلب من اسكندر البلاد التي ضبطها الروم . فجهز حملة لمحاربة الفرس ، ورافقته امه في هذه الحملة ، ويظهر من خطبته التي القاها في الندوة في ٢٥ ايلول سنة ٢٣٣ انه انتصر على الفرس واسترد كل البلاد الواقعة في ما بين النهرين وغنم غنائم وافرة .

ثم بلغه ان الجرمانيين ثاروا وقطعوا الطريق المؤدية الى غاليا (فرنسا) فسار بجيشه الى حيث الثوار تصحبه امه ، وخيم على الرين ، واهتم في بادئ الامر ان يسترضي الثائرين بالمال تنكباً لنكبات الحرب . ولكن احد قواد الجيش مكسيمنوس التراكي اهاج الجند على اسكندر ، بحجة انه يريد افراغ الخزينة واعطاءها لاعداء الدولة وهي من حق الجند الروماني . فانصاع الجنود الى كلامه ، فنادوا به ملكاً بدلاً من سيفيروس والقوا عليه البرفير الملوكي . وساروا به مدججين بالسلاح الى خيمة الملك ، حيث كان مع والدته ، فأرادت امه ان تأمر الحرس بالقبض على القادمين او الحيلولة دون دخولهم ، اما هو فقال بل دعوهم يدخلون . فلما دخلوا فتكوا به وبأمه في ١٩ آذار سنة ٢٣٥ ، ولم يكن له من العمر سوى ٢٦ سنة قضى نصفها ملكاً . ولم يبق لسوء حظ العالم طويلاً كما قال بوسوبت . وشهد له معاصروه ومن تلاهم انه افضل امبراطور تسنم العرش الروماني من عهد اوريليوس الى ديوكليتيان (١٨٠—٢٨٤) .



ماميه ام اسكندر سيفيروس

١٠ - من آثار القياصرة الحمصيين

اولاً - الطرق

رأى الاثريون اثراً واضحاً للطريق الرومانية ممتدة من مياس حمص حتى مصياف . وقد برزت بصورة واضحة في عده نقاط من الطريق . نظير خربة الجاموس ، وخربة السوداء ، وأم محناية ، وشرقي تليل ، وغربي كفرلاها ، وتل الذهب ، ثم تضيع هذه الآثار في جهات عقرب وبعرين . ولكنها تعود فتظهر في البياضية والسويدا ومصياف .

وتتجه الطريق بعد مصياف الى الشرق مارة بكنفو والعارمية والعالمية وتل سلحب . مجتازة جسر للعشارنه الى قلعة المضيق فسهل الغاب . ويرجح بعضهم ان رصيف سهل الغاب من صنع الذى بنى افاميا لانه ممتد منها الى انطاكية فالقسطنطينية (انظر الجولة الاثرية : ١٣٦ و٣١٩) . وكيفما كان الحال فان حجارة هذا الرصيف ما برحت بارزة في مواضع كثيرة تغيب تارة وتظهر اخرى بازاء اعضاد جبل الزاوية غير مفارقة له .

وعناية الدولة الرومانية بايصال الطريق الى حمص دليل على اهتمامهم بامرها ومن اجدر بهذا الاهتمام وهذه العناية اكثر من القياصرة الحمصيين ؟

على ان ما كشف من آثار هذه الطريق يدل على دقة الرومان في تخطيط الطرقات واتقان رصفها . فقد فهم انهم كانوا يخططون الطريق اولا غـارزين اوتاداً الدلالة عليها . بحيث يكون عرضها من ٨-٢٠ قدماً . وعندما ينتهي التخطيط الذي يكون في الغالب مستقيماً ، ينزعون الـتراب من المخطط حتى يبلغوا الطفال فيصلبونه بالمدقات . ثم يبسطون طبقة من الحجارة الصغيرة ترص بالمطارق حتى تغور في الطفال وتندغم به . ويضعون فوق هذه الطبقة طبقة ثانية من الحصى والرمل والطين ثم طبقة ثالثة من الحصى والرمل والجير (الكلس) وفوق هذه طبقة رابعة من الحجارة المكسرة والطين . وفوق ذلك طبقة غليظة من

الحجارة الصوانية الكبيرة . ينحتونها ويلصقون جانب احداها بالاخرى حتى يكون منها سطح مستوٍ لا نتوء فيه ولا شق .

وبعد هذا يحفرون على جانبي الطريق خندقاً تجري فيه مياه المطر لكي لا تجرف الطريق إبان سيرها القوي المتحدر . وخشية ان يتلف الطريق مجاوروها ، بنت على جانبيها جدارين . وحظرت بناء منازل بقربها ، او غرس اشجار لكي لا يجد اللصوص وراءها مخبأً يبرزون منه بغتة لسلب السابلة .

وبنوا عند كل خمسة اميال محطة للبريد فيها ٤٠ فارساً لنقله ليلاً ونهاراً فكان البريد يقطع في اليوم نحو مئة ميل ، وبهذا وصل الخبر من انطاكية الى القسطنطينية — لما ثار اهل الاولى على ثيودوسيوس — ظهر اليوم السادس مع ان المسافة بينهما نحو ٦٤٠ ميلاً (المقتطف ٢٠٢ : ٦٤٠) .

قال صاحب المقتطف بعد وصفه طرق الرومان : لولا البخار لقلنا اننا قصرنا عن بلوغ شأو الرومان في ما انشأوه من السكك كما قصرنا عنهم في كثير من ضروب المجد اهـ .

ثانياً — عمران المنطقة

وفي هذه الحقبة بنيت مئة مدينة في مسافة لا تزيد عن ١٨٠ كيلو على ضفاف العاصي وكلها تدل على سعة حال ساكنيها . ظن بعضهم ان هذه المدن بنيت في ايام السلوقيين ، وظن آخرون انها بنيت إبان وجود الحكومة الوطنية ، ولكن الوقت الذي حدده لها بركهارت يلائم هذه الحقبة اكثر من سواها . فان السلوقيين هيأوا الافكار للعمران ، ولكنهم اهتموا ببناء مدن في مواضع خاصة طبقاً لاغراض سياسية .

إن بناءهم المدن المشار اليها نبه افكار الحمصيين الى العمران الذي يهم المنطقة الحمصية من الوجهة الاقتصادية . فبدىء في ابراز هذه الفكرة في عهد حكومتها الوطنية ، ثم اكمل في ايام القياصرة الحمصيين . الذين بدون ريب اظهروا عطفاً خاصاً للبلد الذي نبتوا في حقله ، ونشأوا ضمنه ، وعرفوا كيف يستثمرون نهره العظيم اورانتس .

ثالثاً — نزهة تجارة حمص

لما ارتقى الفن الزراعي في حمص وكثرت حاصلاتها. اقتضى الامر ايجاد اسواق لها خارج المنطقة الحمصية لوفرة الانتاج . فتم التعارف بينهم وبين البلاد الغربية ، ثم اتخذوا لهم فيها اسواقاً لمنتجاتهم التي اخذت شهرة عالية من الرواج ، فأقام تجارها لاعمالهم مراكز في اهم البلاد الاوربية ، ولاسيما ذات المرافىء الكبيرة ، وقد اتصل بنا من اعمال تلك المدن ما يلي :

من اعمال نابولي اوسطيا وبوزولي ، ومن اعمال فرنسا بوردو وليون واورليان ، ومن اعمال بروسيا برلين وتريف .

روى غريغوريوس الطوري (ك ١:٨ و ٢٦:١٠) انه لما توفي اسقف برلين خلفه في الاسقفية تاجر سوري . وفي كونكورديا (ايطاليا الشمالية) يستنتج من آثار مقبرة قديمة فيها خصصت بالاجانب ، ان المدفونين فيها جميعهم سوريون واكثرهم من افاميا (من اعمال حمص آنئذ) التي كان لها الحظ الاوفر من التجارة السورية . وكان آنئذ عدد العمال في نسج الحرير نحواً من ثلاثة آلاف عامل (الدبس عد ٥٧٤) .

٨.

خلاصة حوادث حمص في الحقبة السابعة

انضمت حمص حوالي سنة ٧٩ الى المملكة الرومانية ، كما ادغم فيها سائر المقاطعات السورية في اوقات متباينة . ولكن هذا الضم لم يخسر الحمصيين اباءهم ولم يكسف انوار ذكائهم . بل ظلوا مرعيي الجانب عند الدولة الرومانية نفسها . وقد استعان امبراطرتها برجال حمص الاشداء على اكثر المواقف خطراً . وروى احد المؤرخين ان احد القياصرة انتدب الفاً من الرماة الحمصيين للاقامة في بانونيا (المجر) لتوطيد الامن فيها ، وحسبك دليلاً على الاثر العميق الذي تركه الحمصيون في اوربا ، ان احد ادباء الرومان الكبار كتب ما معناه : « ان العاصي صب مياهه منذ مدة طويلة في نهر التيبر حاملاً معه لغته وعاداته اهـ » .

مرَّ قرن او أزيد وموقف الحمصيين يتعالى في الهيئة الاجتماعية الرومانية . الى ان تسنى لرهط منهم ان يبلغوا أعلى منصب في الدولة . وهل ثمة اعلى من العرش الامبراطوري ؟ هذا المنصب السامي وصل اليه أنسال كاهن حمص الوثني الجليل باسيان ، بداعي اقتران سبتيميوس سيفيروس بابنته دومنة ذات الجمال الباهر والعقل الناضج والادب الجم .

فلما مات سيفيروس الاول سنة ٢١١ عن ٦٥ سنة ، قضى منها ١٨ سنة بملك متوج بالنجاح ، خلفه ابناه من دومنة « كاراكلاً وجيتا » ، غير ان الاهمية التي كانت آنئذ لفرقة

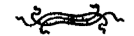
الحرس جعلت اتفاق الاخوين متعذراً . وسعي والدتهما « دومنة » بالتوفيق بينهما ذهب عبثاً . اذ هاجم قصر الوالدة في تلك الآونة بعض القادة المتحزبين للابن الاكبر ، واعملوا سلاحهم بجيتا الابن الاصغر ، واصيبت الوالدة بجرح في يدها بينما كانت تدافع عن ولدها ، وكان ذلك في ٢٧ شباط سنة ٢١٢ (جبون) ، واستأثر كاراكلا بالعرش بمساعدة الجند الذي اغدق عليه الهبات من مال ابيه المكدس في الخزينة فكان ثاني القياصرة الحمصيين .

على ان كاراكلا اصبح عرضة لتبكيت ضميره بعد الذي فعله . ولاسيما بعد قتله بابنيان الفقيه لانه لم يبرر عمله كما برر سينكا نيرون (جبون المباحث ١٦ : ٤٠٨) فترك العاصمة وقضى بقية ايامه متجولاً في الجهات الشرقية من الامبراطورية الرومانية ، فاغتاله مكرينوس في آذار سنة ٢١٧ في جهات حمص .

ولم ينجح مكرينوس في ما سعى اليه ، اذ لم يستتب له الحكم اكثر من سنة وشهرين . ثم اعيد العرش الامبراطوري لثالث القياصرة الحمصيين ايليوكابال حفيد باسيان من ابنة بنته سوميا ، والمقول انه ابن كاراكلا ، هذا قضى السنوات الاربع التي تسنم فيها العرش بالترف فمله الناس وقتل سنة ٢٢٢ ، وخلفه ابن خالته اسكندر سيفيروس ، رابع القياصرة الحمصيين وآخرهم ، الذي قال فيه المؤرخون انه لم يقم مثله على عرش رومة منذ مرقس اوريليوس الى ايام ديوكليتيان (١٦١-٢٨٤) والذي قال فيه بوسويه ان عدم تعميره طويلاً كان من سوء حظ الدولة الرومانية ، كما كانت قصر حياة سميه اسكندر المكدوني من سوء

حظ العالم . وقد استطاع رئيس الحرس ان يثير الجند عليه بحجة انه لم يفلح في حروبه ، وان الدولة بحاجة الى امبراطور عسكري . فقتل مع والدته في ١٩ آذار سنة ٢٣٥ ، وخلفه مغتاله مكسيمنوس التراكي .

وكانت مدة القياصرة الحمصيين ذات جدوى كبيرة لحمص اذ بلغ عمرانها درجة عالية ، وفتحت لها اسواق في معظم المدن الاوربية لتجارتها الناجحة ، ووصلت الطرق الرومانية اليها ، وصارت محجة الرواد من كل الاقطار ، في حين ان الدولة الرومانية عانت اوقات عصيبة جداً ، وتكرر انهيار العرش القيصري وضاعت اهميته مدة طويلة بعد انقضاء عهد القياصرة الحمصيين الذي استمر نحو ٤٢ سنة (١٩٣–٢٣٥) .



المعوّل الى مصل منه كتاب هذه الحقبة

١) تيطس ليفي ٥٩ ق م — ١٧ م

وضعه اللاتين بمنزلة هيرودوت عند القدماء. وماكولي عند المحدثين. اعظم مؤلفاته تاريخ رومة من اقدم ادوارها الى سنة ٩ م. ولم يحفظ من هذا المؤلف البالغة اجزاؤه ١٤٢ سوى ٢٥ كتاباً. وقد أسف المؤرخون كثيراً على ما ضاع من اسفاره لدلالة الباقي منها على اهمية الضائع، وقد مرّ بنا اقتباسات كثيرة عنه.

٢) تاسيت ٥٥ - ١١٧ م

مؤرخ روماني تولى وهو صغير احدى مأموريات الحكومة وتزوج ابنة اغريقولا، ثم صار حاكماً في ايام دومتيان وقنصلاً في زمن نرفا. واشتهر في الخطابة والفصاحة والشريعة، ومن المؤلفات التي خلفها:

١) ترجمة حياة اغريقولا وقد تضمنت تاريخ بريطانيا القديمة وهي ميزة الكتاب الخاصة.

٢) تاريخ جرمانيا — وضعه سنة ٩٨ وهو اثمن مؤلفاته. قابل فيه فضائل الجرمانيين غير المهذبين على آثام الرومان المهذبين، واظهر عظم الفرق بينهما.

٣) تاريخ رومة وضعه سنة ١٠٥ وضمنه تاريخ رومة من سنه ٦٩—٩٦. ولا يوجد من هذا المؤلف الآن سوى الاجزاء الاربعة الاولى وبعض الخامس الواصل الى سنة ٧٠م.

٤) تاريخ مختصر لحوادث سنة ١٤—٦٨. ولا يوجد من هذا ايضاً سوى تسعة اجزاء من ١٦ وبعض قطع من الاسفار الباقية.

وقد وضعه كثيرون بدرجة توسيديديس. غير أن آخرين انكروا عليهم ذلك واكتفوا بأن وضعوه بصف سلفه سلست.

ومما يذكر لتاسيت حماسته ودقته . ولكنه ادخل في كتاباته اموراً كثيرة كسفت رونقها ولاسيما القسم الاخير من تاريخه .

وقد طبع مجموع تآليفه وهو غير كامل في فينا سنة ١٤٦٩ . ومما له صلة في المنطقة السورية ذكره الطير المدعو فينيق الذي زعم انه رؤي حقيقة في السنة الرابعة والثلاثين لطيباريوس . ونقله عن بوسانياس ان الفينيقيين هم الذين اختطوا مدينة اماتوس الساحلية احدى عواصم قبرس التسع ، التي دعيت باسم اماتوس الميتولوجي ابن افروديت الخ .

٣) بلوترطرخوس ٤٦ — ٠٠

من اشهر الكتاب القدماء المدققين . فاق اقرانه بكتابة التراجم ، ومثل المترجمين كما كانوا لا كما يجب ان يكونوا . ولم يكن حكمه خيالياً بل شهد بما سمعه باذنه ورآه بعينه . وشغلته هذه الفكرة عن المسيحية التي انتشرت في ايامه فلم يذكر شيئاً عنها . اما لاشتغاله عنها بما ذكر ، او لتعصبه لدينه الخاص الذي بواسطته حفظت معظم مكتوباته .

سماه مايار (عد ٢٦٣) امير كتبة التراجم وسيبقى ذكره خالداً في العلميات كمؤلف لكتاب شهير . فيه قابل بعبارة بليغة ملأى بالنوادر المستحسنة ، رجال السياسة والجنود اليونانيين بالساسة والجنود الرومانيين اهـ . وقد اظهر في هذا الكتاب ان اغريقية لم تكن اقل انتاجاً من رومة ، وقد بقي من تراجمه ٤٦ ترجمة .

على ان له غير ما ذكر ١١ كتاباً في المباحث التاريخية ومن اهمها تاريخ حياة الاسكندر التي مرّ لنا اقتباسنا شيئاً عنه من تاريخ المذكور .

٤) سويتونيوس

نبغ في الربع الاخير من القرن الاول وعاش الى العقد السادس من

القرن الثاني . ومن مؤلفاته ترجمة حياء ١٢ قيصراً سود فيها صحائفهم بذكر اعمالهم الشريرة .

٥) اريان (١٠٠ — ٠٠٠)

هو فيلسوف ومؤرخ يوناني . ولد في نيقوميدية وامتهن السياسة فصار والياً على كبادوكية . وحارب امة الألانس فظفر بهم وصار قنصلاً . وسنة ١٥٠ رجع الى بلاده وانعزل للمطالعة والتأليف فنشر خطب معلمه ابيكتيتوس الفلسفية . وكتب اشياء نفيسة في الفلسفة والجدل والتاريخ والجغرافية والصيد وتنظيم السلاح والقوات الحربية وغير ذلك . وافضل تآليفه واوسعها «حروب الاسكندر» وله غير ذلك من التآليف المفيدة .

٦) لوكيان السميساطي (١٣٧ — ٢٠٠)

من نوابغ القرن الثاني ولد في سميساط سنة ١٣٧ ومال في اول امره الى صناعة التماثيل فمهر بها . ثم درس الفقه وصار محامياً . ثم انكب على درس الفصاحة والفلسفة . وطاف آسيا وبلاد اليونان وفرنسا وايطاليا . ثم اقام في اثينا وعمره اربعين سنة . فألف كتباً كثيرة ندد فيها بعادات العامة وفند اوهام عصره . ولكنه بالغ في اندفاعاته اذ جرف الحقيقة مع الاوهام . واحصيت مؤلفاته فبلغت ثمانين مؤلفاً من اهمها تحفته التاريخية « كيف يجب ان يكتب التاريخ » وهو حكم مرت عليها العصور وما برحت روعتها ظاهرة ، ومن ميزاته الخاصة وقوفه فوق النزعات الحزبية .

ومن الماعاته وصفه معبداً بجوار كركميش بني على طراز حثي قال فيه : انه يشبه هيكل سليمان مؤلفاً من دار خارجية وهيكل داخلي يحوي قدس الاقداس يفصله عن باقي المعبد حجاب كثيف . على جانبيه عمودان مخروطيان وفي الدار الخارجية مذبح كبير من النحاس وعلى شماله صورة آلهة ومن

ورائها حوض ماء فسيح كان يسبح فيه السمك المقدس . وداخل الهيكل قرص الشمس وتماثيل آلهة شتى معظمها منتصبة على اسد او على ظهر ثيران اه .

٧) بطليموس

من يوناني مصر نشأ في الاسكندرية واطلع على كتب من سبقه واستخلص منها ، ومن مبتكراته العلمية ، كتابين كبيرين في الجغرافية والفلك . الاول في ثمانية اجزاء ذكر فيها كل الاماكن المعروفة ووصفها بايجاز . راسماً ٢٦ خريطة لعدة مدن ، وخريطة لمجموع تلك المدن . وقد وصل كتابه الينا سليماً ووجدت منه نسخة يونانية كتبت منذ سبعمئة سنة محفوظة في دير الروم في جبل آثوس .

اطبق ليل الجهل بعد بطليموس ولكن كتبه ظلت تنير حناوس الظلم حتى قويت شوكة العرب واستعانوا بالسوريين على ترجمتها سنة ٨٢٧ م . ولد بطليموس في القرن الثاني وبقي حياً الى سنة ١٦١ م .

٨) أبيان

شاعر يوناني نبغ سنة ١٨٠ م ولد من اسرة شهيرة ونفي ابوه الى مليتوس لعدم مبالاته بالقيصر سيفيروس لما مرَّ في المدينة ، فرافقه ابنه المذكور الى منفاه وهناك نظم قصيدته الشهيرة عن الصيد ٣٥٠٠ بيت وقدمها للامبراطور سيفيروس . فسرَّ بها الامبراطور وامر بارجاع ابيه الى وطنه . واعطى الشاعر على كل بيت ذهباً وتوفي ابيان بالطاعون وعمره ٣٠ سنة فقط .

٩) اثينيوس

كاتب يوناني نبغ في اوائل القرن الثالث . ولد في القطر المصري ثم انتقل الى رومة . وتضلع من العلوم حتى لقب بليني الثاني . وضع عدة مؤلفات

من اشهرها مؤلفه المدعو في اليونانية « ذيبنو سوفستي » اي « أدبة الفلاسفة » وهو مؤلف كبير الاهمية حوى نتيجة ابحاث ٢١ عالماً ، استمدوا معلوماتهم من اكثر من سبعمئة عالم عرفوهم . واخص مباحث الكتاب عادات اليونان في ذلك العصر وما سبقه . ومع اهمية هذا السفر رأى فيه النقاد مجالاً للتنكيت عليه من اربعة وجوه : ١) حرف الاسماء في بعض الاحيان ٢) مزج بين تاريخ وآخر ٣) انكر شرائع الطبيعة ٤) غاص في ايراد قصص غريبة وشؤون غير لائقة.

وقع هـذا المؤلف في ١٥ كتاباً لم يبق منها الى الآن سوى مجلدين وقطع من الاجزاء الثالث والحادي عشر والخامس عشر وكلها ذات قيمة عظيمة لدى علماء الآثار .

ومن الماعات هذا الكاتب ، ذكره ان اهل هذه المنطقة اول من اصطنع من العاج آلات طرب (المباحث ١٦ : ٨٤) .

١٠) ديون كاسيوس

مؤرخ يوناني ولد سنة ١٥٥ ونبغ في اوائل القرن الثالث ، فشغل عدة وظائف سياسية ، في ايام برتينكس وسيفيروس ومكرينوس . ونال درجة قنصل سنة ٢٢٩ ثم عاد الى بلاده فمات فيها .

الف تاريخاً لرومة بـدأ فيه من ايام اينياس وانتهى فيه الى عهد اسكندر سيفيروس . وقد قضى في جمع مواده عشر سنوات ، وحذا فيه حذو توسيديديس. وهو المؤرخ الوحيد بين قدمـاء المؤرخين الذي تجرأ على محازبة قيصر ضد بومبي وبروتوس . واحترم الحدثاء كلامه عن سقوط الجمهورية واسفوا جداً لضياع الكتب التي ارخ فيها حكم الامبراطرة منذ فاسباسيان ، وقع مؤلفه هذا في ٨٠ جزءاً لم يبق منها الى الآن سوى ٢٠ كاملة و٦ ناقصة ، وقطع متفرقة من البقية .

ومما وقع في تاريخه موضع استغراب الحدثاء ، وصفه اليهود بالقسوة وبانهم كانوا يأكلون لحوم قتلاهم ويشربون دمهم ويتمنطقون بامعائهم ويلتفون بجلودهم وقد شطروا كثيرين من رؤوسهم الى اقدامهم الخ !!!

نوابغ الحمصيين في هذه الحقبة

١ً) تومينوس الافامي

ولد في افاميا في القرن الثاني . ويجهل المحققون الطريقة التي حصل بها معارفه . لكنهم رأوه ميالاً للمباحث الدينية وتجريحها فلسفياً . ويرجحون انه من ذوي المذهب الانتخابي (اكلاكتيك) ولعله قرأ كتب فيلون فعرف مبادىء اليهودية . ثم افضى به ذلك الى درس التوراة والانجيل والاخذ عنهما . وامتاز على فلاسفة عصره بجرية نزعته وكثرة اقتباساته (المباحث ١٦ ص ٧٢٥) .

٢ً) جوليا دومنة ١٦٦-٢١٧

هي ابنة كاهن حمص الجليل المدعو باسيان ، ولدت في حمص سنة ١٦٦ وكانت ذات جمال بارع وذكاء سام وظل لها جمالها وذكاؤها حتى آخر حياتها ، فقال فيها جبون المؤرخ الانكليزي (ص ٢٩) كانت حتى في ايام شيخوختها ذات جمال باهر وعقل راجح قل وجوده في بنات جنسها .

اهتم والدها بثقافتها منذ صغرها فنشأت ذات خبرة واسعة في الفلسفة والادب وصديقة للفنون ولكل عبقرية .

وخدمها الحظ او خدم بها سبتيميوس سيفيروس القائد الروماني الشهير فأحبها واقترن بها يوم اوفد بمهمة عسكرية الى حمص . فارتفع بعدئذ الى اسمى مقام في الامبراطورية . اذ لبس الارجوان الروماني ، وبفضل ذلك حكم عدة امبراطرة من دم سوري حمصي بمملكة عظيمة تعد أزيد من مئة مليون نسمة .

وبفضل هذه الامرأة الممتازة بقوة تفكيرها ، دعا هؤلاء الامبراطرة ثلاثة من فقهاء بيروت وحمص وصور . وهم بابنيان واولبيان وبولس الى تسلم اسمى الوظائف القضائية . اي وظيفة قاضي قضاة ، فأوصلوا الشرع الروماني بعلمهم وعدلهم الى الذروة العليا (السيدات لأدي ٦ : ٣٤٤) .

وسهلت على زوجها ادارة المملكة في اصعب الظروف بترؤسها الندوة النسائية . على انها عانت بعد موت زوجها ألم قتل ابنها الصغير جيتا ثم قتل ابنها كاراكلاً مما ادى الى موتها حزناً سنة ٢١٧ .

٣ً) بابنيان الفقيه ١٥٠-٢١٢ فما بعد

ولد في حمص سنة ١٥٠ ثم طلب العلم في مدرسة بيروت الفقهية . وكان رفيقه في التلمذة سبتيميوس سيفيروس . وبابنيان من انسباء جوليا دومنة بنت كاهن حمص التي تزوجها سيفيروس . وما لبث هذا السري الطالب ان تفقه بالشرائع والبلاغة فبرع فيها وعلا كعبه . فصار استاذاً في المدرسة التي تلقى العلم فيها . ومنها رنت حصاة شهرته حتى بلغت رومة فقربه مرقس اوريليوس اليه واسند اليه منصباً خطيراً ، ظل حتى اعتلى رفيقه سيفيروس الاول اريكة الدولة ، وصارت نسيبته جوليا دومنة امبراطورة ، فعلا نجمه اذ استوزره القيصر وجعله امير الحرس الامبراطوري . فقضى السنوات السبع الاخيرة من سلطنة سيفيروس ناهضاً باسمى مناصب الدوله . وكان مستشار الامبراطور ، يرشده بآرائه الصائبة الى سواء السبيل . فقدر له سيفيروس اخلاصه وعهد اليه وهو على فراش الموت ان يعتني بالاسرة المالكة ويحفظ الوحدة بين افرادها .

لكن كاراكلا لم يراعِ وصية ابيه . اذ قتل اخاه جيتا واراد ان يستصدر فتوى يبرر بها عمله الشائن ، فحاول استدراج بابنيان الى ذلك فأبى ، واجابه بما اصبح بعدئذٍ قولاً مأثوراً : « ان جريمة القتل اخف وطأة من تصويب ارتكابها » ، فاستاء كاراكلاً من بابنيان واصدر امراً بقتله سنة ٢١٢ .

٤ً) ايليوّدور البياني

هو كاتب يوناني اللغة نشأ في عصر اسكندر سيفيروس اشتهر ببيانه الرائع ، وقد الف عدة روايات نالت استحسان اهل هذا الفن في عصره . وما بقي منها دل على عقلية ناضجة وآداب حسنة . وكان يضع في ذيل كل رواية توقيعه بهذه الصورة : « مؤلفها ايليودور الفينيقي الحمصي ابن الشمس » .

٥) اوبيان الافامي

ولد في افاميا من منطقة حمص ونبغ سنة ٢٠٦ م واشتهر بقوة شاعريته ودل على علو كعبه في الشعر قصيدته الشهيرة المدعوة « سيناجتيكة » وهي من القصائد الممتازة بروحها الشعرية ونظمها الدقيق . ترجمت الى لغات اوربا وانتشرت في تلك الاصقاع بحيث لم تخل مكتبة اديب منها . وهي عندهم اشبه بالمعلقات عند العرب .

٦) اولبيان الفقيه - ٢٢٩

هو دوميتيوس اولبيان من مواليد القرن الثاني للميلاد ، ورفيق بابنيان الحمصي في مدرسة الشريعة البيروتية ، فهو ان لم يكن حمصي المولد فهو حمصي النشأة لانه زامل بابنيان في المدرسة وفي مناصب الدولة ايام القياصرة الحمصيين كانت له مكانة حسنة في عهد سيفيروس الاول وكاراكلا ، ولكن ايليوكابال ابعده عن رومة ، وظل منفياً حتى تولى العرش الامبراطوري سيفيروس الثاني سنة ٢٢٢ ، فاستقدمه اليه وادناه منه وولاه زعامة الحرس البريتوري ثم اتخذه مشيراً له .

وكانت نفسه تواقة للصلاح فأحبه اهل رومة وقدروا فضله ومواهبه . غير أن الحرس ثاروا عليه حينما اراد اصلاح ما فيهم من عيوب سنة ٢٢٨ ونصره الاهلون بغية وقايته فوقعت بين الفريقين معركة دامية دامت ثلاثة ايام وفي نهايتها اضرم الجيش النار في بعض البيوت وتهدد الباقين . فخاف الاهلون وتخلوا عن اولبيان ، فلاذ بحمى الامبراطور فتواقح الجند ودخلوا السراي ، فأسرع الامبراطور والقى عليه رداءه ليرتدوا عنه - فلم يمنعهم ذلك من الاقدام على قتله امام مولاه سنة ٢٢٩ .

وللمترجم عدة اسفار شرعية تناهز العشرة يرجع اليها المشرعون الرومان حتى الآن .

الحقبة الثامنة

حمص

في ايام التدامرة

٢٣٦ ــ ٢٧٣ م

توطئة

في هذه الحقبة كان لحمص صلة قريبة جداً بالانباط قاطني تدمر ، ورافعي لواءها عالياً . فوجب ان نلم بتاريخ هذه الامة المامة تجعل تاريخ حمص مفهوماً لمطالعيه بدون حاجة لمراجعة ما كتب عنها والتنقيب عما مرَّ بها .

١ــ الانباط في متون اللغة

جاء في تاج العروس (٥ : ٢٢٦) النَبَط (مثل حَبَش) جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين . ويقال انما سموا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الارض . وفي حديث ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط من اهل كوثى ربي » . قيل ان ابراهيم الخليل ولد بها وكان النبط سكانها . وفي حديث عمرو بن معدي كرب ، سأله عمر عن سعد بن ابي وقاص فقال : اعرابي في حبوته نبطي في جبوته . اراد انه في جباية الخراج وعمارة الاراضي كالنبط حذقاً بها ومهارة فيها . لانهم كانوا سكان العراق وأربابها . وفي حديث الشعبي ان رجلًا قال لآخر يا نبطي . فقال لا حدَّ عليه كلنا نبط . يريد الجوار والدار دون الولادة اه .

٢ — اصل الانباط

وفي قاموس الكتاب (٢ : ١١٤) ان نسل نبايوت بكر اسمعيل (تك ٢٥ : ١٣ و١ اي ١ : ٢٩) يظن انه استوطن بلاد العرب بقرب وادي موسى وانهم النباطيون المذكورون في تواريخ اليونان والرومان . وكانوا رعاة (إش ٦٠ : ٧) وكانت سالع مدينتهم الرئيسة اه .

وقال بورتر (١٩٤) كان لاسمعيل اثنا عشر ولداً صاروا ١٢ قبيلة ونزل اكثرهم في نجد . اما نابت (نبايوت) فسكن الحجاز مع جرهم . وقيل ان نابت هذا استلم سدانة الكعبة من ابيه . ثم عند موته تسلمها جرهم . وكان كبير جرهم مضاض فقبل بنو نابت رئاسته . ولما وقع الخلاف بين جرهم ومديان عضد بنو نابت جرهم حتى طردوا المديانيين من ارض مكة . وبقي بنو جرهم مالكيها قروناً كثيرة . وسكن بنو نابت معهم وكثروا وعظم شأنهم .

وللمؤرخين في منبت اسلة الانباط اقوال متفاوتة . ذكرها زيدان في تاريخ العرب قبل الاسلام . يمكن الجمع بينها وتلخيصها بما يلي : انهم من نسل نبايوط حفيد ابرهيم الخليل من ابنه اسمعيل . لما رحل بهم ابوهم كان حظ ذرية بكره المذكور جبل شمّر في اواسط بلاد العرب . ثم نزحوا بعد مدة لا يعرف مقدارها الى العراق لما فيها من الخصب . فلما داهمهم أشور بانيبال في اواخر القرن السابع ق.م واذلهم في ايام ملكهم ناتان ، صعب عليهم ذلك واخذوا يستعدون للمهاجرة ، ولما غزا نبوخذنصر سوريا الجنوبية رأوا فيها مجالاً لمعاشهم فهجروا العراق وقطنوا في وادي العربة المعروف بالغور . الواقع ما بين البحر الميت وخليج العقبة حيث كان الادوميون .

٣ — تاريخ الانباط

في المقتطف (٣٣ ص ٤٣ و١٣٢ و١٩٣) مقال ممتع للاستاذ جبر ضومط اتى فيه على نشأة الانباط وتقلبهم في التاريخ . وخلاصة ما اورده عنهم :

انهم قدموا الى بلاد الروم على اثر غزوات نبوخذنصر لليهودية . لانه بعدما احتل المواقع التجارية على البحر الاحمر ما بين ايلة والمهجم (مدينة غربي صنعاء اليمن) توارد اليها تجار بلاده الانباط وانتشروا فيها وخالطوا التجار العرب . وصارت « سالع » قاعدة البلاد بابلية ، والسيادة فيها للانباط ، وظل ذلك شأنها في ايام الفرس. وفي ايام اليونان امتد نفوذهم على البلاد المجاورة لما لقاعدتهم سالع من المنعة الطبيعية ، ولما لتجارتهم من الرواج .

وقد ظهرت اهمية النبطيين في القرن الرابع فذكرها ديودور الصقلي بقصة طويلة هذا ملخصها : كان بطليموس الاول ملك مصر قد اجتذب قلوب الانباط اليه بحسن سياسته . لما رأى فيهم من عزة ، ولما توقعه من الاتصال بهم كتجار خبيرين . فلما حمل انطيغون — احد خلفاء الاسكندر — على بطليموس سنة ٣١٢ ولم يكن له بد من المرور بسالع (التي سماها اليونان بطرا) عاصمة الانبـاط حاول محالفتهم على خصمه فأبوا ، لانهم سبقوا فحالفوا بطليموس . فنقم عليهم واراد اذلالهم . ولكنه شعر بصعوبة نيل بغيته . لبطولة الانباط ولوجودهم في قفر قاحل . فانتظر فرصة خروج رجالهم من المدينة للغزو او لملاقاة القوافل التجارية . فدخل المدينة ونهبها وقفل غانماً . فلما اتصل الخبر بالمقاتلين من الانباط كمنوا له على الطريق الذي عاد منه . ففتكوا برجاله كلهم وبالكد استطاع هو النجاة بنفسه. وحاول الاثار لنفسه منهم فجهز حملة ثانية قادها ابنه ديمتريوس. ورأى الانباط كثرة القادمين فأخذوا لانفسهم الحيطة لاتقاء الخطر الذي تعرضوا له فأحكموا سدّ صهاريجهم المنقورة في الصخر المخزون فيها ماء الشتاء ، واعتصموا بعضهم في الجبـال المجاورة وبعضهم في المدينة . وشدد ديمتريوس الحصار . ولما طال المطال اطل عليه احدهم من السور وخاطبه بما ملخصه :

« ايها الملك : اننا انا رضينا الاقامة في بادية لا مطمع لأهل المدن فيها لخلوها من مرافق الحيـاة ، فراراً من العبودية . فلماذا تحاربوننا ؟ وأية نتيجة ترجون من قتالنا ؟

« اننا نستطيع ان نقدم لك ما تصل اليه ايدينا مقابل جهادك ، على ان تدعنا وشأننا . امـا اذا ابيت إلا إطالة الحصار فكن على ثقة من انك لا تجني من تعبك سوى الفشل . لانك لا تجد الينا سبيلاً ما دمنا ممتنعين في هذا

الحصن المنيع . واذا قدر لكم الفوز فانا تفوزون بجثث أموات وصخور صماء لا تستطيعون مساكنتها اه » .

فتأثر ديمتريوس من كلام الرجل وارتد عن المدينة فعاد القوم لما كانوا عليه . وقد ذكر الانباط بعدئذ في سفر المكابيين الاول (٥: ٢٤ و٢٥ و٩: ٣٣-٣٥) كأمة قوية يعتمد عليها .

ويفهم من يوسيفوس انهم كانوا مستقلين عن العرب الى ايام اسكندر يانيوس (١٥٠-٧٨ قم) . ويفهم من مؤرخي اليونان ان الانباط انشأوا دولة منظمة لها ملوك ووزراء . دعي معظم ملوكهم باسم الحارث (اريتاس) وعبادة (اوباداس) ومالك (ماليكوس) . وشملت مملكة الانباط في اتساعها معظم شمالي جزيرة العرب ويدخل فيها موآب والبلقاء وحوران وسينا ومديان واعالي الحجاز . ومن مدنهم الشهيرة بطرا وبصرى واذرع وعمان وجرش والكرك والشوبك وايلة والحجر (مدائن صالح) .

وفي ما يلي ما عرف عن مشاهير ملوكهم :

١) **الحارث الاول ١٦٩-١٤٦** قم - عاصر انطيوخوس ابيفانيس السلوقي وبطليموس فيلوباتر . ويظن ان الانباط ساعدوا الاول ففاز على المصريين

٢) **زيدايل ١٤٦-١١٠** - عاصر اسكندر ملك سوريا وبطليموس السابع وذكر في سفر المكابيين .

٣) **الحارث الثاني ١١٠-٩٦** - عاصر بطليموس الثامن واسكندر يانيوس ولقب ابروتيموس (المكرم الشريف) .

٤) **عبادة الاول ٩٠-٨٧** - لم يجر في ايامه ما يستحق الذكر .

٥) **ربيال الاول ٨٧** - وكذلك ابنه ربيال .

ولذلك حسب بعضهم ان المدة من وفاة الحارث الثاني الى ايام الحارث الثالث هي جزء من مدة حكم هذا الاخير .

٦) **الحارث الثالث ٨٧-٨٢** - من اهم ملوك الانباط . له شأن

عظيم في التاريخ . اذ تغلب على سوريا المجوفة ، وملك دمشق سنة ٨٥ قم برضى اهلها لكرههم بطليموس . ولقبه السلوقيون فيلهلين (محب اليونان) ووجدت له مسكوكات يونانية في هذه المدينة . وتدخل في المنازعات التي وقعت بين الاميرين المكابيين هركان وارستوبولس . فأيد هركان وحاصر اورشليم ، ولكن رده عنها الرومان سنة ٦٥ ، ولكنه بعد ثلاث سنوات جدد الثورة فانتصر عليه سكاوروس سنة ٦٢ .

٧) عبادة الثاني ٦٢—٤٧ — كان رجلاً سلمياً فلم يحدث في ايامه ما ينقله المؤرخون عنه .

٨) مالك الاول ٤٧—٣٠ — عاصر هيرودس الكبير وجرت بينهما حروب طويلة كانت سجالاً بين الفريقين . وكان له تدخل في المنازعات الرومانية فتحزب لبومبي اولاً ثم لقيصر ثم لمرقس واوكتاف ، وفي الخط الرابع من الخطوط النبطية ، ذكر اقامة مذبح في السنة الـ ١١ لمليكوس (مالك المذكور) .

٩) عبادة الثالث ٣٠—٩ — في ايامه حدثت حملة غالوس القائد الروماني على بلاد العرب سنة ١٨ قم ، وقد استمد معونة الانباط فيها كما روى سترابون ، ومما عرف ان هذا الملك وثق بوزيره سيلوس ، وكانت ثقته في غير محلها ، اذ اوقع هذا العداوة بين مولاه وهيرودس . ثم قصد رومة يبغي من اوغسطس تصيبه ملكاً على بطرا ، فلم ينجح لمعارضة نقولا الدمشقي سفير اليهود اياه .

١٠) الحارث الرابع ٩ قم—٤٠م — وهذا ايضاً من مشاهير ملوك الانباط . وهو حمو هيرودوس انتيباس قاتل المعمدان (مب ١٤: ٣) وقد شهر الحارث الحرب على انتيباس هذا لزواجه بهيروديا على ابنته . وقد فاز الحارث عليه فاستغاث هيردوس بالقيصر طيباريوس ، فأمده بفيتلوس احد قواده ، ولكن هذا تباطأ ، فلما توفي طيباريوس سنة ٣٧ صرف الجند وعاد الى انطاكية ، لان كاليغولا كان راضياً عن الحارث ، وظلت دمشق تحت سلطة الحارث وبوجود نائبه فيها فرّ بولس الرسول متدلياً بزنبيل من على السور (اع ٩: ٢٤ و٢٥ و٢ كو ١١: ٣٢) .

١١) مالك الثاني ٤٠—٧٥ — خلف اباه الحارث وكانت مدة ملكه ٣٥ سنة شاركته فيها امرأته شقيلة، وقد وجدت نقود عليها اسم هذه الملكة. كما وجدت آثار في السنة السابعة عشرة لملكه.

وقد عرف عنه انه انجد جيشي فاسباسيان على اليهود سنة ٦٧ .

١٢) ربال الثاني ٧٥—١٠١ — يظهر انه لما ملك كان حدث السن فاقيمت عليه وصية والدته شقيلة، ولما استرشد اشرك معه بالحكم زوجته جميلة. وقد توفق الى اتقاء الاخطار الموجهة لدولته فلقبه قومه سوتر (المنقذ).

١٣) مالك الثالث ١٠١—١٠٥ م— هو آخر ملوك الانباط وقد ذل امام كرنيليوس بلما الذي اخضع العربية الصخرية للامبراطور ترايان سنة ١٠٥ .

٤ — البتراء

هي مدينة تاريخية اثرية تقع ما بين بحر الميت وخليج العقبة . كانت عاصمة الادوميين ومن اشهر مدن العالم القديم . ولم يبق منها الآن سوى خرائب اثرية تعرف باسم وادي موسى .

كان اسمها القديم «سالع» وهو لفظ عبراني معناه صخر ولذلك دعاها اليونان «بطرا» وهو اللفظ اليوناني الذي نترجم به كلمة سالع العبرانية . ومعنى الاثنين صخر او صخرة . وقد وصل اللفظ اليوناني للعرب فمدوا الالف ظناً منهم ان اللفظ عربي الاصل ووضعوا له أل التعريف فصار البتراء .

كانت هذه المدينة لاول عهدها بالوجود مسكناً للحوريين والامارة فيهم لآل سعير، الذين سمي الجبل كله باسم اميرهم (سعير) ومن هؤلاء اتخذ عيسو (أدوم) بن اسحق زوجة اسمها اهوليبامة . وخالط آل عيسو (أدوم) آل سعير فغلبوا عليهم . وتنوسي ذكر الحوريين، فعرفت البلاد باسم الادوميين: واستمر هؤلاء في هذه المنطقة لا ينازعهم فيها منازع مدة ليست بقصيرة .

ثم حدثت بينهم وبين شاول ملك العبرانيين مناوشات سنة ١٠٨٧ ق‌م (١ صم ١٤: ٤٧) وانتهت بدون ان يكون لها كبير امر .

ولما كانت ايام داود عادت المنازعة بين العبرانيين والادوميين ففاز داود عليهم سنة ١٠٤٠ (٢ صم ٨ : ١٣ و ١ اي ١٨ : ١٣) بعد جهاد عظيم اشار اليه النبي في زبوره (١٠٨ : ١٠—١٣) .

ثم عصى الادوميون في ايام سليمان باغراء هود سنة ٩٨٤ (١ مل ١١ : ١٤) فقهرهم سليمان واستعبدهم وظلوا مستعبدين لاسرائيل نحو قرن من الزمان .

وفي ايام يورام عادوا الى الثورة فاستطاعوا ان ينالوا استقلالهم بعد حرب شديدة سنة ٨٩٣ قم (٢ مل ٨ : ٢٠—٢٣) .

فلما كانت سنة ٨٣٩ هاجمهم أمصيا وفتح مدينتهم الحصينة ، وسماها يقتئيل اي الخاضعة لله (٢ مل ١٤ : ٧) ثم عـادوا فتمردوا عليه فنقم عليهم ورمى من رؤوس شواهقهم عشرة آلاف اسير سنة ٨٢٧ (٢ اي ٢٥ : ١٢) .

وفي ايام اشعيا (٧٦٠—٧٠٠) صارت الى موآب فنصحها اشعيا (١٦ : ١ و ٤٢ : ١١) ان تؤدي الجزية من الغنم الى صهيون فيكون لها فرح وابتهاج .

وظلت بعد ذلك المناوشات بينهم وبين اليهود قائمـة بفوز هؤلاء تارة واولئك اخرى ، حتى جاء نبوخذنصر وقضى على اليهود في القرن السادس قم . فشمت الادوميون بهم . وخيل اليهم انهم يستطيعون بعد هذه النكبة التي آلمت باليهود ان يضموا اليهودية اليهم (ار ٤٩ : ١٦ وحز ٣٥ : ٣) ولكن جنود الكلدانيين التي سبق لها الزحف على البلاد العربية وتدويخ نجد والحجاز غطت خيولها على بلاد ادوم واستولت عليها ، فأصابهم ما اصاب ابناء عمهم اسرائيل . وفر اهل القرى والمزارع الى الجهات المجاورة . وبقي من بقي في المدينة تحت الحصار . واخيراً اضطر هؤلاء ايضاً ان يستسلموا فقتل من قتل منهم وعاش من استسلم . واستولى على المدينة نسل نبايوط وصارت محطة لقوافلها التجـارية (م ٣٣ : ١٣٩) .

كان حظ البتراء في ايام النباطيين حسناً جداً . اذ صارت المدينة مركزاً مهماً للتجارة ، وظلت كذلك الى ايام اليونان ، فحاول انطيغون فتحها سنة ٣٠٢ ففشل .

غير ان البطالسة الذين وجهوا عنايتهم الى البلاد المصرية واهتموا بتحسين موانئهم على البحر الاحمر ، حولوا خطة التجارة الى بلادهم ، فضعف شأن البتراء وقل غناها .

وفي القرن الثاني ق‌م كاثر العرب النبط اذ خالطوهم واصبحوا ذوى السيادة دونهم ، وصاروا ملوكاً عرفوا بملوك النبطيين (م ٣٣:١٩٨) فكان للبتراء في ايامهم عزة ومنعة ظلت الى اوائل القرن الثاني الميلادي حين ضمها ترايان الى الدولة الرومانية سنة ١٠٦ .

وذكرها سترابو وبليني ويوسيفوس وجيروم ذكراً حسناً . ولما انتشرت النصرانية في ما بين فلسطين ومصر صارت مركزاً دينياً ذكرت اساقفته حتى سنة ٥٣٦ م . وبعد ذلك لم يعد يجر لها ذكر مدة ثلاثة عشر قرناً ، حتى اخذ يزورها المستشرقون الاثريون ، نظير سيتزن سنة ١٨٠٧ ، وبركهارت سنة ١٨١٢ ، ومنجلس سنة ١٨١٨ ، وغيرهم سنة ١٨٦٤ الذي وصفوها واخذوا عنها رسوماً ذات قيمة عند الاثريين .

يدخل الى خرائب هذه المدينة الاثرية من جهة الشرق بمضيق طوله نحو ميل ونصف يدعى السيق ، على جانبيه آثار كثيرة منقورة في الصخر تعتبر من اغرب ما صنعته يد انسان ، من اهمها هيكل يسمونه خزنة فرعون ، ومسرح عظيم منحوت في الصخر فيه ٣٣ صفاً من المقاعد تسع نحو اربعة آلاف متفرج . وثمة غرائب اخرى منها الصرح المدعو قصر فرعون ، وقوس النصر ، وعدة هياكل وقبور بعضها ذات شأن .

دولة التدامرة

مرّ بنا ان الانباط الذين استوطنوا جنوبي فلسطين في القرن السادس ، قبضوا بايديهم النشيطة على زمام التجارة فيها . وتولوا نقل البضائع الشرقية الى مصر وسواها . اذ كانوا يحملون المر وسواه من العطورات ، وقار التحنيط الى مصر وشواطىء المتوسط . واضطروا كتجار يحبون الحياة الوادعة ، ان يصانعوا البطالسة والسلوقيين . فلما ضعف هؤلاء ألفوا دولة مستقلة استمرت نحو ثلاثة قرون ، غير ان هذه الدولة بدأت تضعف بعد فتح الرومان سوريا ، ثم سقطت في اوائل القرن الثاني واصبحت ولاية واحدة عرفت باسم « العربية الصخرية » وجعلت بصرى قاعدتها .

على ان العرب الانباط لم يخسروا نفوذهم بسقوط دولتهم الجنوبية . لان الرومان اتخذوهم حماة لحدود سوريا الجنوبية . ومنحوا امراءهم الرتب العالية ، حتى ان احدهم صار فيما بعد امبراطوراً باسم فيليب العربي سنة ٢٤٤ .

وقد استفاد من هذه المحنة اهالي تدمر . الذين سبق لهم استيطان هذه البقعة ، من العهد الذي قدم فيه الانباط الى جنوبي سوريا . حين تخطى بعض القادمين آنئذٍ سوريا الجنوبية الى الشمال الشرقي من الشام . واحتلوا المنطقة المعروفة الآن ببلاد تدمر . واخذوا يتعاطون التجارة بنقل بضائع الشرق الى الغرب ، والشمال الى الجنوب وبالعكس . فدرّ ذلك عليهم ارباحاً وافرة ، جعلت قاعدتهم تدمر من ابهى وازهى المدن السورية .

ويقدر الاثريون ان القوافل كانت تمر بتدمر منذ القرن السادس ق م تحمل من اليمن او الحبشة الجزع والصبر والند الى العراق . وتحمل من العراق لآلىء البحرين ، ومن الهند الحرير الصيني ، والعاج الى الشام ومصر واوربا . وكانت التجارة البرية تسير اولاً بطريق بطرا ، فلما سقطت تحولت الى تدمر فزهت واعتزت . ويخيل للواقف على اطلال تدمر الآن ان الناس كانوا يروحون ويجيئون في شوارعها الكثيرة الاعمدة والاروقة وبين ايديهم السلع المجلوبة من اصقاع شتى . وقد علا صياح الباعة للمزايدة والمساومة . والناس يتزاحمون بالمناكب لابتياع ما يهمهم (زيدان ص ٨٤ و٩٢) .

وبين الباحثين خلاف في اصل انباط البتراء وتدمر اهم عرب ام آراميون ؟ فقال بعضهم انهم عرب وأخذ برأيهم المرحوم جرجي زيدان صاحب الهلال . وذهب آخرون الى انهم آراميون وقال بقولهم المرحوم جبر ضومط استاذ العربية في الجامعة الاميركية . واقوى حجج هؤلاء الاستدلال من آثارهم المكتوبة بالآرامية انهم آراميون ، ولكن الاولين دفعوها بان الانباط كانوا يتكلمون العربية ، وانما كتبت آثارهم بالآرامية لانها كانت في ايامهم اللغة الرسمية للمفاوضات السياسية والتجارية . وقد تفرع من هذه اللغة القلمان النبطي والتدمري . ومن حجج القائلين بعروبيتهم : ١) ان مؤرخي اليونان وهم اعرف الناس بهم . وقد عاصروهم دعوهم عرباً . و٢) ان اسماء ملوكهم كالحارث وعبادة ومالك في بطرا ، واذينة وحيران وزينب في تـدمر عربية وتدل على انهم عرب ،

اذ للاعلام دخل كبير في بيان اصول الامم .

وثمة دليل آخر مأخوذ من اصل الاسرة المالكة في تدمر التي جدها الاعلى السميدع الذي روى عنه المسعودي وابن خلدون ما ملخصه :

ان اول الحروب التي تعالى أوارها بين السميدع ويوشع بن نون كان في بلاد ايلة التي ذكرها عوف بن سعيد الجرهمي من قصيدة جاء فيها :

الم تر ان العلقمي بن هوبر	بأيلة أمس لحمه قد تمزعا
تداعت اليه من يهود جحافل	ثلاثون الفاً حاسرين ودرعا
فامست عداداً للعاليق بعده	على الارض مشياً مصعدين وفزعا
كأن لم يكونوا بين أجيال مكة	ولم ير راء قبل ذاك السميدعا

ولما ملك يوشع اريحا قاعدة الشام اذ ذاك وتم له الامر ، اوفد قوماً من رجاله الى الحجاز فملكوه وانتزعوا من قبضة ملوكه (العمالقة) يثرب وبلادها. ثم ملكوا اذينة بن السميدع على مشارف الشام والجزيرة من تنورهم .

وذكر ابن سعيد في ما نقله عن الكتب التاريخية التي اطلع عليها في خزانة بغداد ، ان مواطن العمالقة كانت تهامة ارض الحجاز ، نزلوها يوم خروجهم من العراق امام النماردة من بني حام . واستمروا الى ان جاء اسمعيل وآمن به من آمن منهم . وتفرد لهم الملك الى ان كان منهم السميذع بن لاوذ بن عمليق الذي خرجت في عهده العمالقة من الحرم . اخرجتهم جُرهم (من قبائل قحطان) فتفرقوا ونزلوا بطان المدينة منهم بنو عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق . ونزل ارض أيله بنو هوبر بن عمليق وكان السميذع سمة لمن ملك منهم الى ان كان آخرهم السميذع الذي قتله يوشع بن نون (البستاني١٠ : ٩٠).

تدمر

اما تدمر قاعدة انباط التدامرة فهي مدينة قديمة العهد جداً ورد ذكرها في التوراة (١ مل ٩ : ١٨ و ٢ اي ٨ : ٤) وذكر ثمة ان بانيها سليمان بن داود . ولعل المراد بما ذكر انه حسنها وزاد في ابنيتها . ويوجد بين الباحثين نظر فيما

اذا كانت تدمر سليمان هي نفس تدمر زينب . على أن الادلة توفرت على ان تدمر المذكورة في التوراة ، هي نفس تدمر القديمة التي ذكرتها التواريخ العربية .

وزعم التدامرة القدماء انها اقدم عهداً من سليمان . بل ذهبوا الى ان ما بين انشائها وسليمان ، ما يوازي ما بين سليمان وعهدها الحديث . وكيفما كان الحال فالاعتراف بتقادم عهدها امر لا يُناظر فيه . وقد دعيت في القرن الثالث قبل المسيح بلميراس وهذا الاسم الحديث ومعناه « مدينة النخل » له نفس المعنى الذي للفظة تدمر القديمة . وقد ذكرها بهذا الاسم بليني في تاريخه الطبيعي ، وأبيان في تاريخه العام .

وبداعي المنافسة القائمة بين دولتي الفرس والروم في تلك الايام ، نال زعماء تدمر التفات ملوك الدولتين معاً . اذ كانت كل منهما تبغي اتخـاذ تدمر عوناً لها على منافستها . فأصبحت تدمر سيدة الشرق ونال اذينة الاول رتبة المشيخة الرومانية .

وفي ايام غاليان نال اذينة الثاني زوج زينب (زينوبيا) لقب ملك الملوك مكافأة له على استرداده البلاد التي سبق لسابور فتحها) بعدما حاصر المدائن مرتين . وسمي سنة ٢٦٤ الحاكم العام لسوريا وما اليها .

مات اذينة سنة ٢٦٦ فخلفته زوجته زينب وكانت لها الشهرة العظيمة في التاريخ . غير ان الحظ خانها بعدما القت الرعب في قلوب الرومان . فسقطت اسيرة سنة ٢٧٣ بيد القيصر اورليان . وبعد أسر زينب ثار الشعب على الحرس الرومـاني الذي ابقاه القيصر في المدينة وذبحوه برمته . فأمر القيصر بقتل كل حامل سلاح فيها مع عدد غير قليل من الفلاحين والشيوخ والنساء والاولاد . فأثرت هذه الضربة القاضية في تدمر تأثيراً عظيماً . وارجعتها الى خلف مسافة طويلة . حتى خُيل لبعضهم انها لا تقوم لها قائمة بعد ذلك .

ولكن التنقيب في الآثار والبحث في ما بقي من الاسفار ، دل على انها احتفظت بشيء من اهميتها مدة وجود الدولة الرومانية . ويظهر من تواريخ العرب ان تدمر احتفظت بحصانتها بعدما فتحها خالد بن الوليد الى اواخر القرن السادس للهجرة . فقد بقي فيها من السكان عدد لا يستهان به في القرن السابع الهجري . وبعد هذا التاريخ قل ذكر تدمر ، مما يدل على تضاءل اهميتها . وظلت كذلك

الى القرن التابع عشر من الميـــلاد حيث اخذ الاثريون يرتادونها حتى الآن للاطلاع على آثارها التاريخية العظيمة ·

وموقع تدمر الى الشمال الشرقي من دمشق · والى الجنوب من الفرات في طرف بادية الشام الشمالي · وكل ما الى جنوبها قفر لا ماء فيه ولا نبات · وموقعها هذا افادها جداً اذ جعلها محطة القوافل السائرة من العراق الى الشام وبالعكس ، اذ يضطر المسافرون ان يتحولوا عن البادية ، التي لو سهل اجتيازها لكانت مسافة السفر قصيرة · ولكنهم تفادياً من معاناة السير الشاق فيها ، كانوا يتجهون الى الشمال الغربي على حدود الفرات · ثم يؤمون تدمر فيستريحون فيها · ثم ينعطفون جنوباً الى دمشق · وبهذا اصبحت تدمر على جانب عظيم من الاهمية ·

ويظهر ان هذه القوافل الحاملة حاصلات اليمن والحبشة الى العراق كانت تمر بتدمر في القرن السادس قبل الميلاد ، اذ لا بد لها من ارتيادها والاستراحة فيها · وزادت اهمية تدمر لما سقطت بـــترا في اوائل القرن الثاني الميلادي · وكانت هذه تشاطر تدمر الموقف التجاري فلما سقطت انفردت تدمر بارتيـــاد القوافل اياها ، واتسع نطاق تجـــارتها حتى بلغت قمة مجدها في القرن الثالث · ونيلها هذه الاهمية في التاريخ وجه اليها انظار الدولة الرومانية ، فحاول اقطاب الرومـــان بسط سيطرتهم عليها · ولكنهم لم يفلحوا وباءت مساعيهم بالخيبة فاكتفوا بما تسنى لهم من التدخل القليل في شؤونها ·

غير ان ادريانوس تمكن من وضعها تحت حمايته سنة ١٣٠ وشخص بذاته اليها فحسنها وسماها باسمه ادريانوبوليس وقد عثروا على نقش في احد حجارتها الاثرية يوازي تاريخه سنة ١٣٧ · وفي ايام سبتيموس سيفيروس صارت مستعمرة رومانية ، ولكنه عهد برئاسة الحكومة فيها الى زعيم من اهلها يدعي شراجي (سورايكو) ·

الحوادث الخصيبة في هذه الحقبة

توطئة

قبل ان نأتي على مـا اتصل بنا من الحوادث التي حدثت في منطقة حمص في هذه الحقبة ، نجد من المناسب ان نوطىء لها بذكر ما قاله العلامة براستد (عد ٩٦٨) وهو رسم مجمل للحالة التي تمر بها هذه الحقبة قال :

« لما انقرضت سلالة سيفيروس سنة ٢٣٥ حدث الانفجار العظيم. اذ قام الجنود الـبرابرة في الاقاليم او الولايات . ونصّبوا في كل اقليم شخصاً سموه امبراطوراً فجعلوا لهؤلاء الامـبراطرة الصغار ، مندوحة للاقتتال والتطاحن في سبيل الارتقاء الى عرش عـالم البحر المتوسط . وكانوا كلما نادوا بامبراطور ، لا يلبثون يسمعون بنبأ اغتياله . وتكرر هذا الاغتيال مرة بعد مرة ، حتى بلغ عدد الامبراطرة الذين اغتيلوا في تسعين سنة ، ثمانين امبراطوراً جميعهم من قادة جند البرابرة ...

« وبان في الشرق خطر جديد بانتعاش الحمية الوطنية في صدور ابناء مملكة فارس القديمة ، وعودة الحياة القومية اليهم . فهب زعماؤهم من العائلة الساسانية وقلبوا عرش فرتيًا سنة ٢٢٦ وانشأوا في بلاد فارس اسرة ملكية جديدة متهذبة . ولما استتب لهم الاستيلاء على الهلال الخصب ، واتخاذ « قطيسفون » عاصمة لهم على دجلة الى الشمال من بابل ، قام شرق جديد على انقاض الاعصر الخالية التي كان الدهر قد ضرب عليها حجاب النسيان ، ... وبذلك عـاد التنافس بين الشرق والغرب كما كان قديماً بين اليونان والفرس . وكانت رومة زعيمة الغرب ، وفارس الجديدة زعيمة الشرق .

« وفي الوقت الذي كانت فيه اسـرة سيفيروس آخذة في الانحطاط ، كانت مملكة الفرس الجديدة ترقى الى ذروة العزة والمنعة ، حتى صارت عدواً يرهب جانبه ، على الحد الشرقي للامبراطورية الرومانية . التي اصبحت مهددة من الشمال ومن الشرق . ولكن قيام مغتصب ضمن حدود المملكة ... كان

وسيلة لانقاذ رومة من عدو خارجي . فقيام احد الولاة الشرقيين الذي استقل واتخذ تدمر مركزاً لملكه كان منجاة لرومة ، لان استقلاله حداه على الدفاع عن تخم الامبراطورية الشرقي على حسابه الخاص اه » .

١ — صلة حمص بتدمر

الذي يدرس آثار تدمر المحفوظة فيها حتى الآن ، ويطالع نتيجة ابحاث الاثريين مما نقل من هذه الآثار الى المتاحف الاوربية ، يعلم ان آل السميدع قديمو العهد في تدمر. وان الجد الاول لآل آذينة المتفرعين من اسرة السميدع قد نشأ في القرن الثاني وعرف باسم نصور ثم تلاه وهبلات لخيران الذي اعان سبتيميوس سيفيروس في حربه مع البرثيين بارشاده اياه الى المواضع التي تهمه معرفتها وبتقديمه المؤن لجنوده . مما جعل سيفيروس الاول يرخص له باضافة لفظ سبتيميوس الى اسمه ، كما رخص اوغسطس لهيردوس الكبير ان يصدر اسمه بلفظ يوليوس ، وتلا سبتيميوس حيران هذا افراد هذه الاسرة الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ هذه الحقبة .

روى دي فوكيه في خطوطه السامية ، ان تدمر كانت تجمع في محافلها — عدا سكانها الاصليين — اناساً من قبائل متعددة . منهم البرثيون والارمن واليونان واليهود والعرب الذين هاجروا من اليمن الى سوريا فقطن بعضهم العربية الصخرية وحوران وظعن بعضهم الى دمشق وبعلبك فتدمر .

ووجد في حوران اثر وهو الخط اا ٢٣٠٨ هذا نصه : « أثر لكمرة اقامه لها اذينة بعلها » ويرى الاثريون انه اقيم فى ايام هيردوس الكبير . او في ايام اغريبا ، قال دي برسفال انه رئيس بني السميدع الذي كان ذا دولة صغيرة على تخوم سوريا والبرية في النصف الثاني من القرن الثاني ، غير ان ودينكتون يرى ان هذا الرئيس كان في القرن الاول بدليل وجود خط آخر في السويدا كتب باليونانية في ايام كومود في القرن الثاني يستنتج منه وجود بطن او أسرة تدعى بني السميدع سابقة لذلك الخط وان السويدا كانت موطناً لهذه الاسرة كما يؤيد ذلك خط آخر رقمه ٢٤٩٥ (الدبس ٣ ص ٥٩٦) .

لذلك كانت الصلات قوية بين قاطني حمص وتدمر ، لا بين السكان الاصليين فحسب ، بل بين الذين هاجروا واستوطنوا هذه البقعة ، وقضت المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة بين البلدين بعطف احدهما على الآخر بكل مناسبة . ومن آثار هذه الرابطة الوثيقة وجود تمثال جمبليك — احد امراء حمص من الاسرة الوطنية التي ملكت فيها في الحقبة الماضية — بين آثار تدمر الباقية حتى الآن .

وقد ظهر هذا العطف على أتمه في ايام القياصرة الحمصيين الذين وجدت هذه الصلة سبيلاً الى نفوسهم فشملوا تدمر بالتفات خاص يكاد يضاهي التفاتهم الى حمص منبت هذه الأسلة . وقد برز هـذا العطف بصورة جلية في ايام سبتيميوس سيفيروس . الذي ابدى من ضروب العناية بحمص وما اليها ما حفظته له الآثار الخالدة ووعته بطون الطروس . فانه لم يكتف بتسويد الأمن في هذه المنطقة . بل محا كل اثر للفتن وقطع دابر اللصوصية لتأمين السابلة وترويج التجارة ، وحسبك شاهداً على ذلك الاثنان والاربعون حصناً التي انشئت مابين دمشق وتدمر . اذ عبأها بالرجال وكفاهم مؤونة الزاد والاعتدة لتأمين المسافرين ودفع الغوائل عنهم ، فاعترف له بهذه المنة التدامرة القدماء . ونقشوا اسمه على آثارهم . وشرّف كثيرون من قادتهم ورؤساء العشائر فيهم بتصدير اسمائهم باسمه تقديراً لفضله .

وقد تابع خلفاؤه سيرته هذه ولاسيما اسكندر سيفيروس الذي نظر الى تدمر بنفس العين التي نظر بها الى حمص منبت ارومة القياصرة الحمصيين .

٢ — اغتيال سيفيروس الثاني وثورة التدامرة

مرّ في ما مضى شيء عن حزم سيفيروس ونرى ان نذكر في صدر هذ الفصل ، ما ابداه من الحزم مع الجند . مما كان سبباً لاغتياله كما يرى المحققون من المؤرخين . فان سيفيروس جهز حملة لصد اردشير الفارسي رأس الدولة الساسانية عما طمح ببصره اليه ، من البلدان الشرقية التي بسطت عليها السيطرة الرومانية فجهز حملة سنة ٢٣١ وسار بها نحو البلاد الفارسية واتخذ انطاكية معسكراً لقواته المجهزة . وكان في ضواحي انطاكية الغربية مواقع جميلة جداً ونزهـة ،

وفيها الغيضة الملتفة الاشجار حيث شلالات دفنة الجميلة. فاتخذ الجند تلك الغيضة مباءة للفساد . ودرى سيفيروس بالامر فحظر على الجند دخول تلك الغيضة ، فثار العسكر وضجوا فأشرف عليهم اسكندر ، وقال لهم بجزم : « انا يرعب صراخكم اعداءكم لا ملككم . فاغمدوا سيوفكم وعودوا الى اماكنكم ، فان صخبكم هذا لا يفيدكم شيئاً » ، فكانت كلماته الحازمة هذه رقية سحر بها الجند وعادوا الى اماكنهم هادئين .

على انهم بعد مدة عاد اليهم الفكر غير المرتب وحجته نقمتهم على من وقف حائلًا دون تطوحهم في اهوائهم ، فلما انتهت المعارك مع الفرس بعد سنتين اخذ بعض الضباط الناقين يشيعون بين الناس ان القتال انتهى على غير نتيجة فاصلة ، بينما دلت خطبة سيفيروس التي القاها في الندوة في ٢٥ ايلول سنة ٢٣٣ على فوزه على ١٢٠ الف فارس بقتل عشرة آلاف منهم وأسر كثيرين وقتله ٢٠٠ فيل واكتسابه ٣٠٠ فيل احضر منهم الى رومة ١٨ فيلًا . على ان اشاعة السوء غلبت لاستعداد العامة لقبولها اكثر من الحسنى وان حقت ، فانتشر بين الناس امر عدم مقدرته على ادارة الشؤون العسكرية ، وقام بنشر هذه الاذاعة مكسيمنوس التراكي الذي احسن سيفيروس الاول اليه واتخذه حاجباً . ثم رقاه اسكندر سيفيروس وجعله قائداً عاماً لما رآه فيه من البطولة ، فطمع بالعرش ومالأه الجيش على ما فكر به ، فكان اسبقهم الى قتل ولي نعمته سنة ٢٣٥ وتسنم العرش موضعه .

ولما درى بالامر الحمصيون ثار ثائرهم واشترك بالعاطفة معهم التدامرة الذين سبقت لهم الحسنى من القياصرة الحمصيين ووقفوا تجاه الدولة الرومانية موقفاً سلبياً استمر عدة سنوات يهدأ تارة ويشتد أخرى . وشغل القياصرة عما هو حادث في سوريا بالاضطرابات التي سادت العاصمة ، اذ تسنم العرش في مدة ثاني سنوات خمسة اباطرة قتلوا كلهم وهم غورديان الاول والثاني وبيبيان وفيليبس العربي الحوراني الاصل سنة ٢٤٤ ؛ فوقفت الثورة السورية عند ذاك وهدأت الخواطر لتسنم السدة احد مواطنيهم .

٣ـ ثورة غوتابيان

وحالما تسنم السدة فيلبس العربي اهتم بتنظيم شؤون الدولة التي عمت الاضطرابات فيها لعدم رضى الاهلين عن القياصرة . الذين كانت سيرتهم مشوبة بالآثام والمعاصي . ولم يزعهم وازع خاص او عام . فبادر فيلبس الى تلافي هذا الخلل . ووجه عنايته بنوع اخص الى سوريا فأوفد اليها اخاه بريسكوس وعينه قائداً للجيش فيها . فهدأت الخواطر وحسنت الحال. ولكن لم يمض وقت طويل على ذلك حتى حدث ما ذرّت منه قرون الثوره فيها وسببه . ان داكيوس خان مولاه الامبراطور فيليبس واغتاله سنة ٢٥١ فثارت فتنة في المشرق حمل لواءهـا بطل اسمه غوتابيان ارتأى بتلمونت انه من سلالة غوتاب سليلة الملوك القدماء في حمص ولكن هذه الفتنة تقلص ظلها لما فتك غالوس بداكيوس .

٤ـ اذينة الاول

مرّ بنا ان آل السميدع الاسـرة ذات الشأن ، كان لها نفوذ عظيم في الشرق . وقد حفظت لها الآثار خطوطاً كثيرة دلت على قدم عهدها في هذه البلاد ، ومن الانصاب التي ذكروا فيها ما اقيم في عهـد هيرودوس الكبير ، ومنها ما اقيم في شطر القرن الثاني الاخير . وقد حكموا زمناً طويلاً تخوم الاملاك الرومانية . ففي هذه الحقبة عرف احد افراد هذه الاسرة المتازين بكفاءتهم باسم اذينة ابن حيران بن وهبلات بن نصر بن السميدع ، وقد دعي في احد الخطوط الاثرية « رجل الندوة » (خط ٢١) مما دل على اهميته عند قومه . هذا راعى جانب القياصرة الحمصيين ايام سؤددهم وجعل كلمتهم مسموعة مطاعة في الشرق كما ساعد ابوه حيران سبتيميوس سيفيروس . ولكن لما دالت دولتهم بقتل سيفيروس الثاني سنة ٢٣٥ اولى رومة قفاه ، اذ لم يبق ثمة ما يوجب عليه مراعاة جانب الحكومة . ولما تمادى به الامر ولم يجد ما يميل به الى جانب السلطة ، لكثرة مساوىء القائمين بامرهـا ، قلب لهم ظهر المجن

والف عصابة يبغي بها خلع نير الروم . ولكن قبل إحكام عمله انفضح سره فأرسلت الحكومة قوة لمطاردته فأمسك وقتل وتفرق رجاله في كل سبسب وكان ذلك في اواخر سنة ٢٥٠ .

٥ً — حيران ابن اذينة

كان لاذينة المذكور ولدان اكبرهما اسمه حيران واصغرهما اذينة . وكان اكبر الاخوين داهية يحفظ من حوادث التاريخ في حقيبته الشيء الكثير . ولم ينسَ ان جده شرانجي (سورايكو) قد قبض على زمام الاحكام في ايام سبتيميوس سيفيروس فأحسن ضبطها ، وكان له كرامة خاصة في ايام القيصر المذكور الذي جعل تدمر مستعمرة رومانية وحباها بعطف خاص لانها ضمن نطاق المنطقة الحمصية . التي كانت سيدة منزله ومديرة معه شؤون الدولة ابنة كاهنها . فطمحت نفس حيران الى تسنم هذا المركز بعد قتل ابيه ، ولم يرَ في اتباع سياسة ابيه ما يكفل له الحياة ، بل بالعكس يعرضه لنفس النتيجة التي وصل اليها ابوه ، فسالم الروم وتقرب اليهم . وكانت مصلحة هؤلاء تقتضي وجود من يركن اليه في البادية الشرقية . فأولوه عطفهم ونصبوه حاكماً لتدمر سنة ٢٥١ ومنحوه لقب رجل الندوة وامير تدمر ، كما يرى ذلك في الخط الـ ٢٢ من خطوط تدمر الاثرية ، ورأى هو ان يعزز مركزه لنيل ثقة القيصر غالوس فالتمس ان يتوج اسمه باسم اول القياصرة الحمصيين . فسمح له وعرف بعدئذ باسم سبتيميوس حيران ، وظل عزيز الجانب مرتفع المكانة عند الرومان حتى توفي سنة ٢٥٨ .

٦ً — سيرياد يطمع بالعرش

في اثناء حكم حيران على تدمر حدث في الدولة الرومانية حادث هام ، وهو ان سابور الفارسي داهم البلاد الرومية بجيشه يبغي استرداد البلدان التي احتلها الرومان في الشرق ، فهاجم انطاكية وعاث فيها فساداً وانزل بالاهلين امر الاهوال ، وجلا من جلا منهم ، وترك فيهم فتى من الرومان يدعى سيرياد .

كان قد نشأ عند البرابرة ثم قصد بلاد فارس واغرى ملكها سابور على مهاجمة انطاكية ففعل ، وكان ما كان من فتكه بالاهلين بدون شفقة ، وبعدما اتم فتح المدينة التي داهمها على غرة حين كان الاهلون في حفلة ، عاد الى بلاده وترك سيرياد في انطاكية ولقبه قيصراً . فتولى منطقة انطاكية مدة. ولكن لما علم الاهلون بقدوم والريان هجموا عليه واذاقوه كأس المنون .

٧ — سابور وحمص ووالريان

سابور الاول ملك الفرس هو ثاني ملك من ملوك الدولة الساسانية الفارسية توّجه ابوه في حياته سنة ٢٣٨ فلما مات خلفه على العرش الفارسي ، وكان ذا مطامع واسعة ومطامح عالية يبغي ان يعيد لمملكة فارس مجدها السابق . ورأى ما يعاني العرش الروماني من الاضطراب ، فأحب اغتنام هذه السانحة ، لاسترداد ما فقدته دولة الفرس السابقة ، فشن الغارة على الرومان ، ودرى بالامر والريان فجهز القوات اللازمة لصده عما يبغيه . واتخذ الرومان الرها معسكراً لجيوشهم وصد الفرس عن التقدم نحو آسيا الصغرى وسوريا . وحدثت معارك كثيرة فيها سابور ووقع والريان قيصر الروم اسيراً بيده سنة ٢٦٠ وبقي يعاني ذلة الاسر ست سنوات حتى توفي .

اما سابور فتابع فتوحاته واقتحم سوريا فدانت له البلاد كلها عدا حمص التي لبثت في موقفها السابق ، وتعددت الاقوال في سلامة حمص من عبث الفرس واشهرها قولان : الاول ان حمص نجت من مطامع الجند السابوري بحماية الهها لان سابور احترم الهيكل الذي احترمه جمهور السوريين . والثاني : ان الجيش الفارسي ظل معظمه في الشمال لاجتياح آسيا الصغرى ولم يصل الى حمص الا فرقة صغيرة لم تجرأ ان تمس شعائر الاهلين ، وعلى كل حال فان حمص لبثت سالمة من الاذى ابان غزوة سابور .

٨ — اذينة الثاني وكويتوس (كيات)

ذكرنا في ما مرَّ ان اذينة الاول الذي قتله الروم سنة ٢٥١ ترك ولدين خلفه ، حيران واذينة ، وقد مالأ الاول الرومان فسلموه احكام البادية وظل فيها الى ان ان توفي . اما الثاني فقد كان رقيق الاحساس ذكي الفؤاد ثبت الجنان كبير المطامع منذ الصغر . واذ كان ممتلئاً نقمة على الرومان لقتلهم اباه لم يرضه ما فعله اخوه الكبير . ولكنه لم يستطع عمل شيء وهو حدث . فلما اشتد ساعده هجر المدينة ولاذ بالجبال يعيش من صيده ، والتف حوله رهط من شجعان البادية اذ رأوا فيه امارات البطولة بادية ، فكاشفهم بما قام في نفسه على الرومان فارتاحوا الى ما ارتاحت اليه نفسه وعاهدوه على تأييده في ما يسعى اليه .

فلما مات اخوه سنة ٢٥٨ عاد الى تدمر وفي جرأته ما يستوجب الاحترام ، فلقي من قومه كل ما يزيد في امانيه رغبة . فلم يمرّ به وقت طويل حتى اخذ يضرم في صدور القوم حب الاستقلال . وخدمه الحظ في انه ابرز فكرته هذه ابان ضعف السلطة في الدولة الرومانية . ونهوض كثيرين من الاعيان وقادة الجيش يطلبون العرش ، وممن سولت لهم نفسهم هذه الامنية مكرينوس المصري حاكم الشرق الذي استأثر بحكم سوريا وأقام ابنه كيات نائباً عنه فيها وسلم زمام الضبط لاحد رجاله الاذكياء المدعو بليست ، وسار بجنده الى رومة ليقبض بيده الصولجان ويلبس تاج القيصرية ، ولكنه ما كاد يتبطن البلاد حتى اخذ الجند ينفض من حوله قطعة فقطعة ، وقام عليه احد خدمه واغتاله في الليل . فلما اتصل نبـأ ذلك بمدن الشرق خافوا نتيجة الانقياد له . فثاروا على ابنه كيات (كويتوس) فلاذ بحمص وتحصن فيها . فحاصره اذينة وازداد الهرج في المدينة اذ انقسم الاهلون الى شطرين ، الاول وهم اصحاب السيطرة العائشون بنعمة الدولة الرومانية مالوا لتأييد كيات بحجة انه لائذ بالمدينة فعليها ان تحميه . والثاني عامة الشعب الذين شنئت نفوسهم كل روماني لكثرة ما عانوه من الاضطرابات بسببهم .

وفي اثناء ذلك كان بليست يبذل كل ما يعلمه من الوسائل لتحصين المدينة والوقوف في وجه المهاجم القوي . فأثقل كواهل الاهلين بحمل ادوات الحصار . وانهك قواهم بالتدريبات العسكرية لمكافحة من لا رغبة لهم بمحاربته وكانت بسالة اذينة وشدته واقدامه على اقتحام اشد الاخطار عدا خبرته في الفنون الحربية ، من ادعى الدواعي لالقاء الرعب في قلوب الذين يميلون الى المقاومة .

وادرك بليست بدهائه صعوبة الموقف وانه اذا طال الحصار يصبح فريسة لاحد اثنين ، الغازي التدمري ، او الناقمين الحمصيين . فرأى غفلة من كيات ففتك به ثم وقف على السور قبالة اذينة وزعم ان صداقته لاذينة جعلته يفتك بالمتمرد ليعيد السلام الى المدينة التي يحبها . ثم رمى رأس كيات من على السور تأكيداً لصدق قوله . وامر بفتح الابواب ليدخل الجيش التدمري. فدخل اذينة ظافراً ولكنه شفق على العصاة من الاهلين او المنضمين اليهم على غير رضا منهم . ولم يلحق باحدهم ضرراً . واقرّ بليست على الزعامة مشترطاً عليه طاعة تدمر ، فوعد .

ولما برح اذينة المدينة زاحفاً بجنده نحو الشمال لنشر سيادته على ما بين النهرين وما كان الى الشرق منها ، اغتنم بليست فرصة غيابه فلبس الارجوان ونادى بنفسه قيصراً في حمص . ولما خشي مغبة عمله اعلن للملأ الحمصي انه لا يحكم على احد خارج اسوار المدينة (يني ١٨٧ وادي شير ١٧٦) فلم يعبأ به احد في اول الامر. ولكن احد الحمصيين استثقل ظله ففتك به وهو في ردهته الخاصة . فأصبحت حمص كالمستقلة تحكم نفسها بنفسها تحت اشراف امير تدمر اذينة الثاني .

٩ — اذينة الثاني يظاهر الروم على الفرس

لما وقعت الحرب بين الفرس والروم ، وقاد واليريان جيوشه على سابور ، احب استمالة اذينة . فانعم عليه بلقب قنصل وقدم له هدايا ثمينة ، ولكن اذينة الناقم على الروم لقتلهم اباه أبى قبول موالاتهم فلم يعبأ باللقب ووزع الهدايا

على مشايخ القبائل ، فلما انتهت الحرب بفوز الفرس وأسر والريان سرّ اذينة لان موالاة الفرس لتدمر ضرورية لرواج تجارتهم ، وللاستعانة بملكهم سابور على الروم للاخذ بثأر ابيه منهم ، فأرسل يهنيء سابور بفوزه ، ويعرض مناصرته اياه في كل حرب تقع بينه وبين الروم. ولكن الفوز ابطر سابور فرفض طلب اذينة وألقى هداياه في النهر ومزق رسالته . وقال الموفدين اني لا أريد موالاة امير تدمر بل خضوعه المطلق لسلطتي (الدبس عد ٥٤٤) .

فاستشاط اذينة غضباً من هذه المعاملة واقسم انه لينتقمنّ لشرفه من ملك الفرس وليبدلنّ فرحه ترحاً. فجمع لديه رؤساء العشائر البدوية وذكّرهم بالاضرار التي الزلها سابور بهم ولاسيا تخريبه مدينتهم « عطرة » واهتمامه لسلب ثروتهم وحريتهم . وان تركه على ما هو عليه من مناهضة الروم يخشى منه على وجودهم . لان تقليص ظل الروم عن سورية يؤدي الى القضاء على مصالحهم الحيوية . فثارت النخوة في رؤوس الزعماء ، وحالفوه على محاربة الفرس مهما كلف الامر .

فلما وثق اذينة من قومه أخبر غاليان ابن والريان انه يبغي مطاردة الفرس واعادة البلاد التي استولوا عليها واسترداد كرامة الروم التي عبث بها سابور باسر ابيه والريان . فشجعه غاليان وامر الحامية الرومانية الموجودة في تدمر ان تنضم الى جنوده . فاصبح عند اذينة جيشاً عرمرماً توجه به نحو معسكر الفرس . فلما رأى سابور انه اصبح بين نارين جيش الروم من الشمال وجيش العرب من الجنوب ، سار بجيشه نحو الفرات تاركاً وراءه حاميات بغية صد القوات التدمرية . غير ان هذه الخطة لم تطبق لان اذينة اسرع ففتك بهذه الحاميات وافناها عن آخرها . وعرف الجيش الروماني بنجاح اذينة فاسرعت قواتهم من الرها ، وقطعوا الطريق على الجيش الفارسي الذي حاول اجتياز الفرات . واضطر سابور ان يترك للجيش الروماني كل ما غنمه من سوريا ليفتح له الطريق . غير أن هذا لم يوقف اذينة عن مطاردة الفرس لجد وراءهم وقد اقبل عليه كثيرون من البلاد التي مرّ بها يتطوعون في جيشه بغية الغنائم . وظل يسير والنصر حليفه في كل الميادين حتى استرد كل المدن التي استولى عليها سابور في الجزيرة . واخضع نصيبين وحاصر المدائن مرتين . واستحوذ على جانب من خزائن سابور وسبى بعض نسائه . ومع انه أسر كثيرين من ولاة

الفرس وارسلهم الى رومة ، لكن يده لم تصل الى والريان لانقاذه من الاسر.

وشعر غاليان بالموقف الهام الذي وصل اليه اذينة ، فأحب استخلاصه لنفسه ليتقي به خطر الاعداء الكثيرين الذين يحيطون به . فاعترف له بحق الرئاسة على البلاد التي دوخها. وسماه رئيس الجيش الملكي ومنحه لقب الغازي. وكان ذلك في السنة الثالثة لملكه سنة ٢٦٢ .

فتنشط اذينة بما ناله من ظفر وفخر ، فوالى حملاته لتطويع العصاة . وقام بخدمات جلى للقيصر جعلته يسميه ملك الشرق بل ملك الملوك (امبراطوراً) وأمر بضرب نقود على اسم اذينة نقشت عليها صورته ووراءه بعض الاسرى من الفرس . فدانت لسطوته سوريا والجزيرة والاناضول ، وقام باعباء الملك احسن قيام ، ولكنه اشرك معه في سياسة ممالكه ابنه هيرديس سنة ٢٦٤ .

١٠ — اغتيال اذينة وابنه في حمص

عظم شأن اذينة وبلغ قمة المجد. واظهر اهلية للسيادة التي القت مقاليدها اليه . اذ أوجد ألفة بين فئات المنضوين الى لوائه وقرب الابعاد بين المتنافرين لاسباب شتى ، ومن امثلة ذلك ايقافه تعصب غلاة الوثنية في حمص عند حد ، وكفه اضطهادهم للنصارى ، لكي يقضي على اسباب التنافر ويوجد أمة موحدة الاهداف . وراجت سوق التجارة في ايامه فعاش الناس في بحبوحة من العيش . ومضت سنتان من تاريخ سيادته العليا خالها الناس يوماً واحداً لكثرة ما عمهم من آثار النعمة وبسطة اليد .

وكان اذينة يقضي الصيف في حمص تخلصاً من حر تدمر ، ويعود في ايام البرد الى تدمر . ففي صيف سنة ٢٦٦ بينما كان راقداً في صرحه في حمص اغتالته يد اثيمة . ووجده الحاجب في الصباح مذبوحاً . فعظم خوف الحاجب واسرع لاطلاع هيروديس ابن مولاه على الفاجعة غير المنتظرة ، فوجده هو ايضاً جثة لا حراك بها ، وقد غمست ثيابه بدمائه .

واضطربت الافكار لما انتشر هذا النبأ في حمص . وأخذت الناس تتأول اسباب حدوث هذه الجناية الفظيعة . وتعددت آراء المخمنين . . قائل ان احد

الحصيين اغتاله طمعاً بغنم او دفعاً لمغرم. ورده العقلاء بان الحصيين كافة يحبون اذينة ومصلحتهم مرتبطة بحياته فلا يعقل اقدام احدهم على ذلك. وظن بعضهم ان جندياً فعل ذلك. ولكن الكرامة التي نالها اذينة من رومة جعلته يحسن معاملة الجند الروماني جداً لدرجة تبعد هذه التهمة عنهم. وبالغ بعضهم في سوء ظنه فنسب الجناية الى زينب زاعماً ان طموحها الى الزعامة دفعها الى ذلك. ولكن هذا الزعم يرده انها لم تكن مكفوفة عن الزعامة، لان اذينة كان لا يستطيع صبراً عن بعدها عنه، فقد كان يدنيها اليه في كل مناسبة. بل كانت تشاركه في اهم معاركه وكان لها يد في فوزه على الفرس. وقد قدر لها زوجها شجاعتها وأصالة رأيها في حل المعضلات التي تعرض له. وكثيراً ما ذكرها باعجاب واكبار امام قادته وبطانته الخاصة، فلا يعقل ان ترتكب هذه الخيانة وهي الحكيمة الباسلة

غير ان هذه التقولات قضي عليها اخيراً وعرف القاتل الحقيقي، وهو ما نلخصه عن زوناراس (١٢ : ٢٤) في ما يلي: ان حيران أخا اذينة مات عن ولد اسمه مهنّا (معنّا، معنو، مونيوس، موني، اناتو) وكان هذا يطمع في الحلول محل ابيه حيران في السيادة، فلما صار الامر الى عمه، لم يكن راضياً. ولكنه لم يجد الى مقاومته سبيلاً، فأرغم على السكوت الى حين.

ففي بعض الايام خرج عمه الى الصيد واستصحب معه ابن اخيه مهنّا المذكور. فأبصر صيداً فرماه مهنّا بسهم قبل الملك فقتله. فلم يرق ذلك عمه وعاتبه على تعجله، لان حق التقدم في الرماية للملوك، وانما يتقدم غيرهم اذا سمح له. وأغضى اذينة عن ذلك لصدوره عن شاب لم يستطع ضبط نزوة الشباب. ولكنهم بعدما اجتازوا موضع الحادثة الى سواه، رأوا صيداً آخر. فأعاد مهنّا الكرة ورمى الصيد بدون مراعاة خاطر عمه. فاستاء اذينة، وأمر ابن اخيه بالنزول عن جواده لكي لا يعود مثلها. فلم يطق الفتى هذه الاهانة وظهر امتعاضه الشديد باشارة تهديد ابداها لعمه. فأمر اذينة بسجنه فقيد اليه، ثم توسط له بعضهم فعفا عنه وأخلي سبيله. ولكن الشاب حفظ ذلك في دخيلته، ولما رأى سانحة تآمر مع بعض الاشقياء على اغتيال عمه وابنه هيروديس ليخلو له المركز، لان اولاد عمه الآخرين كانوا دون الرشد. وقد ابرز هذه الفكرة بالفعل

في احدى الليالي ، وقضي الامر .

وبوعونة فتىً جموح لم يخف عاطفته المنحرفة ، بل اقــدم للحال على تسلم زمام الاحكام غير عابئ بامرأة عمه زينب ، وغير مبال بمأتم عمه وابنه هيروديس ، الامر الذي لفت اليه الانظار ، وغرابة ما اتاه اوقعت الشبهة عليه ، اذ طاف الجند المدينة معززين بمساعي شركائه في الجريمة ، ومنادين بمهّنا خلفاً لعمه اذينة المقتول اغتيالاً مع ابنه هيروديس . فجرت ضجة عظيمة في المدينة واضرب حبل الامن . اذ خشي الاهلون غضب الرومــان من جهة ، ونقمة زينب من جهة اخرى . غير أن رجال الشحنة توفقت الى معرفة الجاني بعد وقت قصير وبحث دقيق . فثارت على القاتل ثائرة الحمصيين ، واقتحموا دار الامارة بجرأة ، وانزلوا مهنّا عن العرش وقتلوه للحال . فهدأت الاضطرابات ، وعــاد الهدوء الى السكان . وانطلقت بقتل مهنّا يد زينب ، فأخذت اولادها وعرضتهم على الاهلين ، وقد ألبستهم الارجوان ، فنادى الجمهور بابنها وهبلات ملكاً ، وبولديها الصغيرين حـيران وتيم الله قيصرين . وبما ان وهبلات ما برح قاصراً اقيمت زينب وصية عليه وكان ذلك سنة ٢٦٧ .

١١ــ زينب ملكة الشرق

ضبطت زينب بصفتها الوصية على ابنها زمام السلطة . ودبرت شؤون الدولة بكل حكمة وحزم . وكانت زينب بديعة الصورة حسنة الهندام ، ولكن جمالها لم يطوح بها الى وادي التهتك بل لزمت جانب العفاف فصانت هيبتها من العبث . وقد حوت في صدرها قلباً لا يخاف الاهوال ، وفي رأسها دماغاً طموحاً الى المعالي ، فشغلت بذلك عن سفاسف الامور ، ومزال الاقدام وروي انها كانت تفقه كل اللغات التي يتكلم بها اهل تدمر واثينا ، واضافت الى ذلك اللغة اللاتينية ايضاً . وكانت مولعة بمطالعة كتب هوميروس وافلاطون فتفوقت في الشعر والفلسفة . وهذا التفوق جعل منزلها كعبة الرواد ينسلون اليه من كل حدب وصوب . وهي نفسها كانت تستقدم اليها كل ذي استعداد للمباحث الفلسفية . فاستقدمت اليها من اثينــا لونجين الفيلسوف الحمصي الاصل

الذي استوزرته ، ومن انطاكية بولس السميساطي الذي كان يغشى منزلها اية ساعة شاء . وكانت هياة حكومتها اشبه بحكومة ملوك رومة : ومما كانت تمتـاز به الفروسية. فانها كانت من اقدر الناس على ضبط شكيمة الخيل . فكانت تركب جوادها ، وتحسر عن ساعديها ، وتعلو رأسها خودة ، وتخطب في جنودها بصوت جهير كانت له اعظم روعة في النفوس .

بهذه المواهب الممتازة ملكت زينب قلوب رعيتها . فأصبحوا رهن اشارتها ، يفدونها بكل عزيز وغال. ما استنفرتهم لامر الا نفروا اليه خفافاً وثقالاً . ولا اوفدتهم الى خطب الا كانوا اسبق من جيادهم اليه .



زينب عن تمثال لها موجود في الفاتيكان

ولما رأت زينب مكانتها في قومها والتفاف رجالها حولها ، استيقظ في نفسها طموحها الى المجد وشعرت ان الاكتفاء بضبط زمام الاحكام في تدمر وما جاورها انما هو قعود لا يرضاه ذوو النفوس الكبيرة ، الطامحون الى التفرد بالعظمة ، وقـد مر بها من عهد قريب من حوادث الدولة الرومانية ما جعل نجم التمنيات العالية قريباً من راحتهـا . اذ استحكم الاضطراب في الامبراطورية الرومانية ، واخذ الزعماء كل يستقل في مقاطعته ، وليس في اولئك المتجاسرين من هو بكفاءتها للحكم والسيادة . بل كان لها من حب قومها وما اوتيته من الذكاء والجرأة ، ما لم يكن لسواها من الطامعين بالعرش . ويظهر ان لونجين الفيلسوف شجعها ، وغذى هذه الفكرة في دماغها ،

وقوى هذا الميل في قلبها ، بل حثها على احياء المملكة السلوقية في الشرق فوجدت هذه التشجيعات هدى في نفس زينب وفكرت في تجهيز حملة تنيلها ما املت . ولكنها في اول الامر ترددت في اية جهة تقتحم ، واخيراً قر رأيها بعد استشارة من تثق به ان تشن الغارة على اقليم بثنيا (القسم الشمالي الشرقي من ولاية خداوندكار الآن) .

معركة بثنيا — ولما استقر رأيها على ذلك جهزت حملة كبيرة سلمت قيادة الجيش التدمري لبطل تدمري الاصل يدعى زباي وسلمت القيادة العامة لقائد مدرب تلقى دروسه العسكرية في بلاد اليونان بدي زبدي ، فسار هذا الجيش العرمرم الى آسيا الصغرى بقلوب مليئة بالبهجة ، كأنما يسير الى عرس ابتغاء نيل رضى زينب ملكة الشرق ، فصادفت هذه الحملة نجاحاً باهراً ، وبسبب الاضطراب الذي كان يسود معظم انحاء الاناضول ، استقبل الاهلون الجيش التدمري بكل ترحاب حيثما حل ، ولكن بثنيا قاومت القوة مقاومة شديدة ، وامدها غاليان بجيش عظيم اذ خشي على سلامة المملكة فيما لو نجحت حملة زينب هذه ، فبادرت لملاقاة جيش غاليان بما حشدته من الجنود المدربة على القتال احسن تدريب ، وقادت هذه القوة بذاتها وعسكرت مع فلول الجيش السابق في شمالي سوريا حيث استعرت لظى القتال بين الفريقين وكانت النصرة فيه لجيش زينب ، وقتل اذ ذاك هراكيان قائد جيش الرومان وكان ذلك سنة ٢٦٨ .

معارك مصر — وفي اواخر سنة ٢٦٩ عولت زينب على فتح الاقطار المصرية ، فجهزت جيشاً مؤلفاً من سبعين الف مقاتل (زوسيموس) بقيادة زبداي قائدها الاول ، وزحفت هذه الحملة على مصر واستولت على الاعمال الشمالية منها ، فقلق لذلك قيصر رومة وارسل من قبله الى مصر قائداً مدرباً يدعى بروبس ، فنزل في مصر السفلى وضم الى جنوده المتطوعين من المصريين ، وهاجم الجيوش التدمرية عند منف ، فلم تكن النتيجة على ما يريد ، اذ انكسر جيشه وتفرق شذر مذر ، ازاء شجاعة الجيش الزيني ، ووقع بروبس نفسه اسيراً في قبضتهم ، فصعب الامر عليه جداً فانتحر .

وباستيلاء زينب على مصر ، اصبحت حدود مملكتها ممتدة من الشمال

الى اقاصي آسيا الصغرى . ومن الشرق الى الفرات . ومن الجنوب الى ساحل النيل . ومن الغرب الى البحر المتوسط . فعظم شأنها وزينت عاصمتها زينة جميلة جعلتها مشابهة لاعظم العواصم بما اضافته اليها من الابنية الفخمة والحصون المدهشة .

١٢ — زينب واورليان

سرّ الشرقيون للفوز العظيم الذي نالته زينب والمجد الذي تكللت به هامتها . وقد وجدت نقود مضروبة في الاسكندرية مؤرخة في السنة السابعة لوهبلات ، مما دل على ان عظمة زينب ظلت لامعة الى سنة ٢٧٢ (الدبس عد ٥٤٠) وكان في اثناء ذلك قد تولى السدة الرومانية رجل بانوني الاصل ، انتظم منذ صباه في سلك الجيش الروماني ، وتمكن بقوة بدنه وشجاعته الممتازة واعماله الحربية من الارتقاء السريع الى المناصب العالية في الدولة الرومانية . وقد لقبه جنوده « بالقابض على السيف » . فلما اضطربت احوال الدولة بعد موت والريان وغاليان وكاود الثاني ، نادى به جيش الطونة الذي كان تحت امرته امبراطوراً سنة ٢٧٠ ، وحالما تسنم السدة اخذ يهتم برتق الفتوق الكثيرة في الدولة ، فرد القوط الى عبر الطونة وانتصر على القبائل الجرمانية ، وحصّن رومة بأسوار منيعة ليعصمها بها من هجمات البرابرة (البستاني ٤:٦٢٦) واستغرقت هذه الاعمال مـدة سنتين تقريباً ، كانت زينب في اثنائها تسرح وتمرح لا تحسب للدهر حساباً ، وقد اطمعها فوزها في كل الميادين ، فلقبت ابنها اوغسطساً وأزالت اسم القيصر عن النقود التي سكتها (زيدان ص ٨٦) .

فكان وقع هذا النبأ على اورليان عظيماً جداً . فهدأ ثورة الطونة ، وأرضى القوط بولاية داكيا ، لينصرفوا عن ازعاج المملكة بالهجمات المتواصلة (بوتر ٥٢٧) ثم اخذ يستعد لخضد شوكة التدامرة .

فأرسل حملة عظيمة على مصر عهد بقيادتها الى بطل مغوار اسمه بروكوبيوس ، جرت بينه وبين التدامرة في مصر معارك شديدة ، كانت نتيجتها انتصار الجيش الروماني واخراج التدامرة من مصر بالقوة .

وكانت هذه المعركة بداءة افول نجم زينب ملكة تدمر العظيمة . فان

اورليان الذي حسب لزينب حساباً ، جهز جيشاً عظيماً قاده بنفسه ، بعدما استوثق من اخلاص البلاد الاوربية له . فبلغ بيثنيا حيث لقيه الاهلون بالترحاب كمنقذ يبغي خلاصهم من الغازية الشرقية . ثم واصل سيره الى انقرة ، حيث طرد منها القوة التدمرية المعسكرة هناك . وسار مسير الظافر الى انطاكية ، حيث كانت زينب قد اعدت قوة عظيمة لصد الجيوش الرومانية عن التقدم . فجرت هناك معركة هائلة فاز فيها فرسان زينب على خيالة الرومان . ولكن مشاة الرومان كانوا اكثر عدداً من مشاة تدمر واكثر استعداداً للمعركة فتمكنوا من زحزحة التدامرة من اماكنهم ، وبتقهقرهم اضطر الجيش كله ان يعود الى خالكيس (قنسرين) . وخاف كثيرون من الانطاكيين سطوة اورليان ففروا من الجيش التدمري ، ونفروا الى البادية . ولكن اورليان تدارك ذلك بدهائه وارسل منادياً يؤمنهم على حياتهم واموالهم ، فعاد اكثرهم الى المدينة .

اما فلول الجيش التدمري ، فلم يجدوا لهم مستقراً في غير حمص وهناك جمعت زينب سبعين الف رجل واقامتهم وراء معاقل وحصون تقيهم سهام الاعداء . واتخذت السهل الفسيح ميداناً للعراك العظيم المنتظر . واستغرب الناس لمَ ارادت زينب مكافحة الرومان في السهل ، ولم تلذ باسوار المدينة وقلعتها ؟ في حين انها لو فعلت ذلك لانزلت بالرومان بلاء عظيماً وكبدتهم خسائر جسيمة لا يستطاع تعويضها بسهولة ، ونسب المطلعون على اسرار المملكة ذلك الى امرين :

اورليان عن تمثال في الفاتيكان

الاول — انها لم تكن تريد ان تظهر امام خصمها بمظهر الضعف ، لكي لا يطمع بها ويعتز .

الثاني — انها بعدما رأت خور هزيمة الانطاكيين وخيانة المتجندين منهم ،

خافت حدوث خيانة جديدة تجعلها اسيرة في حمص بعيدة عن عاصمتها ومشيرها.

وقد اسرّت الوجه الثاني الى بعض من استخلصتهم مصرحة انها لا تثق ببقاء اهل الشام على ولائها لانهم لم يألفوا اشباه تلك السيادة البدوية (زيدان: ٨٧) فاستاء الحمصيون مما نقل لهم عن سوء ظن زينب بهم . وشعروا انها تأبى مشاطرتهم المجد الذي تتطال اليه بفوزها على الرومان. فانحلت عوامل اجتهادهم وكان هذا من اهم دواعي فشل التدامرة في المعركة الناشبة في سهل حمص .

ولما نشبت المعركة أبلى العرب والارمن فيها بلاء حسناً واوقعوا في الجيش الروماني خسائر عظيمة . فنذر اورليان ان يبني هيكلاً للشمس متى اتيح له الفوز الذي يرجوه . فأثر هذا النذر في افئدة الذين كانوا يعتبرون الشمس اعظم معبوداتهم . ومعظمهم من هذا الفريق الذين خيل اليهم ان الآله الباعث النور كان يعني بجمع صفوف الجند المشتتة من الرومان ويردها الى ساحة القتال . فانخلعت قلوبهم وخيل اليهم ان هذا المعبود قد ترك شعبه وانحاز الى اعدائهم .

اما زينب فعقدت مجلس مشورة مع اركان حربها فقرروا الرجوع الى تدمر ، لتصورهم ان الجيش الروماني يتعذر عليه اجتياز القفر الخاف ، والتعرض للبدو الرحل على الطريق .

ولكن اورليان الصعب الشكيمة ، أبى الا متابعة القتال حتى النهاية . فأمر جيشه بعدما اخذ لنفسه شيئاً من الراحة ، بتابعة الزحف الى تدمر عاصمة القفر ، المحصنة جديداً والحاطة بخليج وأسوار تجعل اقتحامها من اصعب الاعمال وأشقها .

وكانت زينب قد كتبت الى اورليان رسالة تظهر فيها عدم عجزها عن مقاومته والفوز عليه ، وأعلنت له انها لم تخسر من رجالها أحداً ، لان الذين قتلوا في المعارك انما هم من الروم وسواهم من غير التدامرة . فاستاء اورليان من هذه الرسالة ، وأذاع ما كتبته له بين الحمصيين وسواهم من اهل الشام ، فاستاؤوا جداً لذلك . وانضم على الاثر عدد كبير منهم الى جيش اورليان يتفانون في سبيل نصرته ، خوفاً من تغلب زينب واستبداد اهل البداوة فيهم .

وحمل الجيش الروماني على تدمر حملة عنيفة جداً ، خيل لاورليان فيها انها القاضية . وان الجند المتحمس يستطيع في مدة قصيرة ان يدك أسوار

تدمر الى الحضيض . غير أن التدامرة اظهروا من البسالة ما يذكره لهم التاريخ بالتقدير . ولما رأى اورليان عناء زينب كتب لها رسالة هذا مؤداها :

« من اورليان عاهل العالم الروماني وغـازي الشرق ، الى زينب ومن يلوذ بها .

« انه كان الاجدر بكم ان تعملوا بذاتكم ما انا آمر به في هذه الرسالة وهو : ان تستسلموا اليَّ وانا اعدكم بابقائكم احياء . اما زينب فتعزل مع اسرتها الى المحل الذي اعينه لها بعد مشورة رجال الندوة . وتتخلى عما تملكه من نفائس وذهب وفضة وحرير وخيل وجمال الى خزنة رومة . وتظل حقوق التدمريين محفوظة » .

فأجابته زينب بما مؤداه :

« من زينب ملكة الشرق الى اورليان الاوغسطس .

« لم يجسر احد ان يطلب ما طلبته برسالتك . وستقضي الحرب بيني وبينك . انت تبغي استسلامي وتجهل ان كليوبترا فضلت الموت على ان يمن عليها ملك بالحياة. . . اني متوقعة نجدة سريعة من الفرس . وقد لاذ بي الشرقيون والارمن . واذا كان لصوص سوريا قد انزلوا الوبال بجنودك ، فماذا تكون حالتك عند موافاة المدد الينا ؟ . . آنئذ بلا ريب تتغير لهجة الصلف التي ابديتها الآن » (فوبيسكو ٢٦ و٢٧) .

فلم يبق بعد هذه الرسالة القاسية لدى القيصر سوى أحـد أمرين . افتتاح المدينة عنوة ، او التضييق عليها ليستسلم اهلها بسبب الجوع . ولما لم تنجح الوسيلة الاولى ، لاذ اورليان بالثانية . فوقعت المدينة في ضنك وضيق شديد لنفاد الاقوات منها . فلم ترَ زينب اخيراً افضل من الفرار خلسة الى بلاد الفرس . واثارتهم على الروم لرفع الحصار عن المدينة .

فعلت متن فاره وجدت في السير نحو العراق ، غير أن فرسان الرومانيين تأثروها وادركوها عند الفرات . فقبضوا عليها وعادوا بها الى تدمر .

وبلغ ذلك النبأ المحاصرين ، فأوقع البلبال في صفوفهم فاستولى اورليان على المدينة بعد معركة قصيرة الأمد ، ولم يضر بأحد من الاهلين ، ولكنه أخذ كنوز المدينة الثمينة .

وعقد اورليان مجلساً لمحاكمة العصاة . فلما احضرت زينب بين يديه وسألها عن سبب تمردها ؟ اجابته بما ملخصه : « لم يكن غاليان اهلاً للامبراطورية فاحتقرته ، وانفت من طاعة من سار سيرته ممن خلفه ، واما انت فقد اظهرت بعملك انك حري بان تود وتطاع فلا استنكف بعد الآن من طاعتك » .

وروى بعضهم ان زينب ألقت تبعة الحرب على مستشاريها ، فحكم باعدام المستشارين وبينهم لونجين الفيلسوف ، الذي تقدم الى العقاب غير مضطرب ولا وجل . وقيل ان الامبراطور أراد انقاذ زينب من القتل ، فألقى تبعة الحرب على المستشارين فقتلوا وبينهم لونجين ، الذي لم يجرأ القيصر أن يراه خشية ان يحمله منظره الوقور على الانكفاء عن قتله .



زينب حين القبض عليها

ويروى ان زينب طلبت العفو عن لونجين ، فأبى الامبراطور . فطلبت ان تقتل عوضه فقال معاذ الله ان اقتل ملكة المشرق .

هكذا كانت نهاية هذه الحرب التي صفدت في نهايتها زينب باغلال ذهبية ، وسيقت الى رومة سنة ٢٧٣ .

وبعد براح اورليان المدينة مع جيشه ووصوله الى تراكيا ، ثار التدامرة

وقتلوا الحامية الرومانية ، وأقاموا عليهم ملكاً انطيوخوس ابن حيران اخي اذينة ، فعاد اورليـان اليهم وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، لم تقم بعده لتدمر قائمة (ممسن) .

اما زينب فقد روى « جبون » ان اورليان احسن معاملتها . وقدم لها مزرعة فخمة جداً في تيفولي التي تبعد عشرين ميلاً عن العاصمة . واصبحت ملكة الشرق السورية من الامهات الرومانيات ، اذ زوجت بنـاتها الى أسر رومية نبيلة وذريتها لم تندثر الى آخر القرن الخامس .

خلاصة حوادث حمص في هذه الحقبة

لما اغتيل اسكندر سيفيروس آخر القياصرة الحمصيين ، ثار الحمصيون وشار كهم التدامرة الذين احسن اليهم القياصرة المذكورون وظلوا كذلك حتى قتل مكسيمنوس التراكي سنة ٢٣٨ ، فهدأ ثائرهم واطمأنت خواطرهم ، خصوصاً لتولي فيليب العربي عرش السلطنة سنة ٢٤٤ . غير أن اخاه بريسكوس اظهر تحزباً للرومان ابان ولايته سوريا ، فأحدث تحزبه هذا فتنة في الشرق كان بطلها غوثابيان الحمصي سليل اسرة ملوك حمص القدماء (آل سمسيغرام) .

وفي اثناء الاضطرابات التي حدثت في الدولة الرومانية لتزاحم قادة الجيوش على العرش ، ظهرت اسرة السميدع في تدمر وأيدها الحمصيون ، فنبغ منها عدة شخصيات لها قيمتها في التاريخ .

منها اذينة بن حـيران ، الذي عصى على رومة وألف عصابة لخلع نيرها عن الشرق . ولـكن مساعيه باءت بالفشل اذ اكتشف الرومان امره قبل ان تنضج فكرته . فأمسك وقتل وتفرق رجاله سنة ٢٥٠ .

ومنها حيران بن اذينة المذكور الذي مالأ الرومان فأقاموه والياً على تدمر (٢٥١ — ٢٥٨) ومنح الحق بان يتوج اسمه بلفظ سبتيميوس .

وفي ايام حيران هذا حدثت حركة سيرياد الذي سمى نفسه قيصراً في انطاكية وأيده الفرس ، ولكنه لم يقوَ على توطيد مركزه فأمسك وقتل .

ومنها اذينة الثاني ، الذي في ايامه هاجم سابور المنطقة الحمصية فلم ينل منها مأرباً ، وظلت وحدها سالمة من أذى الجيوش الفارسية اما احتراماً لمعبودها او لسبب آخر صانها من التبذل .

وفي ايامه حاول مكرينوس المصري نيل الامبراطورية ، فنادى بابنه كويتوس (كيات) قيصراً في حمص ، وذهب هو الى رومة لتسنم العرش القيصري ، ولكن اذينة قضى على هذه الآمال بمحاصرته ابنه في حمص ثم قتله .

وتمكن اذينة من الانتقام من سابور الذي أبى محاسنة اذينة ، ورفض قبول مساعدته . فاستطاع اذينة ان يسترد البلاد التي فتحها سابور ويعيدها الى الروم ، فقدر له غاليان هذه المأثرة العالية ولقبه ملك الملوك سنة ٢٦٤ .

ومنها مهنّا بن حيران اخي اذينة ، الذي اغتال عمه اذينة وابن عمه هيروديس في حمص لاسباب صبيانية سنة ٢٦٦ .

ومنها زينب زوجة اذينة الثاني التي بهرت العالم باقدامها على جلائل الامور ، وبلوغها درجة من السؤدد لم يتوقع احد ان تنالها امرأة في ظروف مثل ظروفها ، فحفظ لها مؤرخو الغرب

انفسهم، مالم ينقلوا مثله من اخبار الشرق، وقد بسطت سيطرتها على الاناضول والقطر المصري، وظل ذلك شأنها الى ان خسرها هذا المجد الامبراطور الروماني الحازم الشجاع اورليان (٢٧٠ ٢٧٥) فاسترد البلاد التي اغتصبتها واقتادها الى رومة اسيرة وفي رجليها قيود ذهبية سنة ٢٧٣.

الملمعون الى منطقة حمص من كتاب هذه الحقبة

الملمعون الى تاريخ هذه الحقبة كثيرون، من مشاهيرهم زوسيموس وزوناراس وفوبيسكو وممسون وسواهم، غير ان هؤلاء نبغوا في غير هذا العصر، فنؤجل تعريف القارىء بهم لدن وصولنا الى الوقت الذي عاشوا فيه، ونقتصر على اثنين من معاصري هذه الحقبة وهما :

١) يوليوس الافريقي

ولد في ليبيا (شمالي افريقيا) ثم انتقل الى فلسطين بعدما قضى مدة في الاسكندرية واشتهر في ايام القياصرة الحمصيين ومات في عمواص نحو سنة ٢٤٠م.

أكبَّ في حياته على درس التاريخ وترتيب حوادثه، ووضع مؤلفاً دعاه «خرونوغرافيا» وقع في خمسة اجزاء، ضمنه ذكر الحوادث التي وقعت منذ الخليقة الى المسيح، ثم أتى على خلاصة ما حدث من ميلاد المسيح الى سنة ٢٢١، ووضع في آخر السفر جدولاً يتضمن حوادث كل سنة بمفردها. وقد استفدنا مما كتبه عن القياصرة الحمصيين.

٢) تريبيليوس بوليون

مؤرخ روماني عـاش في اواخر القرن الثالث، وهو أحد مؤلفي تاريخ

اوغسطوس . وضع تاريخاً للامبراطرة منذ فيليب العربي الى كاود القوطي . لم يبق من مؤلفه هذا سوى تاريخ نهاية حكم واليريان ، وغاليان والطغاة الثلاثين ، واطراء كاود القوطي .

ومؤلفه هذا وان كانت قيمته الادبية ضعيفة ، لكن ما حواه من التفاصيل الكثيرة يجعله جزيل الفائدة لمحبي التاريخ .

مشاهير المنطقة الحمصية

١ً) اذينة بن اذينة (٢٣٥-٢٦٦)

هو سبتيميوس اذينة ، ولد في اواسط العقد الرابع من القرن الثالث ، ونشأ شجاعاً مغامراً ، وملك في اواسط القرن الثالث بعدما تزوج زينب الشهيرة في التاريخ ، واراد في اول امره الاتفاق مع سابور ضد الروم لقتلهم اباه ، ولكن هذا أبى ذلك فنقم عليه وغزاه ونهب ذخائره واسترد البلاد التي اغتصبها من الرومان ، فمنحه غاليان لقب الغازي وامبراطور الشرق ، وتألق مجده بعد ذلك الى ان اغتاله مهذاً ابن اخيه سنة ٢٦٦ في حمص .

٢ً) زينب ملكة الشرق

ولدت في اواسط العقد الخامس من القرن الثالث ، لامير عربي ما بين النهرين ، وذهب بعضهم الى انها حمصية ومن ذرية كليوباترا رافقت زوجها في غزواته وحروبه لسابور ، ولما قتل زوجها سنة ٢٦٦ خلفته في الملك باسم ابنها وهبلات . وظلت تجاهد في سبيل تعزيز العرش التدمري ، مدة خمس سنوات برهنت فيها عن قوة بطشها واصالة رأيها ، فقد ادخلت الاناضول ومصر ارض الملوك من آبائها ، ضمن البلاد الواسعة التي فرضت عليها حكمها . وهزمت القادة الرومانيين الذين ارسلوا لمحاربتها . فأخذت الدول المجاورة تخطب ودها ورعاياها يظهرون

الخضوع والطاعة القلبية لها . ولما سار اورليان بجيله ورجاله نحوها ، واخذ يوغل في البلاد باسطاً سيطرته على مقاطعاتها واحدة بعد الاخرى بانتصارات باهرة ، ظلت رابطة الجأش تتوقع ان يتسنى لها تحدي قوة الروم وبطشهم . فلما هزمت جيوشها قرب انطاكية وحمص ، ارتدت نحو تدمر مستعدة للدفاع فيها عن نفسها ، وهي شديدة الأمل في ان بعد المسافة بين الجيش الروماني وعاصمته تهون عليها الفوز عليه بمساعدة خصومه الفرس ، ولذلك رفضت كل دعوة الى الصلح ودافعت بكل قواها عن قاعدتها بالوسائل الحربية القديمة ، ولكن ذلك الدفاع لم يجدها نفعاً ، فقد سقطت المدينة بأيدي الرومان ، وأسرت الملكة قرب شاطىء الفرات حيث كانت ممتطية ناقة قلوص . بغية الوصول الى بلاد الفرس واستثارتهم على الرومان ، فاعتقلها اورليان واخذها مصفدة باغلال ذهبية الى رومة ، ولكنه اعترف لها بمقدرتها شأن الابطال الذين لا ينكرون على خصومها مـــا فيهم من مواهب اذ قال : ان من يستخفون بزينب ويتحدثون باستهتار عن حرب التظت نيرانها ضد امرأة يجهلون ما هي عليه هذه المرأة من البطش وقوة العارضة ، ويستحيل عليهم معرفة ما اعدت هذه المرأة الجسورة للحرب من حجارة للمعاقل وسهام تراش وكل نوع آخر من القـــاذفات ، وكيف انها فتحت في كل جدار من جدران حصونها نافذتين او ثلاثة ركبت فيها الآلات والمنجنيقات القاذفة نيراناً صناعية اه .

وقد خفي عن هؤلاء الهازئين حكمة زينوبيا في آرائها وثباتها في مواقفها وبسالتها مع جنودها ودقتها في ما تقتضيه ظروفها من حلم تارة وشدة اخرى ، فلولاها ما انتصر اذينة على الفرس ولم ينكف العرب والسراكسة والارمن عن اثارة الفتنة لولا خوفهم من بسالتها (تريبلليوس) .

وقال فيها جبون : ضارعت زينب كليوباترا بجمالها ، ولكنها فاقتها بعفافها وشجاعتها . وقال في موضع آخر : انها اجمل افراد جيشها واشجعهن .

٣) لونجينوس الفيلسوف (٢١٣—٢٧٣)

من نبتات رياض حمص الممتازة ، الفيلسوف الذائع الصيت لونجينوس ،

الذي رنت حصاة شهرته في عصره ، وفي ما وليه من العصور . ولد لونجينوس سنة ٢١٢ ، اعني في نفس السنة التي ولد فيها خصمه وعدوه اللدود الامبراطور اورليان ، وذلك من غرائب الصدف . وأعطي وقت الولادة اسم ديونيسيوس ثم اطلق عليه اسم كاسيوس لونجين . ولا ندري اصل تسميته باسمه الوثني كاسيوس ؛ ويظن انه أخذ هذا الاسم عن ولي او ظهير روماني .

تلقى دروسه الاولية في مسقط رأسه « حمص » على خاله فرونتون الذي احبه جداً ، واوصى له وهو حي بكل ما يملكه . ولم يقف بلونجين اجتهاده عند حد ما تلقاه عن خاله ، بل برح حمص متطلباً المعرفة من مظانها . حتى حطت به عصا التسيار في الاسكندرية احدى مراكز العلم الشهيرة في ذلك العصر . فدخل مدرستها العظيمة التي انشأها امونيوس سكاس فيلسوف ذلك العصر (+ ٢٤١) فتعرف هنالك باورجان الفيلسوف الوثني تلميذ سكاس ، واخذ عنه معلومات جمة . وأبت نفسه التواقة الى العلم ، الوقوف عندما حصله في الاسكندرية . فقصد اثينا وهي كعبة العلوم فحط رحاله فيها . وقضى هنالك مدة ثلاثين سنة ، درس في اولها ثم أخذ يدرّس . ومن المتخرجين في مدرسته برفيريوس الصوري الشهير . وهنالك طارت شهرة لونجين حتى بلغت وطنه الاصلي . وكانت زينب قد علت منصة السيادة في تدمر على اثر وفاة زوجها . فرأت في شخصية لونجين البارزة ما يعزز موقفها ، فاستقدمته من اثينا معللة اياه بالاماني الجليلة فلم يرد طلبها . وحضر في اول الامر كاستاذ يدرسها مع الفصاحة اللغة اليونانية . ولكنها استوزرته بعد ذلك وجعلته مستشارها الخاص ، لما آنست فيه من الحكمة وسعة الاطلاع .

واشتهر لونجين بسعة الاطلاع والمقدرة على الانتقاد ، فسماه تلميذه بورفيريوس « النقادة » . ودعاه افنابيوس « المكتبة الحية » او « المتحف المتجول » ومع انه خالف زميله بلوتين في آرائه الفلسفية الحديثة ، قال عنه بلوتين المذكور (٢٠٤—٢٧٠) وان لم يكن لونجين فيلسوفاً لكن لا شك انه من اكابر العلماء . (الدائرة البريطانية) .

وقد نال لونجين اعتبار الشرق لما ازدان به من الاخلاق الطيبة والنزاهة في الرأي . وحسبك ان تعلم انه وهو متحدر من دم يوناني ، وقد ربي في

بيئة وثنية ، اعترف ان عنجهية الروماني تبعده من كل قلب. وقد صرح اكثر من مرة ان الرجل الروماني انما يصير حسن المعاشرة حينما ينزع من مخيلته اعتقاده بانه كبير وعظيم . ولم ينكر ان التدمريين اقرب الى المسامرة باخلاقهم من الرومانيين . وان هؤلاء انمـا تحسن معاشرتهم اذا استطاعوا التخلق باخـلاق التدامرة اه .

ولكن من المؤسف ان هذا الفيلسوف النابغة قتل ظلماً سنة ٢٧٣ ، لان اورليان نسب اليه كتاباً شديد اللهجة بعثت به زينب الى القيصر المذكور. ولم يكن الكتاب من كتابته ولا من انشائه كما يرى المحققون من المؤرخين . وانما املته زينب على احد كتابها وبعثت به الى اورليان . فنسبه الى لونجين لانه مستشارها وأقدر من كان في تدمر على انشاء ذلك الكتاب . فلما فـاز على زينب ووقع لونجين في اسره فتك به . ولم يقبل فيه شفاعة ولا رجاء .

٤ً) برفيريوس الصوري (٢٣٣—٣٠٥)

برفيريوس لم يكن حمصي المولد لكنه حمصي النشأة والتربية . اذ ولد في صور ، ودعاه اهله ملكو ، ولكنه فضل اخيراً الاسم اليوناني شأن كثيرين من اترابه . درس الفصاحة على لونجين الفيلسوف الحمصي في اثينا ، ثم قصد رومة حيث انكب على تلقي الفلسفة عن بلوتين المصري . ولزمه سبع سنوات حتى توفي بلوتين سنة ٢٧٠ ، فتضلع بجميع علوم عصره وألف في معظمها بخاطر سريع وانشاء سهل .

وقد ترك مؤلفات كثيرة حفظ بعضها الى الآن ونفد البعض الآخر ، وفي معظمها ما يستحق التقدير .



الحقبة التاسعة

حمص

في دور المسيحية الاول

سنة ١ ـ ٣٠٥ م

توطئة

قبل ان نأتي على وضعية حمص إبان دخول المسيحية اليها وانتشارها فيها ، لا نجد بدأ من الالمام بما تجب معرفته عن ظهور المسيحية وعوامل انتشارها في العالم . ونجد من النزاهة الواجبة ان نخلي المجال ونعطي حق الكلام بهذا الشأن لغير رجل الدين . ليجد القراء على اختلاف نحلهم قابلية جيدة لهضم ما يلقيه في روعهم علامة مدني . استوعب تاريخ العصور القديمة بدقة وتجرد تام يجعله مسموع الكلمة عند مختلف الاجناس والمذاهب . وهو الدكتور جيمس هنري براستد ، الذي نلخص ما قاله بهذا الشأن في ما يلي :

١ ـ نشأة المسيحية

كانت الحياة العقلية في الامبراطورية الرومانية في تأخر مستمر . فتقهقرت الآداب والعلوم فيها . غير ان مفكري الرومان والطبقة العاقلة فيها ، الذين طالعوا فلسفة الرواقيين والابيكوريين اليونانية في المقالات البليغة التي نشرها شيشرون ، اقلعوا عن عبادة الآلهة الرومانية . واتخذوا من التعاليم الفلسفية ديانة طبقوا عليها سلوكهم اليومي . غير أن هذه الديانة لم تتعرض للسيرة الشخصية

ولا للحياة المقبلة . فكان الناس في كل انحاء الامبراطورية ، وهم في وسط متاعب الحياة الكثيرة ، وتحت تجاربها القاسية ، يتوقعون حافظاً الهياً ينقذهم من براثن الاستبداد وآلام الحياة المنحرفة .

فلما ظهرت المسيحية وجدت في الشعب الروماني استعداداً عظيماً لقبولها ، اذ كان جوهر تعليمها « ابوة الله وأخوَّة البشر » التعليم الذي سبق فلمح اليه عاموس النبي العبراني اذ رأى في « يهوه » الله الحنو الابوي الذي لا يسر بسفك الدماء ولا المجازر البشرية .

ظهر يسوع العبراني في فلسطين ، وكرز بهذا التعليم الجليل الذي فاق ما علم به انبياء اليهود ، فأبغضوه وأماتوه في زمن طيباريوس .

وظهر يهودي خيَّام في طرسوس اشتهر بالفصاحة وشدة العارضة ، ومحبته الحارة لسيده على الدوام ، شرع يجول في آسيا الصغرى وبلاد اليونان حتى رومة . وحيثما مرَّ يغادر وراءه جماعة قادها الى الايمان بتعليم ذلك السيد . فألفت هذه الجماعات صفاً طويلاً يمتد من اورشليم الى رومة ، كتب اليها رسائله باليونانية فطولعت برغبة شديدة وانتشرت بسرعة . وفي اثناء كتابته الرسائل كتب تاريخ يسوع بالآرامية التي كان يكرز بها . لكن هذا التاريخ فقد ، وظهر بعده اربع سير لحياته . دونها اربعة من الكتبة معتمدين في ما كتبوه على التاريخ الآرامي المذكور آنفاً . وشاعت هذه السير الاربع واقبل الناس على مطالعتها اقبالاً عظيماً ، وكان لها بينهم المنزلة الاولى ولتعليمها القول الفصل . وسميت البشائر الاربع وضمت بعد ذلك مع رسائل بولس وغيرها في مجلد واحد باللغة اليونانية سمي العهد الجديد .

ومع ما كانت عليه ديانات الشرق الاخرى من المكانة ، ومع ما كان لها من الجاذب ، لم تستطع ان تولي اتباعها مواساة ومصاحبة حياة سامية جداً ومملوءة رأفة وشعوراً مع الغير ، كحياة المعلم العبراني الجديد . الذي كان لدعوته البسيطة « تعالوا اليَّ يا جميع المتعبين » مفعول عظيم في قلوب الملايين من الرومانيين التعابى ، ما لم يكن لمناشير الاباطرة الرومانيين اجمع . وقد اصغى لندائه هذا العبد والمعتق ، والصانع والمحترف ، والوضيع والمزدرى المقيم في ثكن الحكومة ، مأوى الفقراء في رومة . وبعد زمان لبى النداء كثيرون فوجدوا

فرحاً في الرجاء الذي اولده فيهم ذلك التعليم السامي . وفي قرن السلم الثاني (٦٩—١٦٧م) برزت الديانة الجديدة على سائر ديانات الامبراطورية الاخرى اه ملخصاً (براستد عد ٩٤٤—٩٥٢) .

٢ — نهضات شديدة ضد المسيحية

حال ظهور المسيحية قامت ضدها خصمان ليس من السهل التغلب عليهما ، وهما الاول اليهود الذين استمدوا قوتهم من الاساس الالهي المتين الذي استندوا اليه نظرياتهم . والثاني الوثنيون الذين استندوا الى قوتين احداهما نظرية وهي المستمدة من الافلاطونية الحديثة والثانية عملية سياسية وهي المعتمدة على قوة الامبراطرة الذين بيدهم السلطة ، فأثار الفريقان على المسيحية حرباً شعواء ضحي فيها عدد ليس بقليل من القوى الحيوية في المسيحية كما ترى .

١) نبتت المسيحية في حقل اليهود نفسه وضمن نطاق المبادىء الاسرائيلية . اذ لم يكن من قصد مشترع المسيحية ابطال الناموس الالهي بل تكميله . واصلاح ما اوجده في تأويله من الخلل ، الزاعمون انهم ناموسيون . والمسيحية في جوهرها لا تختلف مع الاسس التي بنيت عليها الاسرائيلية الصحيحة . لذلك حافظت المسيحية على ما اتول على انبياء اسرائيل وأيدته بكل قواها بعدما فهمته حق فهمه . ولكن زعماء اليهود رأوا في ما يراد به اصلاح ما فسد ، القضاء على امانيهم الدنيوية . فقاموا ضد المسيحيين بكل قواهم ، وضحوا بهياجهم غير المرتب عدداً ليس بقليل من المسيحيين .

فضحي في اول هياج سنة ٣٦ استفانوس رئيس الشمامسة .

وفي ثاني هياج سنة ٤٤ يعقوب الكبير بن زبدي احد الحواريين .

وفي ثالث هياج سنة ٦٢ مات رجماً بالحجارة يعقوب اول اساقفة اورشليم .

ولم يكن اليهود القاطنون في الولايات الرومانية الاخرى اكثر رفقاً بالمسيحيين من اخوانهم في فلسطين ، اذ كانوا يثيرون عليهم الحكام أينما كانوا زاعمين ان يسوع فاعل شر ، يبغي قلب العرش القيصري ليملك على اليهود . ولكن الله رد كيدهم في نحورهم فوقعوا في نفس الحفرة التي حفروها للمسيحيين .

فان الرومانيين شعروا بما يضمرونه من النيات على الحكومة بتمردهم المتتابع. فحاصر عاصمتهم اورشليم فاسباسيان سنة ٦٧ وتابع ابنه عمله ، حتى هدم المدينة مع الهيكل من الاسس بعدما قتل من اليهود عدداً غفيراً ، زعم يوسيفوس انهم اكثر من مليون نسمة .

على ان اضطهاد اليهود لا يحسب شيئاً مذكوراً ازاء اضطهادات الامبراطرة الوثنيين الذين ألقي في روعهم ان المسيحيين يبغون قلب العرش الروماني. بدليل مقاومتهم الديانة الوطنية ، فحاولوا في بادىء الامر ايقاف انتشارها بالاضطهاد ، فلما لم يفلحوا سعوا لملاشاتها ، ولكنهم لم ينجحوا بهذا ايضاً بل بالعكس فان المسيحية كانت تزداد انتشاراً بمقدار مقاومة القوة السياسية لها .



يوسيفوس المؤرخ (انظر صفحة ٢٩٤)

واحصى بعضهم الاضطهادات الوثنية العظيمة التي نزلت بالمسيحيين فبلغت في دورها الاول عشرة اضطهادات .

أثار الاول نيرون الظالم سنة ٦٥—٦٨ والثاني دومتيان سنة ٩٤ والثالث ترايان سنة ١٠٤ والرابع ادريان سنة ١٢٦ والخامس اوريليوس سنة ١٦٢ والسادس سيفيروس الاول سنة ٢٠٣ والسابع مكسيمنوس سنة ٢٣٧ والثامن داكيوس سنة ٢٥٠ والتاسع واليريان سنة ٢٥٧ والعاشر ديوكليتيان سنة ٣٠٣ .

والاخير اعظم الاضطهادات وافظعها اذ تفنن الطغاة فيه بتعذيب المسجونين فالوخز بالحراب ، ونزع الاظفار ، والكي بالحديد المحمي ، وتمشيط الجسم باظفار حديدة

والتقديد بالافران ، والشي على النار الخ . . . هي بعض ما انتجته تلك القرائح الصلبة .

وقد استغرب بعض المؤرخين وقوع هذه الاضطهادات على المسيحيين من امبراطره الرومان مع ما هو معروف من تساهل الرومانيين في الدين . ولكن هذا الاستغراب يزول متى عرف ان المسيحية قضت بوجودها على اسباب معايش الكهان ، وصناع التماثيل ، واصحاب الحانات والملاهي ، فثار هؤلاء في وجهها ولقي نداؤهم في الشعب والحكومة تربة قابلة الاثمار للاسباب التالية :

١) ان المسيحيين حاولوا احلال المسيحية محل الوثنية التي هي الديانة الوطنية والامبراطور كاهنها الاعظم .

٢) منافاة المسيحية لسائر الاديان الموجودة في الامبراطورية .

٣) ريبة الحكومة باجتماعات المسيحيين السرية .

٤) حماسة المسيحيين الاولين بحيث ان بعضهم كان لا يخشى تمزيق الاوامر الامبراطورية المذاعة ضد المسيحية .

باضطهاد ديوكليتيان اترع كاس التحامل على المسيحيين ، اذ وضع بعده حد لهذه الشدة . وشعر ديوكليتيان نفسه بالخطر الذي انما قاده اليه صهره المتعصب للوثنية ، فعافت نفسه العرش الذي يعرض صاحبه لخداع ذوي الاغراض الجائرة ، فاستقال سنة ٣٠٥ ولزم منزله في سالونا (دلماتية) حتى مات سنه ٣١٢ غير آسف على العرش .

ومما هو جدير بان يروى عنه انه بعد اعتزاله الملك ، حاول شريكه اغراءه بالرجوع الى العرش ، فأجابه بما يأتي : لو جئت الى سالونا ورأيت الملفوف الذي انشئه في بستاني بيدي لما كلمتني في الامبراطورية .

ومن مأثوراته : لا شيء اصعب من ادارة الاحكام ادارة حسنة . لان اتفاق اربعة او خمسة اشخاص على رأي ، يؤدي بهم الى اقتناع الملك باتباع ارادتهم . والملك اذ يكون كالحبيس لا يعرف الحقيقة . فمهما كان قويم الرأي ينخدع بعمالهم فيسقط فريسة في يد ذئاب الخبث ، الذين يخفون عنه الحقائق اه .

٣ — انتشار المسيحية في العالم وتنظيمها

بالرغم من القوى التي وقفت ضد المسيحية لاول ظهورها ، وبالرغم من ان مبادئها صعبة التطبيق ، وبالرغم من ان مشترعها حكم عليه بالصلب كمجرم ومعظم الذين قاموا بالدعوة لها كانوا أميين فقراء لا أحزاب لهم . برغم كل ذلك انتشرت في وقت قصير في معظم انحاء العالم . برزت من اورشليم حيث قتل واضعها ، وبلغت سوريا الشمالية ثم اخترقت الاناضول واجتازت البحر في اوربا وشمالي افريقيا ، وقد انتظم في سلكها كثير من الشرفاء والاعيان حتى من الاسرة القيصرية الحاكمة ، وحسبك ان تراجع احصاء دقيقاً قام به المؤرخ المدقق شاردن ترنر الانكليزي لمعرفة عدد المسيحيين في كل القرون لترى نموها السريع ، في القرون الثلاثة الاولى التي رزح فيها المسيحيون تحت ضغط الامبراطرة الوثنيين ، بلغ عددهم في القرن الاول نصف مليون وفي الثاني مليونين وفي الثالث خمسة ملايين ، اعني شملوا نحو خمسة اسباع الامبراطورية الرومانية وأخذ عددهم يتضاعف بعد ذلك في كل قرن تقريباً ، حتى بلغ مجموعهم الآن أزيد من ستمائة مليون من النفوس .

وقد ماشت المسيحية في ادارتها العامة النظم الرومانية التي كان لها ثلاث عواصم ، الاولى رومة في اوربا والثانية الاسكندرية في افريقيا والثالثة انطاكية في آسيا ، واتبعت المسيحية لاول عهدها هذا النظام . فكان المرجع الاعلى لمسيحيي اوربا أسقف رومة ولمسيحيي افريقيا أسقف الاسكندرية ولآسيا أسقف انطاكية . ظل ذلك شأنهم مدة اربعة قرون تقريباً ، ولكن لما انتقلت العاصمة الزمنية من رومة الى القسطنطينية اهتم قادة المسيحية بترقية الادارة الدينية في العاصمة الثانية التي دعيت رومة الجديدة . فزادت المراجع العليا مرجعاً جديداً وحسب أسقف القسطنطينية المرجع الثاني الاعلى ، ثم تلاه بعد مدة ترقية مركز اورشليم تقديراً لموت مشترع النصرانية فيها ، فأعطي أسقفها المرجع الأعلى الخامس بين المراجع المسيحية كافة .

صلات حمص الخاصة بهذه الحقبة

توطئة

عرف الحمصيون في كل الادوار انهم شديدو التمسك في المبادىء التي يقتنعون بصحتها . كثيرو الاندفاع بتأييد ما يجد الى قلوبهم سبيلاً . فهم متعصبون ابداً لما يستقر رأيهم عليه لا يتزحزحون عنه بغير شق النفس ، وبالجهد الجزيل وبعد تواتر الادلة ونصوع البينات . وكثيراً ما أيدوا بتصرفهم قول افلاطون : ان خطر لأحد تغيير شيء من القواعد الدينية فان ما يحاوله انما هو ضرب من الجنون (بوسويت : ١٦٩) وقد تابعوا رأي سقراط الذي اوجب على كل واحد اتباع الديانة الوطنية .

في هذه الظروف الحرجة وازاء هذه الرغبات الصلبة ، حاول المبشرون بالمسيحية نشرها في حمص .

١ — مرور بطرس ويوحنا بحمص

ليس من السهل الوصول الى مدونات يفهم منها كيفية دخول المسيحية الى حمص لسببين الاول : الاخطار التي كانت تهدد حياة المسيحيين وتضطرهم الى التحكم الدقيق والحرص الشديد على نقل معلوماتهم ذات الشأن بالتقليد الشفاهي احدهم عن الآخر . وقد استشهد كثيرون من حفظة هذه الاخبار فجأة قبل ان تنقل معلوماتهم الجليلة الى صدور أخرى تعيها فترويها . والثاني : ان كثيراً من الطوامير التي كتبت بحروف سرية لا يستطيع فتح مغلقها سوى المسيحيين ، قد وقعت بأيدي خصومهم فأتلفوها وحرموا العالم المسيحي من التفقه بمضامينها النافعة . غير أن عناية خاصة علوية حفظت قطرة من الانباء تكفي لمعرفة ما تهم معرفته . ونما نسرده مأخوذ عن مصادر يوثق بصحتها ، رواها مؤرخون متعددوا المشارب صادقوا اللهجة يستخلص منها ما يلي :

جال السيد المسيح في فلسطين ليرد الناس الى الهدى الذي اضاعوه بمؤثرات شتى . والناس في بحران عميق من حمى الضلالة المنتشرة على وجه البسيطة ، لا في المبادىء فقط بل في الاخلاق ايضاً . وكانت حمص قد سارت سيرة سائر المدن التي وصلت اليها المدنية اليونانية . وقد استمسكوا بعرى مبادىء ابعدتهم عن الهدى واصطبدوا باوهاق عادات خسرتهم الكثير من الاخلاق الحسنة .

في هـذه الظروف القلقة ، مرّ بطرس الرسول ويوحنا الانجيلي ، وهما يقصدان الجهات الشمالية من سوريا ، بعدما زارا السامرة سنة ٣٨ م على الارجح (اع ٨ : ١٤) وانما اطمعهما بزيارة حمص مع ما هو معروف من تعصب اهلها ، ما رأياه من النجاح في تبشير القرى الكثيرة في السامرة (اع ٧ : ٢٥) . فالتقيا في ضاحية المدينة بفلاح اسمه خريسوموس ، حياه الرسولان بوداعة ، فأجابهما على تحيتهما بلطف وأدب . ولما سألاه عن مبيت يقضيان فيه ليلتهما . دعاهما للمبيت عنده . والفلاح متعلم من جودة الارض وطمأنتها سخاء النفس والبعد عن الصلف والكبرياء .

فلما أمّا منزله لقيا فيه كل اكرام وحسن ضيافة . فقضيا ردحاً من الليل يتحدثان معه عن بدائع الكون وعظمة المكون . ووجد الرسولان متسعاً لبث افكارهما المسيحية ، فألقيا بذارهما بصورة لطيفة جداً ، لقيت في الفلاح وأسرته آذاناً صاغية وقلوباً واعية . وقد حبب اليهم حديث الليل امساك الضيفين ثلاثة ايام . سمعوا فيها منهما ما لم يكونوا يسمعونه من قبل . ولذهم بنوع أخص ان ذاك الجليلي الذي انتهت اليهم انباؤه ، انما كان صديقاً للطبقة العاملة من البشر . وقد بذل جهداً عظيماً ليخفف عنهم اثقال البؤس وضروب الجور التي تحملوها مدة طويلة من الاريستوقراطيين . فنقم هؤلاء عليه وقتلوه ظلماً وعدواناً ، لأن الشعب مال برمته اليه ، ووجد فيه وفي تعاليمه السامية خير عزاء على مصائب الحياة المديدة ومصاعبها .

فوجدت هذه الاحاديث التي تسمعها الطبقة العاملة بارتياح ، متسعاً في صدر الفلاح وأسرته . فاستزادوا الرسولين منها ولم يبق بينهم وبين النصرانية الا القليل . فأودعهم الرسولان الارشادات اللازمة ، ثم برحا المدينة الى جهة اخرى على أمل العودة اليها ثانية .

٢ — خريسوموس بشرطنه فساً

مرَّ على ما ذكر نحو عشرين سنة كان فيها خريسوموس الفلاح ، مثال التلميذ الناجح ، الذي يلذه نشر ما يعرفه بين قومه . وقد لقي كلامه تأثيراً عميقاً بين اترابه من الطبقة العاملة في المدينـة . ولم يحل التعصب الذي ملك قلوب الحمصيين للوثنية ، دون اقتناع البؤساء منهم بصحة المبـادىء المسيحية . وفي اثنـاء ذلك زار يوحنا الانجيلي مدينة حمص منفرداً ؛ فأعجب بما رآه من نشاط خريسوموس وتأثير مساعيه . اذ التف حوله عدد من المتنصرين الذين لم يمنعهم سعيهم لنيل الرزق بالوسائل المشروعة ، عن الاهتمام بخلاص نفوسهم . ودرس المبادىء الجديدة التي يتقلص بها ظل الاستبداد ويرتفع الضغط عن الطبقة العاملة . ورأى في هذا المجموع الصغير بعدده ، الكبير بنشاطه واجتهاده ، حباً لخريسوموس الذي فقهته المبادىء الجديدة التي تلقنها . فأولته قوة حجة يدحض بها السفسطات المنتشرة في الوسط . ومقدرة على بسط مبادئه وافهامها لمن يريد . فأقامه الرسول مرشداً لتلك الفئة بعدما شرطنه موصياً اياه ان يعنى بامر تابعيه ولا يتوانى في توسيع نطاق الدعوة . كما اوصى مريديه به خيراً .

وبعدما ودعه الرسول ظل هـذا القطيع موضع اهتمامه . فرأى بعد مدة ان يوفد الى حمص غايوس الدربي (اع ١٩ : ٢٩ و ٢٠ : ٤) لتسلم القيادة العليـا للرعية فيها . فسامه اسقفاً وارسله الى حمص لمراقبه سير المسيحية فيها وتنظيم من تبناها .

فلما قدم غايوس الى حمص ورأى ذلك القطيع المجتهد سعى بتدشين محل خاص للعبادة فيها . وكان ثمة منزل شرقي المدينة لارملة تقية اسمها بربارة اتخذه خريسوموس مركزاً لعمل الكرازة . فكرسه غايوس كنيسة ، وعرفت تلك الكنيسة بعدئذ باسم ارشانيا او كنيسة بربارة (عن مخطوط قديم في دير القديس اليان بحمص) .

٣ — ميليا احد السبعين في حمص

نقل العلامة ميخائيل الكبير المؤرخ في الصفحة الـ ٩٣ من تاريخه نقلاً عن ابن الصليبي مطران آمد سنة ١١٧١ طبقاً لنسخة سريانية مخطوطة موجودة في المتحف البريطاني تحت رقم ١٧١٩٣ مؤرخة في سنة ٨٧٤م ما يلي : « ان ميليا السادس من المبشرين السبعين قد كرز بالمسيحية في حمص وبعلبك والرستن وحماة ومات في شيزر » فاذا صح هذا ولعله صحيح. تكون كرازة هذا الفاضل قد وليت مرور يوحنا الانجيلي بحمص الذي ذكر اعلاه. وكان لكرازته الاثر الكبير فيها بحيث استند اليه خريسوموس وتأيد كلامه به. ومن الممكن انه برح حمص قبل مجيء غايوس او بعده بقليل. لاطمئنانه على القطيع الصغير الذي وجد من يهتم بامره .

كان مسيحيو حمص يجتمعون في منزل بربارة المذكور سابقاً للعبادة ولسماع الكرازة ، بصورة مستترة خشية الوثنيين الذين كان تعصبهم في حمص بالغاً حده الاقصى . على ان الوثنيين لم ينتبهوا بادىء بـدء لاجتماعات المسيحيين في ذلك المنزل وخروجهم منه زرافات ووحداناً بعد قضاء لبانتهم فيه . لانهم اعتادوا في مثل هذا الوقت ان يؤموا منازل الاعيـان لتناول المنبهات والتحدث عن الماجريات الحاصلة . بحيث يقضون مدة غير يسيرة في مثل ما ذكر ثم ينصرفون الى اعمالهم الخاصة خارجين من منازل الوجوه كخروج المسيحيين من معبدهم . لذلك لم يلفت هذا المشهد المألوف افكار الحمصيين الوثنيين الى المتنصرين منهم .

على ان تعصب الوثنيين الشديد في حمص جعل انتشار المسيحية بطيئاً فيها ووجود هيكل الشمس الذي كان محجة الزوار من اقاصي الاصقاع الرومانية جعل للوثنية الكلمة العليا فيها . عدا انها مذهب الحكومة الرسمي. غير أن هذا كله لم يوقف سير المسيحية في المدينة. وقد هزأت غيرة المسيحيين الاولين بكل صعوبة ومشقة . ولكن لما تكاثر عدد المسيحيين فيها ولم يعد امرها خافياً استيقظ التعصب الديني في قلوب الوثنيين واخذوا يترصدونهم بحرص وشدة ، ومن عُرف انه مسيحي كان نصيبه الموت لا محالة .

٤ — اضطهاد النصارى في حمص

ثبت كثيرون من متنصري حمص ازاء هذه التجارب ولزموا ايمانهم حتى الوفاة. فبعضهم لاذوا بالاحراج والمغاور للنجاة من الموت. وبعضهم هجروا المدينة الى سواها من المدن التي تؤمن بها المغبة . وسمع رهط منهم بأن التفتيش على النصارى في الاناضول اخف منه في حمص . فنزح كثيرون الى تلك الاصقاع ، عرفنا من هؤلاء يوحنا السرياني الذي أمَّ شمالي الاناضول حيث اماسيا الغلاطية وهناك ولد له ابنه نيقيطا الذي اهلته تربيته الحسنة لاعتلاء سدة رومة باسم البابا انيقيطس (١٥٧—١٦٨) .

اما مسيحيو حمص فكانوا كسائر مسيحيي سوريا عرضة للاضطهادات التي كان يثيرها امبراطرة رومة ضدهم ويزيد كربهم عن اولئك ان مواطنيهم كانوا أشد تعصباً من سواهم في المدن الاخرى واكثر قسوة وصلابة . لكنهم تشبثوا بأذيال الحكمة فظلت لهم بقية الى ازمنة الراحة . وكان عددهم يزيد تارة وينقص اخرى بحسب الظروف الطارئة عليهم من شدة او رخاء .

ومع ان المدة التي قضاها سيفيروس الاول في سوريا كانت قصيرة (١٨٢—١٨٤) ارتاح فيها مسيحيو حمص . بالنظر لشدة المذكور في حفظ النظام . ولكنه بعدما تسنم العرش ، ورأى ازدياد نموهم ، رابه امرهم . فأصدر امراً باضطهادهم لتخيله انهم اعداء المملكة الرومانية . فنال مسيحيي حمص عذاب شديد تحملوه بصبر جميل . وتقاطر اذ ذاك كثيرون من النساك الى المدينة لتشجيع المسيحيين . وحضهم على الثبات في الايمان . وقد عرفنا من هؤلاء الآباء البررة ، الناسك اونوفريوس الذي قدم الى المدينة في اوائل القرن الثالث . وجال بين المسيحيين بزي صعلوك فقير يشجع وينشط ويعظ ويبشر . فخفظت جماعيه البقية الباقية من التشتت وزاد عددها بمن انضم اليها من المؤمنين الحدثاء الذين منهم احد وجهاء المدينة كليتوفون وزوجته لفكي والدا القديس غلاكتيون الشهيد .

٥ً ـ انتعاش المسيحية في القرن الثاني

بعد اضطهاد سيفيروس الاول سنة ٢٠٣ واضطهاد داكيوس سنة ٢٥٠ ارتاح المسيحيون نحو نصف قرن. فسح فيه المجال للمبشرين في حمص في هذه الفترة. لان الاضطهاد الذي اثاره مكسيمنوس التراكي كان قصير الامد . ولم يصل تأثيره الى حمص فانضم كثيرون من اهلها الى النصرانية وانتعشت المسيحية لدرجة ان مامه الحمصية الاصل والدة الامبراطور اسكندر سيفيروس . كاتبت المعلم اوريجانوس الشهير مستوضحة اياه عن بعض القضايا الايمانية . ثم استقدمته الى انطاكية حيث كانت يومئذ وسمحت له ان يعظ الشعب الذي سرّ سروراً عظيماً (اوسابيوس ك ٦: ٢١ و٢٣ و٢٦ وابن العبري تاريخه المدني السرياني ص ٥٥) . كما ان ابنها سيفيروس الثاني ، وضع صورة السيد المسيح مع تماثيل الآلهة الرومان ، وكان يظهر احترامه الجزيل للديانة المسيحية (البستاني ٣ص ٥٥٦).

وقبيل الاضطهاد الذي اثاره داكيوس واستشهد فيه غلاكتيون وزوجته ابستيمي الحمصيان ، عين سلوانوس الفلسطيني الاصل اسقفاً لحمص . فرعا الابرشية الحمصية مدة اربعين سنة رعاية حسنة . ازهرت في اثنائها احسن ازدهار . ولم يوقف انتشارها اضطهاد داكيوس المذكور سنة ٢٥٠ ، ولا اضطهاد والريان سنة ٢٥٧ ، ولا اضطهاد اورليان سنة ٢٧٥ ، بل ظلت سائرة بنجاح وانضم كثيرون من وجهاء المدينة الى النصرانية منهم اليان الطبيب الشهير الذي استشهد سنة ٢٨٤ بعدما استشهد سلوانوس المذكور بسبعة ايام .

٦ً ـ اكتشاف مقابر مسيحية تحت وجه الارض
يرجع انها من عهد هذه الحقبة

في خريف سنة ١٩٢٣ وربيع هذه السنة (١٩٤٠) ابرز حسن الحظ والصدفة غير المقصودة بالذات الى الوجود ثلاث مقابر مسيحية يظن انها من

عهد هذه الحقبة ، الاولى في دار واقعة في محلة المتكويين الكائنة في الضاحية القبلية من محلة باب السباع ، والثانية والثالثة في الضاحية نفسها في عرصة المدرسة الداخلية الانجيلية التي استأجرتها مؤخراً السلطة الافرنسية بمناسبة الحرب لتجعلها مستشفى للمرضى في لواء حمص .

وقد كان صاحب الدار الاولى يبغي حفر أساس لبيت في الدار المذكورة فعثر على فراغ في اثناء الحفر ظنه لاول وهلة مغارة ، وتوقع ان يجد في هذه المغارة خبيئة مالية اعتاد القدماء اخفاءها خوف الطغاة في عصر مضى ، واذا بالحفر يقوده الى غار واسع ثم يجد بمتابعة الحفر عدة حجر وآثار أخرى لم يعرف مغزاها .

كما ان ادارة المستشفى المنشأ حديثاً في الضاحية المذكورة ، أمر بعض الافراد بتخطيط ممر في الساحة يمتد من الشمال الى الجنوب تغرس على جانبه اشجار تظلله ففعلوا ، ولكنهم في اثنـاء حفرهم بؤرة لنصب احدى الاغراس رأوا فراغاً تابعوا الحفر فيه ، واذا هناك درج ينتهي بعد عمق مترين او أكثر الى فسحة واسعة اقيمت فيها عدة مدافن ، ووجد عند المدخل هيأة شخصين يتقدم الاول عن الثاني قليلا وبيده مصباح خزفي صغير ، وبصف هذين الشخصين عدة رسوم بشرية محفورة على الجدار ، واخبرنا الجندي لذي درس هذا الموضوع اكثر من سواه من رفقائه ، ان الشخصين الاولين كانا منتصبين قبل ان يدخل الهواء من النافذة ، فلما دخل سقطا الى الارض ركاماً من التراب ، وقد رسم مخطط هذا المدفن الذي ننشر صورته في ما يلي بعد حفره على الزنك .

ووجد الجند الموكلون بخدمة المستشفى المذكور غاراً آخر يشبه المذكور قبله موقعه الى شرقيه ببضعة امتار ، مما دل على ان هذه البقعة كانت مدافن للمسيحيين ولتصوير الواقع لقارئي هذا التاريخ نصف المدفن الاول ملخصين ما يـلزم مما نشرناه في جريدة حمص في العدد الصادر في ٧ و٢٠ ت ١ سنة ١٩٢٣ .

ناووس قديم

ذهبنا مع رهط من الاصدقاء لرؤية الناووس المكتشف حديثاً ، ولما وصلنا الى المحل المقصود . نزلنا اليه على سلم خشبي تنـاهز درجاته العشرين

فوجدنا باباً يتجه قبلة طوله ١٨٥ سانتياً وعرضه ٨٠ سانتياً . اجتزنا الباب الى التاووس فوجدنا طوله من الشمال الى الجنوب ٨٨٠ س وعرضه من الشرق الى الغرب ٢٨٠ س ، وفي المحل اربعة مدافن احدهما في الجهة الشمالية قبالة الباب ، والثلاثة الباقية في الجانب الغربي ، وقد رسم فوق كل منها شكل مربع مستطيل اطاره طرابيشي اللون· وفي وسط المربع مكتوب باليونانية اسم الراقد في المدفن . وقد تمكنا بعد جهد من فك مغلقات المدفن الاول وبعض الثاني ، اما الثالث والرابع فقد تعذرت قراءة ما عليها لتقادم العهد عليها وغياب أثرها .

وترجمة ما كتب على الاول (هنا ارتاح المغبوط فيليتس الشهيد) وعلى الثاني « ارتاح المغبوط العظيم... المتوحد... » وما بقي لا ترى حروفه . ولكن وجد في آخر بعض السطور ثلاثة حروف لم يتخللها حروف صوتية ، اما ان تكون مختصر كلمات يعرفها واضعوها واما ان تكون تاريخاً هجائياً ، فان كان الاخير فهي بحسب الابجدية اليونانية تساوي ٥٨٩ ، فاذا كان تاريخاً سلوقياً كما نرجح فهي سنة ٢٧٨ للميلاد والله اعلم .

اما المدافن في الجهة الغربية فطول كل من المتطرفين ١٦٠ س والمتوسط ٢١٥ س والرابع الشمالي ٢٠٠ س وفوق كل من المدافن على رأس المربع المستطيل دائرة رسم في وسطها شكل صليب بيزانطي وفي طرفه الاعلى شبه ايبسلون مائل كأنما هو علامة الرجاء . وقبالة الصلبان الثلاثة المرسومة في الجهة الغربية ثلاثة صلبان اخرى في الجهة الشرقية . وفي وسط الجدار الشرقي شبه مذبح صغير .

وكل ما ذكر دليل انتشار المسيحية وتأصلها في حمص ، وعلى ان ثمة انقلابات كثيرة مرت في التاريخ غيرت اوضاعها القديمة حتى انه ليتعذر على الذهن استعادة تمثيلها .

٧ — ديوكليتيان وسر بحيرة حمص

ديوكليتيان هو آخر الامبراطرة الوثنيين الرومانيين ، واضطهاده الذي اثاره على المسيحيين يحسب اعظم اضطهاد عاناه هؤلاء . على ان النزاهة التي يجب ان ترافق المؤرخ في كل ما يدونه ، توجب علينا انصاف الرجل رغم الاضرار

الكثيرة التي اوقعها بمشاطرينا الوطنية والدين. فقد رأينا في تضاعيف مطالعتنا. ان الرجل خدع في ما ارتكبه من منكر وصم به في التاريخ ، وانما كان على الحقيقة وسيلة لقضاء مآرب غيره. وقد تعب ضميره كثيراً بعدما فعل ما فعل ، وعاف العرش وأبى الرجوع اليه لكي لا يخدع مرة ثانية بما خدع به اولاً . هذا من جهة مقاومته النصرانية ، اما من الجهة المدنية فقد شهد له التاريخ انه كان من اعظم امبراطرة رومة . واعترف المؤرخون الناقدون انه ثالث ثلاثة. من الامبراطرة العظام الذين كان لكل منهم عصر عرف باسمه ، وهم اوغسطس ومرقص اوريليوس ، وديوكليتيان (براستد عد ٩٧٦) وفي مدة ملكه انشأ ابنية عظيمة جليلة المقدار ، ومدناً كثيرة كبيرة منها ميلانو وقرطاجنة ونيقوميديا . وسن شرائع كثيرة دلت على حكمة وحسن ادارة (البستاني ٨: ٢٦٩) .

ومما يذكره له السلف الحمصي تجديده سد بحيرة حمص الذي سبق الاسكندر العظيم ، فأنشأه او قواه ، في مدة ستة قرون عراه وهن وخشي ان ينهار فيصاب الري بضربة قاضية ، فأصدر أمره باصلاحه واعادته الى الحالة التي كانت له يوم انشائه ، فظل السد الى عهد قريب يشهد لديوكليتيان بعطفه على هذه المنطقة النائية .

خلاصة المعروف عن حمص في هذه الحقبة

كان حظ حمص من المسيحية كسائر المدن السورية القديمة يعني انها تحسب رسولية لان احد الرسل زارها ، وكان له يد في تنصير قسم من اهلها ، واذا صحت رواية المخطوطات القديمة التي طالعناها بذاتنا . وما نقله مطارنة حمص السالفون عن تحقيقات علماء الشرق المسيحي ، وما رواه ابن الصليبي فقد اشترك في تأسيس كنيسة حمص مع الرسولين الكبيرين بطرس ويوحنا ، عابوس الدربي وميليا احد المبشرين السبعين .

وقد انتشرت في حمص بالرغم من تعصب اهلها الشديد للوثنية وظلت تسير - وان ببطء - نحو النجاح عاماً فعاماً ، ولم تستطع الاضطهادات التي ثارت ضدها ان تلاشيها فضلاً عن عدم ايقافها. وانقضى القرنان الاول والثاني ، وهي متابعة سيرتها المثلى بدون تبجح وبكل حكمة وتؤدة . تتقي الاخطار التي تعرض لمثلها اخوانهم في المدن الاخرى .

وكان المسيحيون يقيمون فروض العبادة ويسمعون الكرازة في كنيسة ارشائيا القديمة التي كانت في ما سلف منزلاً لارملة تقية تدعى بربارة . كرسته لاجتماع المسيحيين ثم تحول كنيسة . ومنذ اواسط القرن الثالث رعى هذه البيعة أسقف صالح فلسطيني الاصل يدعى سلوانوس اعتبره المؤرخون الاسقف الاول ، اذ لم يحفظ لنا التاريخ الكنسي العام اسم سواه ، اما لعدم وجود أسقف قبله في حمص بسبب شدة تعصب الوثنيين فيها . والاكتفاء بنيل ما تحتاجه البيعة روحياً من أساقفة احد الاصقاع المجاورة . واما لعدم اشتهار أساقفتها لاضطرارهم الى التكتم الشديد للسبب المنوه عنه . ثم ضاعت القماطير التي دونت فيها اسماء أساقفتها بشدة الحرص والتواري عن الانظار .

ولكن بالرغم من كل هذا فقد حفظ لنا التاريخ بين ثناياه اسماء جمهرة من نوابغ النصرانية في حمص في أواخر هذه الحقبة ، اعني من نصف القرن الثالث الى آخره . مما نأتي على ملخص ما نعرفه عنهم في ما يلي .

الملمعون الى منطقة حمص من كتاب هذه الحقبة

الملمعون الى البلاد السورية من رجال الدين في هذه الحقبة كثيرون ، نختار منهم اثنين لانهما كانا اكثر تبسطاً في آرائهما في اصل نشأة هذه البلاد مقتبسين ما عرفاه ممن سبقهما من الدارسين وهما :

١) اكليمنضوس الاسكندري (١٥٠—٢٢٠)

هو تيطس فلافيوس من اشهر معلمي النصرانية ، ولد وثنياً في اواسط القرن الثاني . وتفرغ منذ حداثته لدرس الفلسفة ، فجاب بلاد اليونان وايطاليا ومصر . وتضلع من الفلسفتين الرواقية والافلاطونية ، وخالط المعلمين النصارى ، فأثر فيه ما سمعه منهم . ولاسيما ما وعاه من خطب بانتين مدير المدرسة المسيحية في الاسكندرية . فاهتدى الى النصرانية ، وصار معاوناً لاستاذه المذكور في المدرسة ، ثم خلفه في ادارتها سنة ١٩٠ ونال شهرة عظيمة ، حتى تقاطر اليه الطلبة من اقاصي البلاد ، وبين هؤلاء اوريجانوس العلامة الشهير . فسامه ديمتريوس قساً وظل يدير المدرسة الى سنة ٢٠٢ ، ولما حدث اضطهاد سيفيروس برح البلاد المصرية الى فلسطين ، فبقي فيها مدة ثم عاد الى الاسكندرية ومات فيها . وقد ترك مؤلفات كثيرة دلت على غزارة علمه ، وفي مطالعتها من اللذة ما لا يوجد مثله في مؤلفات القدماء . ولا سيما ما ذكره عن تاريخ العالم لاحتوائه على اقوال كثيرة منقولة عن مؤلفين لم يبق لتآليفهم أثر ، ومن ذلك ما رواه عن منطقة حمص .

٢) ديونيستوس الاسكندري (٢٤٧-٢٦٥)

أشهر أساقفة الاعصر الاولى المسيحية ، ولد وثنياً في اواخر القرن الثاني

وتربى تربية كلها اجتهاد في التحصيل ، وطالع الكتب المسيحية فصار نصرانياً وتتلمذ لاوريجانوس الشهير ، ولما تفقه في الدين المسيحي تولى التعليم والوعظ . فسيم شماساً فقساً ثم مـديراً للمدرسة التي تخرج فيها فساسها بالعلم الصحيح والادب القويم . حتى قبض على عصا الرعاية في كنيسة الاسكندرية خلفاً لايراكلاس سنة ٢٤٧ وظل فيها نحو عشرين سنة ، وقد نفي باضطهاد داكيوس فاظهر جرأة فائقة ، ولما توقف الاضطهاد استعد لرحلة واسعة تفقد فيها رعيته سنة ٢٥٤ فشدد الصغيري النفوس واصلح الاخطاء التي ارتآها بعضهم ، وبعد جهاد عظيم توفي سنة ٢٦٥ تاركا للبيعة مؤلفات ذات قيمة ، اغترف منها اوسابيوس المؤرخ الكبير أغلب مواد الجزئين السادس والسابع من تاريخه ، ومعظم ما ألفه ما برح محفوظاً في احدى مكاتب فينسيا .

نوابغ حمص النصارى في هذه الحقبة

١) اونوفريوس الناسك

لم يكن اونوفريوس حمصي المولد ولكنه عاش في حمص مدة طويلة ، خدم فيها نفسيات الحمصيين . وكان وسيلة ذات أثر حسن بتقليصه ظل الوثنيـة من بيوت كثيرة فيها ، وكان الباعث لحضوره الى حمص الاضطهاد الذي أثاره سيفيروس الاول سنة ٢٠٣ ، ونفذه سيكوندوس حاكم سوريا وكانت شدته ظاهرة بنوع اخص في حمص . فأسرع هذا الناسك لتنشيط المسيحيين فيها وتوطيد اقدامهم على صخرة الايمان ، ولكي يتسنى له نيل بغيته جاب المدينة بزي صعلوك فقير . ودخل منازل كثيرة بدون وجل ، فلم يكن وسيلة لثبات المتنصرين فحسب بل قاد كثيرين الى المسيحية ، ومن هؤلاء كليتوفون وزوجته لوكيبي والدا القديس الآتي ذكره ، ويرجح بعضهم ان هذا الناسك هو نفس القديس اونوفريوس الذي يقيم الشرقيون ذكراه في ١٢ حزيران ، وقد توفي في اواخر القرن الثالث .

٢) غلاكتيون وزوجته ابستيمي

هو ابن الوجيه كليتوفون مع زوجته لوكيبي . كان ابواه وثنيين فتنصرا بواسطة السائح اونوفريوس وبعد تنصرهما رزقهما الله هذا الولد في النصف الاول من القرن الثالث . وقد أحسن والداه تربيته بروح مسيحية فنشأ خير مثال للتهذيب الصحيح والفضيلة النقية ، وقد تبحر في المبادىء المسيحية بواسطة الناسك اونوفريوس المذكور . فلما شب زوجه والداه بابنة مولودة لافاضل الوثنيين . ولما عرفت ان زوجها مسيحي وكانت تحبه جداً وتحترمه تابعته بدون تردد على عقيدته التي تفقهت فيها . ومالت نفسها الى الجهاد في سبيل نشرها في البيئة التي كانت لها بها صلة حميمة . فكان ذلك مدعاة لاثارة غضب الوثنيين عليها وعلى زوجها . ولما قصرت يدهما معاً عن نيل ما تمنياه ، هجرا حمص ولاذا باحد أديرة طور سينا . فلما ثار اضطهاد داكيوس سنة ٢٥٠ كان من حظهما الاستشهاد في ذلك الاضطهاد في ٥ ت ٢ سنة ٢٥٠ ، ويقيم ذكراهما الشرقيون في يوم استشهاده كل سنة .

٣) الاسقف سلوانوس

سلوانوس فلسطيني الاصل نشأ في قيصرية فلسطين في الشطر الاول من القرن الثالث المسيح . وفيها زهد في العالم وترهب فكان خير نموذج للرهبان . ولما ذاع خبر أدبه وتقاه استقدمه اسكندر أسقف اورشليم (٢١٢ — ٢٥٠) واختصه بذاته بعدما سامه شماساً فقساً . ولما ازداد عدد المسيحيين في حمص بحيث اصبحوا بحاجة الى أسقف يملأ الفراغ الذي حدث بسبب الاضطهادات ، طلب بابيلا أسقف انطاكية من أسقف اورشليم المذكور معاونته بارسال اكليريكي صالح يصلح ان يكون اسقفاً لحمص . فرأى اسكندر في سلوانوس الضالة المنشودة . فبعث به الى بطريرك انطاكية ، فسامه للحال اسقفاً وأرسله الى حمص حيث رعاها حتى الرعاية مدة اربعين سنة ، وكان لقدوته الصالحة تأثير كبير في المدينة . لانه لم يقصر خدمته على ابناء مذهبه فقط ، بل كان

يمد يده لمؤازرة أي من كان بحاجة الى مؤازرته ، فقربته هذه المزايا من قلوب العامة ، وجعلت المسيحية التي يرأسها مثل هذا الزعيم الصالح محترمة الجانب . وعطف الوثنيون على المسيحيين في ابان الاضطهادات التي أثـيرت ضدهم في سنتي ٢٥٠ و ٢٥٧ ، وتنصر عن يده عدد كبير من وجهاء الوثنيين بل ومن انسباء العترة المالكة ، ومن هؤلاء ايليان الطبيب الحمصي الشهير الآتي ذكره .

ولكن لما حدثت الاضطرابات في حمص في ايام نومريان اعتقل سلوانوس وشماساه لوقا وموكيوس ، وقتل الكل على مشهد من الملأ في ٢٩ ك ٢ سنة ٢٨٤ .

٤ً) ايليان الطبيب الحمصي الشهيد

هو أشهر نوابغ النصرانية القدماء في حمص ، ولد من أب يمت الى ملوك رومة بصلة ومن أم فارسية الاصل ذات تهذيب حسن ، فاستفاد من اخـلاق والدته وكرهت نفسه اخلاق والده الوثنية ، فأخذ يبحث عن ديانة أرقى فاهتدى بعد طول البحث الى الديانة المسيحية ، وكان قد ألمّ الماماً واسعاً بفن الطب على أثر مرض والدته الطويل . فأخذ يهتم بنفوس مرضاه كما اهـتم بتطبيب اجسادهم ، وكان لسلوانوس أسقف حمص الفضل الاوفر في تهذيبه الصحيح وتلقينه المبادىء القويمة . فلما ألقي القبض على الاسقف المذكور وشماسيه في ايام نومريان وحكم عليهم بالاعدام ، لم يجد الطبيب ايليان بدأً من مقابلتهم على الطريق ومصافحتهم فأمسك هو أيضاً ، وبعدما قتل اولئك قتل هو أيضاً بانزال خمسة مسامير كبيرة في رأسه وطرح في مغارة ، حيث أسلم الروح في ٦ شباط سنة ٢٨٤ .

وقد وضعنا له ترجمة مفصلة بكتاب كامل دعوناه انارة الاذهـان في ترجمة الشهيد الحمصي اليان ، فمن اراد التوسع بمطالعة ترجمته فعليه بمراجعة هذا السفر الجليل .



الحقبة العاشرة

حمص

بعد النصرانية وقبل الاسلام

٣٠٥ _ ٦٢٢ م

خلاصة تاريخية عهد العرب

توطئة

هذه آخر حقبات القسم الاول من تاريخ حمص وهو تاريخها قبل الاسلام وفيه أهم موضوع تلذ مطالعته ابناء الضاد واعني به تاريخ العرب قبل الاسلام. وانما وجب التعرض له لصلات العرب الوافرة في هذه الحقبة بتاريخ حمص الخاص لذلك اوجبنا على انفسنا ان نلم به إلمامة تضم اشتاته منذ عرف حتى الاسلام. واننا لنجد من الانصاف ان نعترف لعلماء العرب بما بذلوه من الجهود الجبارة وانفاق الاموال الطائلة في البحث والتنقيب لالقاء نور على كثير من زوايا الموضوع التي ظلت خافية مدة طويلة. كما اننا لا نغمط حق رهط من المشارقة الذين استطاعوا ان يدلوا المستشرقين انفسهم على بوادر فاتتهم وردوا بعض ما جنحوا فيه الى ما هو أهدى سبيلاً.

ونلخص هنا ما اجمله الفريقان مما له صلة بتاريخ حمص مسندين كل رأي فيه نظر الى مرتئيه.

١ — العرب في صدر التاريخ

العرب اخوان الاشوريين والآراميين والفينيقيين والعبرانيين فهم ساميون بدليل ملامحهم وقاماتهم ولغتهم .

موطنهم الاصلي جزيرة العرب وعاشوا . في حال البداوة مدة طويلة يسرحون في البادية ، يرعون الماشية ثم يأوون الى المضارب . ويقتاتون بلبان الانعام ويكتسون من صوفها .

وكان من حظ بعضهم انهم نزلوا في بقاع خصبة فتحضروا اذ بنوا لاول امرهم بيوتاً بسيطة ثم شادوا المعاقل والحصون .

غصت بلاد العرب بابنائها فطلبوا لهم مواطن جديدة فكانت الهجرة الامورية في القرن السادس والعشرين قم على رأي باتون الاميركي وونكلير الالماني ، ثم حدثت الهجرة الآرامية حوالي القرن السادس عشر والانباط في القرن السادس قبل المسيح ، وهذا النزوح التاريخي حمل العلامتين المذكورين على القول ان المهاجرات الشعبية كانت تحصل في كل الف سنة مرة .

فاذا صح ظن بعض الباحثين من ان الاموريين والآراميين والانباط عرب ، فان خروجهم مكنهم في الجزيرة والعراق والشام . اذ لا يتعذر عليهم الفوز على القبائل الضعيفة النازلة في مشارف الشام بعد ان تغلبوا على السوريين. ويرى وولنسون الانكليزي ان العرب استولوا على كلديا مدة ٢٤٥ سنة (١٥٤٦—١٣٠٦) او (١٥٥٩—١٣١٤) م ١٨١:٤ .

والظاهر ان معظم النازحين قصدوا ما بين النهرين اولاً ثم تخطوها الى سوريا ، ثم سرح بعضهم في البادية الكائنة ما بين مصر وسوريا .

وروى ماسبيرو ان الاموريين نزلوا شرقي الاردن وعلى ضفاف العاصي . فنازعهم العمونيون الذين تابعوا مصادمة القبائل العربية السارحة في البادية كالعمالقة وسواهم ، الذين نزحوا وسرحوا حول الاراضي الخصبة من بوغاز السويس حتى ضفاف الفرات. فخافهم الاهلون في سوريا الشمالية كما هابهم قاطنو الجنوب. وكثيراً ما قصد غزاتهم سوريا المجوفة واصطدم بهم المسافرون الى دمشق .

٢ — العرب في ايام حث واشور

قبلما خرج الاسرائيليون من مصر الى الشام سبقهم اليها من الشمال الآراميون والحثيون ، وكان العرب عوناً للحثيين في حروبهم مع المصريين ، وكادوا يوقعون رعمسيس الكبير بداهيــة لولا ان انقذه الحظ منهم . وبعد الحروب الحثية المصرية هدأ صوت العرب فلم يسمع لهم ذكر حتى ايام الاشوريين.

في غزوة تغلثبلاسر سنه ٧٤٢ لسوريا ذكرت حبية ملكة العرب . ولما استولى على بعض مدن اسرائيل سنة ٧٢٧ خافه ملك غزة ولاذ بالعرب فأجاروه فنقم عليهم تغلثبلاسر واكتسح البادية التي لم يطأها فاتح قبله .

وفي ايام سرجون ثار العرب على أشور يتقدمهم ملكا حث وغزة ، وأيدهما صيني قائد جيوش ملك موتسري ، فوقعت الحرب عند رافيا وانتصر الاشوريون سنة ٧٢٠ فاسترضوه بالهدايا ، وذكرت اذ ذاك بين مقدمي الهدايا شمس ملكة العرب وايتامارا ملكة سبا .

واهتم أسرحدون بكسر شوكة العرب ليأمن جانبهم ويظفر بتجارتهم ، ولاسيما ما كانوا ينقلونه من اليمن الى سوريا ومصر . فحامل ادوم وزحف على قطري بازو (بوز) وخازو (عوص) مجتــازاً السهول القاحلة والحزون الجرداء حتى لقي العرب وراء النجف فتك بثمانية من زعمائهم ، منهم ستة ذكور وانثيان.

وذكر العرب بصورة مهيبة في ايام أشور بانيبال لما عصاه اخوه وأيــده قائدان عربيان . وامتدت مساحة القتال من شمالي سوريا الى مصب الفرات ومن دمشق الى البتراء ، واخيراً فاز الاشوريون ، وانتهت المعركة الفاصلة على سفح جبال حوران وأسر الزعيان العربيان ، وكان القفر يومئذ غاصاً بالعرب (باتون).

وروى ماسبيرو انه كان بين الاسرى قائد اسمه ابياته ، فأخلى ملك أشور سبيله وجعله ملكاً على العرب تحت سيادة أشور . فلما وصل ابياته الى بلاده حالف ناتان ملك الانباط وعصى الاثنان على أشور ، فزحف عليهما أشوربانيبال سنة ٦٤٢ مجتازاً الفرات ، وفــاز فوزاً عظيماً اذ سبى النساء والاولاد وسلب الانعام وعاد الى بلاده مثقلاً بالغنائم وبيع الجمل الواحد بنصف شاقل (كذا يقول الرواة)

٣ — العرب في ايام كلدة وفارس

اوقفت هذه الحرب اندفاع البلاد نحو سوريا بعدما رأوا ان قبائل أدوم ومواب وعمون يعاونون أشور عليهم .

فلما سقطت الدولة الاشورية ولمع نجم نبوخذنصر ، ثار العرب عليه مع من ثار ، وطردوا الادوميين من اطراف الشام الى جنوبي اليهودية ، واكتسحوا بلاد موآب فأضاعوا كيانها الوطني . فأثار ذلك غضب نبوخذنصر فأضرم حرباً زبوناً على العرب اكتسح فيها قسماً من بلادهم الاصلية ، فأوهنت غزوته العرب ولم يرد ذكرهم في التاريخ بعد ذلك مدة طويلة .

وفي ايام الفرس ذكروا بصورة لا تدل على القوة وذلك حين اراد نحميا تجديد سور أورشليم فوجد بين خصومه جشم العربي .

وبعد حملة كمبيز على مصر ورد في التاريخ انه واثق اميراً عربياً ساد على البدو الضاربين في القفر الممتد مسافة ٩٠ كيلو من ينيوس (خان يونس) آخر المعاقل السورية الى بحيرة سربون . فعاهده الامير المشار اليه على ان يقدم لجيشه ما يلزمه من الماء مدى الطريق ، فاستفاد كمبيز من اجتياز القفر سنة ٥٢٥ .

يُذكر العرب بعد ذلك حينما ثارت قبرص على الدولة الفارسية تحت امرة افاغوراس (٣٩١–٣٧٩ ق‌م) صاحب سلاميس . وعضد الثوار ملك عربي فأنجده على فتح أدوم ، ولكن ارتحشستا أرصد لقتال مناهضيه جيشاً فاز عليهم (ولكن) بعد عشر سنوات (بورتر : ١٧٢) .

٤ — العرب في ايام السلوقيين

مرت سنوات بعد ذلك والعرب في العراق والجزيرة والشام قبائل متبدية . لم يسمع عنهم الا ما له صلة بالدول الكبرى . من ذلك ما حصل في ايام اسكندر بالاس الذي اضطر ان يلوذ بقبائل العرب في شمالي سوريا ، فلما ضايق بطليموس زيديئيل العربي اضطر ان يرسل له رأس بالاس سنة ١٤٦ .

ومما رواه كاتب المكابيين ان ايلكوئيل امير العرب اخذ على عهدته تربية الطفل ابن بالاس ، وظل تحت حمايته حتى طلبه تريفون فسلمه بعد الحاح ووعد بانه سيسند اليه منصب ابيه .

وروى يوسيفوس ان العرب في جنوبي سوريا تكاثر عددهم وعادت اليهم منعتهم ، ففازوا على موآب وجلعاد ، وغلبوا اسكندر يانيوس ، واضطر هذا ان يرد الصقعين الى ملك العرب لكي لا ينضموا الى خصمه ديمتريوس سنة ٨٩ ق م .

ويظهر ان تكاثر العرب لم يقتصر على جنوبي سوريا بل تخطاها الى الشرق حتى استلفت ذلك انظار الدولة السلوقية . فاستنجد فيليبس العرب على اخيه ديمتريوس فأنجدوه بقوة تزعمها امير اسمه زيزون فظفروا وغنموا .

واخلص العرب لفيليبس فحالوا دون وصول اخيه دانيس الى دمشق وفسحوا المجال لفيليبس حتى تمكن من الاستيلاء عليها . ولما اعتقل فيليبس واراد اخوه الاغارة على اليهود قابلوه بعشرة آلاف فارس يقودهم الحارث وفتكوا به وفر جيشه . وملك الحارث سوريا المجوفة سنة ٨٥ ق م .

٥ — العرب في العهد اليهودي الاخير

روى يوسيفوس ان اسكندر يانيوس (١٠٥—٧٨ ق م) كان قد غزا البلاد المجاورة فامتلك منها ١٢ مدينة . بعضها لادوم وبعضها لسواهم ، فلما وصل النزاع بين هركان واخيه اريسطوبولس . اشار انتباتر الادومي على الاول ان يستعين بالحارث ملك العرب على اخيه . ففعل هركان بنصيحته ووعد الحارث برد المدن الـ ١٢ له اذا أعاد اليه عرشه . فزحف الحارث بخمسين الفاً بين فارس وراجل ، وحارب اريسطوبولس في الهيكل فحاصرهم العرب . ضيقوا عليهم الخناق ، وفرّ معظمهم الى مصر تفادياً من مس الهيكل بسوء ، ولولا قدوم بومبي وتأييده اريسطوبولس لتم الامر على ما يريده هركان .

ويرى المؤرخون ان العرب اوغلوا في شمالي سوريا وسرحوا في قفارها وانشأوا دولة عربية في حمص قبل الزمن الروماني ، حفظت لنا الروايات اسماء عدة من ملوكهم ، ولهذه الاسماء صيغة عربية حرفها النقلة من الاعاجم (المباحث ٣ : ٢٧٠)

وارتأى العلامة بودتر ان اللغة العربية اجتاحت سوريا في الزمن الذي ملك فيه كثيرون من امراء العرب في المدن السورية ، اذ وجدت سنة ١٨٥٥ كتابات يونانية في حوران فيها اسماء عربية ، وأيد هذا الرأي العلامة دوسو .

ويرى مؤرخو العرب ان قدماء الايطوريين كانوا من العمالقة ، فلما بادوا بقي من اعقابهم افخاذ ينسبون الى الظرب بن حسان . فلما انقضى امرهم اعترت قضاعة وامتدت مسارحها بين الشام والحجاز ، وكانت الرئاسة فيها لبني تنوخ ، ونبغ منهم ثلاث ملوك وهم النعمان بن عمرو ومالك بن النعمان وعمرو بن مالك .

بدأت ولاية هؤلاء الملوك في صدر النصرانية . واختلفوا فيما اذا كانت عزة تنوخ في اوائل سيادة الرومان أم بعدها ، فرأى البعض ان عزة تنوخ كانت قبل ذلك ثم غلبهم بنو سليح فأقرهم تيطس على ملك العرب سنة ٧٠ م .

لا يحقق مؤرخو العرب المشاهير زمن وجود العرب في سوريا ، ولكن المستخلص من اقوالهم على تفاوتها ، ان العمالقة كانوا اقدمهم وجوداً في ضاحية الشام . وان آخر ملوكهم عمرو بن الظرب عاصر مالك بن فهم ملك بدو ما بين النهرين ، فلما تحارب الفريقان قتل ابن الظرب ، فملكت بعده ابنته الزباء التي اغتالت جزيمة الوضاح بجيلة فقتلها بثاره ابن اخته عمرو بن عدي (البستاني ٩ : ١٦٧) وجرت هذه الحوادث في اوائل التاريخ المسيحي ، والذين وقعت بينهم هذه الحروب من العراق . اما قبائل الشام فمعظمهم بنو قضاعة رحلوا من بلاد حمير فنزل منهم بنو كلب في دومة الجندل وتبوك . وبنو سليح بين غزة وجبل الشراة ، وانتشر الباقي بين الشام والحجاز . وتحضر بعض التنوخيين بعد ظفر عمرو بن عدي بالزباء ، فعهد اليه بملك العرب ، ثم غلبهم بنو سليح . وبعد سيل العرم خرج قوم من الازد من اليمن ينتجعون فلما بلغوا الحجاز اقام بعضهم في مرّ الظهران وهم بنو خزاعة. وذهب الباقون الى الشام والفرات ، فنزل الاولون على ماء اسمه غسان فنسبوا اليه ، ثم ساروا فنزلوا جبال الشراة وملك الغساسنة بعد حروب ، ما بين الحجاز والشام مما يلي دمشق والاردن فجاوروا الضجاعم وبني سليح .

٦ - العرب في عهد الرومان

ظهر من الآثار التي انتهى تاريخها الى الزمن الروماني ، ان العرب كانوا يأتون فيخيمون في القفر ينتجعون المراعي والمياه . وينتقلون بانعامهم من موضع الى آخر ، حتى يستقروا في اوفقها لمصلحتهم . فيبنون القرى والمزارع ويخالط معظمهم سكان البلاد الحاذية البادية ، فيتأثرون بالبيئة التي يخالطونها . لذلك غلبت على بعضهم المناهج اليونانية وعلى البعض الآخر المناهج الآرامية . ويظن البعض ان الفضل في دخول الحضارة اليونانية بين العرب ، الى هيرودس الكبير اذ ظهرت آثار الحضارة في بلاد من كانوا على طاعته . ودل التاريخ على ان العرب النازلين في الشرق والشمال من سوريا ، كانوا مائلين لملاينة الرومان لقربهم منهم . اما الجنوبيون فظل لهم شيء من الاستقلال لمتاخمتهم البادية . واهتم الرومان بشرقي سوريا فبنوا بعض الحصون في ما وراء تخوم الحضر ، ولم يبالوا بعرب الجنوب لان حصون اليهودية كافية لردعهم .

اما عرب الشمال الشرقي فقد كانوا كثاراً والرئاسة فيهم لبني السميدع ، وقد تحضروا فسكنوا تدمر وتكاثروا فيها . وقد عرف القارىء من امرهم الشيء الكثير في الحقبة الثامنة . الى ان دالت دولتهم بعد معركتي انطاكية وحمص وخراب تدمر ، وكان بين الحازبين لزينب ملكة تدمر قوم من بني سليح ، الذين سبقت لهم موالاة الروم وانما حازبوا زينب لعزل الروم بني سليح عن الامارة واقامة الضجاعمة مكانهم .

والضجاعمة بطن من سليح من قضاعة قدموا من البحرين مع من قدم من اليمن الى الشام في اواسط القرن الاول . وكان بنو تنوخ آنئذ ملوكاً للرومان على عرب الشام . فغلب بنو سليح التنوخيين وتولوا مكانهم مدة . ثم انحصر الملك في الضجاعم واتصل الى عمرو بن مروان بن الحاف ، فتنصروا واثبتهم القياصرة ملوكا على العرب . الى ان خرجت غسان من مارب ونزلت بالشام فجاورت الضجاعم ورئيسهم آنئذ داود اللثق بن هبولة . فلما اراد هذا جمع الاتاوة من غسان ، امتنعوا . فاقتتلوا ففاز الضجاعم وأدت غسان الاتاوة .

فلما نشأ جذع بن عمرو في غسان طالبه عامل الضجاعم بدينار . فاستمهله فأبى ، فثارت الحرب بين غسان والضجاعم . ففاز الغسانيون وخلفوا الضجاعم على ملك عرب الشام من قبل القياصرة ، وكان آخر ملوك الضجاعم زياد بن هبولة (البستاني ١١: ١٢٢) .

قيل كان للحارث الغساني ابنة جميلة اسمها حليمة . دفع اليها ابوها قدراً (فيه طيب) وقال لها خلّقي بـه قومك حتى يناحوا ، فجعلت حليمة تخلق القوم تحضهم على القتال . فمرّ بها شاب فلما خلقته تناولها وقبلها . فصاحت وشكت ذلك الى ابيها . فقال لها اسكتي ، فما في القوم اجلد منه حين اقبل على تقبيلك . فاما ان يبلي غداً بلاء حسناً فأنتِ له . واما ان يقتل فننال منه الذي تريدين . فأبلى الفتى بلاء عظيماً وكان سبب فوز غسان على الضجاعم ، فزوجه حليمة ، وكان يوم حليمة من اعظم ايام العرب .

ولما انتهى الامر للغساسنة في اول القرن الرابع ، اقرهم الرومان على حكم العرب . وكانت منازلهم ممتدة من تدمر شمالاً الى اقصى البلقاء جنوباً . ومن اشهر هذه المنــازل صواوين تدمر والسويدا والجولان والقناطر واذرح والقسطل ودومة الجندل والابلق ومارد وتيماء وسواها .

ونهض الغساسنة باعباء الامارة نهوضاً حسناً حتى نالوا لقب بطارقة . ولما وقعت الحرب بين الاكاسرة والقياصرة سنة ٥٠٥ نال الحارث الغساني من القيصر انسطاس لقب ملك . وحباه السلطة المطلقة على كل القبائل العربية الخاضعة للروم (بروكوب) .

وكان بين عرب الشام (الغساسنة) وعرب العراق (اللخميين) عداء ، جعل الاخيرين ينضمون الى الاكاسرة ، كما انضم الاولون الى القياصرة . وهذا العداء يرجع الى زمن جذيمة وخلفه عمرو بن عدي .

٧ — شيء من تاريخ عرب الحيرة

اول من حكم عرب العراق آل تنوخ ، ومنهم جذيمة الابرش . وصار الحكم بعده الى ابن اخته عمرو بن عدي من آل نصر (فرع من لخم)

وملوك الحيرة كلهم من آل نصر الا ستة دخلاء .

اتخذ عمرو الحيرة قاعدة لحكمه في اوائل الدولة الساسانية ، فعاصر سابور وثلاثة بهرامات ، وخلفه ابنه امرؤ القيس الاول ، وعاصر من ملوك الفرس بهرام الثالث ونرسي وهرمز وسابور ذا الاكتاف . ولما قضى نحبه في حوران خلفه ابنه عمرو . وفي ايامه حدثت الحرب بين الفرس والروم . وكان سببها ان عرب الحيرة ساروا نحو ما بين النهرين فوافقوا عربها وكان ذلك في بدء تسود الغساسنة ، فلقي منهم عرب الحيرة الامرين وانحاز بعضهم الى الروم ، ولكن كان عددهم قليلاً فلم يشعر الفرس بغيابهم ، وتوفي عمرو بن امرىء القيس بعد نهاية الحرب .

في اثناء ذلك حاول سابور الاستيلاء على ما بين النهرين ، فأوعز الروم الى بدو الشام لاقلاق الامن في طريق الفرس ، واكتفوا بهذا وبتحصين المعابر . فنال الفرس بعض الفتوحات .

ولما مات قسطنديوس وخلفه ابن عمه يوليان الجاحد سنة ٣٦١ اخذ يستعد لغارة شعواء ، فأقبل عليه عرب الشام وانضم اليه عدد كبير من الفرسان . فزحف بجيشه الكثيف سنة ٣٦٢ ، ولما صار عند ملتقى نهري بليك والفرات قدم له بعض مشايخ العرب هدايا ثمينة بينها تاج من ذهب فقبله الامبراطور شاكراً واحسن استقبالهم .

وصبر الفرس على جيش الروم حتى توغل في البلاد فتصدوا له وفيهم قوة عربية يقودها زعيم سماه الفرنجة (رودوساس) وأصيب يوليان بسهم اصمى فؤاده ومات ، فنادى الجيش بجوفيان خلفاً له ، فصالح هذا الفرس وعاهدهم .

ولكن هذه المعاهدة لم تطل لان جوفيان مات وخلفه والنتيان الذي اشرك معه اخاه والنس وعهد اليه بادارة السلطنة في الشرق ، فكان من اوائل عمله استفزاز سابور للحرب . فأغار على الروم يؤيده عرب الحيرة سنة ٣٧١ ، فكانت الحرب بطيئة السير وفاز الروم بمساعدة الغساسنة بحفظ الثغور سنة ٣٧٦ .

سكنت ضوضاء الحرب حتى توفي سابور سنة ٣٧٩ فخلفه اخوه ، ثم تولى الاريكة سابور بن سابور ، فاتفق مع الرومان على شؤون ارمينيا ، وانعطف على اياد فضربها لانها اعانت العدو عليه (او لانهم تخلفوا عن نجدته) .

ومـات سابور خلفه اخوه بهرام فقتل ، وخلفه يزدجرد . هذا تلطف بالنعمان الاعور ملك عرب الحيرة وأيده بقوة ، فكان النعمان من أشد ملوك العرب نكاية باعدائه وأبعدهم غزواً هاجم الشام مراراً وأوقع باهلها وسبى وغنم وكان عنده كتيبتان احداهما فارسية الرجال اسمها الشهباء ، والثانية تنوخية اسمها دوسر . كان يغزو بهما من لا يطيعه من العرب .

وتوفي النعمان خلفه ابنه المنذر ، وللمنذر هذا فضل على بهرام جور لانه اعانه في حروب كثيرة . ولاسيما حينما زحف الروم وحاصروا نصيبين التي كانت آنئذ بيد الفرس . وصبوا قوتهم على الفرس ومن معهم فأنزلوا بهم الرعب ، ففروا لا يلوون على شيء ، ووقع كثير منهم في الفرات مثقلين بالسلاح (تيوفانس) . فاستنصر بهرام المنذر فلباه واجتاح سوريا من جهة ثانية فاضطر الروم لعقد الصلح .

ومات المنذر خلفه الاسود الذي حارب الغساسنة وأسر بعض امرائهم ، فأراد ان يعفو عنهم فحال دون ذلك ابن عمه ابو اذينة الذي قتل الغسانيون أخاه فأغراه على قتلهم بقصيدة مطلعها :

ما كل يوم ينال المرء ما طلب   ولا يسوغه المقدار ما وهبا
وانصف الناس من ان فرصة عرضت   لم يجعل السبب الموصول مقتضبا

الى ان يقول :

والعفو إلا عن الاكفاء مكرمة   من قال غير الذي قد قلته كذبا
قتلت عمراً وتستبقي يزيد لقد   رأيت رأياً يجر الويل والحربا
لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها   ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

ومات الاسود خلفه اخوه المنذر ، ولم تطل مدته خلفه النعمان بن الاسود وفي ايامه عادت الحرب فاضطرمت بين الفرس والروم فقضى مدة حكمه القصيرة خارج الحيرة يحارب الروم في الجزيرة وسوريا . وقد نصر امير غسان الجيش الروماني بفرسانه فأنعم عليه القيصر بلقب ملك العرب .

ومرت ظروف على عرب الحيرة ثم تولى زعامة العرب فيها المنذر الثالث ابن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء ، وكان ملكاً عظيماً لا يصطلى له بنار ، شن الغارات مراراً على تخوم الروم فسامها مالا يطاق من السلب والنهب .

مغتنماً فرصة اشتغال الروم بحرب الفرس فدخل سوريا من غير المواقف الدفاعية فاكتسح الاقطار حتى بلغ خالكيس (عنجر) فأحرقها وعـاد مثقلاً بالغنـائم (المباحث ٤: ٧٥٦) .

ويرى العلامة دوسو عن نولدكي ان عرب الشام تعقبوه بامرة ملكهم الحارث فانتصروا عليه في نيسان سنة ٥٢٨ .

وسنة ٥٣١ اشار المنذر على قباذ ملك الفرس بتغيير مواقع الحرب مع الروم ، لان محاربتهم في اعالي النهرين حيث الحصون المنيعة والذخائر الوافرة والاقوات الكثيرة تسهل الفوز للروم ، بينما اجتياز الفرس الفرات حيث لا حصون ولا جيوش تصدهم تخولهم الفوز على الروم وفتح انطاكية الغنية . فانصاع قباذ لرأي المنذر وأرصد لهذه الحملة ١٥ الف فارس ، اجتازوا الفرات عند قرقيسيا وساروا على محازاته حتى صاروا تجاه خط انطاكية فاتجهوا غرباً فبلغوا بلدة اسمها كابولا موقعها على الشط الشمالي من السبخة (بحيرة الملح) غير انهم وجدوا الروم بانتظارهم اذ اتصلت اخبارهم بالقائد الروماني فضبط الطريق وحال دون مرورهم ، ومعه عشرون الفاً بينهم كثيرون من العرب ، فاكتفى الفرس من الغنيمة بالاياب . فتعقبهم الروم وادركوهم عند الفرات حيث جرت معركة عظيمة بين الفريقين ، لولا ارتداد البدو لكان فوز الروم عظيماً . فوبخ كسرى قائده ازاريت ، اذ لم تثمر غارته هذه سوى خسارة المال والرجال . وعزل المنذر عن ملك الحيرة وعهد به الى الحارث بن عمرو الكندي .

٨ — شيء عن ملوك كندة

كندة بطن من كهلان اصلهم من البحرين هجروها الى حضرموت في زمن لا يمكن تحديده ، واقاموا في مرتفع اسمه كندة ظلوا هناك دهراً وهم على وفاق مع الحميريين ، ثم جاء زمن وقع فيه خلاف بين القبيلتين ، فرحلت كندة واختار زعيمها حجر بن عمرو اكل المرار النزول في بطن عاقل ، وكان اللخميون ملكوا بلاد بكر بن وائل فحاربهم حجر وأنقذوا ارض البكريين منهم ، فأجمعت كلمة القوم على احترامه حتى مات ودفن في بطن عاقل (زيدان: ٢١٥).

فأفضت الحكومة بعده الى ابنه عمرو فاقتصر على ملك ابيه فدعي لمقصور . فلما مات خلفه ابنه الحارث بن عمرو ، وكان حازماً كبير المطامع مسموع الكلمة . فلما رأى تغير قباذ على المنذر بن ماء السماء ، تصدى له وظل يناوحه حتى ولاه قباذ على الحيرة وعزل المنذر . فعظم شأن الحارث الكندي بين القبائل وتقربوا اليه بالطاعة فولى اولاده الاربعة على معظم قبائل العرب .

اما الحارث فلم يطل امره بعد ذلك ، اذ مات قباذ وخلفه انوشروان فرد المنذر الى الحيرة ففر الحارث بماله واولاده على الهجن . وتعقبه المنذر على الخيل ، تغلب واياد وبهراء ، واخذت تغلب ٤٨ اسيراً من بني اكل المرار ، وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث ، فقدموا بهم على المنذر فقتلهم جميعاً ، وفيهم يقول امرؤ القيس :

ملوك من بني حجر بن عمرو	يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة اصيبوا	ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل	ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم	وتنتزع الحواجب والعيونا

وكان امرىء القيس غائباً عند مقتل ابيه فلما علم بقتله رجع وهو يعلم عجزه عن الاخذ بثأره لقوة عدوه وقلة انصاره ، فاستنجد بالقبائل وهو يجوب اليمن والحجاز ونجد متنكراً فلم يغثه احد . فاستودع ادراعه السموأل صاحب حصن الابلق وسعى لاستنصار قيصر الروم لان ملوك الحيرة نصروا اعداءه الفرس على الروم ، ولم يكن له سبيل الى القيصر . فوسط الحارث بن ابي شمر الغساني ، فأرسل معه من اوصله الى القسطنطينية سالماً . ولكن واشياً اضاع على امرىء القيس سعيه فقضى في القسطنطينية ولم ينل بغيته .

اما المنذر فانتقم منه الحارث الغساني في يوم اباغ ، اذ قرر الملكان الغساني واللخمي ان يتبارز ابناؤهما فمن فاز ابنه كانت الغلبة له ، فأرسل الحارث ابنه « ابو كرب » وارسل المنذر فارساً لخمياً فقتل ابن الحارث فأرسل الحارث ابنه الثاني فأصابه ما اصاب الاول ، وعرف الحارث آنئذ ان المنذر غدر به ولم يكن المبارز ابنه ، فحمل عليه حملة صادقة ، وفتك عرب الشام

باعدائهم فتكاً ذريعاً وقتل المنذر نفسه وجمهرة من كبار قومه .

واخلص اللخميون للاكاسره كما يستدل على ذلك مما فعله المنذر ابن المنذر لما حاول ملك الروم اغراءه بالانضمام اليه فخدعه وافضى الى مولاه الفارسي بما اتفقا عليه فخسر الروم سفنهم بدون جدوى سنة ٥٨٢ .

وكان الغساسنة ايضاً عوناً للقياصرة ، وكان لهم حول وطول ، واذا ركبوا للحرب بلغت عدتهم الوفاً مؤلفة .

حوادث حمص الخاصة بهذه الحقبة

١ — بناء الملكة هيلانة كنيسة بحمص

الملكة هيلانة هي زوجة قسطنديوس خلورس ووالدة الامبراطرة قسطنطين الكبير اول امبراطرة الروم المتنصرة . وهي حورانية الاصل ولدت سنة ٢٤٧ وتوفيت سنة ٣٢٨ . تنصرت ولها من العمر ٦٤ سنة . وبعد تنصرها اظهرت من الغيرة على النصرانية ما يفوق وصف الواصفين ، فانها قدمت بذاتها الى فلسطين سنة ٣٢٦ للتنقيب عن آثار النصرانية فيها وبذلت في هذا السبيل اموالاً عظيمة . وبنت كنائس كثيرة في اصقاع متعددة . ومنها كنيسة حمص التي قال فيها المسعودي ما يلي :

« خرجت امه (ام قسطنطين » هيلانة الى ارض الشام ، فبنت الكنائس وسارت الى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح عندهم ، فلما صارت اليها حاتها بالذهب والفضة واتخذت لوجودها عيداً وهو عيد الصليب وهو لاربع عشرة تخلو من ايلول . وهي التي بنت كنيسة حمص على اربعة اركان . وذلك من عجائب بنيان العالم . واستخرجت الكنوز والدفائن في مصر والشام وصرفت ذلك الى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية . وكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم فانها بنتها هذه الملكة هيلاني ام قسطنطين . وقد جعل اسمها مع الصليب في كل كنيسة لها اهـ .

٢ — قسطندي يمر بحمص سنة ٣٣٨

لما مات قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ اقتسم المملكة اولاده الثلاثة ، قسطنطين الثاني وقونسطانس وقسطنذي ، فكان نصيب الاول فرنسة واسبانيا وبريطانيا (وهي منطقة جده كاوروس) والثاني ايطاليا وافريقيا والثالث بلاد اليونان والاناضول .

وما كاد يبلغ خبر موت قسطنطين الكبير حتى تحرك الفرس لمناصبة الروم الشر ، وساقوا جيوشهم نحو نصيبين وشددوا عليها الحصار . فلما علم قسطنذي بالامر جهز حملة قوية وجاء انطاكية سنة ٣٣٨ . وعلم وهو فيها ان جيوش سوريا مختلة النظام منحلة الروابط فخشي ان تسوء النتيجة فيما لو قاد الحملة وهي على ما هي عليه من سوء التدريب ، فرأى ان يشرف بذاته على تدريب الجيش في سوريا . فبدأ بتدريبها على الحرب بحضوره بالذات موعزاً الى القادة ان يطرقوا كل ابواب الحرب . وبالرغم من الاتعاب التي عاناها لبث مراقباً تدريب القوات حتى جاء على آخرها . وبعد ذلك سار في تشرين الاول من السنة ذاتها الى بلاد الفرس مجتازاً حمص وبعلبك . حتى التقى بالاعداء في ما بين النهرين ، ووقعت المعارك بينهما ففاز عليهم فوزاً مذكوراً . وطلب الفرس هدنة فلم يرفض قسطنذي طلبهم ، لعلمه بحاجة الجيش الى الراحة بعد جهاد شاق . ورأى من اصالة الرأي الاقامة في انطاكية للحيلولة دون تكرر غارات الفرس . فزهت انطاكية بوجوده فيها ووسع ميناءها سلوقية لتستطيع ان تقبل في حوضها سفناً كثيرة .

٣ — بولس المعترف ينفى الى حمص سنة ٣٤٧

بولس المعترف من نوابغ عصره ، ولد في تسالونيكي في اواخر القرن الثالث وتتلمذ في شبابه لمتروفانس القسطنطيني . وحضر المجمع الاول النيقوي سنة ٣٢٥ فكان سكرتيراً لوقائعه . وبعد وفاة اسكندر انتخب لبطريركية القسطنطينية

سنة ٣٣٥ . ولكن صراحته عرضته لنقمة الاريوسيين . فسعوا لدى الحكومة بنفيه خمس مرات . رغم محبة الشعب له وعدم وجود ما يؤاخذ به .

فأبعد في المرة الاولى الى البنطس سنة ٣٣٦ ، ولكن اعيد منها بعد سنتين.

وأبعد ثانية الى سلانيك سنة ٣٣٩ ، وأعيد منها سنة ٣٤١ .

ونفي ثالثة الى تريف سنة ٣٤٢ ، وأعيد منها في السنة نفسها .

وأبعد رابعة الى سنجار لحمص سنة ٣٤٧ ، ثم اعيد منها الى مركزه.

ونفي خامسة الى قوقوز سنة ٣٥٠ فقطع الزاد عنه مده ستة ايام بمساعي الاريوسيين. ولما لم يمت داهمه هؤلاء في محبسه وأماتوه خنقاً . والذي يجدر بالذكر ان ابعاده في المرة الرابعه الى سنجار أثر بصحته ، فسعى الحمصيون لدى الحكومة بوسائل شتى حتى سمحت بنقله الى حمص ، فقضى فيها مدة كان فيها مثال الراعي الصالح الغيور ، وكما استأنس الحمصيون بوجوده بينهم ، تعزى هو كثيراً لما ناله من عطف الشعب الحمصي واحسانهم وفادته .

ولما توسط قونسطانس لدى اخيه قسطنديي بارجاع الاساقفة الارثوذكس الى مراكزهم سرّ الحمصيون بعودته الى سدته الرسولية ، ولكن اصابتهم غصة عميقة لمفارقتهم اياه .

٤ــ خراب ماراثوكوبرس

حدث في ايام يوليان الزائغ حريق في دفنة وتلاه جوع انتشر في الشرق. ويقال ان سبب المجاعة انما كان بعدم حكمة يوليان المذكور ، فانه لما جاء الى انطاكية اراد ارضاء اهلها ، فبالغ جداً بوسائل هذا الارضاء ، لانه عدا تعيينه نحو مئتين من اعيانها اعضاء في السنات ، واباحته للاهلين حرية انتخابهم قضاتهم الجدد ، سامح اهلها بالاموال الباقية عليهم من رسوم سابقة ، واخفض المكوس بحيث لم يبق منها سوى جزء من خمسة. فأطمع ذلك العمال والفلاحين فتهاملوا في عملهم وحراثة الارض فقل الانتاج . فحدثت المجاعة واستصرخ الفقراء الامبراطور ، فأمر الاغنياء باسعافهم واضطهد ذوي الثراء ، فضج فريقا الفقراء والاغنياء معاً فأمر باعتقال اعضاء السنات. فثار الجمهور واضطر الامبراطور ان يبرح

انطاكية غاضباً لمحاربة الفرس . ولكنه لم يرجع اذ أصابه سهم ومات في سنة ٣٦٣ وخلفه يوفيان ، ولكن امر هذا الامبراطور الرصين لم يطل فانه بعدما انهى الحرب بصورة حفظ فيها مكانة الدولة البيزانطية . وعاد الى انطاكية حيث لبس فيها التاج القيصري ، وهدأ المشاغب الحاصلة . سار نحو القسطنطينية لقضاء بعض المهام الضرورية فيها ، فمات على الطريق في ١٧ شباط سنة ٣٦٤ في الشهر الثامن للملكه والثالثة والثلاثين من سنيه . ويظن ان أحد الخصيان دس له السم في الطعام (اميان مرشلين) . خلفه والنتيان الذي بذل جهده برتق الفتوق التي حدثت في ايام يوليان ، فأصدر امراً بمعاقبة الولاة الذين اكرهوا الفلاحين على ترك حقولهم للقيام باعمال عمومية سواها ، وحتم على الفلاحين ان يلازموا حقولهم دون كل عمل آخر ، فدرت الحقول ثمراتها وخفت بذلك دواعي القلق بسبب المجاعة .

وكانت في جوار افاميا عصابة قد تألفت بسبب المجاعة ، فأقلقت الخواطر وارتكبت من انواع الشقاوة ما لا يقدر . حتى ارهبت جميع المدن المجاورة ، وتمادى بهم الامر حتى استصرخ الناس الامبراطور ، فأمر بتأليف كتيبة للقضاء على هذه العصابة المؤذية ، وكان بين رجال هذه الكتيبة نخبة من ابطال حمص الاشداء ، الذين يهمهم القضاء على القلاقل التي حدثت في بقاع تمت الى منطقتهم بصلة . فداهمت هذه الكتيبة العصاة في بلدة يقال لها آنئذٍ « ماراتوكوبرس » وبعدما طوقت البلدة ومنعت عن اهلها كل مؤازرة هاجمت المعتصمين بها ، فأنزلت بهم البوار بعدما تركت المعتصم قاعاً صفصفاً (يني : ١٩٦-١٩٨) .

٥ — وجود هامة السابق في حمص

السابق لقب أعطي ليوحنا (يحيى) بن زكريا ، لانه سبق فهيأ افكار الناس في اليهودية لمجيء المسيح . ولد قبل ولادة المسيح بستة اشهر ونشأ محباً للانفراد واعتزال الناس . ولما بلغ الثلاثين من العمر أخذ يدعو الناس الى التوبة والصلاح . وكان ذا عيشة قشفة لم يشرب في كل حياته مسكراً ولباسه من وبر الابل متمنطقاً بسير من جلد . ومع انه كان متواضعاً مع الطبقة العاملة

كان شديد الصلابة مع مخالفي الشريعة مهما عظم شأنهم · وأدى مسلكه هذا الى سجن هيردوس انتيباس اياه ، لانه وبخه بشدة على اقترانه بهيروديا امرأة اخيه فيلبس خلافاً للشريعة · واخيراً قطع رأسه وهو في الثانية والثلاثين من عمره · واعترف يوسيفوس المؤرخ اليهودي للسابق بمزاياه العالية اذ قال فيه (١٨ : ٧) انه كان رجلاً سامي التقوى حض اليهود على الاستمساك بالفضيلة ، وان لا يقتصروا على عدم اقتراف الاثم ، بل يجب ان يقرنوا طهارة الجسد بنقاوة النفس · فتبعه جمهور غفير لسماع تعليمه · حتى خشي هيردوس ثورتهم عليه · فحبسه في قلعة ماخيرون ، ثم قتله بعد ذلك .

والمروي في تقليد متسلسل ان هامة السابق بعدما قطعت بامر هيردوس سلمت الى هيروديا فوضعتها في جرة ، ودفنتها في بعض منازل الدار الملوكية ، وتنوسي امرها · وبعد مدة طويلة حضر راهبان الى اورشليم ، فاهتديا الى موضع وجود الهامة ، فحفظت باحترام · وصدف ان جاء رجل فاخوري لزيارة بيت المقدس ، وعرف بامر الهامة · فبذل كل نفيس وغال في سبيل الحصول عليها · وعاد بها الى مدينته حمص ، وحفظها بحرص في منزله مظهراً نحوها كل عوامل الاحترام · وحصل على غبطة وافرة وحظ حسن لوجودها عنده · ولما شعر بدنو اجله سلم الهامة الى شقيقته ، واخبرها انها افضل كنز يجب الحرص عليه ، واوصاها بتوقيرها · فحرصت عليها حرص اخيها نفسه · فلما توفيت انتقلت الى ايدي كثيرة بالتداول الى ان اتصلت الى يد قس اريوسي المذهب طرده ارثوذكس المدينة ، فلاذ بمغارة خارج المدينة والهامة معه · فلما مات بقيت الهامة في الغار المذكور وقد خفي امرها ، فظلت كذلك ان كشف امرها في ٢٤ شباط سنة ٤٥٣ فنقلت باحترام الى الكنيسة الكبرى في زمن الامبراطور مركيان · وفي رواية ابن العبري (ص ١٤٤) ان ظهورها انما كان سنة ٤٤٩ في زمن ثيودوسيوس الصغير .

فظلت الهامة في الكنيسة المذكورة الى اواسط القرن التاسع ، حيث نقلت آنئذ الى القسطنطينية في عهد القيصر ميخائيل ورئاسة البطريرك اغناطيوس · وانما رضي المسيحيون بنقلها الى القسطنطينية خشية تبذل هذه الذخيرة بأيدي لا تعرف قيمتها ·

٦ — الامبراطور انسطاس في حماة وحمص

الامبراطور انسطاس ديكوروس (الاخيف) ولد سنة ٤٣٠ وتوفي سنة ٥١٨ بعدما ملك في القسطنطينية ٢٧ سنة . كان من حرس الامبراطور زينون ، فلما توفي سنة ٤٩١ اقيم انسطاس ملكاً بسعي اريادنة زوجة زينون ، التي سبق لها ان احبته. وبعد ستة اسابيع تزوجها انسطاس . ثم شرع في اخماد الفتن الثائرة في الدولة . ورد عـاديات الفرس عن البلاد بحرب استغرقت سنتين ونيف ، وانتهت بصلح سنة ٥٠٥ . وظهرت مشاغب كثيرة دينية في ايامه لاظهاره الميل للمونوفيزيت .

ومن آثاره في منطقة حمص انه مكث في حماة مدة ، اهتم فيها بتحصين المدينـة المذكورة ، وسد الثلمات التي وجدت في سور حمص . نقل ذلك ابن خلدون (٢:٢١٧) عن ابن المسيحي . وذكر ذلك ابن بطريق (١:١٩١).

وأشار المنبجي (٣١٨) الى بالوس الراهب الافامي الاصل الذي قطن في حمص . وفيها انشأ عـدة مؤلفات في موضوعات شتى في ايام الامبراطور انسطاس المذكور اعلاه .

٧ — أثر الزلازل في حمص

روى المؤرخون ان زلازل عظيمة حدثت في سوريا الشمالية وامتد تأثيره الى حمص ، احدها وقع سنة ٤٤٧ ، وتلاه آخر سنة ٤٥٨ ، وتبعه آخر سنة ٤٩٤ ، وعقب ذلك زلزالان آخران في سنتي ٥٢٦ و٥٢٨ . وكانت الاولى اشد زلازل انطاكية قتل فيها ٢٥٠ ألف نفس كما قال جبون . فتهدمت منازل كثيرة ، وتركت ضحايا عظيمة ، وسببت فقراً شديداً في البلاد انتج ثورة هـائلة في انطاكية . فهاجر كثير من اهلها الى حمص التي بالرغم مما اصابها استطاعت ان تؤوي عدداً ليس بقليل من مهاجري المدن المجاورة (قادش:٥٥) .

على ان الذي درس تاريخ حمص القديم ورسم لها صورة في ذهنه ، يكاد

لا يصدق ان حمص الحاضرة هي نفس حمص الغـابرة التي قرأ عنها ما قرأ . وانما يوقفه موقف الاستغراب ازاء ما رآه وما سمعه ، ان الزلازل وسائر النكبات الطبيعية مع الجائحات البشرية غيرت وجه المدنية ، وقلبت مظاهرها الماضية رأساً على عقب ، واضاعت الكثير من معالمها التاريخية .

٨ — آثار نصرانية في حمص

بين الكتابات اليونانية التي وجدت في مدينة حمص وجوارها ، كتابات نصرانية الواحدة من تاريخ سنة ٥٣٨ م عليها صورة الصليب ، وفيها استغاثة بالعذراء مريم واسم بعض الكهنة نشرها الاب لامنس .

ووجد في حمص ايضاً صليب من البرونز طوله ٣٠ سنتيمتراً بعرض ١٤ س عند عارضتيه . وعليه كتابة يونانية مفادها الاستغاثة بالقديس جاورجيوس لاجل شخص يدعى مزميريوس ، يظن انه قـائد الجيوش الذي وجد سنة ٥٨١ . وقد نشر هذا الاثر الموسيو شلوبرجر الاثري الشهير (شيخو) .

٩ — كسرى انوشروان في حمص

كسرى انوشروان من اشهر ملوك الفرس واعظمهم واعدلهم . وقد ضرب بعدله ونزاهته المثل . روي ان رسول قيصر الروم قدم عليه ، فرأى في ايوانه اعوجاجاً يشين حسن بنائه ، فدهش وسأل عن سبب ذلك ، فقال له بعضهم : ان لعجوز بجانب هذا الايوان بيتاً طلب الملك منها شراءه بالثمن الذي تريده فأبت بيعه بصورة من الصور ، فلم يغصبها الملك ، وسبب بقـاء هذا المنزل الاعوجاج الذي تراه في الايوان .

روى صاحب الاخبار الطوال (ص٦٩) ان كسرى انوشروان اعلن الحرب على قيصر الروم لانه لم يجبر خالد بن جبلة الغساني على رد ما أخذه من النعمان بن المنذر بالغزو . فتوغل كسرى في ما بين النهرين وهي اذ ذاك بأيدي الروم فاحتل مدينة دارا والرها وقنسرين ، ومنبج وحلب وانطاكية وسبى اهلها الى

العراق. وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب طيسفون مثل انطاكية دعيت الرومية وولى امرهم رجلاً نصرانياً من الاهواز يدعي يزدفنا .

فكتب قيصر الى كسرى يسأله الصلح . فكره كسرى البغي فرد له المدن التي اخذها على ان يؤدي له ضريبة في كل عام .

ولما قفل كسرى اصابه مرض شديد فمال الى مدينة حمص ، فأقام بها بين جنوده الى ان تماثل للشفاء . وكان قيصر يحمل اليه كفاية عسكره الى الى ان شخص .

وكان لكسرى ابن اسمه انوش زاد ، كانت أمه نصرانية ذات جمال أعجب بها كسرى وحاول اغراءها على ترك النصرانية والدخول في المجوسية فأبت . وتبع انوش زاد دين أمه ، فأمر بحبسه في جنديسابور . فلما غزا كسرى بلاد الشام وبلغ انوشزاد مرضه ومقامه في حمص ، استغوى اهل السجن وأثار نصارى جنديسابور وسائر الاهواز ، وكسر باب السجن وخرج وطرد عمال ابيه من الاهواز ، وضبط الاموال وأشاع موت ابيه ويمم العراق . فدرى كسرى بالامر فكتب الى نائبه في طيسفون ان يسعى بأخذ انوش زاد أسيراً ففعل . وعوفي كسرى فانصرف الى دار ملكه اه بتلخيص (انظر ايضاً الطبري ١: ٩٣—١٢١ وابن الاثير ١: ١٥٤ وابن العبري: ١٤٩ والدبس ٤: ٤٣٨) .

١٠ — ابن ماء السماء يدخل حمص ويسبي العذارى

هو أشهر ملوك لخم وأطولهم باعاً وأجرأهم على مقارعة الخطوب . وكان في ايام قباذ ملك الفرس . اغتنم فرصة استياء قباذ من قيصر الروم لعدم تأديته النفقات اللازمة للجيش الفارسي المكلف بحراسة المعابر ، التي يجتازها البرابرة للعبث في بلاد الروم. فجهز المنذر المذكور حملة سار بها الى حدود الروم فنهب المدن الشهيرة فيها ، ثم تخطاها الى انطاكية وأفاميا ، فقتل وأسر ودمر . وبلغ اخيراً الى حمص فنالها من جوره ما نال سواها . وروى ميخائيل الكبير (٢: ١٧٨) انه فاجأ دير مار توما الرسول الكائن في حمص واختطف منه ٤٠٠ عذراء وقدمهن ذبيحة للعزّى . روى هذا الخبر دادا الناسك الذي كان

احد الاسري ، ورأى بعينه ما حصل ورواه بعد عودته من الاسر .

وفي رواية اخرى ان الاسيرات كنّ ٤٠ راهبة ، اراد المنذر الاحتفاظ بهن ليضمهن الى حظاياه . ولما عرفن سوء نيته وقد نذرن العفاف فاتفقت كلمة المذكورات عندما قربن الى الفرات - على ان يرمين بانفسهن بالنهر فيمتن قبل ان يدنس عفافهن . وهكذا فعلن اذ غافلن حارسهن بحجة انهن يردن الماء لارواء عطشهن ، وما كدن يبلغن الشاطيء حتى سمع صوت وقوعهن في قلب النهر ، ولم تصل الايدي لاخراجهن منه الا جثثاً هامدة متمثلات قول القائل :

المنـايا ولا الدنـايا وخير   من ركوب الخنا ركوب الجنازة

١١ — المنذر بن الحارث الغساني يقتل في حمص

لما مـات الحارث بن جبلة الغساني سنة ٥٦٩ او سنة ٥٧٠ بعدما حكم ٤٠ سنة ، خلفه ابنه المنذر ، وحالما ضبط زمام السلطة وكان بطلاً مغواراً شهد له التاريخ المدني بمواقف عديدة اظهر فيها بطولته الفائقة ولا سيما في معركتي عين اباغ ٢٠ ايار سنة ٥٧٠ ومعركة سنة ٥٨٢ ، ممـا جعله رهبة في عيون اعدائه وأوقفهم موقف التحفظ ازاءه ، وقد عرف له الروم هذه المزية فلقبوه بطريقاً وألبس التـاج وسمي المنذر ملك العرب . ولم يلبس ابوه قبله سوى الاكليل (زيدان: ١٩٤) .

على ان شهرة هذا البطل المدرب اوجدت له حساداً لدى السلطة القيصرية . ووصلت همسات الوشاة الى اذن القيصر . فأوعز الى البطريق مركيان الرومي ليغتاله . ولكن المنذر أحس بالمؤامرة فشق عصا الطاعة على الروم وثار على الدولة مدة ثلاث سنوات .

فلما أغـار عرب الحيرة على سوريا اضطر القيصر ان يصالحه في صيف سنة ٥٧٨ ومات يوستينوس بعد ذلك في ٦ ت ١ سنة ٥٧٨ .

وفي ٨ شباط سنة ٥٨٠ زار المنذر القسطنطينية مع ابنه طيباريوس الثاني فاستقبل بحفاوة وانعم عليه القيصر بالتـاج . وسعى المنذر اذ ذاك لنيل العفو عن اتباع مذهبه ، وعقد مجمع لهذه الغاية في ٢ آذار سنة ٥٨٠ .

وعول القائد البيزانطي موريق ان يغزو في هذه السنة مع المنذر احدى

ولايات الفرس فوجد الجسر الكبير (على الفرات) مهدوماً فارتد خائباً ، ونسب ذلك الى تواطؤ المنذر مع العدو وأبلغ ذلك للقيصر . فحاول المنذر دفع هذه التهمة عنه باغارته على اراضي عدوه امير الحيرة (النعمان بن المنذر) فأحرق عاصمته بالنار وعاد بغنائم عظيمة . ولكن عمله هذا لم يدفع الشبهة عنه ، لان الافواه الدساسة ما برحت توالي نسج اختلاقاتها . وصدرت اوامر خصوصية الى حاكم سوريا الروماني ماغنوس صديق المنذر ليلقي القبض عليه . فاستقدمه هذا الى حوارين (التي ارتقت آنئذ الى رتبة المدن) ليحضر تدشين احدى الكنائس المشيدة حديثاً فيها . فلبى العاهل العربي طلبه . ولكنه ما كاد يصل حتى ألقي القبض عليه وأرسل مخفوراً الى العاصمة . فأقــام فيها مع احدى نسائه وولديه وابنته . وكان هذا حوالي سنة ٥٨١ . ومات طيباريوس في ١٤ آب سنة ٥٨١ .

ولما ملك موريق سنة ٥٨٢ وكان لا يزال حاقداً عليه نفــاه مع احد كبار الحاشية المدعو سرجيوس الى صقلية . وكانت مدة حكم المنذر ١٣ عاماً . فثار اولاده الاربعة ، وأخذوا يشنون الغارة بقيادة النعمان اخيهم الاكبر ، على املاك الدولة وينهبونها ، فألقوا الرعب في قلوب حامية بصرى فتخلت لهم عن الذخائر الحربية .

واخيراً جهز القيصر حملة بقيادة الحاكم الروماني ماغنوس . وأنفذ معها أخا آخر للمنذر ليخلفه في وظيفته ، وكان على غــير مذهب اخيه . ولكن هذا توفي بعد عشرة ايام . وتمكن القــائد البيزانطي من اعتقال النعمان بالحيلة . ولما وصل الامير العربي الى العاصمة عومل فيها معاملة أسير حر ، في حين ان كبار الدولة أشاروا بقتله . ويستدل من تاريخ افاغريوس ان وصول الامير العربي كان في ايام موريق . لكن ملحق تاريخ يوحنا الاسيوي يفهم منه ان وصوله حدث بين ١٤ آب سنة ٥٨٢ و ١ ايلول سنة ٥٨٤ . ويرجح ان التاريخ الاخير اقرب الى الصواب وكانت مدة حكم النعمان سنة واحدة فقط .

ولما بلغ نبأ أسر النعمان الى سوريا انقسمت العرب ١٥ فرقة ، وانحــاز بعض الزعماء الى الفرس . واتبع بعضهم المذهب الخلكيدوني ، وبعضهم ألقوا السلاح وظلوا محافظين على مذهبهم القديم ، نظير اهــالي الحديثة وباعربايا والقريتين — في ناحية حمص — والنبك (انتهى ملخصاً عن فرنسوا نو من مخيائيل الكبير .

وفي رواية الرحماني (ف ٢٤) ان المنذر انما أمسك بخيانة صديقه مانيوس الحامي السوري الذي حضر من الرها زاعماً انه يبغي الاغتسال في المياه الحارة قرب حمص (لعلها حمة ابو رباح) فلما بلغ القرية كتب للمنذر يقول اني مريض وأتمنى ان أراك بعد فراق طويل . فذهب المنذر حالاً لمقابلته مصحوباً بالهدايا . ولما عرف مانيوس بقدومه ترك القرية وجاء الى حمص حيث استقبل فيها المنذر وفرق رجاله القليلين في المدينة . ولما كان المنذر على باب المدينة فاجأهم الرجال الموعز اليهم باعتقاله فكبلوه بالحديد وسلموه الى الدوق فأرسله حالاً الى العاصمة اه .

خلاصة الحوادث

أهم الحوادث التي حدثت في حمص في هذه الحقبة مروية في ما يلي :

١) اهتمام هيلانة والدة قسطنطين الكبير ببناء الكنائس في الشام وسواها ، ومنها بناؤها كنيسة حمص سنة ٣٢٦ التي ذكرها المسعودي باعجاب . وليس من السهل ان تعرف الكنيسة المشار اليها لانقلابات كثيرة حدثت في المدينة . ولأن معظم كنائسها تحولت الى جوامع . ولا ندري أياً هي الكنيسة التي بنتها هيلانة اذا كانت لا تزال في الوجود .

٢) مرور قسطندي بحمص سنة ٣٤٠ واهتمامه بتدريب الجيش وتأهيله لمحاربة الفرس . وربما كان سهل حمص الواسع موضع تلك التمرينات العسكرية .

٣) اهتمام الحمصيين ببولس المعترف بطريرك القسطنطينية الذي أبعد الى سنجار ، وأتي به الى حمص سنة ٣٤٧ ، وأظهر الحمصيون من اكرامه وحسن وفادته ماأنساه آلام الغربة وجور الحكام .

٤) بناء دير مار مارون في منطقة حمص الذي قال ابو الفداء (ص ٦٥) انه بني لسنة خلت من ملك مركيان أعني سنة ٤٥١ .

٥) قضت الدولة البيزانطية على عصابة ماراتوكوبرس في جهات افاميا بمعاونة نخبة من ابطال حمص الاشاوش نحو سنة ٣٧٨

٦) وجدت هامة السابق (يحيى بن زكريا) سنة ٤٥٣ في ايام أسقفها اورانيوس بعد اختفائها في غار مدة طويله .

٧) اهتمام انسطاس ببنيان حماة ، واصلاح ثلمات سور حمص في اول ملكه حوالي سنة ٤٩٣ .

٨) ايواء الحمصيين مهاجري انطاكية بسبب الزلزال العظيم الذي أصابها سنة ٥٢٦ مما حفظه لهم التاريخ .

٩) وجد في حمص أثوان نصرانيان ، تاريخ الاول سنة ٥٣٨ والثاني سنة ٥٨١ .

١٠) كسرى انوشروان يهاجم الروم ويحتل عدة مدن فيها فيصاب بمرض يستشفي منه بالبقاء في حمص مدة ليست بقصيرة ويعود منها معافىً الى عاصمته .

١١) ابن ماء السماء يغزو بلاد الروم ويسبي من حمص عدداً من العذارى بغية تحظيهن ، وأبت الصيانة التي اشتهر بها الحمصيون على هؤلاء الرضا بما أراده ، ففضلن الموت غرقاً في الفرات على الاستسلام لما يشين .

١٢) المنذر الغساني البطل المشهور ، الذي حسده بعض معاصريه ، فأوقعوا نفرة بينه وبين العرش البيزانطي ، أدى بعد مدة الى اعتقاله في حمص بخيانة صديق له .

المعوّل الى حمص من كتاب هذه الحقبة

١) اوسابيوس القيصري (٢٦٥-٣٤٠)

ولد في فلسطين ودرس في انطاكية ، وأكمل دروسه في الصعيد . ثم انشأ مدرسة في قيصرية ، واستفاد من المكتبة العظيمة التي جمعها صديقه بمفيل . واخيراً صار أسقفاً على قيصرية سنة ٣١٥ . وانكب على استثمار معارفه ولاسيما التاريخ ، فدعي أبا التاريخ الديني ، كما سمي هيرودوت أبا التاريخ الدنيوي ، ووقع تاريخه في عشرة كتب ، بدأ فيه من ميلاد السيد المسيح الى سنة ٣٢٦. وله غير التاريخ المذكور عدة مؤلفات . منها الاستعداد الانجيلي ، وعى كثيراً من الآثار القديمة ، وعدة فقرات من تاريخ سنكونياتون التي استفدنا منها ما يخص نشأة حمص . ومن تآليفه الكرونيكون أي تاريخ السنين من خلق العالم الى سنة ٣٣٠ وغير ذلك .

٢) اميان مرسلين (٣٣٠-٤١٥)

ولد في انطاكية وطلب العلم فحصل قسطاً وافراً منه . ولما اشتد ساعده تجند وشاهد عدة حروب . ورافق يوليان الجاحد في غزوة الفرس ، واعتزل الجندية بعدما قضى فيها ٢٠ سنة . واتخذ القلم بدل الحسام . وأقام في رومة مكباً على كتابة تاريخ الرومان باللاتينية متماً ما تركه تاسيت المؤرخ من سنة ٩٦-٣٧٨ فوقع مؤلفه في ٣١ كتاباً . لم يبق منها الى الآن سوى الاجزاء الثمانية عشر الاخيرة المحتوية على تاريخ سنة ٣٥٣-٣٧٨ ، ولهذه الاسفار قيمة تاريخية لانها مرويات شاهد عيان . وبالرغم من انه وثني فقد لزم جادة الاعتدال في ما كتبه عن المسيحية . وقد طبع تأليفه لاول مرة سنة ١٤٧٤ في رومة ، وطبع اخيراً في برلين سنة ١٨٧١ .

٣) جيروم « ايرونيموس » (٣٣١-٤٢٠)

من مشاهير علماء الرومان، ولد في ستريدون (دلماسيا) ودرس في روميه سنة ٣٦٣ اليونانية واللاتينية والادب والفصاحة. ثم زار ولايات غاليا وسواحل بريطانيا . وسنة ٣٧٢ قدم الى سوريا مع رهط من اصدقائه ، واعتزل في انطاكية حيث درس العبرانية والكلدانية . وسنة ٣٧٦ زار الاماكن المذكورة في الكتاب المقدس . واذ أراد التبحر في اليونانية تتلمذ للنازيانزي سنة ٣٨٠ وعاد الى اوربا لمراجعة الترجمة اللاتينية. ثم عاد الى الشرق سنة ٣٨٥ وفيها ختم حياته سنة ٤٢٠ .

وقد ترك مؤلفات كثيرة همنا منها ترجمته تاريخ اوسابيوس الى اللاتينية ، الذي أكمله الى سنة ٣٧٨ . وقد دلت كتاباته على توقد ذهن واعتصام شديد بما اعتقده حقاً .

أفادنا كثيراً بما حفظه من منثورات الاقدمين عن الشام ، وما كتبه عن السلوقيين في سوريا .

٥) سقراط المؤرخ (٣٨٠ – بعد سنة ٤٤٠)

ولد في القسطنطينية ، وأخذ فيها اصول اللغة عن امونيوس النحوي . ثم انكب بعدئذ على درس الفقه ، ومارس المحاماة مدة ثم اعتزلها . وأخذ يكتب تاريخه المشهور متحرياً الصدق والتدقيق مع سهولة العبارة ، فوقع تاريخه في سبعة كتب متماً به تاريخ اوسابيوس من تنصر قسطنطين الى سنة ٤٤٠ .

٤) سوزومانس (٣٩١-٤٥٠)

ولد في فلسطين وظهرت منه النجابة في الصبا ، فتضلع من الرياضيات وفهم الاسفار المقدسة . ثم قصد القسطنطينية حيث تعاطى المحاماة فيها ، وكان

ميله الى التاريخ اكثر منه الى المهنة ، فألف تاريخه المشهور ابان عمله وضمن في تسعة كتب. اشتمل الاولان منها على خلاصة الحوادث من ميلاد السيد المسيح الى خلع ليسنيوس وهما مفقودان. وباقي كتبه تصل الى وفاة اونوديوس سنة ٤٢٣ انشاؤه احط درجة من انشاء سقراط ، ويظن انه انتحل بعض اقواله .

٦) تيودوريت الشريف (٣٨٧-٤٥٨)

ولد في انطاكية من والدين حسيين أحسنا تربيته ، ولما توفي والده تنسك في احد الاديار وتسقف على قورش سنة ٤٢٠ وحضر المجمع الافسوسي سنة ٤٣٠. وتوفي بعدما وضع تاريخه المشهور في خمسة كتب ، بدأ به من سنة ٣٢٦-٤٣٩ . وتمتاز عبارته بوضوحها وخلوها من التعقيد اللغوي . وقد فضله بعضهم على سقراط وسوزمين بتحري الحقيقة التاريخية ، فنجا من انتقادات كثيرة وجهت الى زميليه المذكورين. وفي ما رواه افادات كثيرة لموضوعنا التاريخي.

٧) زوسيموس المؤرخ

كاتب يوناني نبغ في القرن الخامس في عصر تيودوسيوس واونوريوس . ويلقبه الكتاب بالكونت زوسيموس . كان وثني المذهب متعصباً لرأيه . فطعن بالنصارى طعناً شديداً ، في تاريخه الذي وضعه لرومة في خمسة اجزاء ، أتى فيه على تاريخ رومة والرومانيين منذ تأسيس رومة الى سنة ٤١٠ .

وقد ترجم مؤلفه هذا الى بعض اللغات الاوربية ، وأخذنا منه حاجتنا لنشأة المدن السورية .

٨) داماس (٤٨٠ - بعد ٥٣٣)

ولد في دمشق ، ومنها اخذ الافرنج اسمه « داماس » وتتلمذ لمارينوس الفيلسوف الافلاطوني . ولكنه لم يتقيد بمذهبه . وعلم في اثينا الى ان اقفل

يوستينيان مدارس الوثنيين سنة ٥٢٩ فذهب الى بلاد الفرس ، فلم ينل الحرية التي توقعها ، فعاد الى وطنه بعد صلح الفرس مع الروم سنة ٥٣٣ حيث قضى حياته التي لا نعلم متى انتهت .

مما كتبه « تاريخ نخبة الفلاسفة » وصل الينا منه فقرات افادتنا في ما كتبناه .

٩) اسطفان البيزانطي

جغرافي غراماطيقي نبغ في اوائل القرن السادس ، وقد وضع قاموساً جغرافياً ، يحسب اول كتاب ظهر من نوعه في التاريخ . ولم يبق من هذا السفر النفيس الا ما لخصه ارمولاوس احد معاصري الامبراطور يوستينيان . وهو يدل على عظم الفوائد الجغرافية التاريخية القديمة التي حواها الاصل . ولذلك طبع الاوربيون الملخص المذكور عدة مرات .

ومما ذكره هذا المؤلف انه كان للفينيقيين ثلاث محطات : ١) في حماة على شاطىء العاصي ٢) في تبساك على الفرات ٣) في نصيبين قرب ينبوع دجلة .

ومن آرائه الخاصة ، ان جبيل اول مدينة قامت في لبنان بل في العالم اجمع (اخذه عن بتن ٢ : ٢٢ ص ٣٧٥ الخ) .

١٠) ساويروس الانطاكي (٤٥٩–٥١٨)

ولد في مدينة سوز ودعي باسم جده ساويروس ، هذبه والداه التهذيب الاولي . ثم ارسلاه الى الاسكندرية حيث درس البيان . ثم انتقل الى بيروت فدرس الفقه والفلسفة . وبعد انهائه العلوم اعتمد في طرابلس سنة ٤٨٨ . ثم اشتغل في المباحث النظرية التي قامت في عصره . فأيد نظرية المونوفيزيت في شخصية المسيح ، فانتخبوه بطريركاً سنة ٥١٢ فساس الكرسي ست سنوات ، ثم نزله القيصر يوستينوس ، فسار الى مصر حيث ظل فيها ٢٠ سنة ، وتوفي في ٨ شباط سنة ٥٣٨ .

ترك اسفاراً كثيرة معظمها جدلي وبعضها في مواضيع فلسفية ، وضعها كلها

باللغة اليونانية ، وترجمت الى السريانية في حيـاته وبعد وفاته ، ومنها رسالة بعث بها الى الحمصيين بعد براحه انطاكية سنة ٥١٨ ، يحذرهم فيها من شخصين سماهما غريغوريوس البنطي وأشعيا الارمني ، قال عنهما انهما انتحلا الدرجة الاسقفية بدون استحقاق . وقد نشر هذه الرسالة المستشرق الانكليزي بروغش) .

١١) بروكوب المؤرخ (٥٠٠-٥٦٥)

مؤرخ يوناني ولد في قيصرية كبادوك ودرّس الفصاحة في القسطنطينية ، وعين كاتباً للقائد بليزار فصحبه في حروبه في آسيا وافريقيا وايطاليا . وعينه يوستنيان والياً للقسطنطينية حتى توفي .

من أهم تآليفه تاريخ البليغ المفيد لحوادث ايامه وقع في ثمانية كتب . كان لنا في بعض مواده فائدة خاصة .

١٢) افاغريوس الحموي (٥٣٦ – بعد ٥٠٤)

ولد في حماة ، ولما تضلع من العلم والادب تعاطى المحاماة في انطاكية . ثم قصد القسطنطينية فنال ثقة طيباريوس ثم موريق الملكين . وارتقى في ايامهما الى مناصب عالية . ولكن ارتفاع منزلته لم يشغله عن خدمة العلم . فألف تاريخه الشهير الذي وقع في ستة اجزاء ، بدأ فيه من سنة ٤٣١ الى سنة ٥٩٤ متمماً به تاريخي تيودوريت وسقراط . وقد شهد له الموثوق بصحة نقدهم ، انه فاق غيره من المؤرخين بايراد الحقائق ناصعة . واستفدنا من نقاط كثيرة فيه . ترجم تاريخه من اليونانية الى اللاتينية وطبع مع تآليف اوسابيوس وسقراط وسوزومين وتيودوريت سنة ١٥٤٤ .

١٣) يوحنا الاسيوي (٥٠٧ – بعد ٥٨٥)

ولد في آمد (ديار بكر) ودخل الاكليريكية سنة ٥٢٠ وساح في

انطاكية سنة ٥٣٢ ، ومصر سنة ٥٣٤ ، والقسطنطينية سنة ٥٣٥ . حيث مكث عند الوطني بروبس بن اخي الامبراطور انستاس ، وسيم مطراناً لآسيا سنة ٥٥٨ ممثلاً المونوفيزيت في القسطنطينية الى سنة ٥٦٦ . وظل حياً الى سنة ٥٨٥ . حيث وضع تاريخه الذي بدأ فيه من ايام تيودرسيوس الصغير الى ايام يوستينيان . ولاحظ بعضهم ان ارقامه التاريخية تتأخر عما ذكره سواه نحو عشر سنوات. وأفادنا هذا المؤرخ كثيراً بما كتبه عن العرب مما له صلة بحمص.

مشاهير الحمصيين

١) اونوريوس السفسطائي

الذي عرفناه عنه انه كان مقيماً في حمص . وكان يتولى فيها تدريس الراغبين في البيان والفقه. فقصده الطلاب من جهات للأخذ عنه. وقد اخذ عنه :

٢) سالوست الحكيم

هو أحد حكماء سوريا وعلمائها الاعلام . ولد في حمص ، وأخذ الفقه والبيان عن اونوريوس السفسطائي المذكور اعلاه . وصار من أشهر الخطباء بعدما حفظ خطب ديموستين الشهير . وبعدما رنت حصاة شهرته بالبيان والفقه ، درس الفلسفة في الاسكندرية . ثم قصد أثينا للتوسع في معلوماته ، فأخذ كثيراً عن بروكلس (٤١٢—٤٨٥) ولما غير استاذه مذهبه الافلاطوني ترك سالوست المدرسة وزهد في الدنيا .

٣) رومانوس المرنم

ولد في حمص في اواسط القرن الخامس . ثم سافر الى بيروت ، فخدم

فيها برتبة شماس عدة سنوات . ثم قصد القسطنطينية في اواخر القرن الخامس ، حيث كان مرنم كاتدرائية آجيا صوفيا العظيمة . وظهرت هنـاك هبته الفنية ، فلقب ميلوذس (العذب الترنيم) وقد ترك مما نظمه نحو الف قطعة موسيقية عرفت باسم قنداق بعدئذٍ واشتهر بانه اول واضع لهذا النوع من النظم .

٤ً) بطرس بن يوسف الحمصي

رجل تقي تبغ في اواخر القرن الخامس ، واشتهر ببسطة يده في سبيل الاحسان . ومن مآثره التي رواها بعض المؤرخين ، انه بعدما نال امنيته بزوال عقرة زوجته بواسطة راهب صالح زار منزله ابان مروره بحمص لزيارة الاماكن المقدسة ، بنى ديراً عظيماً وحبس عليه ربع قرى تكفيه ، وفوض للراهب رئاسة الدير . فنجح الدير كثيراً وقصده كثيرون من الزاهدين في العالم ، حتى بلغ عددهم ٦٣٠٠ . وظل الدير المشار اليه يذكر في التواريخ الى سنة ٨٥٨. وكان موقعه بين حمص وافاميا ، وبعد التاريخ المذكور لم نقف له على أثر .

٥ً) سمعان الصالوص

ولد من أسرة شريفة في الرها في اواخر القرن الخامس . ولما شب زاد الاماكن المقدسة . وهناك زهد في الدنيا وترهب ، وقضى في منسكه نحو ٣٩ سنة . ثم غادر خلوته وطاف يعظ الناس ويحضهم على الصلاح . واختار أخيراً الاقامة في حمص منذ سنة ٥٤٥ الى سنة ٥٦٠ وفيها كانت وفاته .

وانما لقب الصالوص لتبالهه في حب الله .

مطارنة حمص في هذه الحقبة

١ً) اناطوليوس

كان من آباء المجمع النيقوي سنة ٣٢٥ وشهد المجمع الانطاكي سنة ٣٤٠٠

٢ً) اوسابيوس

صاحب التآليف النفيسة والخطيب المصقع اشتهر ومات في زمن قسطنس الملك ودفن في انطاكية ٠

٣ً) بولس الاول

شهد المجمع الذي عقد في ساوقية سنة ٣٦١ ٠ واتهم باستقامة رأيه ولكن سوزومينوس المؤرخ نفى هذه التهمة عنه ٠

٤ً) غاسيوس

ذكره باسيليوس الكبير وغريغوريوس النازيانزي في ما كتباه كصديق صحيح الايمان ٠

٥ً) نميزي

فيلسوف شهير ألف كتاب طبيعة الانسان الذي دل على سعة علمه ودقة نظرياته ٠

٦) كيرياكوس

كان صديقاً للذهبي الفم ، وقد حضر مجمع القسطنطينية سنة ٤٠٤ حيث انتصر للذهبي الفم ضد خصومه .

٧) بمبايوس

شهد المجمع الانطاكي الذي عقد سنة ٤٤٥ وحضر المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١ وتوفي اثناء انعقاده .

٨) اورانيوس

تم في عهده وجود هامة السابق في حمص سنة ٤٥٣ .

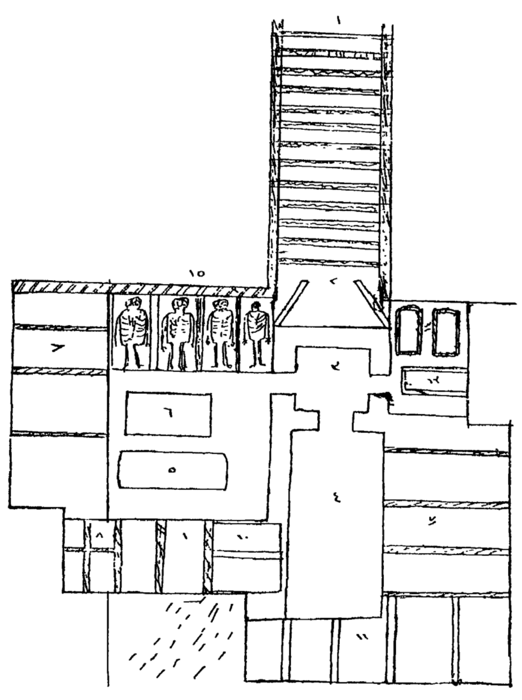
٩) مرقس

شهد مجمع القسطنطينية المنعقد سنة ٥٣٦ ووقع على اعمال المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣ .

١٠) يوحنا

عاصر سمعان العمودي الصالوص ولما توفي هذا الاخير سنة ٥٧٠ كان الاسقف لا يزال حياً بعد .





رسم مخطط مصغر لمدفن وجد في باحة المدرسة الانجيلية (انظر صفحة ٣٩٥)

١) درج ٢) مدخل ٣) حجرة انتظار
٤) معبد داخلي ٥) جرن حمام ٦) ارض فخارية
٧) قبور كبار ٨) قبور اطفال ٩ و١٠ و١١
و١٢) قبور رجال ايضاً ١٣ و١٤) قبور اطفال
١٥) مواضع رفات

حاشية : وجـد بين الباب وحجرة
الانتظار (٢ و٣) هيكلان عظميان منتصبان
في يد احدهما مصباح خزفي فلما فتح الباب
ودخل الهواء انهارا ٠

ختام

عظات وعبر من تاريخ حمص العام

توطئة

اذا كانت الفائدة من مطالعة التاريخ الاتعاظ والاعتبار كما يرى فلاسفته . لجدير بنا بعدما بلغنا نهاية القسم الاول من تاريخ حمص ، ان نودع في ذهن قارئيه شيئاً مما مر بالخاطر الكليل ، من عبر التاريخ العام . بعدما المنا بالكثير من امثالها في تاريخ حمص الخاص . وما بدا لنا ملخص في ما يلي :

١) ـ الامم القديمة

(الامداد بقدر الاستعداد)

من اكثر الامم القديمة اتصالاً بالبقعة الحمصية خاصة ، وبالبلاد الشامية عامة ، سبع امم هم الحثيون والمصريون والاراميون والفينيقيون والاسرائليون والاشوريون والكلدانيون .

وقد قطن معظمهم في هذه البلاد وعاشوا فيها . وكانت لهم فيها سعة من العيش . ويكاد المرء لا يصدق الآن ان هذه البقعة الصغيرة المحصورة ما بين دجلة وبحر الروم تتسع لسبع ممالك من اعظم دول الارض قدماً يعدون بالملايين . وهي تعجز اليوم عن اعالة العدد القليل من السكان . بل يضطر الكثيرون منهم ان يهجروا بلادهم التماساً للرزق في بلاد نائية .

افتغيرت طبيعة البلاد ام تحولت استعدادات ساكنيها ؟

وهل نحن في ايجاد تعليل صحيح لذلك مفكرون ؟

٢) — اثينا واسبارطة

(لا حياة لعلم بدون عمل وبالعكس)

قال افلاطون : من اكتفى بالرياضة وحدها صار وحشاً ضارياً . ومن قصر همه على الفنون لا يلبث ان يتخنث ويترهل . والرجل الحقيقي من جمع بينهما .

وقد اكد الزمن صحة نظرية افلاطون هذه في مواطنيه انفسهم . فانّ الاسبارطيين ظنوا ان مقومات الحياة تنحصر في الرياضة فنشأوا امة حربية لها في عالم الجهاد اسطورة خالدة . ووجه الاثينويون اهتمامهم كله الى العلوم فتركوا لهم مجداً عريضاً في تاريخ الفكر البشري . غير ان دولة الاولى المؤسسة على القوة فقط ، لم تقوَ على الوقوف امام الناموس العام ، فدال سلطانها لضعفها من النواحي الاخرى . كما ان الاثينويين لم يستطيعوا الاعتصام بالعلم وحده فسقطوا امام عظمة اسبارطة الحربية وخسروا موقفهم المجيد .

فهل نحن لحقيقة ذلك فاهمون ؟

٣) — ديموستين الخطيب وفيلبس المكدوني الفاتح

(الكلام الصادر من القلب يبلغ القلب اما الصادر من الشفتين فلا يتجاوز الاذنين)

قال بعضهم : ليس الخطيب من يتجه الى النفوس بلسانه ، بل من يتجه اليها بروحه . فتجد في الفاظه وفي رنة صوته ونظرات عينيه وحركات جسمه كلها مظاهر الاخلاص لما يقوله . فاذا لم تكن اقواله في السامعين موسيقى الفاظ رنانة كانت مبعث حياة جديدة .

هكذا كان ديموستين في تحريضه الاثينويين على فيليبس المكدوني .
اجل ان قوة فيليبس غلبت قوة ديموستين ولكنها كانت غلبة وقتية ، فان تأثير خطب ديموستين الاحدى عشرة ظل الى ما بعد موت فيليبس وديموستين وبلغ الهدف الذي رمي اليه الاخير .

فهل تعدد فينا من كذلك يخطبون ؟

٤) ــ قرطجنة وروما

(الاخلاص يستلزم التضحية)

اشتهر الفينيقون في التاريخ بخوضهم البحار بغية التجارة . وظهرت اهميتهم خصوصاً في القرن الثاني عشر حيث أموا غربي اوروبا وشمالي افريقيا . وبينهم عدد كبير من الحصيين الذين كانت مدينتهم قاعدة فينيقية اللبنانية . وقد سموا احدى المدن التي استعمروها في اسبانيا باسم قادس حصن منطقة حمص المنيع .

على ان نجاح الفينيقيين السلمي اقلق بال الدولة الرومانية ، فاثارت عليهم ثلاث حروب استغرقت الاولى ٢٣ سنة والثانية ١٧ والثالثة ٤ . انتهت الاولى بظهور قوة روما دون فوزها ، وانتهت الثانية بظهور قوة قرطاجنة دون فوزها وانتهت الثالثة بدمار قرطاجنة .

والعبرة في الحرب الثالثه (١٤٩ — ١٤٦ق م) التي ارادت فيها رومة تدمير قرطاجنة للتخلص من مزاحمتها على المجد . فلم تكد تعلن الحرب حتى صارت قرطاجنة معملاً كبيراً للاسلحة يعمل فيه الرجال والنساء والاولاد ليلاً ونهاراً .

اذيبت اواني الهيكل والتماثيل لتعمل اسلحة وتزعت مواد الابنية لتكون ادوات حرب للجنود . وجزت غدائر النساء ليجدل منها حبال للمنجنيقات . فدهش الرومان حينما رأوا الامة التي سبق لهم نزع سلاحها منها تقاتل ببأس وهي مسلحة .

ظل العراك اربع سنوات وفاز الرومان بامنيتهم من تدمير قرطاجنة . ولكن التاريخ حفظ للفينيقيين هذه المأثرة .

انهم فضلوا ان يموتوا موت الكرام على ان يعيشوا عيشة الاذلاء .

فهل نحن لمثل هذه التضحية في سبيل كرامتنا القومية مستعدون ؟

٥) — بين اليونان والرومان

(اللطف يغذي العظمة والطرمذة تسممها)

كان اليونان ادباء وشعراء ورسامين ونقاشين يعبدون الجمال ، ويعنون بكل ما يجعل المرء جذلاً مسروراً . وقد سبحوا في جو من الخيال جعلهم يهزأون بكل ما هو غير يوناني ، وكل من لم يكن من دم يوناني دعوه بربرياً . فلم يتمازجوا مع الامم التي خضعت مرغمة لسيطرتهم .

اما الرومان فكانوا عمليين لا قيمة عندهم لغير المادة وقد قصرت هممهم على الشؤون العمرانية وانماء المواد التجارية . فلم يطأوا بقعة الا حملوا اليها القانون ، ولا فتحوا صقعاً الا اصلحوا طرقه ، وما استقرت اقدامهم في مكان الا انموا ثروته .

وقد استمالوا المستعمرين اذ لم يعاملوا اهالي البلاد المفتوحة معاملة المسودين شأن اليونان . بل ضموهم اليهم بالتدريج بحيث لم تمر مدة طويلة ، حتى كان العلم الروماني يظلل بلاداً ليس فيها سوى الرومان . قسم منهم روماني الدم والقسم الآخر روماني القلب .

اخذ الرومان الاداب عن اليونان . ولكن هولاء لم يحسنوا السياسة كما احسنها اولئك . وبينما كان اليونان يحسبون كل غريب في ولاياتهم بربرياً ؛ كان الرومان يحسبون كل من اطاع القانون رومانياً .

فقصر امد عز الاولين وطالت سيادة الآخرين .

فهل نحن لاغلاط غيرنا متجنبون ؟

٦) — اليهود والرومان

(الاتحاد يوصل ذويه الى الهدف والتفسخ يضيع كل جهودهم)

اصطدم اليهود بالرومان عدة مرات ولكن كرتين من هذه الاصطدامات كان لها مظهر واحد . طمع الرومان بنشر سيطرتهم ، وطموح اليهود الى الاستقلال . ولكن النتائج جاءت عكس المقدمات كما ترى :

الاصطدام الاول حدث في اواسط القرن الثاني قبل الميلاد ، ابان فتوة الدولة الرومانية وطموحها الشديد الى بسط سيطرتها . وكانت الامـة اليهودية قـد تعودت الخضوع لغير اليهودي بعدما احنت عنقها للاشوريين والكلدان والفرس واليونـان .

والاصطدام الثاني حدث في اواخر القرن الاول الميلادي ، ابان اتخام معدة الرومان لكثرة ما استعمروه من الاصقاع . وبعدما استعاد اليهود لذة طعم الاستقلال وطمحت ابصارهم اليه ؛ فلم نجح المكابيون بالامس وفشلت ذراريهم اليوم ؟ يقول فلاسفة التاريخ ان اسباب فشل الاخيرين مع المساعدات الطبيعية التي كان بامكانهم استخدامها ، ناتج عن امرين جوهريين :

١) تعدد القادة وتفاوت خططهم

٢) عدم اخلاص الزعماء واتخاذ مصالحهم الخاصة هدفاً لهم .

هذان الامران كانا سبب استنزاف قوى الامة . وتمكين الرومان من اذلال القادة والمقودين معاً .

فهل نحن بهذة النتيجة متعظون ؟

٧) — سقوط الدولة الرومانية

(استئثار الزعماء وانغماس المقودين في الكسل والشهوات من ادعى دواعي الانهيار)

لم تبلغ دولة من الدول القديمة ما بلغته الدولة الرومانية من العظمة وطول البقاء . ولكنها لما بلغت اوج عظمتها اخذت تحفر قبرها بيدها .

اذ تحول النظام الروماني من جمهورية الى ملكية في ايام من عرف كيف يضبط الدولة وأوصلها الى القمة ، ولكن من خلفوه لم تكن لهم مقدرتـه . فتزاحم ادعياء السيادة على السلطة . واخذوا يستعينون بالجيش على نيل مطامعهم الذاتية . فانتقلت السلطة من الرأي الرشيد الى القوة الغاشمة . والامة التي علمت العالم القانون والنظام اصبحت اسيرة الجنوح والفوضى .

ثم استسلمت الطبقة العليا الى الانانية والبطر وانغمست الطبقـة السفلى بالكسل والشهوات .

وكثر الصراع بين الطبقتين فانتخر قلب الدولة وسقطت اعمدتها . اذ لم تستطع الامة ان تقف ازاء الغزاة البرابرة الذين داهموها من الغرب والجنوب فقضوا عليها مستعمرين اسبانيا وبريطانيا وايطاليا والنمسا وفرنسا .

فهل نحن عن مثل هذه المواقف مبتعدون ؟

٨) — المناطق العربية

(الارض للمجتهدين)

زعم بعض الكتاب ان سبب مهاجرة الاهلين للاقاليم الشرقية ، انما نتج عن القحط الشديد الذي نزل بها . والحقيقة ان المحل الذي يحصل احياناً في منطقة من المناطق ، لا يكفي وحده للهجرة واقفار البلاد من سكانها . وانما يؤدي

الى هذه الحالة اختلال السياسة من جهة وكسل الاهلين من جهة اخرى . فاذا حصل سبب ثالث انصرفت النفوس الى براح تلك المنطقة .

وانما ينفرد المحل (القحط) حينما تكون ثمة اسباب طبيعية او اقليمية تسبب الجدب . والمناطق ليست في شيء من ذلك . فقد وجد ما بين حمص وتدمر آثار مئة رحى لعصر الزيتون ، بل دلت الجغرافيات القديمة على ان الجزيرة العربية نفسها ، كانت تطعم في ما سلف عدداً كبيراً يبلغ اضعاف اضعاف القاطنين فيها الآن . يوم كانوا يعملون ويتاجرون كما ذكر بطليموس . وحسبك ان الحرب المصرية العربية كشفت آثار كثرة السكان في ما وراء تهامة . وانما اوصلها الى ما وصلت وجعلها عرضة للهجرة اضطراب السياسة الماضية التي عاف معها الاهلون وطنهم العزيز وقصدوا سواه فعمروه .

فاذا قضت السياسة الماضية بذلك وخسرت البلاد اثمن ما فيها . أفا آن الاوان لعودة المهاجرين الى بلادهم ? بتشجيع القابضين على زمام السياسة . وحنين المتغربين الى وطنهم الاصلي لتتم سعادته بهم ?.

وهل نحن لبلوغ هذه الغاية عاملون ?

« استدراكات »

لو اتيح للعامل الجاد ان يجد فترة — ولو قصيرة — بعد انهاء عمله الاول ومباشرة الثاني ، او مباشرة الثاني بعد انهاء الاول ؛ لكان في امكانه ان يأمن الخطأ في ما يأتيه من الاعمال . واما ان تتراكم حوله الواجبات المستعجلة ويزاحم احدها الآخر بحيث يضطر ان يباشر احدها قبل انهاء الآخر — كما يحصل ذلك كثيراً في الشرق حيث يتعذر على المرء المسؤول فيها ترتيب اعماله — فما يستحيل او يتعذر عليه اتقاء الاخطاء .

ذلك كان شأن كاتب هذه السطور ، الذي بسبب تزاحم الواجبات عليه وكلها او جلها مما يستلزم كد الذهن وعرك الجبين . اضطر ان يقدم معظم مواد هذا السفر للطبع على مسوداتها بدون تبييض ، ولم يجد بعد الطبع متسعاً من الوقت لمراجعة « البروفات » فظهرت فيه عدة اغلاط ، ولكن معظمها مما لا يخفى تصحيحه على فطنة القارىء . كابدال الباء بالياء والنون بالتاء والى باللام وفي بالباء او بالعكس . ولعلنا اذا وجدنا سانحة راجعنا المطبوع بدقة ونظمنا جدولاً لاصلاح كل منها في موضعه .

ولكن ثمة ثلاثة استدراكات لا بد من لفت نظر القارىء اليها قبل تلاوتها لكي لا يجد عرقلة في استيعاب ما يطالعه حيث هي :

١) يجب ربط آخر ما ورد في الفقرة المصدرة بعدد ٣ ص ١١٥ سطر ٢١ وهي « وتبقى الاسفار كما هي » ، باول الفقرة الواردة بعد عد ٤ ص ١١٦ سطر ٤ واولها « وان تعبير المؤلف الخ ... واهمال ما بينهما لانه مأخوذ من مسودة مهملة .

٢) ان ما طبع في صفحة ٣٥٥ المصدر بجملة « وموقع تدمر » الى آخر الصفحة . موضعه في الصفحة ٣٥٤ قبل الفقرة التي اولها « وبداعي المنافسة الخ .

٣) يجب تقديم الفقرة الواردة في ص ٤٠٦ سطر ١١ المصدرة بقوله : وبعد حملة كمبيز الخ ... على الجملة الموردة قبلها في الصفحة نفسها سطر ٩ واولها « وفي ايام الفرس الخ ...

فيستقيم المعنى وتورد الحوادث بحسب حدوثها في التاريخ .

جابرو عثرات الكرام

اذا كان التفكير ميزة ، فالقوة التي تساعد على ابراز تلك الفكرة الى الوجود

ميزة اعم . اذ لولاها لاختنقت الفكرة فضاعت الفائدة . لذلك لا نجد بداً في ختام كلامنا من التنويه بفضل الحمصيين الذين بسطوا ايديهم لمعاونتنا على ابراز ما فكرنا فيه من جهة طبع تاريخ حمص البلد المحبوب . ورأينا ان نخلد ذكر السابقين من هؤلاء الافاضل النير في هذا الجزء من تاريخ بلدهم على ان نسجل اسماء الباقين في الجزء الثاني اذا انسأ الله في الاجل ووفقنا الى اصداره ، راجين ان تظل اسماؤهم بارزة في كل مأثرة حسنة .

وفي ما يلي اسماء الافاضل الذين اسرعوا لمعاونتنا بتقديم اشتراكاتهم التي سددت قسماً من نفقات الكتاب . وما كنا لولاهم لنستطيع القيام بهذا الواجب على ما فينا من عجز مادي ومعنوي والله الموفق .

اولاً — افاضل من اصقاع شتى قريبة

نسخة		
٢٠	غبطة البطريرك الكسندروس الثالث	دمشق
٢٠	صاحب الفخامة هاشم بك الاتاسي	«
٢٠	بسيم نعمان الحمصي	مصر
١٥	فؤاد وتوفيق البندقي	سانباولو برازيل
١٠	جميل عبد الله الخوري	« «
١٠	جبران عوض	نيويورك
٥	كامل حنا ناصيف	مكسيك
٥	حنا عيسى	«
٥	مرشد السلطة واولاده	مونتفيديو
٢	الارشمندريت انطونيوس مبيض	لوستراليا

ثانياً — افاضل في سانتياغو شيلي

نسخة		نسخة	
١٠	ابراهيم عطا الله	١٠	نجيب اخرس

نسخة		نسخة	
١٠	زكي كيتلون	٥	توفيق بالش
٥	حافظ لبان	٥	سعد الله خوري
٣	عوض عوض	٣	حافظ غراب
٣	بديع شاهين	٣	سامي سركيس
٢	عزيز كلاس	٢	حبيب وتمين حجار

والغير الذين اشتركوا بنسخة واحدة هم السادة :

عبد الكريم البحر . جميل يازجي . شكري محيش . نجيب باذنجانه جميل شوحي . صادق تقرور . حافظ وجورج عوض . ميخائيل عبود . امين فركوح . عبده خزام . سليمان حزبون . متري فركوح . رشيد اخرس . مرهج محيش . ليان حجار . عبد الله حبيب اخرس . ميشيل شقرا . فضول محيش مطانس شكور . شفيق شكور . جبران عطا الله . شكري اخرس . فايق عوض . نجيب بالش . نجيب فلاحة . نظمي بيطار . نقولا سرور . زكي عوض نديم غصن . امين سمعان . مسلم حجار . سامي كامل ساره . كامل عوض اليان زكور . نعيم فركوح . فريز محيش . فؤاد حلبي . ابراهيم داود تقلا وصفي حداد . توماني اخوان . شكري كاشي . شوقي حنون . كامل داود حجار مطانس شقرا . مطانس رستم . نجيب درغام . توفيق فروح . خير الله حداد اسكندر اسكندر . امين راغب نمور . رزق الله اخرس . سليم حداد . مطانس بالش . عبد اللطيف اخرس .

ثالثاً — افاضل في فالباريسو

نسخة

٥ جمعية الجامعة الحمصية
٥ « السيدات الحمصيات
٣ « الجامعة العربية
٥ ناجي وانطون وعبد الكريم ملوك

نسخة

٣ عبد المسيح ملوك واخوانه

٢ عارف وتوفيق عبـد النور

٢ صبحي خوري

ثم المشتركون بنسخة واحدة وهم السادة :

ابراهيم عبد الملك · رفيق كبا · شوقي لويس · تمين لويس · جورج لويس عبـده الزهر مرهج اورفلي · امين اورفلي . رزق الله صايغ · كامل نقرور انطون اورفلي· جورج طرابلسي · نجيب شعبان · روفائيل علا · ميخائيل الزهر سليم الخوري · فارس سليمان فارس ·

رابعاً — افاضل في مناوس البرازيل

نسخة

٥ ابراهيم اسبر الشيخ

٦ ميخائيل اسعد وفضل الله خوري

ثم المشتركون بنسخة واحدة وهم السادة :

جبرائيل صفير · بطرس صفير · عيسى ابراهيم الشيخ · سالم يوسف حليحل عبد الله خليل · عيسى النداف · وليم ضو · تامر كرم · خليل عبد الله ·

اسهم للحلقة المفرغة

هذه هي القافلة الاولى التي اسرعت فبسطت يدها لمعاونة المؤلف ليسرع بانجاز تاريخ بلادهم المحبوب وابرازه مطبوعاً · وثمة قوافل اخرى حيل بينها وبين هدفها السامي بالحرب المفاجئة ·

نقول هذا لئلا يتبادر الى الذهن ان من ذكرنا كل ما في الحقيبة · وانما سطع نجمهم قبل سواهم بعدم توانيهم فكان لهم حظ السابقين . والا فمن خبر الحمصيين عرف انه يصح فيهم ما قالته تلك الامرأة العربية التي احسنت تربية

فهرس

القسم الاول من تاريخ حمص

بنيها فلما سئلت اي هو الافضل فيهم ؟ اجابت ذلك الجواب الملي، بالاعجاب : ثكلت ان كنت اعرف ايهم الافضل « كلهم فاضل » وهم كالحلقة المفرغة ، لا يدرك اين طرفاها .

الحقبة الثالثة

حمص في ايام الفينيقيين والعبرانيين والاراميين (١٢٢٥-٧٣٢ق م)

القسم الاول من التاريخ — حمص قبل الاسلام

الحقبة الاولى

حمص في ايام الروثان والعمالقة والاموريين (٢٣٠٠—١٩٠٠ق م)

الحقبة الثانية

فى ايام المصريين والرعاة والحثيين والمطانيين (١٩٠٠—١٢٢٥ق م)

﴿ امم سوريا القديمة ﴾

الحقبة الخامسة

حمص في ايام السلوقيين (٣٣١ – ٨٠ ق م)

الحقبة الرابعة

حمص في ايام اشور وكلدة وفارس (٧٣٢ - ٣٣١ ق م)

الحقبة السابعة

حمص في ايام القياصرة الحمصيين (٧٩ – ١٩٣ – ٢٣٥ م)

الحقبـــة السادسة

حمص في عهد حكومتها الوطنية (٨٠ق‌م — ٧٩م) من التاريخ العام

الحقبة التاسعة

حمص في دور المسيحية الاول (١ – ٣٠٥)

الحقبة الثامنة

حمص في ايام التدامرة (٢٣٦ — ٢٧٣ م)

خـتـام

عظات وعبر من تاريخ حمص العام

﴿ فهرس المصورات والرسوم ﴾

الحقبـة العاشرة

حمص بعد النصرانية وقبل الاسلام (٣٠٥ – ٦٢٢ م)

تم الفهرس للقسم الاول من تاريخ حمص

والحمد لله لا ينتهي





صفحة